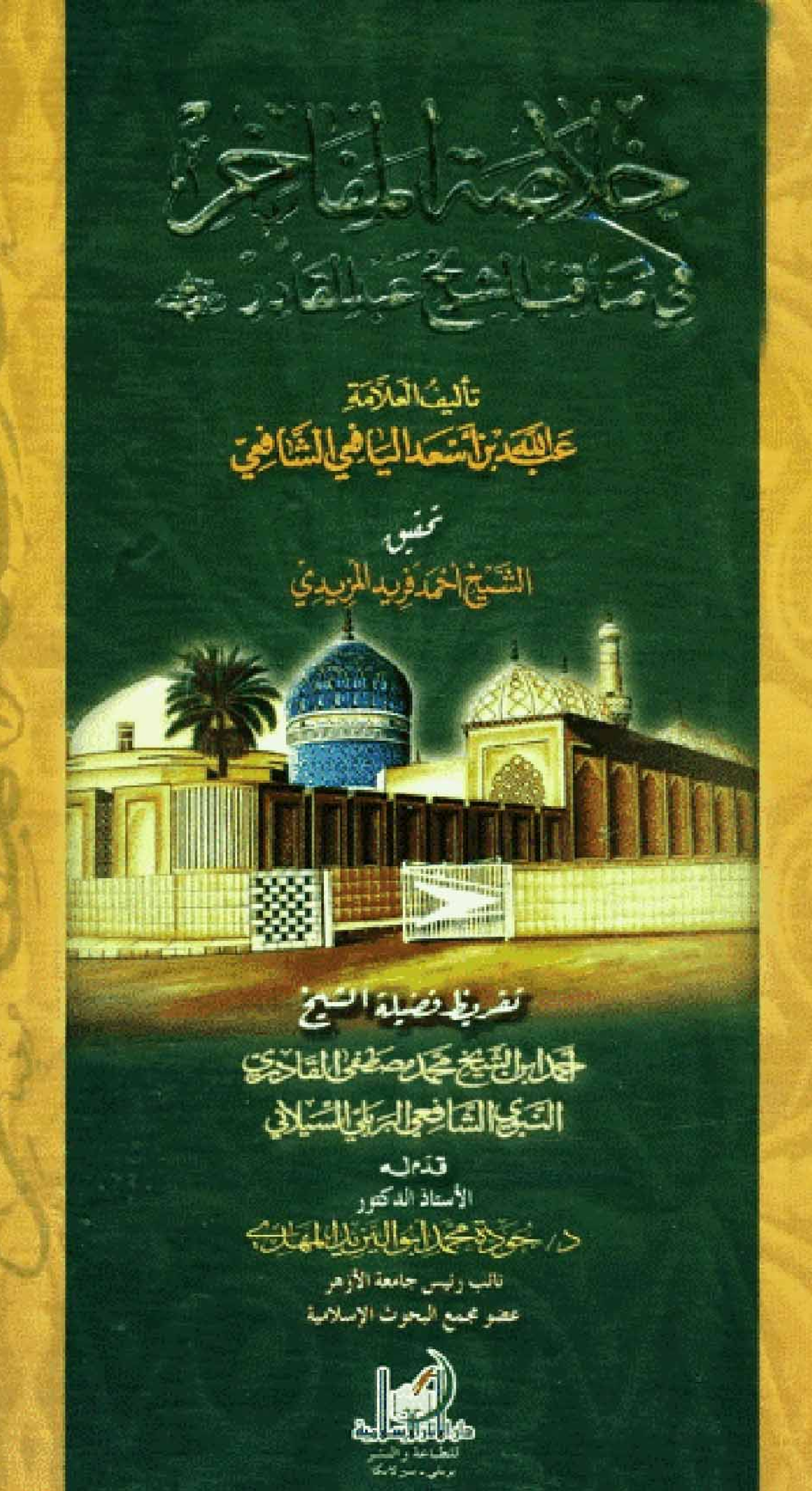


خلاصة المفاخر
في مناقب الشيخ عبد القادر
تأليف العلامة
عبد الله بن أسعد اليافعي الشافعي
تحقيق
الشيخ أحمد فريد المزيدي
تقريظ فضيلة الشيخ
أحمد ابن الشيخ محمد مصطفى القادري
النبوي الشافعي الرباني السيلاني
قدم له
الأستاذ الدكتور
د/ جودة محمد أبو اليزيد المهدي
نائب رئيس جامعة الأزهر
عضو مجمع البحوث الإسلامية

خلاصة المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر


بسم الله الرحمن الرحيم

خلاصة المفاخر

في

مناقب الشيخ عبد القادر

(وهو تتمة روض الرياحين)

تصنيف

الشيخ الإمام عبد الله بن أسعد اليافعي القادري

(مخطوط يطبع لأول مرة)

المتوفى ٧٦٨هـ

تقريظ

فضيلة الشيخ أحمد بن الشيخ محمد مصطفى القادري البريلي السيلاني

تحقيق وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

من علماء الأزهر الشريف





Email: daarulathaar786@yahoo.co.in

الكتاب: خلاصة المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر رضي الله عنه

تأليف: عبد الله بن أسعد اليافعي الشافعي

تحقيق: الشيخ أحمد فريد المزيدي

الناشر: دار الآثار الإسلامية، بربلي، سريلانكا

الطبعة الأولى: ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

رقم الإيداع: ٢٤٦٨٤/ ٢٠٠٦

الترقيم الدولي: 1 -977-6156-40

طبع في القاهرة

يطلب من:



دار الفنون للتوزيع	مكتبة الحرمين للتوزيع	دارة الكرز للنشر للتوزيع
Dar Al-Funoun NABAVIYYAH SHOPPING COMPLEX #115,SHEIKH JAMALDEEN ROAD, BERUWALA, SRI LANKA. TEL. /FAX:0094 34 4 288535 Email:alfunoun786@yahoo.co.in	MAKTABATUL HARAMAIN FIRIJ AL MARAR, OPP, AL SHAIKA LATIFA BIG MASJID.P, O, BOX 55782. DEIRA, DUBAI, UAE, TP 0097142731979 FAX 0097142731969	١٧ ش منشية البكري مصر الجديدة القاهرة، مصر تليفون: ٤٥٥١٣٠٤ Email:darkaraz@yahoo.com

تقريظ

فضيلة الأستاذ الدكتور جودة محمد أبو اليزيد المهدي، نائب رئيس جامعة الأزهر وعضو مجمع البحوث الإسلامية وشيخ الطريقة النقشبندية حفظه الله.

الحمد لله الذي رفع لواء أعلام أوليائه في سماء حضرته، وتوجهم بتيجان معرفته وسقاهم من صفو شراب محبته، وأتحفهم بوصاله وكاشفهم بأسرار أحديته، فهم ضنائنه من عباده وصفوته من خليقته، المتحققون بكمال الالتزام بشريعته ومنهاجه طريقته.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد الكائنات، المظهر الأتم لتجليات ربوبيته، المتحقق بالغاية القصوى لأكملية عبوديته سيدنا ومولانا محمد شمس الهداية والعرفان الساطعة في عليا سموات مملكته، الممدة بالأنوار والأسرار أقطاب ولايته، المشعة أنوارهم في قلوب السالكين من أهل طاعته. الله بحقهم عندك حققنا بكمال محبتهم وتبعيتهم وإخلاص توحيدهم لنحظى ببركتهم بشرف وراثته ونشرف في الدارين بكمال معيته صلى الله عليه وسلم. اللهم آمين.

وبعد

فمن دنان المحبة الإلهية ارتوى صفوة الأولياء العارفين الذين تجردت نفوسهم لله وتحررت أرواحهم من رق ما سوى الله، فأديرت عليهم كاسات رحيق المشاهدة، ووصلوا إلى حق اليقين، واستغرقوا في عين الجمع متحققين بأسمى مراتب الاصطفاء والخصوصية. إنهم شموس الحق الباهرة التي تغذي هذا العالم بالضياء وتجذب الخلق إلى محيط النور والصفاء، رضي الله عنهم وعنا بهم أجمعين.

ومن أئمة أولئك الأقطاب العارفين والأولياء المقربين الغوث الأعظم تاج المحققين، وكعبة الواصلين، إمام الأولياء، وقدوة العارفين الأصفياء، القطب الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه وأمدنا منه بالمدد الأعلى في الدارين.

ويأتي هذا الكتاب الجامع لأخبار هذا القطب الرباني ليكمل دائرة المؤلفات التي حفلت بحياة وكرامات سيدي عبد القادر الجيلاني مثل ((قلائد الجواهر)) و((بهجة الأسرار)) و ((الفيوضات الربانية)) وغيرها، وينوف عليها بسعة الاستقصاء لأخبار فخر الأولياء المتشرعين سيدي عبد القادر الجيلاني الحسني قدس الله سره.

ويمتاز هذا الكتاب عن غيره بأن مؤلفه هو صاحب ((روض الرياحين)) و ((نشر المحاسن)) وغيرها مما هو مذكور في ترجمته عند العلامة المناوي وغيره، أقصد العلامة عبد الله بن أسعد اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨ رضي الله عنه، وهو إمام جمع بين العلم الشرعي والسلوك الصوفي فتمت له الحسنى من الجهتين.

ويأتي هذا التحقيق ليخرج لنا هذا الدرة المكنونة من صدفها وييسرها للطالبين. وكما عرفت النفس ربها بنقصها وكماله سبحانه، فلا يخلو عمل من نقص، ولا يبرأ جهد من هناتٍ هنا أو هناك. فالمرجو من القارئ أن ينصرف انتباهه إلى ما في هذا الكتاب من محاسن ليتحقق الانتفاع بما فيه من ذكر الصالحين، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فهم أولياؤه المتقون الذين بذكرهم تتنزل الرحمات، وبسيرتهم تتعطر المجالس والساحات، وبجميل خصالهم يهتدي العاكفون في الخلوات والسائرون في الفلوات.

الأستاذ الدكتور

جودة محمد أبو اليزيد المهدي

نائب رئيس جامعة الأزهر

عضو مجمع البحوث الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ

لفضيلة الشيخ أحمد ابن الشيخ محمد ابن الشيخ عبد السميع ابن الشيخ محمد ابن الإمام الكامل والولي الكبير العارف بالله المدفون بجنة المُعَلَّى المحقق الداعي إلى الحق والدين: الشيخ مصطفى ابن باوا آدم القادري النبوي الشافعي البربلي السيلاني

الحمد لله واهب الفضل عميم الإحسان، والصلاة والسلام على رسوله سيدنا محمد ﷺ صفوة الخلق سيد ولد عدنان، الذي آتاه الله جوامع الكلم وبعثه بالفرقان.

وعلى آله شموس الهداية بُدور العرفان، الذين جعلهم الله تعالى أمانًا لأهل الأرض على مرِّ الأزمان، وعلى أصحابه نُجوم الاقتداء وأُسُود الميدان، ما تفجرت ينابيع الحِكَم على ألسن أهل العرفان، فطاب بشرحها الصدور، وتنوَّر بنورها الجَنَان.

ورضي الله تبارك وتعالى عن سادتنا أولياء الله، أهل الذَّوق والصفا، المتخلقين بأخلاق الرسول المصطفى ﷺ، المقيمين على العهد بالصدق والوفا، الذين نصَّ على فضلهم القرآن القديم، المكنون بقوله تعالى:

﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

هُمُ القَومُ مَنْ أَصْفَاهُمُ الوُدّ مُخْلِصًا ... تَمَسَّكَ مِنْ أُخْرَاهُ بِالسَّبَبِ الأَقْوَى

فَبُغْضُهُمُ كُفرٌ وَحُبُّهُمْ هُدَى ... وَقُرْبُهُمْ خَيرٌ ووُدُّهُمُ تَقْوَى

أمدَّنا الله تعالى بمددهم في الدنيا والآخرة، وعمَّنا والمسلمين من فيوضاتهم الوافرة آمين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده الملك الحق المبين، وأن سيدنا ومولانا محمدًا ﷺ خير خلق الله أجمعين – صلى الله عليه وعلى آله الطَّاهرين وصحبه السَّادة المقربين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد..

لما كان من أجلِّ المناقب والحكايات الدينية والدنيوية، وأكمل الكرامات الجامعة لكل حالة مُرضية، مناقب مولانا وسيدنا وقدوتنا غَوث الثَّقَلين، قُطب الخافقين، قُرة عَين جَدِّه الإمام الحَسن ﷺ سلطان صدور الأولياء، صاحب المآثر الشهيرة، والمناقب العظيمة الخطيرة، القطب الربّاني والغوث الصمداني بأول الهيكل النوراني والمحبوب السبحاني والعاشق الرباني مولانا السيد عبد القادر الجيلاني الحسني والحسيني الشافعي الحنبلي ﷺ.

فكان هذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ الكريم الذي يُعدُّ واحدًا من أهم المصنفات الخاصة بسيدنا عبد القادر ﷺ ومن التقى به من الشيوخ الأكابر.

فاشتمل هذا الكتاب النافع على مناقب وحكايات جليلة ما ظفرت يد الدهر بمثالها، ولا نسجت أنامل الزَّمان على منوالها، أبانت لكل إنسان طُرق النجاح، وأوضحت له كيفية الوقوف على معرفة الكرامة بأجمل إيضاح، وأن بالأولياء يُقتفى طريق الخير والصلاح، حيث إنها جمعت من جوامع الكلم ما يَدِقُّ دَرْكُه، ومن عجائب الآثار ما يعجز المعترضين جهله، ويعز على غير الرَّاسخين فهمه وسَبكه.

فأحبَّ أن يجمعها، ويرتبها مُشيد آثار الشيخ عبد القادر ﷺ وناشر كماله:

الإمام الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي ﷺ ليتضح لكل قارئ ما أودَعه فيها من الخيرات العميمة، والمعاني الرقيقة العظيمة، والمسالك الدَّالة على الله، والأخلاق المطلوبة للتعامل مع خلق الله، فكساها -رضي الله عنه وأرضاه- خلعة ذِكرٍ كبُرْدَة الصبح المنير، أوضح ما تضمنته الحكايات من الرقائق فانجلت مقاصدها لكل بصير.

وقد سمَّاه: «**خلاصة المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر وجماعة من الشيوخ الأكابر**».

فإذا به كتابٌ خُطَّ بمِداد المسك على صحائف اللجين، وجلى غشية الإشكال عن كل عين، فما أشبه لسان الفرع بالأصل، بل لا فرق بين اللسانين، وهذا القول الفصل.

وقد قام أحد الإخوان المحبين للسادة العارفين، ممن نصَّبوا أنفسهم لخدمة تراث

العلماء الرَّبانيين، والأغواث المحققين، وبالأخص الشيخ عبد القادر الكيلاني ﷺ إمام السَّالكين.

وقد بذل الأخ أحمد فريد المزيدي جهدًا في تحقيق هذا الكتاب العظيم، والله حسيبه، وهو الموفق للخير والفتح المبين.

فأخيرًا أُحب أن أذكر مختصرًا من شجرة أسماء مشايخ الطريقة القادرية النبوية في جزيرة سيلان (سرنديب).

وهذه الطريقة القادرية النبوية قد أُسست في أنحاء جزيرة سيلان «سري لانكا» قبل مائة وخمسين سنة، وأسس أوّلاً هذه الطريقة القادرية النبوية شيخُنا وأستاذنا ومربينا وقدوتنا ومرشدنا ناصح المؤمنين خادم الفقراء والمساكين الراجي شفاعة سيد المرسلين ﷺ الشيخ: شاه أحمد بن مبارك الحضرمي اليمني-قدس الله سره العزيز -مع صحبة شيخنا وأستاذنا ومربينا وقدوتنا ومرشدنا خادم الفقراء والمساكين الداعي إلى الحق والدين الشيخ مصطفى بن باوا آدم- قدس الله سره العزيز- في مدينة البربلي«بيرولا».

واتخذت الطريقة القادرية النبوية مكانها في أنحاء مدن وقري في سيلان (سري لانكا) ولسوف تظل حتى قيام الساعة، كما استمرت حتى يومنا هذا، إن شاء الله تعالى.

وتعتبر هذه الطريقة من أهم الطرق الصوفية في أنحاء جمهورية سري لانكا.

وإني قد أخذتُ هذه السلسلة المباركة من سند الطريقة القادرية النبوية، ولبستُ الخرقة الشريفة بإجازةٍ من والدي العلاَّمة الفاضل شيخنا وأستاذنا ومُربّينا خادم الأحاديث النبوية، والحلقة القادرية، الشيخ محمد -قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها الشيخ محمد -رحمه الله- بإجازةٍ من والده وشيخه وأستاذه العلاَّمة الفاضل، الولي الكامل، وقطب الزمان ومحيي السنة وقامع البدعة، وخادم الأحاديث النبوية والطريقة القادرية، الشيخ عبد السميع- قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها الشيخ عبد السميع - قدس الله سره العزيز- من والده وشيخه وأستاذه العلاَّمة الفاضل الفقيه الأديب الداعي إلى الله، خادم العلماء والشرفاء، الشيخ محمد - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها الشيخ محمد - قدس الله سره العزيز- من والده وشيخه وأستاذه العلامة الفاضل الإمام الكامل، الولي الكبير، العارف بالله المدفون بجنة المُعَلّى، وتلميذ الإمام الفقيه المفتي الشيخ السيد أحمد بن زيني دحلان المكي الشافعي -

رحمه الله- والمحقق خادم الفقراء والمساكين، الدَّاعي إلى الحق والدِّين، الشيخ مصطفى بن باوا آدم القادري النبوي الأشعري الشافعي البَرَبَلي السيلاني - قدس الله سره العزيز.

وأخذها ولبسها الشيخ مصطفى - قدس الله سره العزيز- من شيخه وأستاذه العلامة الفاضل المربِّي وناصح المؤمنين وخادم الفقراء والمساكين الراجي شفاعة سيد المرسلين الشيخ شاه أحمد بن مبارك القادري النبوي الأشعري الشافعي الحضرمي اليمني - قدس الله سره العزيز- المدفون بمدينة «جالِي» بـ «سيلان»، وأخذها ولبسها الشيخ شاه أحمد بن مبارك - قدس الله سره العزيز- من شيخه وأستاذه ومرشده وسراج الواصلين وحجة العاشقين ومحبوب المعشوقين، مظهر الله الأحد المتين، سيد السادات السيد شاه محمد أمين أفندي القادري الشافعي - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها السيد شاه محمد أمين - قدس الله سره العزيز- من شيخه ومرشده قطب الأقطاب سلطان الأولياء وبرهان الأصفياء حجة العاشقين، وغوث الثقلين حضرة السيد محيي الدين المغربي - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده قطب العالمين سلطان العارفين وبرهان العاشقين المدفون في سماسي حضرة السيد إسماعيل المكناسي - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده سيد السادات، ومنبع العبادات حضرة شيخ المشايخ الفاني في الله السيد غريب الله، هو العارف بالله - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ فرد الحقيقة وقطب المدينة الشريفة السيد يحيى المدني - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ الشيخ مظهر الله التّام الصّمد حضرة الشيخ محمد - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ حضرة الشيخ حسن محمد - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ حضرة الشيخ محمد غِياث نور بَخْش - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ حضرة الشيخ محمد عليّ نور بَخْش - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ حضرة الشيخ محمد نور بَخْش - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ حضرة السيد إسحاق الختلاني الحسني- قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده قطب الأقطاب عليّ الثّاني الهمداني - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ حضرة الشيخ محمود - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه

ومرشده شيخ المشايخ حضرة الشيخ عَلاء الدولة السمناني- قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ حضرة الشيخ نور الدين المشهور بالكبير - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ حضرة الشيخ أحمد جَوزكاني - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ حضرة الشيخ رضيّ الدين المعروف بـ عليّ لالا - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ حضرة الشيخ مَجد الدين البغدادي - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ حضرة الشيخ نجم الدين الكبرى - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ حضرة الشيخ عمّار بن ياسر الأندلسي - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ حضرة الشيخ ضياء الدين أبي النجيب عبد القاهر السهروردي - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده الغوث الأعظم الكرام، مظهر أنوار الجبروت والمُلك والملكوت قطب الأقطاب شيخ الجن والإنس والشرع والدين السيد محيي الدين القطب الربّاني والغوث الصمداني بأول الهيكل النوراني والمحبوب السبحاني والعاشق الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني الشافعي الحنبلي -قدس الله سره وأعلى في العالمين ذكره- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ حضرة الشيخ أبي سعيد بن المبارك ابن عليّ المخرمي - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ الشيخ أبي الحسن عليّ بن أحمد بن يوسف الهكّاري القرشي اليوشي - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ الشيخ أبي الفرج محمد بن عبد الله الطرسوسي - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ الشيخ أبي الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز التميمي - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ الشيخ أبي بكر محمد بن عبد الله الشبلي - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ سيد الطائفة الشيخ الجنيد القواريري البغدادي - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ الشيخ أبي الحسن السَّريّ بن مَغلس السَّقَطي- قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ الشيخ أبي محفوظ معروف بن فيروز الكرخي - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ الشيخ داود الطائي - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها

من شيخه ومرشده شيخ المشايخ الشيخ حبيب العجمي - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ الشيخ حسن البصري - قدس الله سره العزيز- وأخذها ولبسها من شيخه ومرشده شيخ المشايخ الشيخ الإمام والأسد الضرغام زوج البتول وأخي الرسول أسد الله الغالب سيدنا ومولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب -كرّم الله وجهه- وأخذها ولبسها من سيد المرسلين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين الذي ادَّخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته المذنبين، سيدنا ومولانا أحمد المجتبى محمدٍ المصطفى - صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

كتبه

العبد الفقير الحقير إلى الله السميع البصير الرَّاجي عفو الله العلي الكبير

بجاه سيدنا البشير النذير ﷺ

تراب أقدام أصحاب الوراثة المحمدية من سلسة القادرية النبوية

الشيخ أحمد ابن الشيخ محمد ابن الشيخ عبد السميع ابن الشيخ محمد ابن الشيخ مصطفي ابن باوا آدم القادري النبوي الشافعي البربلي السيلاني

شيخ الطريقة القادرية النبوية

حفظه الله تعالى ونفع به العلم والعلماء

١١ ربيع الثاني ١٤٢٧ من الهجرة النبوية المصطفوية

الصلاة والسلام عليك يارحمة للعالمين

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

تقريظ

فضيلة الأستاذ الدكتور جودة محمد أبو اليزيد المهدي، نائب رئيس جامعة الأزهر وعضو مجمع البحوث الإسلامية وشيخ الطريقة النقشبندية حفظه الله.

الحمد لله الذي رفع لواء أعلام أوليائه في سماء حضرته، وتوجهم بتيجان معرفته وسقاهم من صفو شراب محبته، وأتحفهم بوصاله وكاشفهم بأسرار أحديته، فهم ضنائنه من عباده وصفوته من خليقته، المتحققون بكمال الالتزام بشريعته ومنهاجه طريقته.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد الكائنات، المظهر الأتم لتجليات ربوبيته، المتحقق بالغاية القصوى لأكملية عبوديته سيدنا ومولانا محمد شمس الهداية والعرفان الساطعة في عليا سموات مملكته، الممدة بالأنوار والأسرار أقطاب ولايته، المشعة أنوارهم في قلوب السالكين من أهل طاعته. الله بحقهم عندك حققنا بكمال محبتهم وتبعيتهم وإخلاص توحيدهم لنحظى ببركتهم بشرف وراثته ونشرف في الدارين بكمال معيته صلى الله عليه وسلم. اللهم آمين.

وبعد

فمن دنان المحبة الإلهية ارتوى صفوة الأولياء العارفين الذين تجردت نفوسهم لله وتحررت أرواحهم من رق ما سوى الله، فأديرت عليهم كاسات رحيق المشاهدة، ووصلوا إلى حق اليقين، واستغرقوا في عين الجمع متحققين بأسمى مراتب الاصطفاء والخصوصية. إنهم شموس الحق الباهرة التي تغذي هذا العالم بالضياء وتجذب الخلق إلى محيط النور والصفاء، رضي الله عنهم وعنا بهم أجمعين.

ومن أئمة أولئك الأقطاب العارفين والأولياء المقربين الغوث الأعظم تاج المحققين، وكعبة الواصلين، إمام الأولياء، وقدوة العارفين الأصفياء، القطب الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه وأمدنا منه بالمدد الأعلى في الدارين.

ويأتي هذا الكتاب الجامع لأخبار هذا القطب الرباني ليكمل دائرة المؤلفات التي حفلت بحياة وكرامات سيدي عبد القادر الجيلاني مثل ((قلائد الجواهر)) و((بهجة الأسرار)) و ((الفيوضات الربانية)) وغيرها، وينوف عليها بسعة الاستقصاء لأخبار فخر الأولياء المتشرعين سيدي عبد القادر الجيلاني الحسني قدس الله سره.

ويمتاز هذا الكتاب عن غيره بأن مؤلفه هو صاحب ((روض الرياحين)) و ((نشر المحاسن)) وغيرها مما هو مذكور في ترجمته عند العلامة المناوي وغيره، أقصد العلامة عبد الله بن أسعد اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨ رضي الله عنه، وهو إمام جمع بين العلم الشرعي والسلوك الصوفي فتمت له الحسنى من الجهتين.

ويأتي هذا التحقيق ليخرج لنا هذا الدرة المكنونة من صدفها وييسرها للطالبين. وكما عرفت النفس ربها بنقصها وكماله سبحانه، فلا يخلو عمل من نقص، ولا يبرأ جهد من هناتٍ هنا أو هناك. فالمرجو من القارئ أن ينصرف انتباهه إلى ما في هذا الكتاب من محاسن ليتحقق الانتفاع بما فيه من ذكر الصالحين، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فهم أولياؤه المتقون الذين بذكرهم تتنزل الرحمات، وبسيرتهم تتعطر المجالس والساحات، وبجميل خصالهم يهتدي العاكفون في الخلوات والسائرون في الفلوات.

الأستاذ الدكتور
جودة محمد أبو اليزيد المهدي
نائب رئيس جامعة الأزهر
عضو مجمع البحوث الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي ملأ قلوب أحبَّته من بئر محبته سرورًا، وكسا وجوههم من إشراق ضياء بهجته نورًا، توَّجهم بتيجان البهاء، وكتب لهم بالولاء منشورًا، وهداهم إلى طريق معرفته، فداموا على محبتِهِ وما غيَّروا تغييرًا:

نالوا بذلكَ فرحةً وسرورًا	وسعَوا فأصبحَ سَعيُهم مَشْكُورا
قومٌ أقاموا للإلهِ نفوسهم	فكسا وجوههم الوسيمةَ نورا
تركوا النعيمَ وطلقوا لذاتهم	زُهدًا فعوَّضهم ربُّهم سرورا
قاموا يناجون الحبيبَ بأدمعٍ	تجري فتحكي لؤلؤًا منثورا
عملوا بما علموا وجادوا بالذي	وجدوا فأصبح حظُّهم موفورا
وإذا بدا ليلٌ سمعت أنينهم	وشهدت وجدًا منهم وزفيرا
تعبوا قليلاً في رضا محبوبهم	فأراحهم يوم المعاد كثيرا

أحمده سبحانه وتعالى حمدًا كثيرًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهًا حكيمًا غفورًا، وأشهد أن سيدنا وسندنا وذخيرتنا عند الله محمدًا عبده ورسوله، الذي أرسله شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، صلَّ الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

وبعد...

فقد منَّ الله عليَّ بعد إجازتي بسند السلسلة القادرية أن حققت: «بهجة الأسرار»، و«قلائد الجواهر»، و«سر الأسرار»، و«فتوح الغيب»، و«السيف الرباني»، وكلها تخص الشيخ.

فإذا بتوفيق من الله أن أوقفني على كتاب من أجل الكتب، وأعظمها في سيرة القطب، والغوث الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني قدس الله سره العزيز.

وهو تتمة كتاب «روض الرياحين في أخبار الصالحين».

قد أتحفنا به الشيخ الإمام العلامة اليافعي ﷺ.

فكتاب «خلاصة المفاخر» الذي بين أيدينا، حقًا خلاصة التصانيف الفاخرة في قطب الأولياء، المتحدثة عنه وعن أحواله الظاهرة والباطنة، فقد جمع الشيخ اليافعي إحدى ومائتي حكاية وكرامة، كجزء من مفاخر الشيخ وآثاره الباقية رضي الله عنه وأرضاه.

علمًا بأنه ضَمَّن كتابه «روض الرياحين» خمسمائة حكاية في أخبار السالفين من السادة الأخيار والصالحين.

وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على علو مكانة الشيخ عبد القادر وعظم قدره، وإنه ﷺ ممن كتب الله له الظهور في الأرض كصورة وحُلة من حُلل النبي ﷺ، إثباتًا لصحة الكرامة، وإمدادًا لبقائها واتصالها.

وإتمامًا للفائدة أيها القارئ المحب الكريم، وضعنا مقدمة نذكر فيها ردّ شبه المنكرين على السادة الصوفية العارفين المحققين، ورد بعض ما اعترض به على الغوث الجيلاني، من اعتراضات، وذلك بحسب ما أفاض به الله علينا، وهذا على سبيل الإشارة لا الحصر.

وقد أسمينا هذه المقدمة: «رد شبه المنكرين، والدفاع عن سيدي عبد القادر محيي الدين».

وقد جعلناها قسمين:

القسم الأول: في ردِّ شبه المنكرين على الأولياء الصالحين.

القسم الثاني: في ردِّ الاعتراض على أقوال سيدي عبد القادر محيي الدين.

فنقول أولاً في ردِّ شُبَهِ المنكرين:

قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

قال الكلبي: لا تقل ما ليس لك به علمٌ.

وقال البيضاوي: لا تتبع ما لم يتعلق به علمك تقليدًا أو رجمًا بالغيب ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ

﴿وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٦] أي: كل هذه الأعضاء كان عنه مسئولاً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يسأل الله العباد فيما استعملوها، وفي هذا زجرٌ عن النظر إلى ما لا يحلُّ، والاستماع إلى ما يحرم، وإرادة ما لا يجوز، كذا ذكره الواحدي.

وقال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأحزاب:٦٩].

قال البيضاوي: فأظهر براءته من مقولهم يعني: موآده ومضمونه، وذلك أن قارون حرَّض امرأةً على قذفه بنفسها، فعصمه الله تعالى، أو اتهمه ناسٌ بقتل هارون عليه السلام لما خرج معه إلى الطور، فمات هناك، فحملته الملائكة، ومرُّوا بهم حتى رأوه غير مقتولٍ، وقيل: أحياه الله تعالى، فأخبرهم ببراءته، أو قذفوه بعيبٍ في بدنه من مرضٍ أو إدةٍ لفرط تَستُّره حياءً، فأطلعهم الله على أنه بريءٌ، وكان عند الله وجيهًا ذا قرابةٍ ووجاهةٍ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [الأحزاب:٧٠]، قاصدًا إلى الحق، ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب:٧١]، يوفِّقكم للأعمال الصالحات، أو يُصلحها بالقبول والإثابة عليها، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، ويجعلها مُكفِّرة باستقامتكم في القول والعمل، ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأوامر والنواهي ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾، يعش في الدنيا حميدًا، وفي الآخرةِ سعيدًا.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليوم الآخر فليقلْ خيرًا أو ليسكتْ»[1] رواه البخاري ومسلم.

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٧٦)، ومسلم (١/ ٦٩)، وأبو داود (٣/ ٣٢٢)، والترمذي (٤/ ١١٠)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٤).

وقال ﷺ: «من دعا رجلاً بالكفر أو قال عدوُّ الله وليس كذلك إلا حار[1]» أي: رجع عليه رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: «مَنْ قفَّى مُسلمًا بشيءٍ يريد به شينه: أي عيبهُ حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال[2]».

وقال ﷺ: «مَنْ رمى مُسلمًا بشيءٍ يريد شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال[3]».

وفي تفسر البيضاوي قال ﷺ: «مَنْ قفَّى مؤمنًا بما ليس فيه حبسه الله في ردْغَة الخَبال حتى يأتي بالمخرج[4]».

والرَّدْغة بسكون الدَّال، وفتح الغين المعجمة: الوحل الشديد.

والخبال: صديد أهل النار.

وقال ﷺ: «مَنْ أكل برجلٍ مُسلمٍ أكلةً: أي بأن يغتابه عند عدّوه، أو يسبَّه عنده، فيطعمه بسبب ذلك؛ فإن الله يُطعمه مثلها من جهنم، ومن كُسي ثوبًا برجلٍ مسلمٍ: أي بأن يغتابه أو يسبَّه عند عدِّوه فيكسوه بسبب ذلك؛ فإن الله يكسوه مثله من جهنم، ومن قام برجلٍ مسلمٍ مقام سمعة: أي يقول: إنه مرائي، وأقواله وأفعاله رياءً لأجل عدِّوه؛ فإن الله تعالى يقوم له مقام سمعةٍ ورياءٍ يوم القيامة[5]»، رواه النسائي.

---

(١) رواه مسلم (١/ ٦٩)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ١٥٥)، وأحمد (٥/ ١٦٦).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ١٩٤)، وابن المبارك في الزهد (١/ ٢٣٩).

(٣) رواه أبو داود (٤/ ٢٧٠)، وأحمد (٣/ ٤٤١).

(٤) رواه أبو داود (٣/ ٣٠٥)، وأحمد (٢/ ١٧٦)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٨٢).

(٥) رواه أبو داود (٤/ ٢٧٠)، وأحمد (٤/ ٢٢٩).

قال ﷺ: «إيَّاكم والظن؛ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسَّسوا ولا تنافسوا[1]» رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: «حسنُ الظنِّ من حسنِ العبادةِ[2]» رواه النسائي والترمذي وأبو داود: أي اعتقاد الخير والصلاح في حق المسلمين عبادةً حسنةً من جملة العبادات.

قال الشيخ مجد الدين رحمه الله تعالى: لا يجوز أن يُنكر على القوم بادئ الأمر؛ لعلوِّ مراقبتهم في الفهم والكشف، ولم يبلغنا عن أحدٍ منهم أنه أَمَرَ بشيءٍ يهدم الدين، ولا نهى أحدًا عن الوضوء ولا الصلاة، ولا غيرها من فروض الإسلام ومستحبَّاته، إنما يتكلمون بكلامٍ يدقُّ عن الأفهام.

وكان يقول: قد يبلغ القوم في المقامات ودرجات العلوم إلى المقامات المجهولة، والعلوم المجهولة التي لم يُصرَّح بها كتابٌ ولا سنَّةٌ، ولكن أكابر العلماء العالمين قد يردون ذلك إلى الكتاب والسنَّة بطريقٍ دقيقٍ لحُسن استنباطهم وحسن ظنِّهم بالصالحين.

وكان يقول: كما أعطى الله تعالى الكرامات للأولياء التي هي فرع المعجزات، فلا بدع أن يعطيهم من العبادات ما يعجز عن فهمها فحول العلماء.

وكان شيخ الإسلام المخزومي رحمه الله تعالى يقول: لا يجوز لأحدٍ من العلماء الإنكار على الصوفية إلا إن سلك طريقهم، ورأى أفعالهم، وأقوالهم مخالفةً للكتاب والسنَّة، وأما بالإشاعة عنهم، فلا يجوز الإنكار عليهم، ولا سبُّهم، وأطال في ذلك، ثم قال: وبالجملة فأقل ما يحقُّ على المنكر حتى يسوغ له الإنكار على أقوالهم، أو على أفعالهم، أو على أحوالهم أن يعرف سبعين أمرًا، ثم بعد ذلك يسوغ له الإنكار.

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٠٠٩)، ومسلم (٤/ ١٩٨٥)، وأبو داود (٤/ ٢٨٠)، وأحمد (٢/ ٢٤٥).
(٢) رواه أبو داود (٤/ ٢٩٨)، وأحمد (٢/ ٣٠٤)، وابن حبان (٢/ ٣٩٩).

منها: غوصه في معرفة معجزات الرسل عليهم السلام على اختلاف طبقاتهم، وكرامات الأولياء على اختلاف طبقاتهم، ويؤمن بها ويعتقد أن الأولياء يرثون الأنبياء في جميع معجزاتهم إلا ما استثنى منها.

ومنها: اطِّلاعه على كتب تفسِّر القرآن سلفًا وخلفًا؛ ليعرف أسرار الكتاب والسنَّة، ومنازع الأئمة المجتهدين، ويعرف التفسير والتأويل وشرائطه، ويتبحَّر في معرفة لغات العرب في مجازاتها واستعاراتها حتى يبلغ الغاية.

ومنها: كثرة الاطِّلاع على مقالاتٍ للسلف والخلف في معنى آيات الصفات وأخبارها، ومن أخذ بالظاهر، ومَنْ أوَّل، ومَنْ دليله أرجح من الآخر.

ومنها: تبحُّره في علم الأصوليين، ومعرفة منازع أئمة الكلام.

ومنها وهو أهمها: معرفةُ اصطِّلاح القوم فيما عبَّروا عنه مِنْ التجلِّي الذاتي والصوري، وما هو الذات، وذات الذوات، ومعرفة حضرات الأسماء والصفات، والفرق بين الحضرات، والفرق بين الأحدية والواحدية، ومعرفة الظهور والبطون، والأزل والأبد، وعالم الغيب والكون، والشهادة، والشئون، وعالم الماهيَّة، والهويَّة، والسُّكر، والمحبَّة، ومَنْ هو الصَّادق في السُّكر حتى يسامح، ومن هو الكاذب حتى يؤاخذ، وغير ذلك، فمن لم يعرف مرادهم كيف يحُلّ كلامهم، أو ينكر عليهم بما ليس هو من مرادهم؟! انتهى.

وقد شرح الحافظ ابن حجر العسقلاني -رحمه الله تعالى- بعض أبياتٍ من تائية الشيخ عمر بن الفارض، وقدَّمها إلى الشيخ مدين؛ ليكتب عليهم إجازةً، فكتب له على ظاهرها: ما أحسن ما قال بعضهم:

سارتْ مشرقةً وسرتُ مَغربًا   شتَّانَ بين مشرقٍ ومغربِ

ثم أرسلها إلى الحافظ، فتنبَّه الشيخ لأمرٍ كان عنه غافلاً، ثم أذعن لأهل الطريق، وصحب لله الشيخ مدين حتى مات رحمة الله تعالى عليهم أجمعين.

ونقل الإمام القزويني في كتابه «سراج العقول» عن إمام الحرمين أنه سُئل عن كلام الصوفية، فقال: لو قيل لنا: فقولوا ما يقتضي التكفير من كلامهم مما لا يقتضيه لقلنا: هذا طمعٌ في غير مطمع؛ لأن كلامهم بعيدُ المدرك وعبر المسلك، يغترف من تيار بحر التوحيد، ومن لم يُحط علمًا بنهايات الحقائق لم يحصل من دلائل التكفير على وثائق، كما أنشد بعضهم في هذا المعنى:

تركنَا البحارَ الزَّاخراتِ وراءنا فمن أين يدري النَّاس أين توجُّهنا

وسُئل شيخ الإسلام تقي الدين السبكي عن حكم غلاة المبتدعة وأهل الأهواء والمتفوِّهة بالكلام على الذات المقدَّسة؟ فقال: اعلم أيها السائل إن كل مَنْ خاف من الله ﷻ استعظم القول بالتكفير لمن يقول «لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله»؛ إذ التكفير أمرٌ هائلٌ عظيم الخطب؛ لأن مَنْ كفَّر شخصًا فكأنه أخبر أن عاقبته في الآخرة الخلود في النار أبد الآبدين، وأنه في الدنيا مُباح الدم، والمال لا يملك مسلِمةً، ولا تجري عليه أحكام المسلمين في حياته ولا بعد مماته، والخطأ في ترك ألف كافرٍ أهون من الخطأ في سفك محجمةٍ من دم امرئٍ مسلم.

وفي الحديث: «لأن يُخطئ الإمامُ في العفو أحبُّ إلى الله تعالى من أن يخطئ في العقوبة»[1].

ثم إن تلك المسائل التي يُفتى فيها بتكفير هؤلاء القوم في غاية الدقة والغموض؛ لكثرة سعتها، واختلاف قرائنها، وتفاوت دعاويها، والاستقصاء في معرفة الخطأ من سائر صنوف وجهه، والاطِّلاع على حقائق التأويل وشرائطه في أماكنه، ومعرفة دلائله في التوحيد وغوامضه إلى غير ذلك مما هو مُتعذِّرٌ على أكابر علماء عصرنا، فضلاً عن غيرهم، وإذا كان الإنسان يعجز عن تحرير معتقدٍ في عبارةٍ فكيف يحرِّرها اعتقاد غيره من عباراته؟! فما بقي الحكم بالتكفير إلا لمن صرَّح بالكفر، واختارهُ دينًا، وجحد الشهادتين، وخرج عن دين الإسلام، وهذا نادرٌ وقوعه؛ فالأدب الوقوف عن تكفير أهل الأهواء والبدع والتسليم للقوم في كل شيءٍ قالوه مما لا يخالف صريح النصوص، انتهى.

وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني في «مقدمة الطبقات» قال:

أخبرني الشيخ أمين الدين الإمام بجامع «الغمري» بمصر أن شخصًا وقع في عبارةٍ موهمةٍ للتكفير، فأفتى علماء مصر بتكفيره، فلما أرادوا قتله قال السلطان: هل بقي أحدٌ من العلماء لم

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى (٨/ ٢٣٨).

يحضر؟ فقالوا: نعم، الشيخ جلال الدين المحلي شارح المنهاج، فأرسل السلطان وراءه فحضر، فوجد الرجل في الحديد بين يدي السلطان، فقال الشيخ: ما لهذا؟ فقالوا: كفر، فقال: ما مستند مَنْ أفتى بكفره؟ فبادر الشيخ صالح،وقال: قد أفتى والدي شيخ الإسلام الشيخ سراج الدين البلقيني في مثل ذلك بالتكفير، فقال الشيخ جلال الدين المحلي: يا ولدي، أترى أن يُقتل رجلٌ مسلمٌ مُوحدٌ يحبُّ الله ورسوله بفتوى أبيك؟! حِلُّوا عنه الحديد، فجرَّدوه، فأخذه الشيخ جلال الدين بيده، وخرج والسلطان ينظر فما تجرَّأ أحدٌ أن يتبعه.

وكان الشيخ محيي الدين العربي قُدِّس سرُّه يقول: كثيرًا ما تهبُّ على قلوب العارفين نفحاتٌ إلهيةٌ؛ فإن نطقوا بها جَهَّلهم بها كُمَّل العارفين، وردَّها عليهم أصحاب الأدلَّة من أهل الظاهر، وغاب عنهم أن الله سبحانه وتعالى كما أعطى أولياءه من الكرامات التي هي فرع المعجزات فلا بدع أن يُنطق ألسنتهم بالعبارات التي تعجز العلماء عن فهمها.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى: ومن شكَّ في هذا القول فلينظر في كتاب «المشاهد»(١)،أو كتاب «عنقاء مغرب»(٢) للشيخ محيي الدين، أو كتاب «الشعائر»(٣) لسيدي محمد وفا، أو كتاب «خلع النعلين»(٤) لابن قسي.

فإن أكبر العلماء لا يكاد يفهم منه معنًا مقصودًا لقائلٍ أصلاً؛ بل هو خاصٌ بمن دخل مع ذلك المتكلم حضرة القدس؛ فإنه لسانٌ قدسيٌّ لا يعرفه إلا الملائكة، أو من تجرَّد عن هيئة البشرية، أو أصحاب الكشف الصحيح.

وكان الشيخ عزُّ الدين بن عبد السلام ﷺ يقول بعد اجتماعه على الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ وتسليمه للقوم: من أعظم الدليل على أن طائفة الصوفية قعدوا على أعظم قواعد الشرع وأساسه ما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق، ولا يقع شيءٌ قط من ذلك لفقيهٍ

---

(١) هو المشاهد القدسية من أعظم كتب الشيخ، وقد حققناه لأول مرة مع شرحه الفخم العظيم للست عجم بنت النفيس البغدادية العامية الأمية، وقد طبع بدار الكتب العلمية.

(٢) قد شرحه أكثر من واحد، كالشيخ الداموني، يسر الله لنا تحقيقه.

(٣) وهو شعائر أهل العرفان، تحت قيد الطبع بتحقيقنا.

(٤) وهو من الكتب المهمة في الحقيقة المحمدية، أتم الله لنا تحقيقه، ورزقنا سر العلم وفضله.

إلا إن سلك طريقهم كما هو مشاهدٌ.

وكان الشيخ عز الدين قبل ذلك ينكر على القوم، ويقول: وهل لنا طريقٌ غير الكتاب والسنة؟ فلمّا ذاق مذاقهم، وقطع سلسلة الجدل بكراسة الورع صار يمدحهم كل المدح، ولما اجتمع الأولياء والعلماء في وقعة الفرنج بالمنصورة قريبًا من ثغر دمياط جلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ مكين الدين الأسمر والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد وأضرابهم وقد قرأ بعضهم عليهم رسالة القشيري، وصار كل واحدٍ يتكلم، إذ جاء الشيخ أبو الحسن الشاذلي قُدِّس سرُّه فقالوا له: نريد أن تُسمعنا من معاني هذا الكلام. فقال: أنتم مشايخ الإسلام، وكبراء الزمان، وقد تكلمتم فما بقي لكلام مثلي موضعٌ. فقالوا: لا بدَّ من ذلك. فحمد الله، وأثنى عليه، وشرع يتكلَّم، فصاح الشيخ عز الدين من داخل الخيمة، وخرج ينادي بأعلى صوته: هلمُّوا إلى هذا الكلام القريب العهد من الله تعالى، رحمة الله عليهم أجمعين.

وذكر الإمام الغزالي في «الإحياء» عن بعض العارفين أنه كان يقول: من لم يكن له نصيبٌ من علم القوم يخاف عليهِ من سوء الخاتمة، وأدنى نصيبٍ منه التصديق به، والتسليم لأهله.

إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق: مما نسب المنكرون إلى الشيخ محيي الدين والشيخ عمر بن الفارض وغيرهما القول بالحلول والاتِّحاد.

قال الشيخ عبد الغني الشامي رحمه الله تعالى: وحاشاهم من ذلك؛ بل حاشا أدنى مريدٍ سالكٍ في طريق الصوفية الصَّادقين إلى يوم القيامة مِنْ خطور ذلك في بالهم، أو من إمكانه عندهم، وكيف وهو أمر مستحيل عند المتمسِّكين بالمعقول من علماء الكلام وغيرهم فما بالك بالذين هم أعلى منهم مِنْ المتمسِّكين بالإيمان، والفتح، والكشف، والإلهام، والقيام بحسن المعاملة الشرعية في الظاهر والباطن من غير بدعةٍ مع الإخلاص، واليقين، والزهد، والورع، وإن أشبهت كلماتهم على غير أهل طَريقهم، وفَهمَ منها علماء الإنكار المنكبُّون على الدنيا قبائح المفهومات؛ فإن الأعمال بالنيَّات، ولكل امرئٍ ما نوى، والمرء عدوٌّ ما جهله:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحًا وآفتُهُ مِن الفهم السقيمِ

ولعمري: لو يَفهم ذلك علماء الظاهر لعذرتهم في أمرهم؛ فإنهم يعتقدون كما تعتقد العوامُّ من أن الله تعالى موجودٌ، وكل مخلوقٍ من مخلوقاته موجودٌ أيضًا سبحانه وتعالى، والوجود عندهم جنسٌ عامٌّ مشتركٌ بين القديم وبين الحوادث، وإنما يتميَّز القديم عن

الحوادث بالقدم في ذاته وصفاته، وتتميز الحوادث بالحدوث من العدم في ذواتها وصفاتها وفي حال وجودها هي مشاركةٌ للقديم، تعالى في الوجود العام المطلق، وهم يعلمون ماذا يترتب على اعتقادهم هذا؛ لأنهم أهل عقولٍ وأفكارٍ.

فإذا قيل لهم: يلزم على قولكم هذا تركب الحق سبحانه وتعالى من عامٍّ وخاصٍّ كبقية الماهيات الحادثة، انتحلوا بعقولهم جوابًا أسكتوا به خصمهم، وبقوا على اعتقادهم ذلك، والله يعلم المفسد من المصلح؛ فإن الحلول على الحقِّ سبحانه وتعالى في الحوادث يتصور عندهم عقلاً، فيحتاجون إلى إقامة الدليل على استحالته وامتناعه، ويتكلَّفون في ذلك كما بسط الكلام عليه في كتب علم الكلام.

وأما عند المحققين من أهل الله تعالى أصحاب الأذواق الوجدانية فلا يتصور الحلول عندهم أصلاً، فلا يحتاجون إلى إبطاله؛ لعدم تصوره عندهم، وعدم خطوره في بالهم؛ فإن وجود الحق تعالى وجودٌ حقيقيٌّ ليس بمفهومٍ لهم أصلاً، وإنما عندهم التصديق به على المغيب، ووجود الحوادث أثرٌ من آثار قدرته، وذلك بالنسبة إلى وجوده تعالى عدم صرفٍ، فكيف لوجودٍ يحلُّ في العدم حاشا وكلا!

وإذا بطل الحلول بطل الاتحاد بالأولى، وكل الضلالات التي تفهمها علماء الظاهر من كلام المحققين من أهل الله تعالى، ويشنِّعون بها عليهم بين العوامِّ والجهَّال؛ لتنقص رتبتهم عندهم، ويحظون بـ.نرفعة في الدنيا، والله يؤتي ملكه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، انتهى كلامه.

وقال الشيخ محيي الدين قُدِّس سرُّه في «عقيدته الصغرى»: تعالى الله أن تحلَّه الحوادث أو يحلَّها.

وقال في «عقيدته الوسطى»: اعلم أن الله تعالى واحدٌ بالإجماع، ومقام الواحد يتعالى أن يحلَّ فيه شيءٌ، أو يحلَّ هو في شيءٍ، أو يتحد بشيءٍ.

وقال في الباب الثالث من «الفتوحات»: اعلم أنه ليس في أحدٍ من الله شيءٌ، ولا يجوز ذلك عليه بوجهٍ من الوجوه.

وقال في «باب الأسرار»: لا يجوز لعارفٍ أن يقول: أنا الله، ولو بلغ أقصى درجات القُرب، وحاشا العارف عن هذا القول حاشاه، إنما يقول: أنا العبد الذليل في المسير والمقيل.

وقال في الباب التاسع وستين ومائة: القديم لا يكون محلاً قطُّ للحوادث، ولا يكون حالاً

في المحدث.

وقال في باب الأسرار: من قال بالحلول فهو معلولٌ؛ فإن القول بالحلولِ مرضٌ لا يزول.

وقال فيه أيضًا: الحادث لا يخلو عن الحوادث، ولو حلَّ بالحادثِ القديم لصحَّ قول أهل التجسيم، فالقديم لا يحلُّ ولا يكون محلاً، ومَنْ ادَّعى الوصل فهو في عين الفصل.

وقال فيه أيضًا: اعلم أن العاشق إذا قال: أنا مَنْ أهوى، وَمَنْ أهوى أنا؛ فإن ذلك كلامٌ بلسان العشق والمحبة لا بلسان العلم والتحقيق، ولذلك يرجع أحدهم عن هذا القول إذا صحا من سكرته.

وقال في الباب الثاني والتسعين ومائتين: مِنْ أعظم دليلٍ على نفي الحلول والاتحاد الذي يتوهمه بعضهم أن تعلم عقلاً أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيءٌ، وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها، وإنما كان القمر مجلًى لها، كذلك العبد ليس فيه من خالقه شيءٌ ولا حلَّ فيه.

وقال في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة بعد كلامٍ طويلٍ: وهذا يدلك على أن العالم ما هو عين الحق، ولا حلَّ فيه الحق؛ إذ لو كان عينُ الحق أو حلَّ فيه لما كان تعالى قديمًا ولا بديعًا.

وقال أيضًا في الباب الثاني والسبعين والثلاثمائة بعد كلامٍ طويلٍ: وبالجملة، فالقلوب به هائمةٌ، والعقول فيه حائرةٌ.

ثم قال: وبذلك ظهرت عظمته سبحانه وتعالى.

وقال الشيخ عمر بن الفارض قُدِّس سرُّه في قصيدته «نظم السلوك[1]»:

وكيف وَبِاسْمِ الحقِّ ظلَّ تخلُّقي ... تكون إذا جِيف الضَّلالُ مخيفتي

وها دِحيةُ وافى الأمين نبيَّنا ... بصورتِهِ في بدءِ وحيِ النبوَّةِ

أجبريلُ قلْ لي كان دِحيةُ إذ بدا ... لمهدَى الهدى في صورةٍ بشريَّةِ

وفي علمِهِ عن حاضريه مزيَّةٌ ... بماهيةِ المرئي مِنْ غيرِ مريَّةِ

يرى مَلكًا يُوحِي إليهِ وغيره ... يرى رجلاً يدَّعى إليه بصحبتِهِ

(١) انظر: شرح تائية ابن الفارض الكبرى للشيخ القيصري (ص٧٢) بتحقيقنا، طبع العلمية.

وليِ مـن أتـمِّ الـرؤيتين إشـارةٌ تنـزِّه عـن رأي الحلـول عقيـدتِي

وفي الذكر ذِكرُ اللبس ليس بمنكرٍ ولم أعـد عـن حكمـي كتـابٍ وسـنةِ

قلت: فَكَذَبَ والله وافترى مَنْ نسب القول بالحلول والاتحاد إلى الشيخ محيي الدين والشيخ عمر بن الفارض رضي الله تعالى عنهما، وهذه نصوصهما تُكذِّب هذا المفتري، والله أعلم.

قال الفاضل المحقق ابن حجر في «شرح الهمزية»: واعلم أن من الكفر الصريح ما حُكي عن بعض الكراميَّة: أن الولي غير النبي قد يبلغ درجة النبوة.

وعن بعض المتصوفة الجهلة: إن الولاية فوق رتبة النبوة، وإن الولي قد يبلغ حالةً يسقط عنه فيها التكليف.

قال الحجة الغزالي: وقتل الواحد من هؤلاء خيرٌ من قتل مائة كافرٍ؛ لأن ضرر أولئك أشدُّ في الدين، وليس من أولئك العالمان العارفان المحققان الوليان الكبيران المحيوي ابن العربي، والسراج ابن الفارض وأتباعهما بحقٍّ خلافاً لمن زلَّ فيهم قدمه، وطغى قلمه إلا أن يكون أراد بما قاله الذبَّ عن اعتقاد ظواهر عباراتهم المتبادرة عند من لا يحيط باصطلاحهم انتهى.

قال الشيخ عبد الغني الشامي رحمه الله تعالى: وأما قول الشيخ الأكبر أنه تعالى أوجد الأشياء وهو عينها فهو مبنيٌّ عنده على اصطلاحه في معرفة الأشياء ومعرفة الحق سبحانه وتعالى؛ فإن الأشياء كلها عنده مجرَّد تقديراتٍ وتصويراتٍ قائمةٍ به تعالى الذي هو مقدِّرها ومُصوِّرها لا مبنيٌّ ذلك على اصطلاح غيره من أن الأشياء كلها أعراضٌ وأجسامٌ مستقلةٌ بنفسها في الوجود لها الاستناد العقلي إلى الحق تعالى بالإيجاد؛ فإن الوجود في اصطلاح الشيخ الأكبر واحدٌ، وهو: الوجود الحقيقي لله تعالى حقيقةً ولغيره بطريق المجاز الذي هو استعمال الشيء في غير ما هو له، فالأشياء كلها عنده يقال لها: موجودات بطريق المجاز، والوجود المنسوب إليها نسبةٌ مجازيةٌ عدم محضٍ، وإنما الوجود الحقيقي الذي هو مستعملٌ فيما هو له إنما هو وجود الله تعالى، واصطلاحه هو الذي جاءت به نصوص الكتاب والسنَّة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] أي: ذاته.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦،٢٧] أي: ذاته سبحانه وتعالى، وذاته سبحانه وتعالى هو الوجود الحقيقي الواحد الأحد، الحق المطلق المنزَّه عن مشابهة كل شيءٍ، والأشياء كلها هي الهالكة الفانية في حدِّ ذاتها، وقال ﷺ: «كانَ الله ولا شيءَ معه، وهو الآن على ما عليه كانَ(١)».

وقال ﷺ: «أصدقُ كلمةٍ قالها الشاعر لَبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ(٢)»، والباطل خلاف الحق، والله سبحانه وتعالى هو الحق، والأشياء كلها هي الباطل، فكل شيءٍ عينه من حيث الوجود القائم به ذلك الشيء، وذلك الشيء غيره سبحانه وتعالى من حيث الصورة والشيئية الهالكة الفانية، فَصدَقَ حينئذٍ عند العارف أنه تعالى أوجد الأشياء وهو عينها: أي عين وجودها التي هي موجودةٌ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، انتهى.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه «اليواقيت والجواهر»: ومما أنكره المتعقِّبون على الشيخ بحسب الإشاعة قولهم: إن الشيخ محيي الدين يقول بفساد قول «لا إله إلا الله»، وذلك كفرٌ.

والجواب بتقدير صحة ذلك عنه: إن المراد أن الحق سبحانه وتعالى ثابتٌ في الألوهية قبل إثبات المثبت، ومن كان ثابتًا لا يحتاج إلى إثباتك؛ إذ ما ثمة من تثبت ألوهيته من الخلق حتى يُنفى، وإنما تعبَّد الله المؤمن بذلك على سبيل التلاوة؛ ليأجره الله على ذلك، وحاشا الشيخ أن يصرِّح بفساد قول «لا إله إلا الله» هذا لا يقوله عاقلٌ؛ لأنها من القرآن العظيم؛ فافهم.

ومن ذلك دعوى المنكر: إن الشيخ يقول في كتبه مرارًا: لا موجود إلا الله.

والجواب: إن معنى ذلك بتقدير صحته عنه: أنه لا موجود قائمٌ بنفسه إلا هو سبحانه وتعالى وما سواه قائمٌ بغيره، كما أشار إليه: (ألا كل شيء ما خلا الله باطلٌ)، ومن كان حقيقته كذلك فهو إلى العدم أقرب؛ إذ هو وجودٌ مسبوقٌ بعدمٍ، وفي حال وجوده مترددٌ بين وجودٍ وعدمٍ لا يخلص لأحد الطرفين، فإن صحَّ أن الشيخ قال: لا موجود إلا الله؛ فإن ذلك عند من

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (٤/ ١٠٤)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/ ١٧١).

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٣٩٥)، ومسلم (٤/ ١٧٦٨)، والترمذي (٥/ ١٤٠)، وأحمد (٢/ ٢٤٨).

تلاشت عنده الكائنات حين شهوده الحق سبحانه وتعالى بقلبه كما قال أبو القاسم الجنيد: مَنْ شَهِدَ الحق لم يرَ الخلق.

ومن ذلك دعوى المنكر: إن الشيخ محيي الدين جعل الحق تعالى الخلق واحدًا في قوله في بعض نظمه:

فيحمـــــدني وأحمـــــدهُ ويعبـــــدُني وأعبـــــدُهُ

والجواب: بتقدير صحته عنه: أن معنى يحمدني: يشكرني إذا أطعته كما في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢].

وأمَّا قول الشيخ: (ويعبدني) أي: يُطيعني بإجابة دعائي، كما قال تعالى: ﴿لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس:٦٠]: أي لا تطيعوه، وإلا فليس أحدٌ يعبد الشيطان كما يعبد الله تعالى؛ فافهم.

وقد ذكر في الباب السابع والخمسين وخمسمائة من «الفتوحات المكية» بعد كلامٍ طويلٍ ما نصُّه: وهذا يدلُّك صريحًا على أن العالم ما هو عين الحق؛ إذ لو كان عين الحق تعالى ما صحَّ كون الحق بديعًا انتهى، والله أعلم.

ومن ذلك دعوى المنكر: إن الشيخ يقول بقبول إيمان فرعون.

وذلك كَذِبٌ وافتراءٌ على الشيخ؛ فقد صرَّح الشيخ في الباب الثاني والستين من «الفتوحات»: بأنَّ فرعون من أهل النار الذين لا يخرجون منها أبد الآبدين، والفتوحات من آخر مؤلفاته؛ فإنه فرغ منها قبل موته بنحو ثلاث سنين.

قال شيخ الإسلام الخالدي: والشيخ محيي الدين بتقدير صدور ذلك عنه لم ينفرد به، بل ذهب جمعٌ كثير من السَّلف إلى قبول إيمانه؛ لما حكى الله تعالى عنه أنه قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، وكان ذلك القول آخر عهده بالدنيا.

وقال أبو بكر الباقلاني: قبول إيمانه هو الأقوى من حيث الاستدلال، ولم يرد لنا نصٌّ صريحٌ أنه مات على كفره، انتهى.

ودليل جمهور السلف والخلف على أنه آمن عند اليأس، وإيمان أهل اليأس لا يُقبل، والله أعلم، انتهى.

قال الفاضل بن حجر في «الزَّواجر»: فإن قلت: قد قال الإمام العارف المحقِّق محيي الدين ابن العربي في «فتوحاته»: بصحة الإيمان عند الاضطرار، وأن فرعون مؤمنٌ، قلت: هذا كلامٌ مكررٌ، وإن كنَّا نعتقد جلالة قائله فإن العصمة ليست إلا للأنبياء.

ولقد قال الإمام مالك وغيره: ما من أحدٍ إلا مأخوذٌ من قوله ومردودٌ عليه إلا صاحب هذا القبر: يعني النبي ﷺ، على أنه قد نقل عن بعض كتب ذلك الإمام أنه قد صرَّح فيها بأن فرعون مع هامان وقارون في النار، وإذا اختلف كلام العام فيؤخذ منه بما يوافق الأدلة الظاهرة ويعرض عمَّا خالفها، انتهى.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه «اليواقيت»:

ومن ذلك دعوى المنكر: إن الشيخ يقول بإباحة المكث للجُنب في المسجدِ، فإن صحَّ ذلك عن الشيخ فهو موافقٌ فيه لابن عباس والإمام أحمد بن حنبل، وهو مذهب الإمام المزني وجماعةٍ من التابعين والفقهاء، فقول المنكر: إن الشيخ خالف في ذلك الشريعة وأقوال الأئمة المجتهدين مردودٌ.

ومن ذلك دعوى المنكر: إن الشيخ يقول: إن الولي أفضل من الرسول.

والجواب: إن الشيخ لم يقل ذلك، وإنما قال: اختلف الناس في نبوة النبي وولايته أيهما أفضل؟ والذي أقول به: إن ولايته أفضل لشرف المتعلق به، ودوامها في الدنيا والآخرة بخلاف الرسالة؛ فإنها تتعلق بالخلق، وتنقضي بانقضاء التكليف، انتهى.

ووافقه على ذلك عز الدين بن عبد السلام، فالكلام في رسالة النبي مع ولايته لا في رسالته، ونبوَّته مع ولاية غيره؛ فافهم.

وبقي مسائل كثيرةٌ نُسبت للشيخ، وسيأتي بيان أنها افتراءٌ وكذبٌ على الشيخ، منبوذةٌ في

مباحثها، وفي المثل السَّائر، وَيَعْيَا المداري في طريق المخالف، والله أعلم، انتهى ما ذكره في كتاب «اليواقيت والجواهر».

وقد ذكر رحمه الله تعالى بيان افتراء تلك المسائل على الشيخ في مباحثها، فلا نطوّل الكلام بذكرها.

وسُئل الإمام النووي عن الشيخ محيي الدين؟ فقال: تلك أمةٌ قد خلت، ولكن الذي عندنا أنه يحرم على كل عاقلٍ أن يُسيء الظن بأحدٍ من أولياء الله تعالى، ويجب عليه أن يئول أقوالهم وأفعالهم ما دام لم يلحقْ بدرجتهم، ولا يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق.

وقال رحمه الله تعالى في «شرح المهذب»: وإذا أوَّل كلامهم فيُئول إلى سبعين وجهًا، فإن لم يقبل كلامهم تأويلاً منها؛ فليرجع على نفسه باللوم، ويقول: يحتمل كلام أخيك المسلم سبعين وجهًا، ولا تقبل منه تأويلاً واحدًا ما ذاك إلا تَعنُّتٌ وتعقُّبٌ، انتهى.

هذا.. وإليك القسم الثاني في ردِّ بعض الاعتراضات والشبه عن الشيخ قُدس سره:

قال المعترض: جاء في «الغنية» عن الشيخ عبد القادر أنه يقول بالجهة، لقول الشيخ: وهو بجهة العلو مستوٍ على العرش محتوٍ على الملك.

قلت: وهذا جهل واضح من المعترضين، حيث إن قول الشيخ في هذا الموضع بعد ذكره للآيات والأحاديث: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وكونها على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أُرسل بلا كيف، وذكر نحو هذا في سائر الصفات.

فإن كلام الشيخ في «الغنية» هو معنى التفويض الذي هو مذهب سلف هذه الأمة وبه قال أتباع الإمام أحمد بن حنبل ﷺ، ومقابله التأويل وهو مذهب الخلف[1].

ولذلك قال الشيخ الشعراني ﷺ في كتاب اليواقيت (ص٨٩): رأيت في كتاب البهجة المنسوبة لسيدي عبد القادر الجيلي ﷺ ما نصه: اعلموا أن عبادتكم لا تدخل الأرض، وإنما تصعد إلى السماء قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] فربنا سبحانه وتعالى في

---

(١) انظر: السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني للشيخ ابن عزوز المكي (ص٤٩٢) بتحقيقنا، فإنه قد حل الإشكال، وأوضح المقال في هذا الاعتراض.

جهة العلو: الله على العرش استوى وعلى الملك احتوى وعلمه محيط بالأشياء بدليل سبع آيات في القرآن العظيم في هذا المعنى، لا يمكنني ذكرها لأجل جهل الجاهل ورعونته، انتهى.

قال: فلا أدري أذلك الكلام دُسَّ على الشيخ في كتابه أم وقع في ذلك في بدايته ورجع عنه لما دخل في الطريق، فإن من المعلوم عند كل عارف بالله تعالى أنه تعالى لا يتحيز، والشيخ قد شاعت ولايته في أقطار الأرض فيبعد من مثله القول بالجهة قطعًا.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ أنه لا يلزم من قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] أن يكون تعالى في جهة الفوق دون غيرها بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣] ظرفية تليق بجلاله.

وأجمع المحققون أن شهود الحق تعالى في حال السجود صعود وإن كان السجود في أسفل سافلين.

وأما قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥] أي: يخافون ربهم أن يُنزل عليهم عذابًا من فوق رءوسهم، هذا هو الاعتقاد الحق.

قلت – أي الشعراني –: ويصح حمل قول السيد عبد القادر الجيلي السابق أنه تعالى في جهة العلو على أن مراده بجهة العلو الجهة التي قصد العبد قضاء حاجته منها وإن كانت في السفليات، هذا لا يبعد على مقام الشيخ، انتهى والله تعالى أعلم.

قلت: لم يثبت عن الشيخ عبد القادر أنه قال بأقوال المشبهة والمجسمة والمعطلة، بل مذهبه في الأسماء والصفات والرؤية والعرشية وغيرها من مسائل الاعتقاد مذهب أهل الحقائق بالإثبات والتنزيه، وهو منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم، وهو ما عليه اعتقاد المحققين من السادة الصوفية.

وذلك واضح في كتبه وما كُتب عنه قدس الله سره العزيز.

ألا ترى قول الشيخ في فتوح الغيب (ص١٤٩): الحمد لله الذي كيّف الكيف وتنزه عن الكيفية، وأيّن الأين وتعزز عن الأينية، ووجد في كل شيء وتقدس عن الظرفية، وحضر عن كل شيء وتعالى عن العندية، فهو أول كل شيء وليس له آخرية.

وإن قلت: أين فقد طالبته بالأينية، وإن قلت كيف فقد طالبته بالكيفية، وإن قلت: متى فقد زاحمته بالوقتية، وإن قلت: ليس فقد عطلته عن الكونية، وإن قلت: لو فقد قابلته بالنقصية، وإن قلت: لم فقد عارضته في الملكوتية.

سبحانه وتعالى لا يسبق بقبلية ولا يلحق ببعدية، ولا يقاس بمثلية، ولا يقرن بشكلية، ولا يعاب بزوجية، ويعرف بجسمية.. إلى آخر كلامه قدس سره.

وقال ﷺ كما في القلائد (ص٢٧٦): قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]: لا شبيه له، ولا نظير، ولا عون له، ولا ظهير، ولا شريك، ولا وزير، ولا ند له، ولا ذي تركيب مشير، ليس بجسم فيمس، ولا جوهر فيحس، ولا عرض فينتفي، ولا ذي تركيب فيتبعض، ولا ذي آلة فيمثل، ولا ذي تأليف فيكيف، ولا ذي ماهية مخيلة فيحدد، ولا ذي طبيعة من الطبائع، ولا طالع من الطوالع، ولا ظلمة تظهر، ولا نور يزهو ... إلى آخره.

ومما نقل عن الشيخ ﷺ قوله: «قَدَمي هذا على رقبة كل وليٍّ لله»

قال الشيخ يوسف ابن الملا عبد الجليل الكردي: ثم العجب العجيب، والأمر الغريب ممن تجرأ على خرق إجماع المسلمين، ووقع في حضرة إمام العارفين، وشيخ شيوخ العالمين، صاحب القَدَمِ من القِدَم، غوث البريَّة، قطب العرب والعجم، من خضعت له الرقاب، وشهدت بسلطنته الأقطاب، بحر العلم اللدنيِّ، مولانا الشيخ محيي الدين عبد القادر الكيلاني، مروِّح الله تعالى أروحنا بنفحات روحه، وفتح أقفال قلوبنا بمفاتيح فتوحه، ولا زالت رحمة الرحمن فيَّاضةً على روحه في كل حينٍ وآنٍ، آمين.

وزعم أن قوله رضي الله تعالى عنه وقَدَّس روحه: (قَدَمي هذا على رقبة كل وليٍّ لله)، قالهُ بحظٍّ نفسٍ، وهوًى كامنٍ، وحاشاه ثم حاشاه من ذلك؛ بل إذا كان كامنًا في باطنه يظن أن أصفياء الله تعالى مثله منطوون على خبث الضمائر، ومتصفون بالصفات الرذائل، نعوذ بالله العظيم من الخذلانِ، وسوء الظن بأولياء الله أهل العرفان، ولقد صدق من قال:

وإذا رأى الإنسانُ نقصًا إنَّما ... مِرآتُهُ تجلي عليهِ بحالهِ

فإن من قُرِّبَ هذا التقريب، وعُرِّف هذا التعريف، ومُكِّن هذا التمكين، وصُرِّف هذا

التصريف، وخضع له رقاب أكابر الأولياء هذا الخضوع، ورجع إليه العارفون بالله تعالى هذا الرجوع، وزفتّه العناية هذه الزفات المشعرة بعظيم جلالته، وضرب له الوجود بمعازف السرور عند رؤية طلعته، ورقص الكون جميعه طربًا لظهور ولايته، وحَمَل بين يديه علم القطبيَّة، وتُوِّج بتاج الغوثيِّ، وأُلبس خلعة التصريف العام النافذ في جميع الوجود، ومشت أكابر الأولياء من الصدِّيقين والبُدلاء تحت ركابه بأمر الملك المعبود، واشتهرت في الوجود كراماته، وجمعه بين علمي الظاهر والباطن -يستحيل أن يكون قال ذلك بحظِّ نفسٍ، وهوًى كامنٍ، والله سبحانه وتعالى يقول في محكم آياته: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤] كيف وقد أجمع على فضله وعلمه وجلالة قدره الخاص والعام من زمنه إلى هذه الأيام! بل قد ذكر العلماء الأعلام أن كراماته قربت من التواتر بين أهل ملة الإسلام، فيكون صدور هذا القول عنه امتثالاً لأمره، ويكون ذلك الأمر تنويهًا بفضله، وبيانًا لعلوِّ شأنه، وتعريفًا للجاهل بكبر قدره، وإرشادًا إلى التعلُّق به، والتوسل برفيع جاهه، وغير ذلك من المصالح.

وقد رُوي في كتاب «مناقبه» من طرقٍ كثيرةٍ برواياتٍ شهيرةٍ عن جماعةٍ من المشايخ الأكابر، والعلماء الأفاضل، والأخيار الثقات، واشتهر واستفاض حتى في الجهات البعيدة أنه قال في مجلسه وهو على الكرسي يتكلم على الناس: «قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله» وكان في مجلسه حينئذٍ عامة مشايخ العراق، ورُوي أنهم كانوا نحوًا من خمسين شيخًا، ورُوي نيفًا وخمسين شيخًا:

منهم: الشيخ أبو النجيب السهروردي، والشيخ قضيب البان الموصلي، والشيخ أبو السُّعود أحمد بن أبي بكر العطاء، وغيرهم من المشايخ الأكابر المعدودين.

ورُوي من طرقٍ كثيرةٍ عن خلائق من الأولياء أنه لم يبق أحدٌ من الأولياء في ذلك الوقت من الحاضرين والغائبين في جميع آفاق الأرض إلا حَنى له رقبته إلا رجلاً بأصبهان؛ فإنه لم يفعل، فسُلب حاله.

ورُوي أن الشيخ أبا النجيب السهروردي طأطأ رأسه حتى كاد يبلغ الأرض، وقال: على

رأسي، على رأسي، على رأسي، قالها ثلاث مراتٍ.

وكان من جملة من حَنى له رقبته من الغائبين الكبار المشهورين: الشيخ أبو مدين المغربي، والشيخ عبد الرحيم القناوي، والشيخ أحمد بن أبي الحسين الرفاعي رضي الله عنهم أجمعين.

فأما الشيخ أحمد الرفاعي: فرووا عنه أنه كان جالسًا يومًا برواقه بأم عبيدة، فمدَّ عنقه وقال: على رقبتي، وفي رواية أنه قال: وحميد منهم، فسُئِل عن ذلك، فقال: قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله.

وأما الشيخ أبو مدين المغربي: فرووا عنه أنه حَنى رأسه يومًا وهو بين أصحابه، وقال: وأنا منهم، اللَّهُمَّ إني أُشهدك، وأُشهد ملائكتك أني سمعت، وأطعت. فسأله أصحابه عن ذلك؟ فقال: قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، فأرَّخوا ذلك وهم في المغرب، ثم جاء المسافرون من العراق، وأخبروا أن الشيخ عبد القادر الكيلاني قال ذلك في الوقت الذي أرَّخوه.

وأما الشيخ عبد الرحيم القناوي: فرووا عنه أنه مدَّ عنقهُ يومًا بقنا، وقال: صدق الصَّادق المصدوق. فقيل له: ومن هو؟ فقال: الشيخ عبد القادر الكيلاني قد قال: قدمي هذا على رقبة كل وليٍّ لله، وتواضع له رجال الشرق والمغرب، فأرَّخوا ذلك الوقت، ثم جاء الخبر بذلك في ذلك الوقت.

ورُوي بأسانيد كثيرةٍ من طرقٍ متعددةٍ عن جماعةٍ من كبار المشايخ أنه لم يقل ذلك إلا بأمرٍ.

منهم: الشيخ عدي بن مسافر الأموي قال: إنما وَضَعَتْ الأولياء كلهم رؤوسهم لمكان الأمر، ألا ترى الملائكة لم يسجدوا لآدم ﷺ إلا لورود الأمر عليهم.

ومنهم: والشيخ أبو سعيد القليوي قال: قالها بأمرٍ لا شكَّ فيه، وهي لِسَان القطبيَّة.

ومنهم: الشيخ على الهيتي: لَمَّا قال الشيخ عبد القادر مقالته تلك صَعَدَ إليه فوق الكرسي، وأخذ قدمه، وجعلها على عنقِهِ، ودخل تحت ذيله، فقال له أصحابه: فلِمَ فعلت ذلك؟ فقال: لأنه أُمر أن يقولها، وأُذن له في عزل من أنكرها عليه من الأولياء، فأردتُ أن أكون أول من سارع إلى الانقياد له.

ومنهم: الشيخ أحمد بن أبي الحسن الرفاعي قيل له: هل قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذا على رقبة كل وليٍّ لله بأمرٍ أو بلا أمرٍ؟ قال: بلى قالها بأمرٍ.

ومنهم: الشيخ أبو محمد القاسم قال: لما أُمر الشيخ عبد القادر بقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله رأيتُ الأولياء بالمشرق والمغرب واضعين رؤوسهم تواضعًا إلا رجلاً بأرض العجم فإنه لم يفعل، فتوارى عنه حاله.

ومنهم: الشيخ حياة بن قيس الحرَّاني قال: قد غشانا زمانٌ مديدٌ في ظلِّ حماية سيئات الشيخ عبد القادر الكيلاني، وشَرِبنا كئوسًا هنيئةً من مناهل عرفانه، ولقد كان النفس الصادق يصدر عنه، فيبسط من شعاع نوره في الآفاق استطارة النار، فيقتبس منه الأسرار أصحاب الأحوال على قدر مراتبهم، ولما أتاه الأمر بقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله زاد الله جميع الأولياء نورًا في قلوبهم، وبركةً في علومهم، وعلوًّا في أحوالهم بسبب وضعهم رؤوسهم.

ورُوي بأسانيد صحيحةٍ متعددةٍ كثيرةٍ عن جماعةٍ من الشيوخ الكبار أنهم أخبروا عنه أنه سيقول مقالته تلك قبل أن يقولها بسنين كثيرةٍ، بعضهم قال ذلك بنحو مائةٍ.

منهم: الشيخ عبد الله الجونيُّ روى عنه الشيخ الإمامِ أبو يعقوب يوسف بن أيوب الهمداني قال: سمعت شيخنا أبا أحمد عبد الله بن علي الجوني سنة أربعٍ وستين وأربعمائةٍ يقول: أُشهدت أنه سيولد بأرض العجم مولودٌ، له مظهرٌ عظيمٌ بالكرامات، وقبولٌ تامٌّ عند الكافة، ويقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، ويندرج الأولياء في وقته تحت قدمه ذلك الذي يشرق به زمانه، وينتفع به من رآه.

ومنهم: الشيخ تاج العارفين أبو الوفاء قال لمن حضره لما أتى الشيخ عبد القادر لزيارته وهو شابٌّ: قوموا لوليِّ الله، وربما يمشي إليه في وقتٍ خطواتٍ، وكان الشيخ عبد القادر يتكرَّر إليه، فلمَّا تكرَّر منه قوله: قوموا لوليِّ الله قال له أصحابه في ذلك، فقال لهذا الشاب وقت إذا جاء افتقر إليه فيه الخاص والعام، وكأنِّي أراه قائلاً ببغداد على رءوس الأشهاد وهو محقٌّ: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، فتوضع له رقاب الأولياء في عصره؛ إذ هو قطبهم، فمن أدرك منكم ذلك الوقت فليلزم خدمته.

ومنهم: الشيخ عقيل المنبجي قُدِّس سرُّه سُئل عن القطب في وقته؟ فقال: هو في وقتنا هذا

بمكة خفيٌّ لا يعرفه إلا الأولياء، وسيظهر هنا، وأشار إلى العراق، وهو شريفٌ يتكلَّم على الناس ببغداد، يعرف كراماته الخاص والعام، وهو قطب وقته، يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، وتضع له الأولياء رقابهم، ولو كنتُ في زمانه لوضعت له رأسي، ذلك الذي ينفع الله به مَنْ صدَّق بكراماته من سائر الناس.

ومنهم: **الشيخ علي بن وهب البخاري قُدِّس سرُّه** قال: إن الله تعالى قد نوَّر الوجود بظهور رجلٍ اسمه عبدُ القادر، مظهره في العراق، يقول ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، ويقرُّ أولياء عصره بفضله.

ومنهم: **الشيخ حمَّاد الدبَّاس قُدِّس سرُّه** قال الشيخ أبو النجيب عبد القادر السهروردي: كنت عند الشيخ حمَّاد بن مسلم الدبَّاس ببغداد سنة ثلاثٍ وخمسمائةٍ، والشيخ عبد القادر يومئذٍ في صحبته، فجاء، فجلس بين يديه متأدِّبًا، ثم قام، فسمعت الشيخ حمَّاد يقول بعد قيام الشيخ عبد القادر لهذا العجمي: قدمٌ تعلو في وقتها على رقاب الأولياء في ذلك الوقت، وليُؤمرنَّ أن يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، وليقولنَّ، ولتوضعنَّ له رقاب الأولياء في زمانه.

وقد سَبَقَ قول الغوث في قصة ابن السقَّا، ومما أخبر به جماعةٌ من المشايخ الكبار أهل الكشف والأنوار والمعارف والأسرار قدَّس الله تعالى أرواحهم عن هيئة الحال، لما قال الشيخ عبد القادر ذلك المقال.

منهم: **الشيخ أبو سعيد العز بن أحمد القيلوي** قال: لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله تجلَّى الحق سبحانه وتعالى على قلبه، وجاءته خُلعةٌ من رسول الله ﷺ على يد طائفةٍ من الملائكة المقرَّبين والبهاء بمحضرٍ من الأولياء من تقدَّم منهم ومن تأخَّر، الأحياء بأجسادهم، والأموات بأرواحهم، وكانت الملائكة ورجال الغيب حافِّين بمجلسه، واقفين في الهواء صفوفًا حتى انسدَّ الأفق بهم، ولم يبقَ وليٌّ لله تعالى في الأرض إلا حَنى عنقه.

ومنهم: **الشيخ بقا قُدِّس سرُّه** قال: لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله قال الملائكة: صَدَقت يا عبدَ الله.

ومنهم: **الشيخ عدي بن مسافر الأموي قُدِّس سرُّه، والشيخ أحمد الرفاعي قُدِّس سرُّه** روى عن الشيخ عدي أنه لما ذكر بين يديه الشيخ عبد القادر قال: بخٍ بخٍ، ذلك قطب الأرض، وضع ثلاثمائة وليٍّ لله، وسبعمائة غَيبي، ما بين جالسٍ في الأرض ومارٍّ في الهواء، ممتدة

أعناقهم له في وقتٍ واحدٍ حين قال: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله.

قال الراوي: فعظم ذلك عندي، ثم بعد مدةٍ أتيت أم عبيدة؛ لأزور الشيخ أحمد بن الرفاعي، فذكرت له ما سمعت من الشيخ عدي، قال: صَدقَ الشيخ عدي.

ومنهم: الشيخ ماجد، والشيخ مطر- قُدِّس سرُّهما- روي عن الشيخ ماجد أنه قال: لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله لم يبقَ لله وليٌّ في الأرض في ذلك الوقت إلا حنى عنقه تواضعًا له، واعترافًا بمكانته، ولم يبقَ نادٍ من أندية صالحي الجن من جميع الأقطار في الآفاق في ذلك الوقت إلا وفيه ذكر ذلك، وقصدته وفود صالحي الجن من جميع الأقطار مسلِّمين عليه، وتائبين على يديه، وازدحموا في بابه.

قال الراوي: فأتينا إلى الشيخ مطر؛ لزيارته وفي أنفسنا أعظام ما سمعناه من الشيخ ماجد، فلمَّا دخلنا عليه رحَّب بنا، وقال: صدق أخي الشيخ ماجد فيما أخبركم به عن الشيخ عبد القادر.

ومنهم: الشيخ مكارم قدَّس سرُّه قال: أشهدني الله ﷻ أنه لم يبقَ أحدٌ ممن عقد له الولاية في أقطار الأرض أدناها وأقصاها إلا شاهد علم القطبية محمولاً بين يدي الشيخ عبد القادر، وتاج الغوثية على رأسه، ورأى عليه خلعة التصريف النافذ في الوجود وأهله ولايةً وعزلاً معلمةً بطرازي الشريعة والحقيقة، وسَمِعْتهُ يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، ووضع رأسه، وذلل قلبه له في وقتٍ واحدٍ حتى الأبدال العشرة.

قال الراوي: قلت: مَنْ هم؟ قال: الشيخ بقا بن بطو، والنهر ملكي، والشيخ أبو سعيد القليوي، والشيخ علي بن الهيتي، والشيخ عدي بن مسافر الأموي، والشيخ موسى الزولي، والشيخ أحمد الرفاعي، والشيخ عبد الرحمن الطفسونجي، والشيخ محمد بن عبيد البصري، والشيخ حيَّاة بن قيس الحرَّاني، والشيخ أبو مدين المغربي قدَّس الله تعالى أرواحهم أجمعين.

ومنهم: الشيخ خليفة قُدِّس سرُّه، وكان كثير الرؤيا للنبي ﷺ، روى عنه الشيخ أبو القاسم بن أبي بكر بن أحمد بن أبي السعادات البندينجي أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله.

قال: صدق الشيخ عبد القادر، كيف لا وهو القطب وأنا أرعاه!.

فهذه نُبذةٌ يسيرةٌ مما يتعلق بقول الشيخ عبد القادر قُدِّس سرُّه مقالاته المذكورة، وقد أضربت عن أشياء كثيرةٍ مما يتعلق بذلك، ومما يدل على عظمة فضله، وجلالة قدره، ضربت وحذفت الأسانيد للاختصار، ولا حاجة إليها أيضًا؛ لكثرة ما في ذلك من الأشهار، وقد ذكر بعض أهل العلم أن كراماته قربت من التواتر يعني: قرب حصول العلم بوجودها من العلم القطعي الحاصل بكثرة الرواة البالغين حدَّ التواتر المعروف؛ لكثرة المخبرين عنها، وقد ذكرت شيئًا منها في باب الكرامات الآتي قريبًا.

وبالجملة: فهذا الذي ذكرته مِنْ فضله، وإن عظم فهو قطرةٌ من بحر فضائله، أو غبارٌ من رمال ساحله.

وقد رُوي بالسند الصحيح عن الشيخ أبي الرضا محمد بن أحمد بن داود البغدادي المعروف بالمقيِّد قال: كنت كثيرًا ما أتوقع من أسئلةٍ عن شيءٍ من صفات القطب، فدخلت أنا والشيخ أبو الخليل أحمد بن أسعد بن وهب بن علي المقري إلى جامع الرُّصافة، فوجدنا فيه الشيخ أبا سعيد القيلوي، والشيخ على الهيتي، فسألت الشيخ أبا سعيد عن ذلك؟ فقال: إلى القطب انتهت رئاسة هذا الأمر في وقته، وعنده تُحط رحال جدالة هذا الشأن.

قلت: فمن هو هذا؟ قال: هو الشيخ عبد القادر الكيلاني، فلم أتمالك أنا، وثبتُ، ووثبوا كلُّهم؛ لنحضر مجلس الشيخ عبد القادر، ولا تقدَّم منا أحدٌ ولا تأخَّر ولا تفرَّقنا وما منَّا إلا مَنْ يشتهي أن يسمع شيئًا في هذا المعنى، فوافيناه يتكلم، فلمَّا استقر بنا المجلس قطع كلامه، وقال: إني للواصف أن يبلغ وصف القطب ولا مسلك في الحقيقة إلا وله فيه مأخذٌ مكينٌ، ولا درجة في الولاية إلا وله فيها موطئٌ ثابتٌ، ولا مقام في النهاية إلا وله فيه قدمٌ راسخٌ، ولا منازلةٌ في المشاهدة إلا وله منها مشربٌ هنيءٌ لا يشقى جليسه، ولا يغيب شهوده، ولا يتوارى عن حاله بشرٌ تابعٌ له حدٌّ ينتهى إليه، ووصفٌ ينحصر فيه، وتكلُّفٌ يجب عليه.

ثم أنشد بعد كلامٍ طويلٍ في ذلك من غير ترنُّمٍ ولا أغاني:

مـــا في الـــصبابةِ منهـــلٌ مـــستعذبٌ إلا ولِي فيـــه الألـــذُّ الأطيـــبُ

أو في الوصالِ مكانةٌ مخصوصةٌ ... إلا ومنزلتِي أعزُّ وأقربُ
وهبتْ لِي الأيامُ رونقَ صفوها ... فَحَلاَ مناهلها وطاب المشربُ
وغدُوتُ مخطوبًا لكلِّ كريمةٍ ... لا يهتدي فيها اللبيبُ ويخطبُ
أنا مِنْ رجالٍ لا يخافُ جليسُهم ... ريبَ الزمانِ ولا يرى ما يُرهِبُ
قومٌ لهم فِي كلِّ مجدٍ رتبةٌ ... علويَّةٌ وبكلِّ جيشٍ مَوكبُ
أنا بلبلُ الأفراحِ أملأُ دوحَها ... طربًا وفي العلياء بانٍ أشهبُ
أضحتْ جيوشُ الحبِّ تحت مَشيئتِي ... طوعًا ومهما رمته لا يعزبُ
أصبحتُ لا أملاً ولا أمنيةً ... أرجو ولا موعودةً أترقبُ
ما زلتُ أرتعُ فِي ميادين الرِّضا ... حتَّى وُهبتُ مكانةً لا تُوهبُ
أضحى الزمانُ كحُلةٍ مرقومةٍ ... تزهو ونحن لها الطرازُ المُذَهَّبُ
أَفِلَتْ شموسُ الأوَّلينَ وشمسُنا ... أبدًا على فَلَك العُلا لا تغربُ

ثم قال: كل الطيور تقول ولا تفعل، والبازي يفعل ولا يقول، ولأجل هذا صار أكفُّ الملوكِ سُدَّتَهُ، فقال إليه الشيخ أبو منصور بن المبارك الواعظ المعروف بجرادة، وأنشد يقول:

بكَ الشهورُ تُهنَّا والمواقيتُ ... يا مَنْ بألفاظِهِ تغلو اليواقيتُ
البازُ أنت فإنْ تفخرْ فلا عجبَ ... وسائرُ النأَّسِ في عينِي فواخيتُ
وأشمُّ من قدميك الصدقَ مجتهدًا ... لأنَّه قدمٌ في نعلهِ الصيتُ

فقام الشيخ علي بن الهيتي وَقبَّل قدم الشيخ عبد القادر، قال: فكتبنا المجلس عندنا وحفظنا ما وقع فيه.

قلتُ: وقد أوَّل بعض العلماء قوله قُدِّس سرُّه: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، فقال: المراد بذلك شريعتي وعلمي الذي هو شريعة محمَّدٍ ﷺ، كما يُقال: القدم على القدم: أي العلم على العلم، والله أعلم.

قال الشيخ اليافعي في كتابه «نشر المحاسن»:

اعلم وفَّقنا الله تعالى وإيَّاك لفهم الحق واتِّباعه، وَجَعَلنا جميعًا ممن انتفع به ونفع الغير بانتفاعه أن القوم وردوا بحرًا ليس له ساحلٌ، وكل أحدٍ من المنكرين عليهم من ذلك المورد ما حلَّ، وبما فيه من جواهر المعارف والأسرار والحِكَم جاهلٌ، وسُقوا بكئوس الوصل راح المحبة التي لم يشمَّ ريحها مَن لم يقضِ من قتل نفسه بحبِّه، فأخذ ينكر عليهم مَنْ لم يعرف تلك الجواهر التي لا يعرفها إلا من هو في ذلك البحر ماهرٌ؛ وذلك لجهله بالأسرار التي في تلك المعارف، والرَّاح التي في تلك المغارف، فإن الشَّطح الصادر عنهم منه ما وقع منهم في حال السكر والغيبة بواردات الأحوال، والسُكر سببٌ مباحٌ يُسقط التكليف بالشرع بالشرط المعروف في كتب الفقه، ومنه ما صدر منهم على سبيل الحكاية عن الله ﷻ.

وممن قال أن هذا القول صَدَرَ عنه في حال السُكر الشيخ عبد القادر الكيلاني، ومنه ما أمروا به، فصدر عنهم امتثالاً للأمر، ويكون ذلك الأمر تنويهًا بفضلهم، وبيانًا لعلوِّ شأنهم، وتعريفًا للجاهل بكِبَر قدرهم، وإرشادًا إلى التعلُّق بهم، والتوسل برفيع جاههم، وغير ذلك من الصالح، ومن ذلك قول الشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّس سرُّه: (قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله)، وشطحات المشايخ كثيرةٌ جدًّا، فكل ما بلغك عن أحدٍ منهم مِنْ شطحٍ فاحمله على أحد المحامل المذكورة على حسب ما يليق بحاله تسلم وتغنم إن شاء الله تعالى انتهى. وانظر: الانتصار للأولياء الأخيار (ص٦٤) وما بعده.

- وأما ما نسب إليه ﷺ قوله:

«معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب، وأوتينا ما لم تؤتوا»

قال الشيخ العطار: وأما قول سيدنا سلطان الأولياء عبد القادر: «معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب، وأوتينا ما لم تؤتوا».

فهو من باب قول الخضر لموسى عليهما السلام: (أنا على علمٍ أوتيته لم تؤته) أو معنى ذلك، مع أنا لا نتوقف في فضل موسى على الخضر، وفضل الله يؤتيه من يشاء، كيف وعلم رجال هذه الأمة موروث عنه ﷺ، وقد علم ما لم يعلمه غيره من الأنبياء، فقد فاز رجال هذه

الأمة بالعلم الموروث عنه ﷺ.

وقال أيضًا الشيخ الشعراني معقبًا على ذلك: اعلم أن قوله ﷺ: «إنما أوتيتم اللقب» أي حجر علينا لقب النبي، وإن كانت النبوة سارية إلى يوم القيامة في أكابر الرجال؛ لأنهم نواب الأنبياء وورثتهم، وأما قوله: «وأوتينا ما لم تؤتوا».

فهو معنى قول الخضر عليه السلام الذي شهد بعدالته وتقدمه في العلم لموسى عليه السلام أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت يريد من الوجه الخاص الذي بين كل إنسان وبين ربه، ويحتمل أن يريد الشيخ عبد القادر بالأنبياء هنا أنبياء الأولياء أصحاب التعريف الإلهي، فتكون تصريحًا منه بأن الله تعالى قد أعطاه ما لم يعطهم، والله أعلم"[1].

وبالجملة: قال الشيخ الصيادي: والذي أراه أن ما صدر عن سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلي قُدِّس سرُّه ونفعنا الله به من الكلمات التي رؤيت بمرأى الشطحات فهي مئوَّلة متصرفة عن مقام الشطح على الغالب.

وأما بعض الكلمات التي لا تقبل التأويلات فهي نسبت إليه، ولم تكن منه ﷺ على الأصح، كالكلمات التي سمَّاها واضعها عليه من الله ما يستحق بالغوثية والمعراجية وأسندها إلى الشيخ ﷺ، وأخذ به نزه الله مقامه إلى مذهب الحلولية وأهل الوحدة المطلقة، فهي بهتان وافتراء محض عليه قُدِّس سرُّه.

وإنه ﷺ من أعظم من تحقق بقدم الاتباع للنبي ﷺ في الأقوال والأفعال، وقد دلَّت عليه إرشاداته وكمالاته وعباداته.

وقال الشيخ أبو الهدى أيضًا [2]: وقد كنت رأيت في كتاب: «الفيض الوارد» للعلاَّمة الفاضل السيد محمود أفندي الألوسي المرحوم مفتي العراق عليه رحمة الخلاَّق، ما نصَّه:

قد ذكر الإمام الربَّاني مجدد الألف الثاني في مكتوباته، أن القطبية كانت لأئمة أهل البيت أصالة، وصارت من بعدهم وكالة حتى ظهر الشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّس سرُّه فأعطيها

---

(١) وانظر: تأويل الشطح للشعراني (ص٤٤)، وكشف الأسرار للعطار (ص١٦٢) بتحقيقنا.

(٢) في قلائد الزبرجد (ص١٤٩) بتحقيقنا.

أصالة، حتى إذا ذهب إلى حظائر القدس أعطيها من جاء بعده وكأنه عنه، فكل الأقطاب من بعده نوابه، ووكلاؤه، ولا يزال الأمر كذلك حتى يظهر المهدي فيعطاها أصالة.

وفي قوله قُدِّس سرُّه:

غَربَت شُـمُوس الأوَّلِين وشَمـسُنَا أَبَــدًا عَــلَى فُلَــك العُــلا لا تَغــرُب

رمز إلى ذلك انتهى، فليحفظ!

وقال الصيادي أيضًا (ص١٥١): إن السيد الشيخ عبد القادر قُدِّس سرُّه، وغمرنا بره قد نال ما نال من القطبية بواسطة جده ﷺ على أتم وجه وأكمل حال.

فقد كان ﷺ من أجلة أهل البيت حسينيًّا من جهة الأب، حسنيًا من جهة الأم، لم يصبه نقص: لو أن..، وعسى..، وليت..، ولا ينكر ذلك إلا زنديق أو رافضي يُنكر صحبة الصديق، انتهى.

هذا والله الموفق والهادي سواء الصراط.

* * *

ذكر بعض المصنفات والمصادر

التي ترجمت لسيدي عبد القادر قدس سره

- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب القطب الجيلاني للشطنوفي (طبع دار الكتب العلمية -بيروت- بتحقيقنا).

- الجنى الداني في ذكر نبذة من مناقب عبد القادر الجيلاني، لجعفر بن حسن البرزنجي. (طبع) ومنه مخطوط ببرلين، وليبزج.

- غبطة الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر لابن حجر العسقلاني (طبع كلكتا، وبيروت).

- قلائد الجواهر في ترجمة الشيخ عبد القادر للتاذفي (طبع دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا).

- ذيل قلائد الجواهر في ذكر ذرية سلطان الأولياء الشيخ عبد القادر (الجيلاني) - مطبعة السعادة ١٣٢٦هـ.

- نزهة الخاطر في ترجمة الشيخ عبد القادر للملا علي القاري (طبع باستانبول).

- الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر للبرهان إبراهيم بن علي الديري (تحت قيد الطبع بتحقيقنا).

- مفاتيح المطالب ورقية الطالب في مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني، للديري. (هو نفسه الكتاب المتقدم).

- النشر العاطر بمناقب الشيخ عبد القادر لجمال الدين بن أحمد التونسي (طبع بتونس).

- تحذير المنكر للقدرة المعاند الغادر المعترض على كلام سيدي الشيخ عبد القادر لابن الرسام الحموي الحنبلي.

- الباهر في مناقب الشيخ عبد القادر قدس سره لابن الأهدل اليمني.

- روض النواظر في ترجمة الشيخ عبد القادر للشيخ محمد سعيد بن ذريع القادرى.

- الصبح السافر عن شمائل الشيخ عبد القادر لعبد الرحمن بن عيسى بن داود السنجاري. مخطوط بدار الكتب المصرية.

- رياض البساتين في مناقب الشيخ عبد القادر لمحمد أمين الكيلاني -طبع بتونس.

- الدر الفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر لعبد الرحمن بن السايح.

- درر الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر لابن الملقن.

- مختصر بهجة الأسرار للشيخ عبد العزيز الديريني (مخطوط يسر الله لنا تحقيقه).

- الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر للشهاب القسطلاني.

- روضة الناظر في درجة الشيخ عبد القادر للمجد الفيروزابادي.

- نزهة الناظر في مناقب الشيخ عبد القادر للإشبيلي.

- نزهة الناظر في مناقب الشيخ عبد القادر للشيخ أبي محمد عبد اللطيف بن أحمد بن محمد بن هبة الله الهاشمي البغدادي.

- تفريح الخاطر ترجمة الشيخ عبد القادر لمحيي الدين الأربلي (تحت قيد الطبع) بتحقيقنا.

- الشرف الباهر في مناقب الشيخ عبد القادر لموسى بن محمد اليونيني البعلبكي (مخطوط بدار الكتب المصرية).

- جلاء الخاطر من كلام الشيخ عبد القادر لولده سيدي عبد الرزاق.

- مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني منظومة رائية من البحر الوافر، للمشيشي.

- أنوار الناظر في مناقب الشيخ عبد القادر لابي بكر عبدالله بن نصر بن حمزة البكري الصديقى البغدادي.

- أنهار المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر للشيخ غوث الدين محمد بن ناصر الدين محمد المدارسى الهندي.

- نثر الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر للقاضى محمد بن صبغة الله بدر الدولة المدارسى الهندي.

- تلطيف الخاطر في مناقب الشيخ عبد القادر للشيخ محمد صادق السعدى الشهابي القادرى المولوي.

- النشر العاطر بمولد الشيخ عبد القادر للشيخ جمال الدين التونسى المالكى.

- السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني لابن عزوز المكي (طبع ببيروت بتحقيقنا).

- الطراز المذهب شرح قصيدة مدح الباز الأشهب للآلوسي المفسر (بتحقيقنا).

- المورد السني في ترجمة سيدنا عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني لمحمد صالح بن أحمد الخطيب القادري الحسني (طبع).

- الباز الأشهب عبد القادر الكيلاني لإبراهيم الدروبي البغدادي (طبع بالعراق).

- الباز الأشهب في حياة الشيخ عبد القادر الكيلاني لآرتين آصادور بيان.

- الكواكب الدرية في المناقب القادرية لمحمد رشيد الرافعي (مطبوع).

- نفحة الرياض العالية في بيان طريقة القادرية لمحمد رفعت بن عبد الله الرومي.

- رسالة في ذرية الجيلانيين القاطنين بحماه لمحمد سعدي بن عمر الأزهري.

- الشيخ عبد القادر الجيلاني وأعلام القادرية لمحمد درنيقة.

- زين المجالس في مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني -بلسان أردو - للقاضى محمد يوسف صاحب مركهى الهندي.

- الشراب النيلي في ولاية الجيلي لمحمد بن إبراهيم الحلبي الشهير: بابن الجيلي المتوفى : سنة ٩٧١ هـ.

وانظر في المصادر:

- الأنساب للسمعاني (٣/ ٤١٥).
- المنتظم لابن الجوزي (١٠/ ٢١٩).
- الكامل لابن الأثير (١١/ ٣٢٣).
- مرآة الزمان للشيخ اليافعي (٨/ ٩٦٤).
- العبر للذهبي (٤/ ١٧٥).
- دول الإسلام له (١/ ٣٩٣٥).
- سير أعلام النبلاء له (٢٢/ ١٥٠).
- فوات الوفيات لابن شاكر (٢/ ٢٧٣).
- الوافي بالوفيات للصفدي (١/ ٣٥٨).
- البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٢٥٢).
- ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٠).
- الطبقات الكبرى للشيخ الشعراني (١/ ١٠٨).
- شذرات الذهب لابن العماد (٤/ ١٩٨).
- كنوز الأولياء ورموز الأصفياء لأبي الليث الزيلي (ص٣٤).
- الأعلام للزركلي (٤/ ٤٧).
- معجم المؤلفين لكحالة (٢/ ٢٠٠).

ترجمة مختصرة للمؤلف

هو الشيخ العلامة الإمام عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح اليافعي اليمني المكي الشافعي الشاذلي القادري.

ولد باليمن عام ٦٩٨ هـ، ونسبته إلى يافع من حِمير.

وانتقل إلى عدن حيث أخذ عن علمائها، ثم عاد إلى اليمن ومال إلى الخلوة والانقطاع والسياحة في الجبال، ثم جاور بمكة، حيث توفي بها عام ٧٦٨ هـ.

جمع بين التصوف والشعر كما شارك في علوم اللغة والفقه والفرائض والحساب والتاريخ والحديث وعلم الكلام.

قال فيه الشيخ المناوي: الإمام القدرة، العارف المشهور، المذكور بين القوم بالمعارف، المقتدى بآثاره، المهتدى بأنواره، شهرته تغني عن إقامة البرهان، كالشمس لا يحتاج واصفها على بيان، شيخ الطريقين، وإمام الفريقين، عالم الأقطار الحجازية وصوفيها.

عفيف الدين اليمني ثم المكي الشافعي.

ولد قبيل السبعمائة بقليل بعدن، ونشأ بها تاركًا لما يشتغل به الأطفال من اللعب.

وحفظ «الحاوي» و«الجُمل» للزجاجي، واشتغل بالعلم حتى برع، ثم حج، وحُبِّبت إليه الخلوة والانقطاع والسياحة في الجبال.

وصحب الشيخ عليًّا الطواشي، ولازمه في السلوك.

قال: حصل لي فكر وتردد: هل أنقطع للعلم أو للتعبد؟

واهتممت بذلك، فرأيت ورقة -لم أرها قبل- فيها:

كُــنْ عَــنْ هُمُومِــكَ مُعْرِضَــا وَكُــلِّ الأُمُــورِ إِلَى الْقَــضَا

الأبيات المشهورة ...[1]

فسكن ما بي، وحلّ في طلب العلم، والزيارة إلى المساجد الثلاثة، ومصر والشام، ولما أتى المدينة، أقام أربعة عشر يومًا ببابها ينتظر الإذن من المصطفى ﷺ حتى أذن له.

ثم عاد لمكة وأقام بها، واشتهر ذكره وصيته في التصوف وأصول الدين.

وكان يتعصب للأشعري، ويذم ابن تيمية، ولذلك غمزة أحد الحنابلة.

وله مؤلفات في عدة علوم كلها نافعة، عليها آثار النور والبركة[2]، وما أحسن كتابه «روض الرياحين» قال فيه:

«بلغنا أن المؤمنين لا يعذبون في قبورهم ليلة الجمعة، رحمةً من الله أو شرفًا للوقت» وقال فيه عن بعضهم: «يأبى الله أن يدنس رائق حكمته، وخفي معرفته، ومكنون محبته بممارسة قلوب البطالين».

وفيه عن الخرائطي، وصدَّقَهُ الخضر: الذاكر لله سبحانه، فائدته في أول ذِكره أنه تعالى ذَكره، فبذكر الله ذكر الله.

وقال: رؤية الموتى في خير أو شر نوع من الكشف يظهره الله تبشيرًا وموعظةً أو لمصلحة للميت من إيصال خيرٍ إليه أو قضاء دين أو غير ذلك، ثم هذه الرؤية قد تكون في النوم -وهو الغالب- وقد تكون في اليقظة، وذلك من كرامات الأولياء أصحاب الأحوال.

وقال: مذهب أهل السنة أن أرواح الموتى ترد في أحد الأوقات من عليين أو سجين إلى أجسادهم في قبورهم عند إرادة الله، خصوصًا ليلة الجمعة، ويجلسون ويتحدثون، وينعم أهل النعيم ويعذب أهل العذاب، وتختص الأرواح دون الأجسام بالنعيم أو العذاب ما دامت في عليين أو سجين، أما في القبر فيشترك الروح والجسد.

وقال: أخبرني أخي على التكروري، المدفون بالقرافة، أنه حضر في ميعاد وسمع، فورد

(١) انظر: روض الرياحين (٣٠٧).

(٢) قلت: وله نشر المحاسن، والخلاصة، والعلل المضلة، وشرح حديث الافتراق، والترغيب والترهيب أربعتهم بتحقيقنا، والإرشاد، والدر النظيم، وغير ذلك.

عليه وارد، فلبث مدة يرى في اليقظة كاسات من خمر يسقاها ولا يُروى -وليست كخمر الدنيا- فيجد قوة بحيث يمسكه سبعة رجال أقوياء وإلا لَهَام ورمي نفسه في المهالك، ثم صار يرى نورًا ويجد ضعفًا، فسألني أي الحالين أفضل؟ فلم أجب بشيء.

وقال: تذاكرت مع أحد الفضلاء خلف المقام فقلت: فقير صاحب قلب أفضل عندي من ألف فقيه من فقهاء الدنيا، فقال: إذا كان يوم القيامة نصب ميزان للفقير والفقيه، فخرجت فلقيت فورًا شيخنا فقال ابتداء: قال ابن دقيق العيد: فقيرٌ عندي خيرٌ من ألف فقيه، فعجبت إذا لم يطلع على ذلك أحد.

وقال: وقد أوصى النووي أخوته عند موته بالتعبد، ونهاهم عن التوغل في الاشتغال بالعلوم.

وقال: قيل لسفيان اليمني إذا أردتنا، فاترك القولين والوجهين.

وله نظمٌ كثير في مدح الصوفية منه:

مُلُـوكٌ عَـلَى التَّحْقِيـقِ لَـيْسَ لِغَـيْرِهِم ... مِـنَ الْمُلْـكِ إلاَّ اسْـمُهُ وَعِقَابُـهُ

أُولَئِـكَ أَهْـلٌ لِلْوِلاَيَـةِ نَـالَهُمْ ... مِـنَ الله فِيهَـا فَـضْلُهُ وَثَوَابُـهُ

ومنه:

أَلاَ أَيُّهَـا الـسَّادَاتِ إنَّ طَـرِيقَكُمْ ... عَـلَى غَـيْرِكُمْ وَعْـرٌ صِـعَابٌ عِقَابُـهُ

طَرِيـقٌ كَحَـدِّ الـسَّيْفِ لله دَرُّ مَـن ... يَكُـونُ عَـلَى حَـدِّ الـسُّيُوفِ ذِهَابُـهُ

فَهَلْ مِنْ فَتِـىً فِـيكُمْ إِلَى جَـذْبِ عَـاجِزٍ ... شَـدِيدُ الْقُـوَى سَـهْلٌ عَلَيْـهِ اجْتِذَابُـهُ

وكان مؤثرًا للفقر، محبًا للفقراء، مترفعًا على أهل الدنيا.

وأتاه رجل فقال: رأيت المصطفى ﷺ وعنده أبو بكر وعمر، وهو يلقمهما تمرًا ويلقمك رطبا. فقال له أحد العارفين: لما قوي إيمان أميري المؤمنين أعطاهما التمر الكامل، ولما كنتَ بين الخوف والرجاء أعطاك رطبًا، وهذا تأويل أهل الكشف.

وذكر أحد الصالحين أنه تقطب قبل موته بسبعة أيام، ذكره الإسنوي في طبقات الشافعية وأثنى عليه وقال:

مات- رحمه الله تعالى- بمكة سنة ثمان وستين وسبعمائة، وهو إذ ذاك فضيل مكة وفاضلها، وعالم الأباطح وعاملها. ودفن بباب المصلي بجنب الفضيل بن عياض.

واليافعي نسبة إلى قبيلة من اليمن من حمير.

من تصانيفه النافعة:

- خلاصة المفاخر (كتابنا هذا).
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان.
- روض الرياحين في حكايات الصالحين.
- الإرشاد والتطريز في فضل ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز.
- الدر النظيم في خواص القرآن العظيم.
- الأنوار اللائحة في أسرار الفاتحة.
- الرسالة الكلية في طريق السادة الصوفية.
- نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ أولي المقامات العالية.
- ترياق العشاق في مدح حبيب الخلق والخلاَّق.
- شمس الإيمان وتوحيد الرحمن في عقيدة أهل الحق والإتقان.
- ديوان شعر.
- مرهم العلل المعضلة في الرد على أئمة المعتزلة والمعطلة (بتحقيقنا).
- ذكر مذاهب الفرق الثنتين وسبعين المخالفة للسنة والمبتدعين (بتحقيقنا).
- الترغيب والترهيب (الأحاديث النبوية) بتحقيقنا.

وانظر في ترجمته:

- الدرر الكامنة لابن حجر (٢/ ٢٤٧).
- طبقات الإسنوي (٢/ ٥٧٩).
- المنهل الصافي (٧/ ٧٤).
- تاريخ ثغر عدن (١٤١).
- النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (١١/ ٩٣).

- شذرات الذهب لابن العماد (٦/ ٢١٠).
- طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي (٦/ ١٠٣).
- الذيل على العبر (١/ ٢٢٥).
- العقد الثمين (٥/ ١٠٤).
- والبدر الطالع (١/ ٣٧٨).
- جامع الكرامات (٢/ ١٢٠).
- مفتاح السعادة (١/ ٢١٧).
- الأعلام للزركلي (٤/ ٧٢).

توثيق الكتاب

اعتمد في توثيق هذا الكتاب وصحة نسبته لمؤلفه من جهتين:

الأولى: ذكر المصنف لبعض كتبه والإشارة إليها في بعض مواضع الكتاب.

الثانية: ولقطب الدين : موسى بن محمد اليونيني الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٦ هـ ست وعشرين وسبعمائة ذكر فيها أنه

لما اختصر «تاريخ مرآة الزمان» لابن الجوزي رأى أنه قد اختصر في ترجمة الشيخ فأفردها وزاد عليها من كتب عديدة.

أولها : (أما بعد حمد الله عز وجل . . . الخ). كشف الظنون (٢/ ١٨٤٣).

وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٨١)، باسم «أسنى المفاخر ..».

وذكره أيضًا باسم «خلاصة المفاخر في أخبار الشيخ عبد القادر» في (١/ ٧١٩).

منهج التحقيق

إن المنهج المتخذ هو الحرص على ظهور النص سليمًا واضحًا، ولذلك نُجمل الخطوات في الآتي:

- نسخ المخطوط الوحيد فيما نعلم، وهو من رواق المغاربة تحت رقم ١٢٠١ ومقابلته على المظانّ المنقول عنها، وتوفيق النص وتوثيقه، حيث صعوبة الخط، وكثرة التصحيف والسقط، وآثار الرطوبة وغير ذلك مما كان سببًا لبذل الجهد الكبير واستغراق الوقت الطويل في حُسن استقامة النص وضبطه ضبطًا علميًا صحيحًا.
- تفصيل النص وترقيمه، وجعله موافقًا ما عليه أُصول الكتابة والطباعة الآن.
- عزو الآيات القرآنية إلى سورها، وإثبات ذلك في النص.
- تخريج الأحاديث الواردة في الكتاب من مصادر تخريجها.
- التوثيق والتعليق لبعض الأعلام الوارد ذكرها في الكتاب.
- عمل مقدمة تشمل رد بعض شبه المنكرين، والدفاع عن الشيخ عبد القادر، والترجمة للشيخ المصنف، والتعريف بالكتاب وأهميته، ومنهجية التحقيق ووصف المخطوط.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، سبحان ربك رب العزَّة عمَّا يصفون وسلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

واللهم صَلِّ وسلِّمْ وبَارِكْ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ السابقِ للخلقِ نورُه قَبْل خلقِ المخلوقاتِ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

كتبه

أبو الحسن أحمد فريد المزيدي
الشافعي الأزهري القادري المصطفوي
جوال: ٠١٠١٤٦٣٠٢٧

خلاصة المفاخر

في مناقب الشيخ عبد القادر ﵁

تأليف العلامة

عبد الله بن أسعد اليافعي الشافعي

تحقيق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

من علماء الأزهر الشريف

تقريظ فضيلة الشيخ

فضيلة الشيخ أحمد ابن الشيخ محمد مصطفى القادري النبوي

الشافعي البربلي السيلاني





بسم الله الرحمن الرحيم

قال الفقير إلى عفو الله تعالى ولطفه ورحمته وعطفه عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني الشافعي، نزيل الحرمين الشريفين، غفر الله له جميع الذنوب، وبلغه من الخيرات كل محبوب، وجمع بينه وبين سائر الأحباب والمحبوبين في دار السعادة والنعيم، آمين.

أما بعد...

حمدًا لله تعالى الذي خضع لسلطان عظمته كل شيء، وذُلِّت له أعناق الجبابرة من سائر الملوك والسلاطين، والصَّلاة والسلام الأكملين على رسوله محمد المؤيد بالآيات المدحضة حجج المبطلين من سائر الغواة والشياطين، وعلى آله وأصحابه وسائر الأنبياء الذين هم للهدى والدين أركان وأساطين.

فهذا كتاب إطراق عجائب الآيات المشتملات على غرائب الكرامات، التي هي من متمات المعجزات والبراهين، أردفتها على سبيل التكملة لكتابي الموسوم بروض الرياحين، وأسميته: «**خلاصة المفاخر في اختصار مناقب الشيخ عبد القادر وجماعة من المشايخ الأكابر**»، قدَّس الله روحه وأرواحهم أجمعين، وجمع بيننا وبينهم في دار النعيم آمين.

لعل ينتفع بذلك من وقف عليه من الفقراء المريدين السَّالكين المجدِّين.

فقد روى عن سيد الطائفة في زمانه، وجالي محاسن طريقها، ومشيِّد قصر مجدها، وسيف نجدة حماتها الشيخ الكبير، الإمام المعظَّم، الناطق من صغره بالمعارف والأسرار والحكم الحميدة: أبي القاسم الجنيد قدَّس الله روحه(١) أنه قال:

(١) هو سيد الطائفتين ومفتي الفريقين وإمامهم وتاجهم وطاوس العباد وقطب العلم والعلماء:
أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخراز القواريري قدس الله روحه ونوّر ضريحه
وكان أبوه يبيع الزجاج، فلذلك كان يقال له: القواريري، وكان هو خرازًا.
لقبه الأستاذ أبو القاسم القشيري قدَّس الله روحه في رسالته بسيد الطائفة وإمامهم، ولقَّبه جماعةٌ من الشيوخ بتاج العارفين في حكاية.
وقال الشيخ الفرغاني: كان الجنيد وأبو الحسن النوري يسميان ببغداد طاووسا العباد.
وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: كان الجنيد قطبًا في العلم، أصله من نهاوند وهي مدينة من الجبل قيل: إن نوحًا عليه السلام بناها، ومولده ومنشأه بالعراق، وكان شيخ وقته، وفريد عصره، ومن كبار أئمة =

=

القوم وسادتهم، ومقبول على جميع الآل، وكلامه في الحقائق مشهور.

تفقَّه على أبي ثور صاحب الإمام الشافعي، وكان يُفتي في حلقته، وقيل: بل كان فقيهًا على مذهب سُفيان الثوري. وصحب قدس الله روحه خاله أبا الحسن سري السقطي، والحارث المحاسبي وغيرهما من المشايخ. وأفتى وهو ابن عشرين سنة. وصحبه أبو العباس بن سُريج الفقيه الشافعي، وكان إذا تكلم في الأصول والفروع بكلام أعجب الحاضرين، فيقول: أتدرون من أين لي هذا؟ هذا من بركة مجالستي لأبي القاسم الجنيد.

قال الشيخ ابن عجيبة: وكان شيخ العارفين وقدوة السالكين وعلم الأولياء في زمانه.

وقال أحمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله المنادي: كان الجنيد بن محمد قد سمع الحديث الكثير من الشيوخ، وشاهد الصالحين وأهل المعرفة، ورزق من الذكاء وصواب الجوابات في فنون العلم ما لم ير في زمانه مثله عند أحد من قرنانه، ولا ممن أرفع سنًّا منه ممن كان ينسب منهم إلى العلم الباطن والعلم الظاهر في عفافٍ وعزوفٍ عن الدنيا وأبنائها، لقد قيل لي أنه قال ذات: يوم كنت أفتي في حلقة أبي ثور الكلبي الفقيه ولي عشرون سنة.

وكان ورده في كل يوم ثلاثمائة ركعة وكذا كذا ألف تسبيحة.

وقال ابن الأطعاني: وقد تخرَّج بصحبته خلائق في سلوك طريق الله لو ذكرتهم لطال الكلام.

وقال ابن عجيبة: وكلامه وحقائقه مدونٌ في الكتب، ثم انتشر التصوف في أصحابه وهلم جرا ولا ينقطع حتى ينقطع الدين.

وقال أبو نعيم: اشتغل بالعبادة ولازمها حتى عَلت سِنّه وصار شيخ وقته وفريد عصره في علم الأحوال والكلام على لسان الصوفية وطريقة الوعظ، وله أخبار مشهورة وكرامات مأثورة.

وله مكاتباتٌ كثيرة مشتملة على درر من المعارف والحقائق في غاية النفاسة يطول ذكرها.

وقال جعفر الخلدي: قال الجنيد ذات يوم: ما أخرج الله إلى الأرض علمًا وجعل للخلق إليه سبيلاً إلا وقد جعل لي فيه حظًا ونصيبًا.

وكان الجنيد شيخ الطائفة يتكلم على بضع عشر، قال: وما ثم في أهل مجلسه عشرون.

وأفتى وهو ابن عشرين سنة.

وقال ابن الأطعاني: وقد تخرج بصحبته خلائق في سلوك طريق الله لو ذكرتهم لطال الكلام.

وقد أُجمع على الاقتداء بعلماء لجمعهم بين علمي الظاهر والباطن، وهم: الحارث بن أسد المحاسبي، وأبو القاسم الجنيد، وأبو محمد رويم، وأبو عبد الله عمرو بن عثمان المكي، وابن عطاء.

ومما ذكره الإمام ابن الأطعاني أن الإمام الجنيد صحب الحارث بن أسد المحاسبي، والمحاسبي صحب أستاذه بشر بن الحارث الحافي، وهو صحب أستاذه عامر بن شعيب، وهو صحب أستاذه الحسن البصري قدس الله أرواحهم، وبشر الحافي صحب أيضًا الفضيل بن عياض، وهو صحب جعفر الصادق، وكان ممشاذ الدينوري فصحب أيضًا أبو عبد الله أحمد بن يحيى بن الجلاء، وهو بغدادي الأصل أقام بالرملة ودمشق،

=

وكان من أجلة مشايخ الشام، وكان عالمًا ورعًا، وابن الجلاء صحب أبا تراب عسكر بن حصين النخشبي من أجلة مشايخ خراسان المذكورين وكبارهم والمشهورين بالعلم والفتوة والتوكل والزهد والورع، مات بالبادية فنهشته السباع سنة خمس وأربعين ومائتين، وهو صحب حاتمًا بن عبد الرحمن بن عنوان، ويقال: حاتم بن يوسف الأصم من أكابر مشايخ خراسان، قيل: إنه لم يكن أصم، وإنما تصامم مرة فسمي به، وهو صحب أبا علي شقيق بن إبراهيم البلخي من كبار مشايخ خراسان له لسان في التوكل حسن الكلام فيه، وقيل: هو أول من تكلم في علوم الأحوال بكور خراسان، وهو صحب أبا إسحاق إبراهيم ابن أدهم وناهيك به، وهو صحب أبا عمران موسى ابن زيد الداعي ببلخ، وهو صحب أويسًا القرني، وهو صحب أميري المؤمنين عمر ابن الخطاب وعلي ابن أبي طالب رضي الله عن الجميع.

ونقل الشيخ الماجري ما يدل على عظم قدر الإمام الجنيد ومكانة طريقته المرضية العلية بقوله:

فمما نقلته من كلام الشيخ أبي محمد صالح- تلميذ سيدي أبي مدين الغوث قدس الله أسرارهم- أنه قال: لما قدمت من بلاد المشرق وأخذت في استعمال هذا الطريق، أنكر عليَّ ذلك فقهاء الوقف، وبدّعوني حتى ضاق صدري، وعيل صبري، فدعوت الله تعالى إن كان ما أنا عليه من هذا الطريق مما يقربني إليه فييسره عليَّ، فرأيت فيما يرى النائم قائلاً يقول لي: «لا تلتفت إلى هؤلاء الفقهاء المنكرين، ولا تسألهم إلا في مسائل الفقه، فكلهم أرضيون ما فيهم سماوي، ثم عليك برسالة القشيري وحقائق السلمي ومنهاج العابدين؛ ففيها ما تطلبه، وخذ الطريق عن أربابه، مثل محمد بن واسع، وسفيان الثوري، ومالك بن دينار، والجنيد، وشقيق، وإبراهيم، والفضيل، وغيرهم».

فاستخرت الله في ذاك واستعنته، وعالجت منه ما قدر حتى فتح الله لي بما هو حظي منه.

وقال السراج الطوسي: إن الجنيد البغدادي مع كثرة علمه وتبحره وفهمه ومواظبته على الأوراد والعبادات وفضله على أهل زمانه بالعلم والدين، فكم من مرة طُلب وأُخذ وشهدوا عليه بالكفر والزندقة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقال التادلي حينما ترجم له في كتاب المعزى: وهذا الإمام ممن اتفق على جلالته المتقدمون والمتأخرون وله كرامات وآيات أضربنا عنها اختصارًا إذ الجبل لا يحتاج إلى مرساة.

تُوفي قدَّس الله روحه يوم السبت، وكان نيروز الخليفة سنة سبع وسبعين ومائتين، وقيل: ثمان وسبعين، آخر ساعة من نهار الجمعة ببغداد، ودُفن يوم السبت بالشونيزية عند خاله وشيخه سري السقطي رضي الله عنهما، وقبره بها ظاهر يزوره الخاص والعام، وكان عند موته قد ختم القرآن الكريم، ثم بدأ من سورة البقرة فقرأ سبعين آية ثم مات.

وقال أبو محمد الجريري رحمه الله تعالى: كنت عند الجنيد حال نزعه، وكان يوم جمعة، ويوم نيروز، وهو يقرأ القرآن فختم، فقلت له: في هذه الحالة يا أبا القاسم، فقال: ومن أولى مني بذلك وهو ذا تطوى صحيفتي؟. وقيل له حال نزعه قل: لا إله إلا الله، فقال: ما نسيته فأذكره.

«الحكايات جندٌ من جنود الله، تقوى بها قلوب المريدين، قيل له: هل في ذلك شاهدٌ؟ أو قيل: هل لذلك مصداقٌ من كتاب الله؟ قال: نعم، قوله تعالى:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]»(١).

وقد كنتُ أودعتُ كتابي المذكور(٢) خمسمائة حكاية مع ما تشتمل عليه من علوم أخرى، ما يستحسنه كل فقيرٍ ذي ذوقٍ وتحقيقٍ، وكل فقيهٍ ذي قصدٍ وتوفيقٍ، ولا عبرة بكل قدم جامد، وكل صدٍّ معاند، وممن باهى باستحسانه الشيخ الفقيه الإمام العالم العامل الولي الشهير نجم الدين الأصبهاني- رحمه الله تعالى- قال بعد أن سمع بعض هذا الكتاب: ما يجيء إلا من علومٍ كثيرةٍ.

=

وقال أبو بكر العطار: حضرت وفاة الجنيد مع جماعة من أصحابه، وفيهم أبو محمد الجريري فنظر إلى الجنيد وهو منشغل بما هو فيه من درس القرآن والركوع والسجود، فقال له: يا أبا القاسم لو رفقت بنفسك، فقال: يا أبا محمد حالة وصلت بها إلى الله تعالى في بدء أمري لا أفارقها أبدًا حتى ألحق بالله، ثم قال له الجنيد: يا أبا محمد لي إليك حاجة إذا مت فغسلني وكفني وصلِّ عليّ، قال: فبكى الجريري وبكينا، ثم قال: وحاجة أخرى: تتخذ لأصحابنا طعام الوليمة، فإذا انصرفوا من الجنازة رجعوا إلى ذلك حتى لا يقع بهم التشتت. قال: فبكى الجريري بكاءً شديدًا، ثم قال: والله لإن فقدنا هاتين العينين لا اجتمع منا اثنان أبدًا، وقال أبو جعفر الفرغاني: فكان والله كذلك ما اجتمع اثنان بعد وفاته، وإنما كان ذلك ببركة الشيخ ورؤيته.

ودُفن بالشونيزية بالضم ثم السكون ثم نون مكسورة وياء مثناة من تحت ساكنة وزاي وآخره ياء النسبة، مقبرة ببغداد بالجانب الغربي، وقد دفن فيها جماعة كثيرة من الصالحين منهم جعفر الخلدي ورويم وسمنون المحب، وهناك خانقاه للصوفية -قدس الله أسرارهم. وحرز الجمع الذي صلّى عليه فكان ستين ألفًا. وقال صاحب مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار: قبره يزوره الخاص والعام وإليه المرجع في هذا الطريق. وانظر في ترجمته: كتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين، وروضة الحبور لابن الأطعاني بتحقيقنا.

(١) انظر: روضة الحبور لابن الأطعاني (ص١٩) بتحقيقنا، واللمع للطوسي (ص٢٧٥)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١/ ٥٧٧)، ومدارج السالكين لابن قيم (٢/ ٣٦٦)، وكتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين (ص٢٨٣).

(٢) قلت: يقصد كتاب «روض الرياحين» وهو مطبوع عدة طبعات .

ثم قال: ينبغي لك أن تصنِّف كتابًا في الردِّ على أهل البدع[1]، وذلك قبل أن أضع كتابي الموسوم: «مرهم العلل المعطلة في الردِّ على الأئمة المعتزلة»[2].

وذلك أن الفقيه الإمام الجميل الصالح السيد الجليل، راوي الحديث النبوي، إبراهيم بن العلوي المحدث اليمني لما وقف على كتابي «روض الرياحين» كتب إِلَيَّ كتابًا يذكر فيه مدح الكتاب المذكور واستحسانه، وكثرة ما جمعت فيه متمثلاً بقول الشاعر:

وَلَيْسَ عَلَى الله بِمُسْتَنْكِرٍ ... أَنْ يجمع العَالم فِي وَاحِدِ

وكذلك الفقيه الإمام الكبير المعروف بفخر الدين المصري، لما سمع بعض كتابي الموسوم بـ«الإرشاد»، وطالع جميع كتابي الموسوم «نشر المحاسن» قال:

لقد انتفعت بهذا الكتاب، وأما المستحسنون لذلك من الفقراء المباركين والأولياء السالكين يطول ذِكرهم، بل يتعذر حصرهم، بل ما هو على ذلك أكمل وأشرف قدرًا وأفضل.

وهو حضور المصطفى ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقت سماعه عليّ بالمدينة الشريفة، جالسين ثلاثتهم في الروضة المعظَّمة، شاهد ذلك في اليقظة بعض الأولياء من سادات اليمن الأصفياء.

فلما تمَّ المجلس ودعوت التفت ﷺ إلى أبي بكر الصديق ﷺ وتبسَّم.

الحمد على ذلك وعلى جميع النعم.

ثم إني أردت أن أردف الكتاب المذكور بما يمن من الحكايات المعرسات، المشتملات على الآيات العجيبات، الدَّالات على سعة فضل الله العظيم، وممن اصطفاه من عباده الصالحين، فألفت ذلك من بعض الجواهر المودعة في مناقب تاج المفاخر الذي خضعت لقدمه رقاب الأولياء الأكابر، إمام العارفين، وقطب الأولياء المقرَّبين:

محيي الدين عبد القادر الجيلاني- قدَّس الله روحه- ونوَّر ضريحه، حاذفًا الأسانيد لحكايات مناقبه الجليلات، ومناقب جماعة ممن عظمه وأثنى عليه من المشايخ الأجلَّة

---

(١) قلت: وله أيضًا كتاب الفرق الثنتين وسبعين، طبع بتحقيقنا، ضمن مجموعة أولها: البرهان للسكسكي.

(٢) طبع بدار الكتب العلمية -بيروت- بتحقيقنا.

السَّادات، مختصرًا للمناقب، معرسًا على كل مُطَّالع من كلامهم، عسى أن يقف على ذلك من هو أهله ولو بعد حين، فيفهمه ولو بعد [سنين] متصفًا بما قال بعض العارفين مع أحباب المحبِّين، ومنَّ علينا بها منَّ عليهم به آمين آمين.

واعلم إنها أعني العرائس: أي الحكايات النوادر التي يحنُّ إلى ذكرها أهل الطاعات المريدين، وأرباب القلوب المنورات، مما يدل على عظم فضل الله الذي خصَّ به من اصطفاه من عباده، وعلو هممهم في المجاهدات، وتسخير الحق سبحانه لهم جميع الكائنات، فها أنا أبتدئ بذكر الحكايات.

* * *

الحكاية الأولى

عن الشيخ العارف بالله الشهير، الممنوح منـزلة الأشياخ، تاج العارفين أبي الوفا قدّس الله روحه قال:

سمعت شيخنا أبا محمد الشنبكي - بفتح الشين المعجمة، وسكون النون، وفتح الباء الموحدة والكاف -ﷺ(١) يقول:

(١) قال أبو العباس التادلي: وممن شهد للشيخ عبد القادر الجيلاني أبو محمد الشنبكي، من قبيلة الشنابكة فرقة من الأكراد السودان.

وكان من الأولياء الأعلام، انتهت إليه رئاسة هذا الشأن فيما حاكاه ابن بادس والوريندي وصاحب الروض وصاحب حرز الأتقياء، وصحب بعد شيخه ابن هوارة أبا الوفاء شيخ الشيخ سيدي عبد القادر، وكان كثير التواضع، شديد الحياء، واشتهر ذكره في الآفاق، يقصده الزوار من كل إقليم، وكان متبعًا لآداب الشرع وأحكامه، مقتفيًا لآثار المتقين، وكان في بدء أمره يقطع الطريق مع أصحاب له بالبطائح، فأخذوا قافلة وقتلوا ما قتلوا، واقتسموا من انتهبوا، ثم صاروا فلما جاءوا زاوية الشيخ ابن هواره قال لأصحابه: اذهبوا أما أنا فقد أخذ الشيخ ابن هوارة بمجامع قلبي، فلم أستطع أن التفت يمينًا وشمالاً، فقالوا له: ونحن معك، وإذا بالشيخ خارج تلقاهم، فقالوا: يا سيدي الحرام في بطوننا، والدماء في سيوفنا، فقال لهم: زروها؛ فقد قبلتم على ما فيكم، فتابوا وتولى الشيخ ابن هوارة سياسة الشيخ الشنبكي ثلاثة أيام، ثم قال له في اليوم الرابع: سر إلى موضع كذا، وادعُ الله عز جل، فقد صرت شيخًا مكملاً، فقيل له: بما وصلت إلى الله تعالى في ثلاثة أيام، قال: تركت الدنيا في اليوم الأول، وتركت الآخرة في اليوم الثاني، وطلبت الله في اليوم الثالث طلبًا مجردًا عمن سواه فوجدته.

واشتهر وظهرت بركاته، وذكر صاحب حرز الأتقياء أنه سُئل عن الشيخ أبو العباس الرفاعي، فقال: كل السيوف تغمد إلا سيف الشنبكي.

ويُحكى عنه أيضًا أنه مرَّ على قوم بأيديهم أواني الخمر، فقال: اللهم طيب عيشهم في الآخرة، فصارت أواني الخمر ماء صافيًا زلالاً، وألقى الله عليهم الخشية، فصاحوا وتابوا وكسروا الآلات.

قلت: ومن المشهور أن أبا يزيد اتفق له في الزُّهد كما وقع للشنبكي، فقال لما سُئل عن أي شيء هو الزهد: إنما بقيت ثلاثة أيام زهدت اليوم الأول في الدنيا، والثاني في الآخرة، والثالث فيما سوى الله، وفي الرابع همت فيه، وقيل لي: يا أبا يزيد لا تقوى معنا، فقلت: هذا الذي أريد.

ورُوي عنه أنه قال: سمعت ذلك في المنام، فسمعت قائلاً يقول لي: وجدت وحرت، ومات رحمه الله عام إحدى وستين ومائتين، وقيل: أربع وستين وقيل غير ذلك.

ومن كلامه ﷺ: إن في الليل شرابًا لقلوب لأهل المعرفة، فإذا شربوا لطارت قلوبهم حبًا في الملكوت، حبًا لله ﷻ وشوقًا إليه، فلذلك يقطعون لياليهم إذا أظلمت عليهم ألا وإن الناظرين إليه لا إلى غيره ذهبوا بصفو الدنيا والآخرة.

«كان شيخنا أبو بكر بن هُوار(١) - بضم الهاء - ﷺ سالحي يقطع الطريق بالبطائح، فلما تاب وانقطع إلى ربه ﷻ على قدم الصدق والإخلاص في إرادته، ووقع عنده أن يسلم نفسه إلى من يوصله إلى ربِّه تعالى، ولم يكن بالعراق يومئذٍ شيخ مشهور من أهل الطريق، فرأى في منامه رسول الله ﷺ وأبا بكر الصديق ﷺ، فقال: يا رسول، ألبسني خرقة؟. فقال له: «يا ابن هُوار كما أُمرت».

وألبسه الصدِّيق ﷺ ثوبًا وطاقية ومرَّ بيده على رأسه، ومسح على ناصيته، وقال: بارك الله لك فيك.

فقال له رسول الله ﷺ: «ليخرجن أهل الطريق من أمتي بالعراق بعد موتها، ويقوم منازل أرباب الحقائق من أحباب الله بعد دروسها، وفيك تكون المشيخة بالعراق إلى يوم القيامة، وقد هبَّت نسمات الله بظهورك، وأرسلت نفحات الله بقيامك(٢)».

ثم استيقظ فوجد الثوب والطاقية بعينهما عليه، وكانت على رأسه ثآليل فلم يرها، وكأنما نُودي في الآفاق أن ابن هواري وصل إلى ربه ﷻ.

فأهرع إليه الخلق من كل قُطرٍ، وبدت علامات قربه من الله ﷻ، وترادفت أخباره عن ربِّه ﷻ.

قال الراوي وهو تلميذ الشيخ أبي محمد الشنبكي: وكنت آتيه والأُسد مُحلقة به يتمرَّغ بعضها على قدميه.

=

وقال: من رأيته يدَّعي مع الله حالاً يخرجه عن حد علم الشريعة فلا تقربن منه، وذكر كلامًا معروفًا لأبي الحسن النوري، فلا أدري أهو بنفسه أم ألهمه الحق إليه، والله أعلم.

وهو مع عظيم مقامه كان كثير الثناء على الشيخ سيدي عبد القادر، ويقول: هو سلطان الأولياء.

وقال أيضًا في سيدي عبد القادر: سيسري ذكره في مشارق الأرض ومغاربها، وهو ممن يباهى به رسول الله ﷺ يوم القيامة.

(١) هو البطائحي، من قبيلة من الأكراد تعرف بالهوارين.

من كلامه: التصوف ذكر بإجماع، ووجد باستماع، وعمل باتباع.

وقال: الجمع بالحق تفرقة عن غيره، والتفرقة من غيره جمع به.

وانظر: الطبقات الشعرانية الكبرى (١/ ١١٥)، وجامع الكرامات للنبهاني (١/ ٢٥٦)، والكواكب الدرية للمناوي (٢٠٥) بتحقيقنا.

(٢) هذا حديثٌ كشفيٌّ صحيحٌ.

قال: وهو أول من أسَّس المشيخة بالعراق بعد انقراض مشايخ الرسالة، ومن في طبقتهم ومن يليهم، رضوان الله عليهم أجمعين.

قلت: وممن رأى أن الصدِّيق ﷺ ألبسه في النوم الشيخ الكبير العارف بالله علي بن وهب السنجاري قال: رأيت أبا بكر الصدِّيق ﷺ في النوم فقال لي: يا علي قد أُمرت أن ألبسك هذه الطاقية. وأخرج من كمه طاقية ووضعها عليَّ، واستيقظت والطاقية بعينها على رأسي.

الحكاية الثانية

عن الشيخ أبي محمد المذكور قال: رأيت يومًا بين يدي الشيخ ابن هوار ﷺ أسدًا عظيمًا يعفر خديه في التراب على هيئة المخاطب، والشيخ كأنه يرد عليه جوابه، ثم انصرف الأسد، فقلت: بالذي أنعم عليك، ما قلت لهذا الأسد وما قال لك؟ فقال: إنه قال: لي ثلاثة أيام لم أذق فيها طعامًا، وقد أضرَّني الجوع واستغثت الليلة عند السَّحر.

وقيل لي: رزقك بقرة في الهامية تفترسها على سوء ينتابك، وإني أخاف من ذلك السوء، ولا أعلم ما هو؟ فقلت له: هي جراحةٌ تصيبك في جنبك الأيمن، تتألم منها أسبوعًا ثم يزول ألمها.

يا شنبكي: إني نظرت في اللوح المحفوظ وإذا البقرة من رزقه، ولا بدَّ له منها، ويخرج من أهل الهامية[1] أحد عشر رجلاً يموت منهم ثلاثة، يموت أحدهم قبل الآخر بساعتين، ويموت ثالثهما بعد ثانيهما بسبع ساعات، وتصيب الأسد من أحدهم جراحة في جنبه الأيمن ويبرأ بعد أسبوع.

قال: فأسرعت إلى الهامية فإذا الأسد قد سبقني إليها، وخرج من أهلها أحد عشر رجلاً، وأصابه أحدهم بجراحةٍ واسعةٍ في جنبه الأيمن، ورأسه تسحب البقرة معه، وجراحته تشخب دمًا، وبت عندهم تلك الليلة، فمات أحد المجروحين وقت المغرب، ومات الآخر بعد العشاء، ومات الأخير عند السَّحر، ثم أتيت الشيخ بعد أسبوعٍ، فرأيت الأسد بين يديه برئت جراحته.

---

(١) الهامية: بلدة من نواحي واسط، بينها وبين خوزستان لها نهر يأخذ من دجلة، منسوبة إلى همام الدولة منصور بن دبيس بن عفيف الأسدي، وليس هذا بصاحب الحلة المزيدية، فهؤلاء أمراء تلك النواحي في أيام بني مزيد أيضًا. وانظر: معجم البلدان (٥ / ٤١٠).

الحكاية الثالثة

عن الشيخ الكبير العارف بالله الشهير، سيدي أحمد بن الحسن الرفاعي، قدَّس الله روحه، قال: سمعت خالي الشيخ منصور ﷺ يقول:

أول من ذلل الأسد والحيات لأهل البطائح الشيخ أبو بكر بن هوار، وسبب ذلك أنه أراد أن يرحل عن البطائح ويسكن المدن، فأحدقت الأسد والحيات والكواسر والجن والطيور، وسألته بالله العظيم ألا يرحل عنهم، فأخذ عليهم ألا يؤذوا مريدًا له ولا محتاجًا إلى يوم القيامة، وأن يطيعوه حيثما كانوا ما دامت الدنيا.

قال: وأتته امرأة من البطائح وقالت له: إن ابني قد غرق في الشط وليس لي سواه، وأنا أقسم بالله العظيم أن الله أقدرك على ردِّه عليَّ، فإن لم تفعل شكوتك إلى الله وإلى رسوله، أقول: يا رب آتيته ملهوفة وكان قادرًا على ردِّ لهفتي فلم يفعل، فأطرق ثم قال: أريني أين غرق ابنك، فأتت به إلى الشط فإذا ابنها قد طفا على وجه الماء ميتًا، فسبح الشيخ في ذلك الماء حتى وصل إليه، فحمله على عاتقه وأعطاه أمه، فقال: خُذيه فقد وجدته حيًّا، فانصرفت وهو يمشي معها ويده في يدها كأن ما به شيءٌ قط.

وكان الشيخ ابن هوار المذكور من عظماء مشايخ العراق المتقدمين، والأجلاَّء الأصفياء العارفين، وصدور السَّادة المقرَّبين، صاحب الكرامات الظاهرة، والمقامات الفاخرة، والسرائر الزاهرة، والبصائر الباهرة، والجلالات العظيمة، والأحوال الجسيمة، والأفعال الخارقة، والأنفاس الصَّادقة، والهمم العليّة، والرُّتب السنيَّة، والإشارات النورانية، والنفحات الروحانيَّة، والأسرار الملكوتية، والحضرات القدسية، والتصريف في العوالم والأيام عند الخاص والعام، وله كلامٌ عال في علوم المعارف والأسرار، من ذلك قوله:

التوحيد: إفراد القديم عن الحديث، والخروج عن الأكوان، وقطع المحاب، وترك ما علم وجهل، وأن يكون الحق مكان الجميع.

وعلم التوحيد مباين لوجوده، ووجوده مفارق لعلمه، وإذا تاهت عقول العقلاء في التوحيد تاهت في الحيرة.

التصوف: أن تكون مع الله بلا علاقةٍ مع ذكرٍ باجتماعٍ، ووجدٍ باستماعٍ، وتجملٍ باتِّباعٍ، وأن الحكمة تنطق في قلوب العارفين بمعاني التصديق، وفي قلوب العباد بلسان التوفيق، وفي

قلوب المريدين بلسان التفكُّر، وفي قلوب العلماء بلسان التذكر، وفي قلوب المحبِّين بلسان الشوق.

الحكاية الرابعة

عن الشيخ الكبير العارف بالله أبي سعيد القَيلوي - بفتح القاف وسكون المثناة من تحت ورفع اللام - رضي الله عنه(١).

قال: حدَّثنا بعض أهل الحدادية أنه بنى دارًا وشيَّدها، وغصب في بنائها الصنَّاع، وسخَّر لها رجل من أصحاب الشيخ أبي محمد الشنبكي، وكثرت منه الشكاوى، فلما جاز الشيخ أبي محمد يومًا بها فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠]، فسقطت الدار من أعلاها، ودكت قواعدها، فقال الشيخ: لن يعلو أبدًا إلى ما شاء الله، فكانوا كلما أحكموا بنائها وشيدوها سقطت، وما استطاع أحدٌ أن يرفع ثَمَّ جدارًا قط.

وعن الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبي الحسن علي بن الهيتي - بكسر الهاء وسكون الياء المثناة من تحت - رضي الله عنه حكى لي الشيخ الشريف أبو سعيد الحامدي رضي الله عنه قال: ما مررت يومًا بالحدادية إلا وسمعت النوبة بالجو تضربها الملائكة بالولاء للشيخ أبي محمد الشنبكي،

---

(١) هو من أكابر العارفين، والأئمة المحققين، وصاحب الأنفاس الصَّادقة، والأفعال الخارقة، والكرامات والمعارف، وكان يفتي ببلده وما حولها.

وكان يتكلَّم بقلورية على علوم الشرائع والحقائق على كرسيّ عالٍ، وقُصد بالزيارات من سائر الأقطار، وكان يلبس العمائم، ويتطيب، ويركب البغلة.

وكان يأتيه الخضر عليه السلام كثيرًا، ودُعي إلى طعامٍ هو وأصحابه، فمنعهم من أكل ذلك الطعام، وأكله وحده، فلما خرجوا قال لهم: أنا منعتكم من أكله؛ لأنه كان حرامًا، ثم تنفَّس فخرَّج من أنفه دخان عظيم كالعمود، وصعد إلى الجو حتى غاب عن أبصار الناس، ثم خرج من فمه عمود نار وصعد إلى الجو حتى غاب عن النظر، ثم قال: هذا الذي رأيتموه هو الطعام الذي أكلته عنكم.

ومن كلامه: التصوُّف: التبري مما دون الحق سبحانه وتعالى، كما قال إبراهيم عليه السلام: فإنهم عدو لي إلا رب العالمين.

وكان يقول: التوحيد: غض الطَّرف عن الأكوان بمشاهدة مكونها سبحانه وتعالى.

سكن رضي الله عنه قلوريَّة: قرية من قرى نهر الملك، قريبة من بغداد، وبها مات قريبًا من سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وقبره ظاهرٌ يُزار. انظر في ترجمته: طبقات الشعراني الكبرى (١/ ١٢٧)، وبهجة الأسرار (ص٣٠٤)، والانتصار (ص٤٤٥) كلاهما بتحقيقنا.

والساؤوش - أو قال: الشاؤوش - يصيح له في السماء بالسلطان، وأرى الملائكة يسلمون عليه بالاحترام والتبجيل أفواجًا أفواجًا، وأنا الآن أسمع ذلك من جميع آفاق العراق، وما رأيت بلاءً نازلاً من السماء ومرَّ على الحدادية إلا تفرَّق وارتفع.

وكان ﷺ من أجلاَّء مشايخ العراق المشهورين، وأعيان العارفين المحققين، وأجلاَّء الصفوة المقدمين، عليّ المقامات السامية، وعليّ الكرامات السامية، صاحب الأحوال السَّنية، والهمم العليَّة، والأسرار القدسية، والأنوار الجمالية، والفتح السني، والكشف الجلي، والوصل الهني، والآيات الخارقة، والجلالات والإكرام، والقبول التام عند الخاص والعام، والتصريف النافذ في الوجود والأحكام.

ومن كلامه ﷺ:

ملاك السير إلى المعالي، إصلاح الباطن لمراد الحق، وإسقاط رؤية القرب، والاعتماد على الله ﷻ لرفع الحجب.

وأقرب القلوب إلى الله تعالى قلب رضي بصحبة الفقراء، وآثر الباقي على الفاني، وشهد سوابق القضاء، وأيس من أفعاله.

وإذا عجزت عن شيء فلا تعجز عن رؤية ضعفك.

والعلماء بالله هم الواقفون معه على حدود الآداب، لا يتجاوزونها إلا بإذنٍ.

وأنفع العلوم العلم بالله.

ومن استغنى بشيء دون الله فقد جهل قدر الله تعالى.

ومن زيَّن باطنه بالمراقبة والإخلاص زيَّن الله ظاهره بالمجاهدة واتِّباع السنة.

ومن رأيته يدَّعي مع الله حال يخرجه عن حدِّ الشريعة فلا تقربن منه. ومن رأيته يركن إلى الدنيا جلسة فلا تقربن منه. ومن رأيته يسكن إلى الرئاسة والتعظيم فإيَّاك وإيَّاه. ومن رأيته مستغنيًا بنفسه فاعلمن جهله.

ومن ادَّعى سرًّا مع الله تعالى لا يشهد له حفظ ظاهره فاتهمه في دينه.

ومن رأيته يرضى عن نفسه ويسكن إلى وقته فهو مخدوعٌ.

نسأل الله الكريم السلامة.

الحكاية الخامسة

عن الشيخ الكبير أبي الحسن بن الشيخ أبي البركات إسماعيل بن سعيد النيسابوري البغدادي -رضي الله عنهما- أنه قال: سمعت أبي يقول: كان الشيخ عزاز - بالعين المهملة

والزاي المكررة مع تشديد الأولى منهما قبل الألف بينهما - البطائحي ﷺ يمشي بين النخيل، فاشتهى الرطب فنـزلت له عراجين النخل حتى دنت من الأرض، فأكل منها، ثم عادت إلى حالها أولاً.

وكانت الجنُّ تُكلمه، والأُسد تأنس به، والوحوش تألفه، والطير تأوى إليه - أو قال: تأتي إليه.

وقيل: إنه مرَّ بأسدٍ قد افترس شابًّا في البطيحة، وقد قصم ساقه نصفين، وكان الأسد قد قطع الطريق، وأعيا الرجال، وتضرَّر به أهل البطائح.

فصاح الشيخ عليه فولى منهزمًا هاربًا ذليلاً، وجعل يمرغ خديه بين يديه، فتناول الشيخ من الأرض حصاة قدر الفولة، وخدشه بها فخرَّ ميتًا، ثم جاء الشيخ إلى ذلك الشاب، ووضع ما انكسر من ساقه في موضعه، وأمرَّ عليه يده فإذا هو شفيٌّ، فقام يعدو إلى أهله فأخبرهم، فجاء الناس وأخذوا جلد الأسد.

الحكاية السادسة

عن الشيخ أبي المظفر عبد السميع بن عبد الله أبي عبد السميع الواسطي -رحمه الله تعالى- قال: قدم عزاز من البطائح إلى بغداد؛ ليتبرك به، فلما دخل القصر واخترق الدَّهاليز، فكلما نظر إلى سِتر مرخى إلا تمزق قطعًا، فلما اجتمع به المقتدى قال لَه الشيخ: سيقصدك ملك العجم في جيشٍ لا قبل لك به، وقد ملكت جيشك رقاب جيشه، وملكتك من عنقه.

فبعد مدة يسيرة جاء ملك العجم إلى بغداد في عددٍ عظيمٍ، فوقع الحال كما قال الشيخ، وأسر الملك واعتقل ببغداد أيامًا.

وقال: قيل للشيخ منصور ﷺ: إن الشيخ عزاز[1] لما نظر إلى الستور تمزَّقت فقال: الحجب

(١) قال أبو العباس التادلي: وممن شهد للشيخ سيدى عبد القادر الشيخ أبو محمد عزاز بن مستودع من أئمة هذا الشأن رفيع القدر وذكره صاحب حرز الأتقياء وابن بادس وصاحب الروض قالوا:
وهو ممن انتهت إليه رئاسة هذا الشأن فى زمانه، ويُلقب بالباز الأشهب، وكان جميل الصفات، كامل الأدب، كثير الحياء، عاقلاً، متبعًا لأحكام الشرع، كثير المجاهدة، مداومًا عليها، لطيف المعانى، له كرامات.
وله كلامٌ على طريق العرفان، وكانت الجن تكلمه والأسود تستأنس به والطير والوحش كذلك.
وكان يقول: من أنس بالله أنس به كل شيء، ومن خاطبه الله خاطبه كل شيء، ومن هاب الحق هابه كل شيء.
وكان يمشى بين النخيل فإذا اشتهى رطبًا تدلى له حتى يصله فيأخذ منه حاجته ويرجع لعلوه.

=

تتمزَّق بأنفاسه، وتُطوى بهمته، فكيف لا تتمزَّق الستور.

الحكاية السابعة

عن الشيخ الجليل أبي المعمر إسماعيل بن بركات الواسطي خادم الشيخ عزاز ﷺ قال: سمعت الشيخ عزاز ﷺ يقول: ورد عليَّ في بدايتي حال استغرقت فيه أربعين يومًا لا آكل، ولا أشرب، ولا أميز بين الأمرين.

ثم رجعت إلى حسِّي فذُهلت عن نفسي سبعة عشر يومًا، ثم عدت إلى حكم العادة، فاشتهت نفسي إلى خبز بر وسمكة مشوية، وماء عذب في إناءٍ جديد أحمر، وكنت إذ ذاك على الشط، فرأيت في وسط اللجة أشباحًا سودًا، فلما قربت مني إذا بثلاث سمكات يسبحن في الماء، على ظهر إحداهنَّ رغيف، وعلى الأخرى إناء فيه سمكة مشوية، وعلى ظهر الأخرى إناء جديدًا أحمر، والأمواج تضربهنَّ يمينًا وشمالاً، وما زِلن حتى انتهين إليَّ فألقت كل منهنَّ ما عليها بين يدي، كأنه إنسانٌ وضع بين يدي إنسان ما يريد، ثم استبقن في الماء، فتناولت الرغيف فإذا هو من خبز البر الأسمر، كالجمار حار ساخنًا، فأكلت منه بالسمكة المشوية، وشربت من الإناء الجديد ماءً لم أذق في دار الدُّنيا أحلى منه، فأكلت من الطعام وما نقص منه عشره وتركت الباقي.

ومن كلامه ﷺ:

الغفلة غفلتان: غفلة رحمة وغفلة نقمة. فأما التي هي رحمة كشف الغطاء؛ ليشاهد القوم العظمة والجلال، فينقلون من العبودية إلى الستر، وينتقلون من مراعاة الستر إلى المراقبة وإرادات الهيبة.

وأما التي هي النقمة فاشتغال العبد عن طاعة الله بمعصيته، أو التفاته إلى رؤية الكرامات غافلاً عن الاستقامة في العبودية.

والعارف يخاف زوال ما أُعطي، والخائف يخاف نزول الوعيد.

=

وكم له من مثل هذه الكرامات، ومع جلالة قدره قال في الشيخ عبد القادر: سيدخل بغداد شابٌّ شريفٌ من العجم يفتقر إليه الوجود بأسره أو قال: كله، ويسلم إليه الكون بجميع ما فيه من الفاضل والمفضول، وله لسان ناطق بين يدي الله تعالى في حضرة القدس، وهو من أرباب المراتب التي فاتت كثيرًا من الأولياء. وانظر: المعزى، وبهجة الأسرار (ص٢٦١) بتحقيقنا.

والخوف ينشأ من لحظ سطوة العزل.

والرجاء ينشأ من بسط رق الفضل.

والأرواح تلطفت بالأشواق فتعلقت عند لوعات الحقيقة بأذيال المشاهدة. فلم تَرَ غير الحق معبودًا، وأيقنت أن الحديث لا يدرك القديم بصفات معلولة، وقلوب العاشقين طائرة إلى الحق بأجنحة المعرفة، سائرة بموالات المحبَّة، مجذوبة بأنوار قدسية إلى أنوار أنسية، ومنه إلى راحة تحويل القلب من الأسباب.

التصوُّف: الجلوس مع الله بلا همٍّ.

والتجريد: بارقة تحرق البقايا، وتمحق الرسوم، وتعصم من رؤية الكون.

والوجد: نورٌ مزهرٌ مقرونٌ بنيران اشتياق تحرق البقايا، وتلوح على الهياكل آثاره.

والمحبَّة: كأس لها وهج في الأسرار.

انتهى مختصرًا من نفائس جواهر معرفته ﷺ.

وكان قدَّس الله روحه من أكابر مشايخ العراق المصطفين، وأعيان أجلَّة العارفين، وأصفياء الصفوة المقرَّبين، صاحب الكرامات الخارقة، والمقامات العليَّة، والأسرار القدسية، والسرائر الموثقة، والبصائر المشرقة، والمعارف الشريفة، والحقائق اللطيفة، والفتح السني، والمشرب الهني، والمقر الأرفع في محاضر القدس، ومنادمة التحقيق في بساط الأنس، والقدم الراسخ في التمكين الواسع، والباع الطويل في التصريف النافذ من غير منازع، وما يطول من الفضائل ذكره ويتعذر منها حصره.

الحكاية الثامنة

عن شيخ الشيوخ أبي الحسن عبد اللطيف، ابن شيخ الشيوخ أبي البركات إسماعيل النيسابوري قال: سمعت أبي رحمه الله تعالى يقول: قصد جيش العجم إلى بغداد مرة في حياة الشيخ منصور البطائحي رحمه الله تعالى[1]، فلما تقابل الجيشان، وكان الشيخ منصور جالسًا

---

(١) قال صاحب المعزى: وممن شهد للشيخ سيدي عبد القادر الشيخ الإمام أبو علي منصور خال الشيخ أبي العباس الرفاعي، من أصحاب الشيخ أبي محمد الشنبكي، وبه تخرَّج، وكان مصاحبًا أيضًا للشيخ الرفاعي، وله مغربات وكرامات، وهذا المختصر لا يحتمل بسطها وإنما هو للتلميح لأوصاف الشيخ سيدي عبد القادر ﷺ.

=

بين أصحابه على تل مشرف على الجيش.

فبسط الشيخ يده اليمنى وقال: هذه لجيش العراق، وبسط يده اليسرى وقال: هذه لجيش العجم، ثم صفق بينهما فتصادم الجيشان، ثم قبض يده اليسرى وجمع بين أصابعها شديدًا، فظهر جيش العجم على جيش العراق، وهزم العراقيون.

ثم بسط يده اليسرى وقبض يده اليمنى وجمع بين أصابعها شديدًا، فظهر جيش العراق على جيش العجم، وهُزموا هزيمة فاضحة، ورجع العراقيون إلى ديارهم ظافرين مسرورين.

الحكاية التاسعة

عن علي بن إدريس اليعقوبي قال: سمعت الشيخ علي بن الهيتي قال: طرقت منازلة من منازلات الغيب عشرة من الأولياء على زمن شيخنا الشيخ تاج العارفين أبي الوفا قدَّس الله روحه، فاشتركت فيها أسرارهم، وأشكل شيء من أمرها عليهم، فاجتمعوا وأتوا إلى تاج العارفين ليسألوه عنها، فوجدوه نائمًا، وسمعوا كل عضوٍ منه ينطق بالتسبيح والتهليل، فجلسوا ينتظرون يقظته، فنطقت لهم أعضاؤه وخاطبتهم، وكشف لهم عما كان أشكل عليهم فانصرفوا قبل أن يستيقظ ﷺ.

ومن كلامه ﷺ: من هيَّمه أثر النظر وأقلقه سماع الخبر ينقطع في مفاوز الأشواك، ولا

=

قال صاحب حرز الأتقياء: سُئل عنه أبي العباس الرفاعي؟ قال: ذلك الوفي البرُّ في صعوده ونزوله من السماء إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء.

وهو مع جلالة قدره قال في الشيخ سيدي عبد القادر: سيأتي زمانٌ يفتقر إليه وتعلو منزلته بين العارفين ويموت وهو أحب أهل الأرض إلى الله تعالى ورسوله.

ويُحكى عن الشيخ أبي علي منصور أنه كانت والدته وهي حامل به دخلت على الشيخ الشنبكي فقام لها فاستعظم ذلك جلساءه فقال: ما قمت لها إنما قمت إجلالاً للجنين الذي في بطنها يعني أبا علي هذا.

وقال الموصلي: كان مقامه الشَّريف مدثورًا فرأته امرأة في المنام يأمرها باستخراج قبره الشَّريف وتكرَّرت الرؤيا، فحدَّثت المرأة أباها فحفر المكان، فظهر فيه قبر عليه صندوق وفيه مكتوب اسمه فوضع فوقه قبَّة، وبنى له مشهدًا ومسجدًا، وأرادوا أن يحفروا له بئرًا فرأته في المنام، فأخبرها بمحل بئره القديمة، فحفروا فظهرت لهم البئر، وبقي محلّه الشَّريف مزارًا يقصده الكبار والصِّغار، يتبرَّكون به ويرون بركاته، وقد جرَّب من زاره وتوسَّل إلى الله به في قضاء حاجته تُقضى سريعًا ﷺ ونفعنا ببركاته آمين، هذا والله أعلم. وانظر في ترجمته: المعزى، وبهجة الأسرار (ص٢٦٥)، والانتصار للأولياء الأخيار (ص٥٦٥) بتحقيقنا.

يلتفت إلى الآفات القاطعات عن التلاق.

ويقول: الذِّكر ما غيبك عنك بوجوده، وأخذك منه بشهوده، والذِّكر شهود الحقيقة وجمود الخليقة.

ومنه من ضيع حكم وقته فهو جاهلٌ، ومن قصر فيه فهو غافلٌ، ومن أهمله فهو عاجزٌ، والسليم إرسال النفس في ميادين الأحكام، وترك الشفقة عليها من الطوارق، والقوة مجاذبة السر عند اصطلام العبد بشاهد الحضور، واستغراق القلب في بحر المشاهدة لغلبة الشهود.

وكان ﷺ من أعيان مشايخ العراق في وقته، وأجلاَّء العارفين في عصره، وأكابر السَّادات المقرَّبين، وأجلة المصطفين السابقين، صاحب القدم الراسخ والقرب والتمكين، والتصريف النافذ في العالمين، انتهت إليه رئاسة هذا الشأن بالاتفاق، وتخرَّج به جماعة من صدور مشايخ العراق مثل: الشيخ علي بن الهيتي، والشيخ بقا بن بطو، والشيخ عبد الرحمن الطفسونجي، والشيخ فضل الباذراني، والشيخ ماجد الكردي، والشيخ أحمد النقلي اليماني وغيرهم.

وكان له أربعون خادمًا من أصحاب الأحوال.

قال بعضهم: وهو أول من سُمِّي بتاج العارفين بالعراق فيما أعلم.

وهو القائل: لا يكون الشيخ شيخًا حتى يعرف من كاف إلى قاف، فقيل له: ما كاف وما قاف؟ قال: يطلعه الله ﷻ على جميع ما في الكون من ابتداء خلقه (بكن) إلى مقام ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات:٢٤].

الحكاية العاشرة

عن الشيخ علي بن الهيتي المتقدم ذكره رحمه الله تعالى[١].

---

(١) قال الكردي الموصلي: هو من أكابر مشايخ العراق وأعيان العارفين، وهو أحد من نُسب إلى القطبيّة العظمى، وكانت عنده الخرقتان اللتان ألبسهما أبو بكر الصدِّيق ﷺ لأبي بكر بن هوار البطائحي في النوم، فاستيقظ فوجدهما عليه، وهما ثوب وطاقية، وكان أعطاهما أبو بكر لأبي محمد الشنبكي، وأعطاهما الشنبكي لتاج العارفين أبي الوفاء، وأعطاهما أبو الوفاء للشيخ علي بن الهيتي، وأعطاهما الشيخ عليّ للشيخ ابن إدريس، ثم فُقدتا، ومكث ﷺ ثمانين سنة ليس له خلوة ولا معزل، بل ينام بين الفقراء، وذلك لأن فتحه أتاه من طريق الوهب.

وكان الشيخ عبد القادر الكيلاني يقول لما دخل بغداد: كل من دخل من الأولياء بغداد فهو في ضيافتنا، ونحن في ضيافة الشيخ عليّ بن الهيتي.

=

قال: كان الشيخ منصور البطائحي ﷺ من أكابر المشايخ نافذ التصريف، مُجاب الدعوة، ظاهر الكرامات، كثير البركات، شديد الهيبة، تنفعل له بنظرته ما يريد بإذن الله تعالى.

فمرَّ يومًا بالبطيحة فإذا هو بأسد قد افترس رجلاً، وقد قصم عضده نصفين فجاء إلى الأسد، وأمسك بناصيته وقال: ألم أقل لكم لا تتعرضوا لجيراننا؟ فذل الأسد له وأفلت الرجل، فقال له الشيخ: مت بإذن الله تعالى، فوقع الأسد ميتًا، وأخذ الشيخ ما انفصل من عضد الرجل فوضعه مكانه، وقال: يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام أجبر عظمه الكسير، فصح عضده وكأن لم يكن به شيءٌ، وسلخ جلد الأسد بيده تلك.

وقال الشيخ الكبير العارف بالله أبو محمد عبد الرحمن الطفسونجي - بالطاء المهملة والسين وبينهما فاء ساكنة، وبعد الواو نون وجيم وياء اللينة - ﷺ:

رأى رجلٌ في زمن الشيخ منصور البطائحي ﷺ بلاءً نازلاً من السماء على العراق، كقِطع الغمام يعم الأديان والأبدان، فاستأذن الشيخ منصور في دفعه - أو قال في رفعه -، فأذن له وقال له: قد رحمت أرض أنت فيها، فأخذ قضيبًا وأشار بيده نحو البلاء، فتفرَّق فقال: اللهم اجعله علينا رحمة، فصار سحابًا وأمطر وانتفع الناس به كثيرًا.

وقال الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أحمد بن أبي الحسن بن الرفاعي قدَّس الله روحه: سُئل شيخنا خالي الشيخ منصور رحمه الله تعالى عن المحبَّة فقال وأنا أسمع: المحب سكران في خماره، حيران في شرابه، لا يخرج من سكره إلا إلى حيرته أو سكره.

وأنشد:

إنَّ البلاَدَ وَمَا فِيْهَا مِنَ الشَّجرِ   لَوْ بِالهوَىَ عَطِشتْ لَمْ تُروَ بالمقلِ

لَوْ ذَاقَتْ الأرضُ حُبَّ الله لاَشْتَغَلَتْ   أشْجَارهَا بِالهوَىَ فِيْهَا عَن الثَّمرِ

=

وكان الشيخ عبد القادر يقول: تفتق رتق قلب الشيخ علي الهيتي وهو ابن سبع سنين، وكان ﷺ يخبر عن المغيبات، وتظهر على يديه الكرامات، وأجمعت العلماء على جلالته وعلوّ منصبه.

سكن وزيران بلدة من أعمال نهر الملك، إلى أن مات بها سنة أربع وستين وخمسمائة، وقد غلب سنُّه على مائة وعشرين سنة، وبها دُفن وقبره بها ظاهر يُزار.

وانظر: طبقات الشعراني (١/ ١٢٥)، وكرامات النبهاني (٢/ ١٦١، ١٦٠).

وَعَادَ أَغْصَانها جرداً بلاَ وَرَقٍ   مِنْ حَرِّ نَارِ الهَوَى تَرْمِين بالشررِ
لَيْسَ الحديد وَلا شم الجبَال إذَا   أَقْوَى عَلَى الحبِّ لِلهَاوِي مِن البشرِ

ثم قام إلى شجرةٍ هناك خضرة نضرة فتنفَّس عندها، فيبست وتناثرت أوراقها.

ومن كلامه ﷺ: من فرَّ بدينه إلى الله ﷻ، وهو يتهمه في رزقه فهو يفر منه لا إليه.

وكل موجودٍ في الدنيا لا يكون عونًا على تركها فهو عليك لا لك.

وما ابتلى الله العبد بشيءٍ أشد من الغفلة والقسوة.

وكلما ارتفعت منـزلة العبد كانت العقوبة إليه أسرع.

ومن اغترَّ بصفاء العبودية داخله نسيان الربوبية، ومن شهد صنع الربوبية في إقامة العبودية فقد انقطع على نفسه وسكن إلى ربِّه ﷻ.

ومنه نهاية الإرادة أن يشير إلى الله تعالى فيجده مع الإشارة والكشف.

سواطع الأنوار لمعت في القلوب بتمكين معرفة السرائر، وحملته في الغيوب من غيبٍ إلى غيبٍ، حتى شهد الأشياء من حيث أشهده الحق إيَّاها، فتكلم عن ضمائر الخلق، وإذا ظهر الحق على السرائر لم يبقَ لها فضل لرجاء ولا خوف.

ومنه إذا بسط الجليل جلَّ جلاله بساط المجد دخلت ذنوب الأولين والآخرين في حاشيةٍ من حواشي كرمه، وإذا أبدى عينًا من عيون الجود، ألحق المسيء بالمحسن.

وأول درجات الحضور حياة القلب بالله، ثم الغيبة عن كل شيءٍ بالله، ثم بقاء القلب مع الله.

والعبرة يفهمها العقلاء، والإشارة يعرفها الحكماء، واللطائف تقف عليها السَّادة من الشيوخ.

وكان يتمثل بهذين البيتين:

فَلاَذُوا بِهِ مِن بَعْد كلِّ إهَانَةٍ   ليَاذ مفر بالخضوعِ مَعَ الجدِّ
بجدٍّ وتشميرٍ مع الواجبِ الَّذِي   بِهِ عرفوه بالودود عن الودِّ

وكان ينشد أيضًا:

الحبُّ كالموت يفني كل ذِي شغفٍ   ومَنْ يطعمه أودَى بِهِ التَّلف

فِي الحبِّ مَات الَّذِين صفوا محبتهم لَـوْ لَمْ يحبـوا لمـا فِي حبِّـه تلفـوا

وكان ﷺ من أكابر شيوخ أهل العراق المقدمين، وأجل السَّادة العارفين، وسلالة الصفوة المحققين، ورؤساء أهل الحضرة المقرَّبين، عليّ المقامات، وسنيّ الكرامات، صاحب الأنفاس الصَّادقة، والآيات الخارقة، والنفحات القدسية، والمنادمات الأنسية، والهمم العلية، والعزائم السنية، والأنوار الزاهرة، والأسرار الباهرة، والقدم الراسخ في التمكين من أحوال النهاية، والباع الطويل في التصريف في أحكام الولاية.

الحكاية الحادية عشرة

عن الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبي النجيب السهروردي ﷺ قال: كان الشيخ حماد الدباس[1] أول شيخ فتح الله عليَّ ببركته، وكانت دباسته لا يدخلها دبور ولا ذباب، وكان

---

(١) قال الشطنوفي: هذا الشيخ من أجلاَّء مشايخ بغداد، ورؤساء زهادهم، وأعلام عارفيهم، صاحب الكشف الخارق، والأحوال النفيسة، والكرامات الظاهرة، والوجاهة السنية، والقبول التام عند الخلق، له الطور الرفيع من المقامات، والمكان المكين في القرب من الله رب العالمين.

وقال الذهبي: الشيخ حماد بن مسلم الدباس أبو عبد الله الرحبي الزاهد القدوة نشأ ببغداد وكان له معمل للدبس. وكان أميًّا لا يكتب. له أصحاب وأتباع وأحوال وكرامات. دوّنوا كلامه في مجلدات. وكان شيخ العارفين في زمانه.

وقال صاحب المعزى: وممن شهد للشيخ سيدي عبد القادر أنه قطع المقامات وأنه حاز قصب السبق على التمام الشيخ أبو الخير شمس الدين حماد الدباس، وكان من أشياخه ومن أئمة هذا الشأن، رفيع الهمة والقدر، عالي المقام.

قال صاحب حرز الأتقياء مع الرواة المتقدمين: هو من أعيان أرباب الحقائق الراسخين فى علوم القوم، وانعقد عليه الإجماع فى الصداقة، وما والاها أنه إمام العصر فى وقته، وكان أبو الوفاء قبل أن يسكن بغداد إذا قدم بغداد ينـزل عليه، وكان مشايخ بغداد يتأدبون معه وينصتون لقوله.

قال الشيخ أبو النجيب السهروردي: وهو أول شيخ فتح الله عليّ ببركاته، وخرج يومًا لزيارة قبر سيدى معروفًا الكرخى فسمع فى طريقه صوت جارية تغنى فى دار سيدها فرجع فسأل أهل منـزله أى ذنب أذنبت اليوم حتى عوقبت؟ فتذكروا فلم يجدوا شيئًا إلا أنهم اشتروا إناء وجدوا فيه صورة فقال من هنا أوتى عليّ وهى الصورة من الإناء.

قلْت ذنوبهم فعرفوها، وهكذا شأن الصديقين إذا قعدوا فى أمر رجعوا لأنفسهم فاتهموها إذ ليس لهم عدو غيرها والشيطان.

وكانت له أحوال وكرامات ومما اشتهر عنه أنه كان له صاحب من أرباب الدولة ووزراء الخليفة وأنه أخذ
=

بعض مماليك المسترشد يتردَّد إلى زيارته، فقال الشيخ: إني أرى لك في السابقة نصيبًا من القرب إلى الله ﷻ في الدرجات العُلا، فاترك دنياك وانقطع إلى الله ﷻ.

فلم يفعل، وكان بمنـزلة من الخليفة، فدخل عليه يومًا وأنا عنده، وأعاد عليه القول فامتنع من موافقة الشيخ. فقال له: إن الله ﷻ قد حكمني فيك لآخذ بك إليه، شئت أو لم تشأ، وإني أمرت البرص أن يغشاك.

قال: فوالله ما أتم كلامه حتى عم البرص جميع البدن يعني المملوك. وبهت الحاضرون وقام ودخل على الخليفة وأحضر له الأطباء، فأجمعوا ألا دواء له، فأشار عليه وجوه دولته بإخراجه من القصر، فأُخرج، وأتى إلى الشيخ حماد وقبَّل رجليه، وشكا إليه سوء حالته، والتزم موافقته فيما يأمره.

فقام إليه الشيخ ونزع قميصه الذي كان على جسده، وقال: اذهب أيها البرص من حيث جئت، فإذا جسده كالفضة البيضاء. فخطر له أن يرجع إلى الخليفة من الغد، فضرب الشيخ بإصبعه على جبهته، فخط في غرته خطًّا فإذا هو خط برص، وقال: هذا يمنعك من الدخول على الخلفاء، فلزم خدمة الشيخ إلى أن مات رحمه الله تعالى.

= عنه ولازمه بالزيارة وهو على رتبته فقال له: يا هذا إني أرى لك سابقة خير وخصوصية وأردت أن أجذبك إلى حضرته فأمره بالخروج عن المملكة والتردد إليها فأبى.

قال: إن الله ﷻ قد حكَّمنى فى أمرك، وقد أمرت البرص أن يغشاك، وأصبح وإذا البرص شاع فيه وعم جسده كله فأجمع الخليفة الأطباء لعلاجه، فأجمعوا كلهم على أن البرص إذا عم الجسد لا دواء له، فأشاروا للوزراء على إخراجه من القصر، فرجع إلى الشيخ وتضرَّع إليه، والتزم موافقته فأعطاه قميصه وقال: يا أيها البرص ارجع بقدرة العزيز العليم من حيث جئت، فإذا بالبرص كأنه ثوب نزعه وصار جسده أبيض كالفضة أحسن مما كان فخطر بباله أنه من الغد يرجع إلى الخليفة، فإذا بالشيخ خط له فى جبهته خطًّا فإذا هو خط برص فقال له: ماذا يمنعك من الدخول على الملك ومع هذا يقول فى الشيخ سيدى عبد القادر هو الجبل الذى لا يتحرك ولا يتزلزل.

وروى أنه دخل عليه يومًا فقام إليه إجلالاً فقال: مرحبًا بالجبل الراسخ الذى لا يتخلخل ولا يتحرك أنت سيد العارفين.

وكان ابن عقيل يحط عليه ويؤذيه. توفي في رمضان. وانظر: المعزى للتادلي، وبهجة الأسرار للشطنوفي (ص٢٧٣) بتحقيقنا، والعبر (١/ ٢٤٨).

الحكاية الثانية عشرة

عن الشيخ أبي النجيب السهروردي[(١)] أيضًا قال: أتيت في بدايتي إلى الشيخ حماد الدباس

---

(١) هو الشيخ الكبير، الولي الشهير، العارف الخبير، ذو المقامات العالية، والأحوال السنية، والأنفاس الصادقة، والكرامات الخارقة، والتصانيف المفيدة الوثيقة في الشريعة والحقيقة، ضياء الدين، ويلقب أيضًا بنجيب الدين أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله أبي جعفر المعروف بعَمويه بفتح العين وتشديد الميم المضمومة وسكون الواو وفتح الياء: ابن سعد بن الحسين بن القاسم بن النضر ابن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ﷺ القرشي التيمي البكري السهروردي بضم السين وفتح الرآء، بُليدة عند زِنجان من عراق العجم.

فهو الفقيه الصوفي الواعظ كان من أعيان المحققين، وأعلام العلماء العاملين، والصفوة العارفين.

وهو أحد من درّس بالنظامية على مذهب الشافعي وتصدّر للفتاوى، ووضع التصانيف منها في أداب التصوف: كتاب «البيان» وكتاب «آداب المريدين».

وكان يلقب مفتي العراقين وقدوة الفريقين، انعقد عليه إجماع المشايخ والعلماء بالاحترام، وأوقع الله له في الصدور القبول التام، وكان يشرح أحوال القوم، ويتطيلس ويلبس لباس العلماء، ويركب البغلة، وترفع بين يديه الغاشية على ما نقله بعض العلماء في تصنيفه.

تفقه على أسعد الميهني بالنظامية، وقرأ الأدب على أبي الحسن بن أبي زيد الفصيحي النحوي، وسمع بأصبهان أبا علي الحسن بن أحمد الحداد المقري، وببغداد أبا علي محمد بن سعد الكاتب وغيرهم، ثم سلك طريق الصوفية، وصحب الشيخ حمادًا الدباس، ثم من بعده صحب الشيخ أحمد الغزالي بإشارة الشيخ حماد، وأقام عنده، وفتح باب الخير، وعلت حالته، وعاد إلى بغداد وتكلم في الوعظ وطريق التصوف، وظهر له القبول الكثير من أهل زمانه، وانتفع به خلق كثيرون، ولزم طريق التصوف، وأملى الحديث حتى صار المشار إليه في علم الطريق المتوحد في سلوكها على الحقيقة.

قال الوزير أبو غالب عبد الواحد بن الحصين: كان الشيخ أبو النجيب السهروردي من محاسن مشايخ الإسلام، صاحب الأخلاق الكريمة والنفس الزاكية الطاهرة، والمواساة التي لا تقتصر على المعارف حتى تجاوز الأجانب إلى الأعداد والإيثار على نفسه مع الخصاصة والنصح لكل مخالف مؤالف ومواذٍ ومعادٍ، والغيب الحافظ لكل أحدٍ من خلق الله تعالى، فما ذكر أحدًا من الناس بما يكرهه لو بلغه من مسلم ولا ذمي ولا سُني ولا بدعي، ولا تجاوز قط في دروسه ومذاكرته الكتاب والسنة، ولا نصر قط مقالة أصولية ولا خاض في عقيدة، ولا غضب ولا عتب، ولا دعى على أحدٍ، ولا رأيت قط منه مع طول صحبته حالة لم ترو عن السلف.

وقال أبو سعيد السمعاني: تفقّه في المدرسة النظامية زمانًا، ثم هبّ عليه نسيم الإقبال والتوفيق، فدلّه على الطريق وانقطع عن الناس مدة مديدة، ثم رجع ودعا الخلق إلى الله تعالى، ورجع جماعة كثيرة بسببه وتركوا ما هم فيه من أشغال الدنيا والانغماس فيها، وبنى رباطًا لأصحابه على الشط من الجانب
=

ﷺ، وشكوت إليه كثرة مجاهدتي وبُطء الفتح عليّ، فقال: ائتني غدًا بشدّ من لبن بعد قيامك من الدرس، ولا تغير زيك، فلما كان الغد وخرجت من المدرسة وما غيرت شيئًا من لباسي، ذهبت إلى السوق واشتريت شدّ لبن، فحملته على رأسي ومشيت في وسط بغداد، واتفق أن لقيني كل من يعرفني فصار الناس يقفون وينظرون إليّ، وكنت كلما خطوت خطوة تذوب نفسي كما يذوب الدهن على النار، فلما قربت دباسة الشيخ حماد رأيته واقفًا على بابها كالمنتظر لي، فنظر إليّ نظرة ملأني بها، وغاب عقلي، وسقطت لوجهي، وتبدد اللبن على الأرض، وأنا إلى الآن في بركات تلك النظرة.

قلت: و(الشد) بفتح الشين، والدَّال المشددة مهملتين، هو لغة أهل العراق: إناءٌ من خزف واسع الرأس، منه ما يسع قربة وأكثر وأقل.

وعن الشيخ أبي شجاع بسنده إلى الشيخ عبد القادر، دخل على الشيخ حماد يزوره، فنظر إليه الشيخ وكان قد رأى كأنه اصطاد بازيًا، فأثرت نظرة الشيخ فيه، فخرج من عنده وتجرَّد من أسبابه، وكان من كبار أصحابه.

الحكاية الثالثة عشرة

عن الشيخ الأصيل أبي الطاهر ابن الشيخ الجليل أبي العباس أحمد بن علي الصرصري قال: سمعت أبي رحمه الله تعالى يقول: مرَّ الشيخ حماد الدباس ببعض قرى بغداد فرأى بعض أمراء الدولة المستظهرية راكبًا سكرانًا، فأنكر عليه فسطا عليه الأمين.

فقال الشيخ: يا فرس الله خذيه، فعدت به فرسه كالبرق الخاطف تسبق النظر، وفرَّت ولم يعلم أين ذهب، فبعث الخليفة الخيل وراءه فلم يسمع له خبر، ولم يقف له على أثر.

فقال الشيخ تاج العارفين أبو الوفا: وعزة من له العزة لم تستقر به فرسه دون بر ولا بحر ولا سهل ولا جبل، حتى ذهبت به ومن بعث الخليفة إلى وراء جبل قاف.

=

الشرقي، سكنه جماعة من الصالحين من أصحابه ومن ينتمي إليه.

وقال السمعاني: حضرت عنده يومًا، فسمعت من كلامه ما انتفعت به.

انظر في ترجمته: البداية والنهاية (١٢/ ٢٥٤)، مرآة الجنان (٣/ ٣٧٢)، شذرات الذهب (٣/ ٢٠٨)، الروضتين لأبي شامة (١/ ١٩١)، وفيات الأعيان (١/ ٤٨٠)، وروضة الحبور (ص١٦٩)، وبهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي (ص ٤٣٥)، كلاهما بتحقيقنا.

ومن كلام الشيخ حماد الدَّباس ﵁: القلوب ثلاثة: قلبٌ يطوف في الدنيا، وقلبٌ يطوف في الآخرة، وقلبٌ يطوف بالمولى.

طهّر قلبك باليقين لتجري فيه الأقدار[1].

وقال: أقرب الطُّرق إلى الله ﷻ حبه، وما تصفو المحبة حتى يبقى المحب روحًا بلا نفسٍ، وما دام له روحٌ فلا بدَّ أن يحب في الله تعالى، وعند فناء النفس تجيء محبة الله الصَّادقة.

وكان ﵁ من أجلاَّء مشايخ بغداد، ورؤساء أجلَّة الدَّالين على الله، المشهورين بالجلالة والقضاء في البلاد، وأكابر السَّادات العارفين الأعلام، وأصحاب الدرجات العُلا، والأحوال السنية، والتصريف النافذ في الأنام مع القبول التام عند الخاص والعام، والتمكين عند الخالق، وكثرة المريدين المنتفعين والأتباع، والفضائل الشهيرة المنعقد عليها الإجماع، وهو أحد من صحب قطب الأولياء، وقدوة العارفين محيي الدين عبد القادر الجيلاني ﵁ وعنهم أجمعين ونفعنا بهم، آمين.

الحكاية الرابعة عشرة

حكى بعض الشيوخ الأجلَّة أن الشيخ الكبير يوسف بن أيوب الهمداني ﵁[2] كان يومًا

---

(١) انظر: السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني (ص٤٤٠) بتحقيقنا.

(٢) قال المناوي: ابن يوسف بن الحسين الهمداني أبو يعقوب.

نـزيل مرو، أحد الأولياء الأكابر، تفقه في مذهب الإمام الشافعي ﵁ على صاحب التنبيه وقدمه على صغر سنه، وسمع الخطيب وغيره، ثم انقطع وتزهد وتعبد، واجتمع في رباطه بمرو خلق كثير، وعقد له مجلس الوعظ والتذكير ببغداد.

وله كرامات كثيرة منها: أن رجلاً من جماعته خرج عنه وصار يقع فيه بما هو بريء منه، فقال الشيخ: هذا رجل يقتل فقتل.

وقعد يومًا للوعظ، فقام إليه فقيه يعرف بابن السقاء وسأله عن مسألة وأذاه فقال له: اجلس، فإني أجد منك رائحة الكفر، ولعلك تموت على غير الإسلام، فقدم نصراني أرسله طاغية الروم إلى الخليفة فمشي ابن السقا إليه وسأله أن يصحبه فصحبه، وقال: يقع لي أن أترك دين الإسلام ويدخل في دينكم، فتوجه معه إلى الروم وتنصر ومات هناك بعد أن كان حافظًا للقرآن مجودًا، ورآه رجل هناك على دكة مريضًا فسأله: هل القرآن على حفظه؟ قال: ما أذكر منه إلا آية واحدة ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

نسأل الله الثبات على الإسلام والإيمان، بمنه وكرمه آمين.

مات الشيخ الصالح، صاحب الأحوال والكرامات سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، ذكره السمعاني.

وانظر: الكامل (١١/ ٨٠)، طبقات الإسنوي (٢/ ٥٣١)، طبقات الشعراني (١/ ١٣٥)، الكواكب الدرية (٤٥٣) بتحقيقنا.

يتكلم على الناس، فقال له فقيهان كانا في مجلسه: اسكت فإنما أنت مبتدعٌ. فقال لهما: اسكتا لا عشتما، فماتا مكانهما.

قال: وأسر الإفرنج ولد امرأة من أهل همدان، فجاءت إلى الشيخ يوسف المذكور باكية فصبَّرها فلم تصبر.

فقال: اللهم فك أسره وعجِّل فرجه، ثم قال لها: اذهبي إلى دارك تجديه بها، فذهبت المرأة فإذا ولدها في الدار، فتعجبت وسألته قال: إني كنت الآن بالقسطنطينية العظمى والقيود في رجلي، والحرس عليَّ، فأتاني شخصٌ ما رأيته قط فاحتملني، وأتى بي إلى هنا كلمحة البصر.

فجاءت إلى الشيخ يوسف متعجبة فقال: أتعجبين من أمر الله؟!.

وكان له القدم الراسخ في العلوم والمعارف، واليد البيضاء في الفتاوى الدينية، والباع الطويل في الأحكام الشرعية، والإيضاح الجلي عن مخفيات الحواصل، والفعل الخارق في التصريف الظاهر.

واجتمع عنده في الخانقاة من العلماء والفقهاء والصلحاء جماعة كثيرة، وانتفعوا بكلامه وانتهت إليه تربية المريدين بخراسان.

ومن كلامه ﷺ: السماع سفير إلى الحق، ورسول من الحق، وهو لطائف الحق وزوائده، وفوائد الغيب وموارده، وبوادي الفتح وعوائده، ومعاني الكشف ومقاربه، وهو للأرواح قوتها، وللأشباح غذاؤها، وللقلوب نضارتها، وللأسرار نقاؤها، هتاك الستر، وكشاف السر، وبرقة لمعت، وشمس طلعت.

وسماع الأرواح باستماع القلوب على بساط القرب تشاهد الحضور من غير حضور، والسماع يكون في كل فكرةٍ ولحظةٍ وتدبُّرٍ وتذكرٍ وتفكرًا وهبوب كل ريح وحركة كل شجرةٍ، ونطق كل ناطقةٍ في الكون، وتراهم والهين حيارى أسارى خاشعين سُكارى.

الحكاية الخامسة عشرة

يُحكى عن بعض أهل العلم أن الشيخ الكبير العارف بالله الشهير عقيلاً المنبجي ﷺ أنه خرج مع جماعة من المريدين يزورون، فلما وصلوا إلى الفرات وضع كل منهم سجادته على

الماء ومرَّ عليها، ووضع الشيخ عقيل المذكور سجادته وجلس على الماء، فغاص في الماء، فلم يشعروا به إلا على البر من الجانب الآخر، ولم يبتل منه شيء، فذكروا ذلك لشيخه فسأله فقال: عقيل من الغواصين، وهو المُسمَّى بالطيار؛ لأنه لما أراد الانتقال من قريته التي كان مقيمًا فيها ببلاد المشرق صعد إلى منارتها وطار والناس ينظرون، فجاءوا فوجدوه في منبج.

وهو أحد الأربعة الذين قال فيهم الشيخ أبو الحسن القرشي ﷺ: رأيت أربعة من المشايخ يتصرفون في قبورهم كتصرف الأحياء: الشيخ عبد القادر، والشيخ معروف الكرخي، والشيخ عقيل المنبجي، والشيخ حياة بن قيس الحراني، رضي الله عنهم أجمعين.

الحكاية السادسة عشرة

عن الشيخ الأصيل أبي الخير ابن الشيخ الإمام أبي عمرو عثمان بن مرزوق القرشي[1] قال:

---

(١) هو العالم العابد العارف الزاهد، وكان ذا علم وفضل وخير وعدل، وهمة بلغت في السلوك السماك، وعزمة ليس لها عن الحزم انفكاك.

وهو من مشاهير مشايخ مصر، وكان يفتي بها على مذهب الإمام أحمد ﷺ وانتهت إليه الرياسة في طريق الصوفية، وقصد لكشف منازلاتهم.

وكان لا ينكرها عليه أحد إلا بهت عند رؤيته وانجاب.

وقال: الاعتراف بولايته أولى وأليق بالصواب، ما أنت ومكاثرة هذه الغنائم ومكابرة هذه السمائم ومنافخه هذه الكمائم ومناوحه هذ الحمائم.

ومن كلامه: لا سبيل لأحد معرفة كنه ذات الحق تقدس، وإنما يصل الناس معرفته إلى الاعتبار بآياته ومصنوعاته.

وقال: لو تناهت الحكم الإلهية في حد العقول أو انحصرت القدرة الربانية في درك العلوم، لكان ذلك تقصيرًا في الحكمة ونقصًا في القدرة.

وقال: من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس عليه لمعرفته بأنها مأوى كل شر.

وقال: من لم يقدر على صحبة مولاه لقلة صبره عليه ابتلى بصحبة العبيد.

وقال: من تحقق بالرضا تلذذ بالبلاء.

وقال: من حلية العارف الخشية والهيبة.

وكان له ستمائة مريد، فطلبوا منه أن يحدثهم بشيء من الحقائق فقال: لو تكلمت بكلمة واحدة منها أفتى بقتلي أعظمكم وأجلكم.

ومن كراماته: إنه كان يخرج من بيته بمصر بعد العشاء، فيطوف بالبيت ويشرب من ماء زمزم ثم يزور المصطفى ﷺ ثم بيت المقدس ثم يعود إلى بيته قبل الفجر.

وكان يتكلم بجميع اللغات، وإذا أراد إنسان أعجمي أن يتكلم بالعربية أو عكسه تفل في فيه فيصير يعرف تلك اللغة.

وزاد النيل زيادة كادت مصر أن تغرق، وثبت فلم ينزل، فعزم أهلها على الجلاء وضجوا، وفات وقت =

سمعت أبي يقول: جلس الشيخ عقيل المنبجي ﷺ في أول أمره هو وسبعة عشر رجلاً من أصحاب الأحوال من مريدي الشيخ سلمة ﷺ في غارٍ، ووضع كل منهم عكازه - أو قال: غرزه - في مكانٍ في الغار، فجاء رجال من الهواء فجعلوا يرفعون كل عكازٍ، وجاءوا إلى عكاز الشيخ عقيل فراموا أن يرفعوه بأيديهم فرادى ومجتمعين فلم يستطيعوا، فلما رجعوا إلى الشيخ سلمة أخبروه فقال: أولئك أولياء الزمان، كل عكازٍ رفعوه فصاحبه في مقام رافعه أو دونه، فلذلك يطيق رفعه، وليس فيهم أحد مقامه يعلو مقام عقيل ولا يشاركه، فلذلك لم يُطق رفع عكازه.

الحكاية السابعة عشرة

عن الشيخ أبي المجد المبارك بن أحمد [عن الفزاري(١)] رحمه الله تعالى قال: حضرت الشيخ عقيلاً يومًا تحت جبل وعنده جمعٌ من الصلحاء، فقال له أحدهم: يا سيدي ما علامة الصادق؟ قال: لو قال لهذا الجبل: تحرَّك لتحرك. قال: فتحرَّك الجبل.

ثم قال له: يا سيدي ما علامة المتصرف في الوجود؟ قال: لو أمر وحوش البحر والبر أن تجتمع وتأتيه لفعلت. قال: فما أتمَّ كلامه حتى نزل علينا من الجبل وحوش سدَّت الفضاء، وأخبرنا الصيادون أن شط الفرات امتلأ في ذلك الوقت سمكًا من أصناف شتى.

ثم قال: يا سيدي وما علامة المبارك على أهل زمانه؟ قال: لو وكز برجله هذه الصخرة لتفجَّرت عيونًا. قال: فتفجَّرت صخرة كانت بين يديه عيونًا ثم عادت صخرة صماء على حالها الأول.

وقال أيضًا ﷺ: المعرفة فيما تستأثر به، والعبودية فيما أمر به، والخوف ملاك الأمر. فخوف

=

وكان يتكلم بجميع اللغات، وإذا أراد إنسان أعجمي أن يتكلم بالعربية أو عكسه تفل في فيه فيصير يعرف تلك اللغة.

وزاد النيل زيادة كادت مصر أن تغرق، وثبت فلم ينزل، فعزم أهلها على الجلاء وضجوا، وفات وقت الزرع، فأتوه فتوضأ منه فنقص في الحال نحو ذراعين وانكشفت الأرض.

وتوقف عن الزيادة في بعض الأعوام فغلا السعر، فتوضأ منه بإبريق فارتفع حتى خافوا الغرق.

مات سنة أربع وستين وخمسمائة عن نحو سبعين سنة، ودفن بالقرافة فيما بين روضة الشافعي ﷺ والجبل وقبره بها ظاهر يزار، وانظر: ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٣٠٦)، الكواكب السيارة (١٩٧)، طبقات الشعراني (١/ ١٥٠)، والكواكب الدرية (٤٢٨).

(١) هكذا في الأصل، وفي بعض المصادر (الهروي)، وبعضها (الواسطي) وفي البهجة (ص٢٨٠) الغزازي.

العارفين أن تتوجه إرادتهم إلى أفعاله ﷺ، وخوف الأولياء أن يوجد هواهم في الله تعالى، وخوف الأتقياء أن توجد نفوسهم في رؤيتهم للخلق، إن أوجدهم فيك أشركت، وإن أقدرك عليهم نازعت.

يا هذا قُل: إلهي احمني من خلقك، فإذا جاء الأمر قُل: إلهي احمني منهم، وإذا جاء القدر فقُل: إلهي احمني مني، فإن ثبت فقد حصل لك عند الخشوع عبودية، وعند الدلال توحيد، فعبوديتك فقرك إليه، ما ثمَّ غيره.

فإذا جاءت الهيبة الإلهية فقل: ﴿اللَّهُ ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١]. بمجاهدة الهوى تعرفه، وبخروجك من الخلق توجده.

ومن كلامه: طريقنا الجد في الكد، ولزوم الجد حتى تسعد، فإما أن تبلغ الفناء إلى نهايته، وإما أن تموت بدايةً.

ومنه: من طلب لمعيته حالاً أو مقامًا وهو بعيدٌ عن طرقات المعارف، وفقد الأسف والبكاء في مقام السلوك علم من أعلام الخذلان، فنعوذ بالله من ذلك.

الحكاية الثامنة عشرة

عن الشيخ الفقيه الناسك أبي محمد بن عبد الله أبو محمد الإفريقي قال:

أقام الشيخ أبو يعزى المغربي ﷺ(١) في بدايته في البرية خمسة عشر سنة لا يأكل إلا الحب،

---

(١) قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الفضل التلمساني في النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المفاخر والمناقب: في نسب هذا الإمام آل النور بن عبد الله سيدي أبو يعزى كذا قرأت نسبه بخط الإمام أبي محمد عبد الله بن عبد الملك.

قال أبو بكر بن الخطيب في أنسه: أبو يعزى آل النور بن عبد الله كان آية من آيات الله تعالى، وأمره كله عجيب، وبلغت كراماته حد التواتر، وحدث عن البحر ولا حرج.

قال أبو علي بن حسن بن القاسم بن بادس في شرحه للنفحات القدسية قال: وكَناه أبو الحسن أبا نجم قال: وذكر أبو العباس أحمد بن الحسين الشريف الغرناطي التونسي الحافظ عن أبي العباس أحمد بن محمد العزفي أن اسمه يلبخت بن عبد الرحمن بن أبي بكر الأيلاني المغربي إليه انتهت تربية الصادقين والسالكين بالمغرب.

قال الشيخ أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري: لقيت الشيخ الزاهد الرفيع آية وقته أبا يعزى آل النور، وكان أعجوبة الزمان وعدة الأمان بلغ من مقامات اليقين مقامًا لايبلغه إلا الأفراد من العارفين.

حدَّث عنه جماعة ممن تعرَّض لأوصاف مجاهدته كابن الزيات في تشوفه، وصاحب النجم والعزفي أنه قال: أقمت في البراري سائحًا خمس عشرة سنة لا آوي إلى معمور، وكنت أتقوت بالجمار ونبات الأرض، وكانت الأُسود والوحوش والطيور تأوي إليَّ في سياحتي وتتآنس بمجاورتي، ولا كان قُوته إلا من نبات =

وكانت الأسد تأوى إليه، والطير تعكف عليه، وكانت الأُسد إذا اعترضت القوافل، وقطعت

=

الأرض، ولا يشارك الناس في معاشهم لا في مجاهدته ولا في نهايته حتى لقى الله على أكمل حال وثبت عنه أنه قال: ذكر صاحب التشوف عن أبي عمران موسى بن وركون الخطابي قال: حدَّثنا عبد العزيز المسكوري تلميذ الشيخ أبي يعزى قال: سمعت الشيخ أبا يعزى يقول: أقمت عشرين سنة في الجبال المشرفة على تمليل التي بين الغيل المنسوب لآية مدوال ودمنات، وليس لي فيها اسم إلا أبو كرتيل، ومعناه أبو حصير؛ لأن كان لا يلبس إلا حصيرًا، ثم انحدرت إلى السواحل فأقمت بها ثمان عشر سنة لا اسم لي فيها إلا أبو ونلكوط، ومعناه النبات المعروف عند العامة بطول أمازيره؛ لأنه إنما ينبت غالبًا في الأزبال والمزابل، وما فيه رائحة الزبل، ولا يأكله الناس ولا الدواب غالبًا، فكان قوته مما لا يشارك فيه الآدميين، وكان في آخر حاله يأكل البلوط يطحنه ويعجنه أقراصًا فيقتات بها.

وذكر صاحب التشوف أنه كان في ابتداء أمره يرعى البقر، وكانوا يصنعون له أرباب المواشي التي يرعى لهم رغيفين كل يوم فكان يأكل رغيفًا ويؤثر بالرغيف الآخر رجلاً كان منقطعًا في ذلك المسجد الذى كان يأوى إليه لقراءة القرآن فانقطع في المسجد رجل آخر لقراءة القرآن فدفع له الرغيف الثاني، وجعل يأكل من نبات الأرض، فلما رأى النبات يكفيه عن الطعام قال: ما أصنع بأكل الطعام ونبات الأرض يكفيني عنه.

وقال محمد بن علي: قال: سمعت أبا عبد الله الباجي، وكان من خيار أصحابه الفقهاء النجباء.

قال: رأيت الشيخ أبا يعزى يجمع له الخباز أو قال: الخبيز فيطبخ ويجفف، فإذا أراد أن يأكل جعله في قدح فيأكل منه لقمة أو لقمتين كالقاهر لنفسه، ويقول: ليس لك عندي إلا هذا.

وقال أبو عبد الله الباجي: مررت به يومًا وهو يأكل قلوب الدفلا فناولنيها فوجدتها حلوة. وحدث الثقات عنه من وجوه شتى مختلفة الألفاظ ومتفقة المعنى أن السلطان عبد المؤمن بن علي بعث إليه عام إحدى وأربعين وخمسمائة، فورد عليه راكبًا على حمار فحبسه في صومعة الجامع أعني جامع الكتبيين في الصومعة السفلى التي كانت للمتونبين إذ هم الذين بنوها، وأما الكبرى إنما بنيت في آخر أيام يعقوب المنصور في حدود أربع وتسعين من القرن السابع، قالوا: وكانت معه أقراص من البلوط أو قال من دقيق البلوط، فكان يجعل معه أوراق الثليبا يعنى الخبيز يجففها ويطحنها، فإذا صلى المغرب يأخذ قدر نصف رطل فيقتات به فبقى هناك أيام، ثم خلى سبيله لسر اتفق لعبد المؤمن بن علي فقال لأصحابه: اتركوه ولا سبيل لكم إليه، ويقال: ستة قليل من بلغ مجاهدتهم في بدايتهم سيدي أبي يعزى في المغرب، وسيدي عبد القادر الجيلاني في المشرق، وسيدي سهل بن عبد الله في القرن الثالث، وسيدي أبي الخير، وسيدي أبي عبد الله الهزميري، وسيدي أبي يزيد، رضي الله عنهم.

قالوا: وليس ببعيد من هؤلاء سيدي أبي مدين مع ما كان يعانيه من طلب العلوم للعمل بكل ما يعلم وكذا سيدي أبي محمد صالح مع عزلة عن الناس وانقطاع إلا ممن كان لا بد منه من إخوانه الصّديقين، قالوا: وفي القرن الثامن كان أبو العباس بن عاشر صاحب سلا، والله أعلم، وانظر: المعزى (بتحقيقنا).

السبل جاء أبو يعزى وأمسك بأذنها وقادها، فانقادت له ذليلة، ويقول لها: يا كلاب الله، ارحلي من هنا، فتذهب من وقتها ولا يرى منها شيئًا البتة في ذلك المكان.

وجاء إليه المحتطبون يشكون إليه كثرة الأسد في غابةٍ يقطعون منها الحطب، فقال لخادمه: اذهب إلى طرق الغابة، ونادي بأعلى صوتك: يا معاشر الأُسد يأمرك أبو يعزى أن ترحلي من هذه الغابة، فجعلت تحمل أشبالها حتى لم يبقَ فيها شيءٌ منها، ولم يُرَ بعد فيها أسدٌ.

الحكاية التاسعة عشرة

عن الشيخ الكبير المشهور العارف بالله الشهير أبي مدين[1] المشكور، قدَّس الله روحه أنه

(١) هو من أعيان مشايخ المغرب وصدور المقرَّبين، وشهرته تغني عن تعريفه.
مات بتلمسان ودُفن بها، وقد ناهز الثمانين وقبره ثم ظاهر يُزار، وكان سبب دخوله تلمسان أنّ السُّلطان لما أبلغه خبره أمر بإحضاره من بجاية؛ ليتبرَّك به، فلما وصل إلى تلمسان قال: ما لنا وللسُّلطان الليلة نزور الإخوان، ثم نزل واستقبل القبلة وتشهَّد، وقال: ها قد جئت، ها قد جئت، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه:٨٤]، ثم قال: الله الحيُّ وفاضت روحه.
قال الشيخ أبو الحجَّاج الأقصري: سمعت شيخنا عبد الرزاق يقول: لقيت أبا العباس الخضر ﷺ فسألته عن شيخنا أبي مدين فقال: إمام الصديقين في هذا الوقت، وكان ﷺ جميلاً ظريفًا متواضعًا زاهدًا ورعًا، محقّقًا مشتملاً على كرم الأخلاق، واجتمعت المشايخ على تعظيمه وإجلاله، وتأدَّبوا بين يديه.
ومن كلامه: ليس للقلب إلاّ وجهة واحدة متى توجَّه إليها حُجب عن غيرها.
وكان يقول: الخالي من الأُنس والشَّوق فاقد المحبَّة.
وكان يقول: إذا ظهر الحق لم يبقَ معه غيره.
وكان يقول: الفقر نورٌ ما دمت تستره، فإذا أظهرته ذهب نوره.
وكان يقول: الحضور مع الله جنَّة، والغيبة عنه نار، والقرب منه لذَّة، والبعد منه حسرة، والأنس به حياة، والاستيحاش منه موت.
وكان يقول: الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق تعالى.
وكان يقول: من نظر إلى المكونات نظرة إرادة وشهرة حُجب عن العبرة فيها والانتفاع بها.
وكان يقول: من عرف أحدًا لم يعرف الأحد، والحق تعالى ما بان عنه أحد: أي من حيث العلم والقدرة، ولا اتصل به أحد: أي من حيث الذات والصفات.
وكان يقول: من لم يصلح لمعرفته شغله برؤية أعماله، ومن سمع منه بلَّغ عنه.
وكان يقول: من خرج إلى الخلق قبل وجود حقيقة تدعوه إلى ذلك فهو مفتونٌ، وكل من رأيته مع الله يدَّعي حالاً لا يكون على ظاهره منه شيء فاحذروه.
وكان يقول: من قطع موصولاً بربه قُطع به، ومن أشغل مشغولاً بربه أدركه المقت.

=

قال: جئت في وقت قحط كان بالمغرب إلى الشيخ أبي يعزى، وهو جالسٌ في الصحراء وحوله وحوش كثيرة، أسد وغيرها مختلطًا لا يؤذي بعضها بعضًا، وعلى رأسه طيور كبيرة، فتقدَّم إليه أحد الوحوش وصوت إليه كأنه يكلمه، فيقول له الشيخ: رزقك كذا في مكان كذا، فيذهب من بين يديه حتى أتى على آخر الطيور والوحوش، فلما لم يبقَ منها عنده قلت له: يا سيدي ما هذا؟ قال: يا شيخ إن هذه الوحوش والطيور اجتمعت إليَّ تشكو شدة الجوع من القحط، وقالت أنها لم تأمن أن تسكن أرضًا غير بلاد المغرب؛ محبةً في جواري، وأن الله سبحانه وتعالى أطلعني على رزقها وعلى أوقاتها ومواضعها فأخبرتها بذلك، وقد ذهبت إلى أرزاقها.

الحكاية العشرون

عن الشيخ الجليل العارف بالله أبي محمد صالح قال: سمعت شيخنا الشيخ القدوة أبا مدين ﷺ يقول: جاء بعض أصحابنا شيخنا أبا يعزى ﷺ يشكى جدبًا بالمغرب وقال: إن لي أرضًا أقتاد أنا وعيالي من زرعها وقد أجدبت، فقام معه الشيخ وأتى أرضه ومشى فيها، وجعل يسأل عن جدبها بعكازه، يقول: إلى هنا وإلى هنا، حتى أتمها إلى آخرها، ومطرت أرضه خاصة حتى رُويت لم يعهد المطر ولم تزرع أرض بالمغرب فيها سواها.

قلت: ولحق هذه الحكاية مما جرى له مع بعض شيوخ اليمن، وهو الولي الكبير، والسيد الشهير محمد بن يعقوب المكنى أبا حربة ﷺ[1]، على ما بلغني عنه أنه شكا إليه بعض أصحابه

=

ومكث سنة في بيته لا يخرج إلاّ للجمعة، فاجتمع الناس على باب داره، وطلبوا منه أن يتكلَّم عليهم، فلمَّا ألزموه خرج فرأى عصافير على سدرةٍ في الدَّار، فلما رأوه فرُّوا فرجع، وقال: لو صلحت للحديث عليكم لم تفر مني، ثم رجع وجلس سنة أخرى، ثم جاءوا إليه فخرج فلم تفر منه الطيور، فتكلَّم على الناس، ونزلت الطيور تضرب بأجنحتها وتصفِّق حتى مات منها طائفة، ومات رجلٌ من الحاضرين ﷺ. وانظر في ترجمته: بهجة الأسرار (ص٣٤٤)، والانتصار (ص٤٥١)، والمعزى للتادلي، والمنهاج الواضح للماجري، أربعتهم بتحقيقنا.

(١) قال المناوي: محمد بن يعقوب بن الكميت. صوفي أشرقت أنواره، وطابت أنباؤه وأخباره، وزكى تأرج عرف عرفانه، وتبرج بحلي المعاني بديع بيانه، وهو المعروف بابن أبي حربة، لكونه أشار بإصبعه إلى أحد الظَلَمة كصورة الطعنة فقتله، وكان بعد ذلك لا يشير بها إلا منحرفة عن صوب المشار إليه في الجد والهزل.

=

الحكاية الحادية والعشرون

عن الشيخ الصالح أبي يعقوب إسرائيل بن عبد المقتدر بن أحمد الحميدي الأربلي الصالح قال: أقمت مدة ثلاث سنين سائحًا في جبل الهكار، وجبل النبات وجبال العراق، وجبال العجم، وكانت الأحوال تطرقني فأخر على وجهي، وتأتي عليَّ الرياح إلى أن تجعل فوق جلدي جلدًا آخر من الوسخ، فجاءني ديبٌ ونظر إليَّ مبتسمًا، ولحس جلدي كله حتى تركه كالجمارة، وذهب فداخلني العجب، فإذا هو قد جاء ومرَّ بي وبال عليَّ، فأتيت الأماعين فاغتسلت، ودخلت في وسط الصحراء وبيني وبين الناس مسيرة عشرة أيام من كل جهةٍ، ولا يمر بي أحدٌ، ولا أسمع صوت شيء ألبتة.

فقلت في نفسي: لو قيَّض الله لي بعض العارفين، فإذا الشيخ عديّ بن مسافر إلى جانبي ولم يسلم عليَّ، فارتعدت من هيبته فقلت في نفسي: ولِمَ لَمْ تسلِّم عليَّ؟ فقال: إنّا لا نلقي بالسلام والترجمان من تبول عليه الدياب.

ثم ذكر لي جميع ما جرى لي في سياحتي، وواجهني بجميع خواطري، وبكل شيءٍ اختلج في سرِّي، أو ضمر في قلبي، حتى ذكرني بأشياءٍ كنت نسيتها، فقلت له: يا سيدي اشتهي الانقطاع في هذه القبة، فلو كان عندي ما أشرب منه وأقتات به، فقام إلى صخرتين كانت في تلك القبة فوكز أحدهما برجله، فانفجرت منها عين ماء حلو عذب من ماء النيل، ووكز الأخرى فنبت منها في الوقت شجرة رمان، وقال لها: أيتها الشجرة أنا عدي بن مسافر، أنبتي بإذن الله يومًا رمانًا حلوًا، ويوما رمانًا حامضًا، وقال لي: يا إسرائيل أقم هنا وكُل من هذه الشجرة، واشرب من هذه العين، وإذا أردتني فاذكر اسمي آتيك، قال: فأقمت في تلك القبة سنين، فكنت آكل من تلك الشجرة يومًا رمانًا حلوًا، ويومًا رمانًا حامضًا، أحسن رمانًا في الدنيا وأطيبه، وما ذكرته قط إلا وجدته حاضرًا عندي، وينبئني بما يختلج في صدري مدة ييته عني.

الحكاية الثانية والعشرون

عن الشيخ إسرائيل المذكور أيضًا قال: قال الشيخ عدي بن مسافر يومًا: اذهب إلى الجزيرة الكائنة في البحر المحيط تجد بها مسجدًا، فادخله ترى فيه شيخًا، فقل له: يقول لك عدي بن مسافر: احذر الاعتراض، ولا تختر لنفسك أمرًا لك فيه إرادة. قلت: يا سيدي، وأنى لي بالبحر المحيط؟ فدفعني بين كتفي، وإذا أنا بجزيرة البحر المحيط، ولا أدري من

حيث أتيت، فدخلت المسجد فرأيت شيخًا مهابًا مفكرًا، فسلمت عليه وبلَّغته الرسالة فبكى وقال: جزاه الله خيرًا.

وقلت: يا سيدي، أحب أن أرى شيئًا من المغيبات، فأعطاني منديله وقال: ضعه على وجهك، فوضعته ثم قال: ارفعه، فرفعته فرأيت الملائكة الكاتبين، ورأيت ما يسطرونه من أعمال الخلائق، فأقمت على هذه الحال ثلاثة أيام، فتكدَّر عليَّ عيشي فاشتكيت إليه، فوضع ذلك المنديل على وجهي ثم رفعه فاستتر عني ذلك الأمر كله.

قال: ووصف لي يومًا الديك الذي يؤذن وقت الصلوات تحت العرش، فقلت: يا سيدي أسمعني صياح الديك. فلما كان وقت الظهر قال لي: ادنُ مني وضع أذنك عند أذني ففعلت، وسمعت صياح الديك فغشي عليَّ زمانًا. قال: ووصف لي يومًا الشيخ عقيل المنبجي ﷺ[1] فأطنب في ذكره، فقلت له: يا سيدي، هل لك أن ترينيه؟ فأعطاني يداه وأمرني أن أنظر فيها، فنظرت شخصي ثم توارى عني شخصي، وظهر لي شخصٌ أراه ولا يخفى عليَّ من وجهه شيءٌ، فقال لي: تأدَّب؛ فإنه الشيخ عقيل، ودمت ساعة طويلة أنظره، ثم توارى عني وظهر لي شخصي.

الحكاية الثالثة والعشرون

عن الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن كامل الحسني الشيباني قال: سمعت الشيخ العارف بالله أبي محمد السني المحلي بها يقول: صنع الخليفة ببغداد وليمة، ودعا إليها جميع مشايخ العراق وعلمائها، فحضروا كلهم إلا الشيخ عبد القادر، والشيخ عدي بن مسافر، والشيخ أحمد بن الرفاعي ﷺ فلما انصرف الناس قال الوزير للخليفة: أين الشيخ عبد القادر، والشيخ عديًّا، والشيخ أحمد الخضر؟ فقال الخليفة: لم يحضروا، ثم أمر حاجبه أن يأتي الشيخ

---

(١) وقيل: المنبحي، قال الكردي الموصلي: هو شيخ شيوخ الشام في وقته، تخرَّج بصحبته جمعٌ من الأكابر منهم: الشيخ عدي بن مسافر الأمويّ، وهو أول من دخل بالخرقة العمرية إلى الشام وأُخذت عنه.
وكان يُسمَّى الطيّار؛ لأنه لما أراد الانتقال من قريته التي كان مقيمًا بها ببلاد الشَّرق صعد إلى منارتها ونادى بأهلها، فلما اجتمعوا طار في الهواء والناس ينظرون إليه، فجاءوا فوجدوه في مينح.
وكان ﷺ إذا نادى وحوش الفلوات جاءت لدعوته صاغرةٌ حتى تسد الأفق، وكان عكَّازه لا يستطيع أحدٌ يحمله، سكن مينح واستوطنها نيفًا وأربعين سنة، وبها مات، وبها قبره ظاهر يُزار ﷺ.
انظر: الكواكب الدرية للمناوي (١/ ٦٨٨)، وطبقات الشعراني (١/ ١١٧)، وكرامات النبهاني (٢/ ١٥٣).

عبد القادر فيدعوه، وأن ينطلق إلى جبل الهكار وإلى أم عبيدة ليحضر الشيخ عديًا والشيخ أحمد.

قال الراوي: فقال لي الشيخ عبد القادر قبل أن يقوم الحاجب من مجلس الخليفة: اذهب إلى المسجد الفلاني تجد فيه الشيخ عديًّا ومعه اثنان، واذهب إلى الشيخ أحمد وائتني بهما، فذهبت إلى المسجد المذكور فوجدت فيه الشيخ عديًّا ومعه اثنان، فقلت: يا سيدي أجب الشيخ عبد القادر، فقال: سمعًا وطاعةً، وقاموا فذهبت معهم، فقال الشيخ عدي لي: اذهب إلى الشيخ أحمد كما أمرك الشيخ، قلت: بلى، فأتيت مقبرة الشونزية فوجدت الشيخ أحمد ومعه اثنان، فقلت: يا سيدي، أجب الشيخ عبد القادر، فقال: سمعًا وطاعةً، فقاموا فتوافى الشيخان في باب رباط الشيخ عبد القادر وقت المغرب، فقام إليهم الشيخ وتلقَّاهم، فما لبثوا غير يسيرٍ حتى جاء الحاجب إلى الشيخ عبد القادر، فوافاهما عنده، فأسرع إلى الخليفة وأخبره باجتماعهم، فكتب الخليفة إليهم وسألهم الحضور، وبعث إليهم ولده وحاجبه فأجابوه، وذهبوا وأمرني الشيخ بالمسير معهم، فلما كنا في الشط إذا بالشيخ علي بن الهيتي، فتلقَّاه المشايخ وسار معهم، فأتوا إلى دارٍ حسنةٍ فإذا الخليفة فيها قائمٌ مشدود الوسط، ومعه خادمان له وليس في الدار سواهم، فتلقَّاهم الخليفة وقال لهم: يا سادة، إن الملوك إذا ساروا برعاياهم بُسط لهم الحرير ليطئوه، ووُضع لهم ذيله، وسألهم أن يمشوا عليه ففعلوا، وانتهى بنا إلى سماطٍ مهيأ، فجلسوا وأكلوا وأكلنا معهم ثم خرجوا.

وأتوا إلى قبر الإمام أحمد بن حنبل وزاروه- رضي الله عنهم- وكانت ليلة شديدة الظلمة، فجعل الشيخ عبد القادر كلما مرَّ بحجرٍ أو خشبةٍ أو جدارٍ أو قبرٍ، أشار بيده إليه فيضيء كضوء القمر، ويمشون في نوره إلى أن ينتهي ضوئه، فيشير الشيخ إلى آخر فيضيء، فما زالوا يمشون في النور، وليس فيهم من يتقدَّم على الشيخ عبد القادر إلى قبر الإمام أحمد بن حنبل ﷺ، فدخل المشايخ الأربعة يزورون، ووقفنا على باب المزارة حتى خرجوا، فلما أرادوا أن يفترقوا قال الشيخ عدي للشيخ عبد القادر: أوصني، قال: أوصيك بالكتاب والسُّنة، ثم تفرَّقوا، انتهى.

قلت: ولم يزل -رضي الله عنهم- هكذا يوصون باتباع الكتاب والسُّنة، وقد ذكرت في آخر كتابي الموسوم بنشر المحاسن نبذة من أقوالهم وأفعالهم في ذلك.

ولقد رأيت في أيام الشباب في أثناء قراءة سورة «تبارك، الملك» بعد أن غطى على عيني شيء مثل السنة شيخًا معه جماعة من الفقراء، ونور من الصلاح لائح في وجهه، فحرَّضني على السير ثم قال: فإذا أشكل عليك شيءٌ فعليك بالكتاب والسُّنة.

ومن كلام الشيخ عدي المذكور ﷺ:

الشيخ: من جمعك في حضورك، وحفظك في بُعدك، وهذَّبك بأخلاقه، وأدَّبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه.

والمريد: من أنار نوره مع الفقراء بالأنس والانبساط، ومع الصوفية بالآداب والارتباط، ومع المشايخ بالخدمة والاغتباط، ومع العارفين بالتواضع والانحطاط.

وحسن الخُلق مع الخلق معاملة كل شخصٍ بما يؤنسه ولا يوحشه، فمع العلماء بحسن الاستماع والافتقار، ومع أهل المعرفة بالسكون والانتظار، ومع أهل المقامات بالتوحيد والانكسار.

عن قطب الأولياء الأكابر محيي الدين عبد القادر أنه قال: لو كانت النبوة تُنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر.

وكان يذكره ويثني عليه كثيرًا، ويشهد له بالسلطنة، رضوان الله عليهم أجمعين.

الحكاية الرابعة والعشرون

عن الشيخ قيس بن يونس الشامي قال: أتى رجلٌ مغربيٌّ اسمه عبد الرحمن بن أحمد بن الشيخ علي بن وهب المذكور، السنجاري بسبيكة ذهب، وقال: يا سيدي، هذه للفقراء من صنعي، فقال الشيخ لمن حضره: من عنده آنية من النحاس فليأتيني بها، فأتوا بأواني كثيرة من النحاس من الطاسات والأطباق، وأمر بها فجُعلت لوسط الزاوية، وقام ومشى عليها فصار بعضها ذهبًا وبعضها فضةً، إلا طاسين فقال الشيخ لأصحاب الآنية: من له إناء فليأخذه، فأخذوها ذهبًا وفضةً، ثم قال لعبد الرحمن: يا بني إن الله تعالى قد أعطانا هذا كله، وقد تركناه فلا حاجة لنا في سبيكتك، فسألنا عن سبب اختلاف الأواني فقال: لما قلت: من عنده آنية فليأتيني بها، فمن انبعث لكلامي ولم يجد في نفسه حرجًا صارت آنيته ذهبًا، ومن وجد في نفسه بعض حرج صارت آنيته فضة، ورجلان منهم أساء بي الظن فلم تتغيَّر آنيتهما.

ومن قوله ﷺ: من أحبَّه الحق وأراده سكن في قلبه الإرادة، فالمريد محبٌّ طالبٌ، والشوق

لقلبه غالب، والشوق إليه طالب.

والمراد محبوب طالب، والشوق لقلبه غالب، مطلوب مأخوذ مسلوب، إلى الجبار مجذوب، قد ظهر عليه الشوق وغلب؛ إذ قد وجد ما طلب، فقد قطع الطريق فطواها، وأزال نفسه ومحاها، ومحا الأكوان من نظره فما يراها.

قلت: وقد تقدَّم أنه رأى أبا بكر الصديق ﷺ في المنام وألبسه طاقية، ثم استيقظ والطاقية بعينها على رأسه.

قال: ثم جاءني الخضر ﷺ بعد أيام وقال لي: اخرج إلى الناس ينتفعوا بك، فتثبت في أمري، ثم رأيت أبا بكر الصديق ﷺ في النوم وقال لي كمقالة الخضر، فاستيقظت وعزمت على الخروج، ثم نمت وتثبت في أمري، ثم رأيت رسول الله ﷺ في الليلة الثانية فقال لي كمقالة الصدِّيق ﷺ، فاستيقظت وعزمت على الخروج، ثم نمت في آخر الليل، فرأيت الحق سبحانه وتعالى وقال لي: يا عبدي قد جعلتك من صفوتي في أرضي، وأيَّدتك في جميع أحوالك، وأقمتك رحمة لخلقي، اخرج إليهم، واحكم فيهم بما علَّمتك من حكمي، واظهر فيهم بما أيَّدتك من آياتي، قال: فاستيقظت وخرجت إلى الناس فاهرعوا إليَّ من كل جانب.

وكان ﷺ عالمًا فاضلاً فصيحًا متواضعًا، من أجلاَّء المشايخ العارفين، أولي الفتح السني، والكشف الجلي، والكرامات الظاهرات، والأحوال الجليلة والتمكُّن.

الحكاية الخامسة والعشرون

عن بعضهم قال: شهدت الشيخ موسى بن ماهين الزولي ﷺ وقد أتته امرأة بصغير وقالت له: هذا فلانٌ ابن فلان، عمره أربعة أشهر، فدعاه الشيخ إليه فأتاه الصغير يعدو، وقال له: اقرأ: قل هو الله أحد، فأقرأه سورة الإخلاص فقرأها الصبيُّ بلسانٍ فصيحٍ، وما زال يمشي ويتكلَّم من ذلك الوقت إلى أن بلغ سن من يمشي ويتكلم، قال: ورأيته بعد موت الشيخ بثلاثين سنة، فوالله ما رأيت فصاحة تعلو على فصاحته حين تكلم بين يدي الشيخ أول مرة.

ومن كلام الشيخ موسى ﷺ: لو رُفع لك الحجاب على بساط الروحانية لكلمك هو من ذاتك، وانكشفت الأنوار والحقائق، وروائح أرواح الثنا واللمع اللامع، والفتح الطالع، من وطئ سابلها استوى، ومن ركب برقها بلغ سدرة، المنتهى.

الحكاية السادسة والعشرون

عن الشيخ الكبير الإمام الشهير شهاب الدين السهروردي ﷺ قال: كنت مرة عند عمي شيخنا الشيخ أبي النجيب عبد القاهر ﷺ، فأتاه إنسان بعجلٍ وقال: يا سيدي، هذا العجل نذرناه لك، وانصرف، فجاء العجل حتى وقف بين يدي الشيخ، فقال الشيخ لنا: إن هذا العجل يقول: إني لست العجل الذى نُذر لك، بل نُذرت للشيخ علي بن الهيتي، وإنما نُذر لك أخي - أو قال: آخر - فلم يلبث أن جاء صاحب الثور ومعه عجلٌ شبيه الأول، فقال للشيخ: يا سيدي إني نذرت لك هذا العجل، ونذرت للشيخ علي بن الهيتي الذى أتيتك به أولاً، وكانا اشتبها عليَّ، وأخذ الأول وانصرف.

قال: وحضر عنده ثلاثة من اليهود، وثلاثة من النصارى، فعرض عليهم الإسلام فأبوا إباءً عظيمًا، فوضع في فم كل واحدٍ منهم لقمة من لبنٍ، فما تمَّ أحدهم بلعها حتى أسلم، فأسلموا ستتهم وقالوا: لما خالط اللبن بواطننا نسخ منا كل دينٍ غير دين الإسلام، فقال الشيخ: وعزة المعبود ما أسلمتم حتى أسلم شياطينكم على يدي، وإني استوهبتكم من الله فوهبكم لي، ثم مسح بيده على عيونهم فكشف لهم عن قرنائهم، وخاطبوهم بالإسلام.

الحكاية السابعة والعشرون

عن الشيخ أبي محمد عبد الله بن مسعود المعروف بالرومي قال: مررت مرة مع شيخنا الشيخ أبي النجيب، ﷺ بسوق السلطان ببغداد، فنظر إلى شاةٍ مسلوخةٍ معلقةٍ عند جزار، فوقف عنده فقال له: إن هذه الشاة تقول لي أنها ميتة، فغشي على الجزار وتاب على يد الشيخ وأقرَّ بصحة قوله.

قلت: ونحو هذا ما بلغني عن بعضهم، أنه مرَّ على شواء بين يديه كبش شوي، يريد تقطيعه وبيعه على المسلمين، فكشف له عن كونه ميتة، فدفع إلى الجزار شيئًا من الدراهم وأمر بحمله وإلقائه على بعض المزابل للكلاب، وهذا السيد المذكور هو الشيخ عبد الله المولى.

ومن كراماته أيضًا ﷺ: إني خرجت على الاجتماع به في القرافة، فلم يعد لي به اجتماع إلى أن كان وقت سفري، وإذا به قد جاء إلى المكان الذي أنا فيه متألمًا، ثم سافرت في الحال.

ويحتمل أن عدم إنكاره على الشواء المذكور، وأخذه منه من غير بذل شيء على أحد وجهين: أحدهما: ستر الحال، والبعد عن التوبيخ، والثاني: خشية أن ينكر الشواء عليه ويبيعه، ولا يلتفت إلى قوله ألبتة.

ورجعنا إلى ما يتعلّق بذكر الشيخ أبي النجيب قال الراوي: ومررت معه مرة أخرى على الجسر، فرأى رجلاً يحمل فاكهة كثيرة فقال له: ضع هذه الفاكهة، قال: ولِمَا؟ قال: إنها تقول لي: ابعدني من يد هذا؛ لأنه اشتراني ليشرب عليَّ الخمر، فأغمى على الرجل وسقط على وجهه، ثم أتى الشيخ وتاب على يديه، وقال: والله ما علم بهذا الحال الذي أخبر به الشيخ غير الله وأنا.

قال: وخرجت معه يومًا بالكرخ، فسمعنا أخلاط أصوات سكارى في دارٍ، فشممنا رائحة منكرة، فدخل الشيخ دهليز الدار وصلَّى ركعتين، وخرج من كان فيها صالحين فإذا الخمر الذي كان في الأولى قد صار ماء، وتابوا كلهم على يد الشيخ ﷺ.

وكان ﷺ من أعيان المحققين، وعلامة العلماء والعارفين، صاحب الكشف الظاهر والكرامات الخارقة، والأحوال النفيسة، والمقامات الرفيعة، والأنفاس الصادقة، والمعارف الغيبية، وهو أحد من درَّس بالنظامية، وقُصد للفتاوى، ووضع الكتب المفيدة بها في علمي الشريعة والحقيقة، وكان يُلقَّب بمفتي العراقيين، وقدوة الفريقين، وأحد أركان هذا الشأن وأئمة ساداته، وأجلاَّء قادته، له المنهاج العلي في الحقائق، والمعراج الأرفع في المعالي، والعز السامي في القرب، والقدم الراسخ في التمكين، والباع الطويل في أشرف الأخلاق، وأطيب الأعراق، وانعقد عليه اجتماع المشايخ والعلماء بالاحترام، وأوقع الله له في الصدور القبول التام، وكان بهي السمت، ظاهر الرِّضا أو الوضاءة، وكان يشرح أحوال القوم، ويلبس لباس العلماء، ويركب البغلة، ويرفع بين يديه الغاشية.

قال ﷺ: أول التصوُّف علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة، فالعلم يكشف عن المراد، والعمل يعين على الطلب، والموهبة تبلغ غاية الأمل وأهله على ثلاث طبقات: مريد طالب، ومتوسط سائر، ومنتهي واصل، فالمريد صاحب وقت، والمتوسط صاحب حال، والمنتهي صاحب يقين، وأفضل الأشياء عندهم عد الأنفاس.

فمقام المريد المجاهدات والمكابدات، وتجرع المرارات، ومجانبة الحظوظ وما للنفس فيه هوى، ومقام المتوسط ركوب الأهوال في طلب المراد، ومراعاة الصدق في الأحوال، واستعمال الأدب في المقامات، وهو مطالب بآداب المنازل، وهو صاحب تلوين؛ لأنه مرتق من حالٍ إلى حالٍ وهو في الزيادة.

ومقام النهاية الصحو والثبات، وإجابة الحق من حيث دعاه قد جاوز المقامات، وهو في محل التمكين لا تغيره الأحوال، ولا تؤثر فيه الأهوال، قد استوى في حال الشدة والرخاء، والمنع، والعطاء، والجفاء، والوفاء، أكله كجوعه، ونومه كسهره، قد فنيت حظوظه، وبقيت حقوقه، ظاهره مع الخلق، وباطنه مع الحق.

الحكاية الثامنة والعشرون

عن الشيخ الإمام العارف تقي الدين علي بن المبارك الواسطي قال: جلس سيدي الشيخ أحمد بن الرفاعي ﷺ يومًا على الشط وأصحابه حوله فقال: نشتهي أن نأكل اليوم سمكًا مشويًا، فما أتمَّ كلامه حتى امتلأ الشط أسماكًا من أنواع شتى، ووثب منها شيءٌ كثيرٌ إلى البرِّ فقال الشيخ: إن هذه الأسماك كلها تسألني بالله أن آكل منها، فصاد الفقراء منها كثيرًا وشووه، وقدموه سماطًا عظيمًا في طواجن، وأكلوا منها حتى شبعوا، وبقي في الطواجن من هذه السمكة رأسها، ومن هذه ذنبها، ومن هذه نصفها، فقال له رجلٌ: يا سيدي ما صفة الرجل المتمكن؟ قال: أن يُعطى التصرُّف التام في جميع الخلائق، قال له: فما علامة ذلك؟ قال: أن يقول لبقايا هذه الأسماك: قومي فاسعي، فتقوم فتسعى، ثم أشار الشيخ إلى تلك الطواجن بيده: أيتها الأسماك في هذه الطواجن قومي فاسعي بإذن الله ﷻ، فلم يتم كلامه حتى وثبت تلك البقايا في البحر أسماكًا صحيحة، وذهبت في الماء من حيث أتت.

الحكاية التاسعة والعشرون

عن الشيخ الجليل أبي الحسن علي بن أخت سيدي أحمد الرفاعي ﷺ[1] قال: كنت يومًا

---

(١) ولد سنة ستمائة وثمانية وثلاثين، وماتت والدته بعد ولادته، وبقي في بيت أخواله آل الملك الأفضل، إلى أن بلغ حدّ الرجال، وكان أبوه من أكابر الأولياء، وزهد وتصوف وعظم أمره، وأعرض عن الدنيا بالكلية.

وقال الشيخ القوصي: حكى الشيخ عبد العزيز أنَّ الشيخ أبا الحسن كان يحضر مجلسه الفقهاء والفقراء، وكان ذات يوم جالسًا، وإذا بحيةٍ قد وقعت من السقف، فقام الشيخ والفقهاء إلى مجلس آخر وبقي فقير جالس لم يتحرك، فلعلَّ الشيخ قال: اقتلوها فقتلوها، ثم عاد إلى المجلس، فقال الشيخ للفقير: ألا قمت مع أصحابك؟ فقال: يا سيدي، ما هذه إلاّ دريدة، فقال له الشيخ: تضيف إلى الهذيان الكذب؟ يسميها الله تعالى حَيّة وتسميها دويدة؟ لو عرفتَ الله تعالى لخفتَ مِمَّا خوّف اللهُ تعالى منه.

=

جالسًا على باب خلوة خالي الشيخ أحمد، وليس فيها غيره، فسمعت عنده حسًّا فنظرت فإذا عنده رجلٌ ما رأيته قط قبل، فتحدثا طويلاً، ثم خرج الرجل من كوة من حائطٍ، ومرَّ في الهواء كالبرق الخاطف، فدخلت على خالي وقلت له: مَن الرجل؟ فقال: أرأيته؟ قلت: نعم. فقال: هو الرجل الذي يحفظ الله به قطر البحر المحيط، وهو أحد الأربعة الخواص إلا أنه هجر منذ ثلاث ليال وهو لا يعلم، فقلت له: يا سيدي ما سبب هجره؟ قال: إنه مقيمٌ بجزيرة في البحر المحيط، ومنذ ثلاث ليال أمطرت جزيرته حتى سالت أوديتها، فخطر في نفسه أن لو كان هذا المطر في العمران! ثم استغفر الله تعالى فهجر بسبب اعتراضه فقلت: هل أعلمته؟ قال: إني استحييت منه، فقلت له: لو أذنت لي لأعلمته، قال: أوَ تفعل؟ قلت: نعم. فقال: فرفعت ثم سمعت صوته: يا علي ارفع رأسك، فرفعت رأسي فإذا أنا بجزيرة في البحر المحيط، فتحيَّرت في أمري، وقمت أمشي فيها فإذا أنا بذلك الرجل، فسلمت عليه وأخبرته، فقال: ناشدتك الله تعالى إلا ما فعلت ما أقول لك، قلت: نعم. قال: ضع خرقتي في عنقي، واسحبني على وجهي، ونادي عليّ: هذا جزاء من يعترض على الله سبحانه وتعالى، فوضعت الخرقة في عنقه، وهممت أسحبه فإذا هاتفٌ يقول: يا علي دعه، فقد ضجَّت ملائكة السماء باكية عليه، وسائلة فيه، وقد قال ﷺ: فأُغمي عليّ ساعةً، ثم سري عني، وإذا أنا بين يدي خالي بخلوته، فوالله ما أدري كيف ذهبت ولا كيف جئت.

وكان ﷺ شافعي المذهب، وما يصدر في مجلسٍ إلا جلس على سجادةٍ تواضعًا، وكان من أعيان مشايخ العراق، وأجلاَّء العارفين، وأكابر المحققين، وصدور المقرَّبين، صاحب المقامات العلية، والأحوال السنية، والكرامات الجليلة، عمَّر الله القلوب بمحبته، وملأ الصدور من مهابته، وعمَّر الأوطان بذكره، وعطَّر الآفاق بنشره، فاستطار في الأيام استطارة النار بالرياح، وعلا في العالمين علو الجو في الصباح، وانتهت إليه الرئاسة في علوم الطريق،

=

وحدّثنا الشيخ عبد العزيز أنَّ صدر الدين أبا القاسم ولد الشيخ أبي الحسن بن الرفاعي وصل إلى مصر في دولة العز، و كان له صورة كبيرة خَدَمَه الناس والأكابر.

وقبره بمصر بالقرب من القلعة ظاهر يزار، يتبرك به. وانظر: قلادة الجواهر للصيادي (ص٤٦١)، الوحيد في سلوك أهل التوحيد (ص٢٩٩) بتحقيقنا.

وشرح أحوال القوم، وكشف مشكلات منازلاتهم، وتجرع بمحبته جماعة كثير من أعلام الطريق، وتتلمذ له خلقٌ لا يُحصون من أرباب الأحوال الصادقة، وانتمى إليه عالم عظيم في كل قطرٍ، وتبعه جمٌ غفيرٌ من كل جهةٍ، ورماه المشايخ والعلماء وغيرهم بأبصار التبجيل، وشهد له الخلق بالاحترام والتفضيل، وقُصد لزيارته من كل فجٍّ عميقٍ، وكان مشتملاً على لطف الأخلاق، وشرف الصفات، وكمال الآداب"[1].

قلت: هذا بعض ما قيل فيه، وحذفت كثيرًا من مناقبه كما حذفت ما يطول ذكره من مناقب غيره من المشايخ.

ومن كلامه ﷺ:

الكشف قوة جاذبة بخاصيتها نور عين البصيرة إلى فيض الغيب، فتشعل نورها به اتصال الشعاع بالزجاجة الصافية حال مقابلتها، ثم تتقاذف النور منعكسًا بصورته على صفاء القلب، ثم يرقى ساطعًا إلى عالم العقل على إنسان عين السر، فترى ما خفي عن الأبصار موضعه، ودق عن الأوهام تصوره، واستتر عن الإنسان مرآه.

ومنه: الزُّهد: أساس الأحوال المرضية، والمراتب السنية، وهو أول قدم القاصدين إلى الله ﷻ، والمنقطعين إلى الله تعالى، والرَّاضين عن الله ﷻ، والمتوكلين على الله، فمن لم يحكم أساسه في الزُّهد لم يصح له شيء.

والعبودية: رداء الشرف، ولباس المرسلين، وجلباب الصالحين، وتاج المتقين، وغنيمة العارفين، ومنية المريدين، ورضا الجبار، وكرامة لأهل ولايته.

والأنس بالله: لعبد قد كملت طهارته، وصفا ذكره، واستوحش من كل ما شغله عن الله ﷻ، وعند ذلك آنسه الله، وردّاه برداء حقائق الأنس به.

ومنه: لسان الورع يدعو إلى ترك الآفات، ولسان البعد يدعو إلى دوام الاجتهاد، ولسان المحبَّة يدعو إلى الذوبان والهيمان، ولسان المعرفة يدعو إلى الفناء والمحو، ولسان التوحيد يدعو إلى الإثبات والمحق، ومن أعرض عن الاعتراض أدبًا فهو الحكيم المتأدب.

قيل: كان سبب مرضه الذي مات فيه أنه سمع قائلاً ينشد أبياتًا واضطرب وانزعج:

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص٤٣٣).

إِذَا جَـنَّ لَيْـلٌ هَـامَ قَلْبِـي بِـذِكْرِكم أَنُـوحُ كَـمَا نَـاحَ الحَـمَامُ المُطَـوَّقُ
وَفَوْقِي سِحَابٌ يمطِرُ الهمّ والأَسَى وَتحتِـي بِحَـارًا بِالأَسَـى تَتَـدَفَّقُ
سَلُوا أم عَمرو كَيْفَ كَانَ أَسِيرهَا؟ تفـك الأَسَـارى دُونَـه وَهُـو موثَـقُ
فَـلاَ هُـوَ مَقْتُـولٌ فَفِـي القتْـلِ رَاحَـة وَلاَ هُـوَ ممنُـونٌ عَلَيْـه فيُعتَـقُ

الحكاية الثلاثون

عن الشيخ الكبير العارف بالله علي بن إدريس اليعقوبي[1] أن الشيخ الكبير العارف بالله علي بن الهيتي، ركب دابةً مرة وأتى إلى بلدةٍ من أعمال نهر الملك، ونزل على بعض أهلها، فاحتفل به الرجل احتفالاً عظيمًا، فقال له الشيخ: اذبح هذه الدجاجة وهذه، يشير إلى دجاجٍ بين يديه، ففعل فخرج من بطونها حبات من ذهبٍ فبهت الرجل، وكانت لأخته؛ لأنها كان لها صيغة من حلي الذهب فانقطعت ولم تشعر، والتقطها الدجاج وفقدتها، وظن أهلها أنه حدث عليها أمر وهمُّوا بقتلها تلك الليلة، فقال الشيخ: إن الله أطلعني على أمر أختكم وعلى ما في نفوسكم، وعلى ما في بطن هذه الدجاجة، وإني استأذنت ربي سبحانه وتعالى أن أكشف لكم هذه القصة، وأنقذكم من الهلكة، فأذن لي.

قال الراوي المذكور: وسِرنا معه مرة أخرى في قرى نهر الملك، فوجدنا أهل قريتين قد شهروا سيوفهم، وتوجهوا للقتال وبينهم قتيل مطروح، وقد اتهم بعض الفريقين بعضًا في قتله، فجاء الشيخ حتى وقف على رأس القتيل وأخذ بناصيته، وقال: من قتلك يا عبد الله؟ فاستوى القتيل جالسًا وفتح عينيه ونظر إلى الشيخ، فقال بلسانٍ فصيحٍ سمعه كل من حضر: قتلني فلان بن فلان، ثم طُرح كما هو وعاد إلى حالته الأولى.

---

(١) هو أبو الحسن علي بن إدريس اليعقوبي، من أجلاَّء وأكابر مشايخ العراق، وأعيان العارفين المشهورين، وأئمة المحققين البارعين، له الطور البديع في الحقائق الزاهرة، والثناء الرفيع في المعارف الباهرة، وله اليد البيضاء في علوم الأحوال، والباع الرحيب في معالي الموارد.

وهو الذي قال: كشف لي عن الكائنات من البداية إلى النهاية، وحلت لي التراجم، وكل من لم تحل له التراجم فليس بشيخ.. وانظر: بهجة الأسرار للشطنوفي (ص٤٢٣) بتحقيقنا.

الحكاية الحادية والثلاثون

عن الشيخ أبي الحسن الجوسقي(١) قال: حضرت سماعًا مع سيدي الشيخ علي بن الهيتي ﷺ، وحضر جماعة من المشايخ والصلحاء والفقهاء والقراء، فلما أخذ المشايخ بحظهم من السماع أنكر عليهم الفقهاء والقراء ببواطنهم، فقام الشيخ علي بن الهيتي وطاف عليهم، وكان كلما قابل منهم رجلاً نظر إليه فيفقد جميع ما في صدره من القرآن والعلم، حتى أتى على آخرهم، فانصرفوا ومكثوا كذلك شهرًا، ثم أتوا كلهم إليه وقبلوا رجليه، واستغفروا الله، فأمرني فمددت لهم بساطًا فأكلوا وأكل الشيخ معهم، وألقم كل منهم لقمةً، فوجد كل منهم ما فقده مع تلقيم الشيخ له تلك اللقمة وانصرفوا مسرورين.

قال: ورأيته يومًا من حيث لا يشعر بي في ظني جالسًا تحت ظل نخلة، فرأيت النخلة امتلأت عراجين تمر، وتدلَّت حتى دنت منه، فجعل يتناول من التمر ويأكل، ووالله ما في العراق تمرة على نخلةٍ، ولا هو أوان حمل النخل، ثم انصرف، فجئت على أثره إلى مكانه ذلك، فوجدت تمرة فأكلتها، فوالله ما أكلت تمرة من تمرات الدنيا تشبه طعمها.

قال: ورأيته يومًا على شفير بئر رفع منها دلوًا ليتوضأ به، ثم أفرغ الدلو في البئر وشدها ثانيةً فطلع له في تلك الدلو فواكه، فقال: يا رب، أريد ماءً أتوضا به، ثم أفرغ الدلو وأرسله، فطلع ذهبًا فقال: يا ربي، أريد ماءً أتوضأ به، ثم أفرغ الدلو في البئر ثالثة فطلع في الدلو ماءً فتوضأ به، ثم أكب رأسه في رأس البئر فطلع الماء إلى رأسها حتى شرب وكانت بعيدة الرشا.

وقال أيضًا ﷺ: الشريعة ما ورد به التكليف، والحقيقة ما حصل به التعريف، والشريعة مؤيدة بالحقيقة، والحقيقة مقيَّدة بالشريعة، والشريعة وجود الأفعال لله، والقيام بشروط العلم بواسطة الرسل، والحقيقة شهود الأحوال بالله، والاستسلام بعلات الحكم بتقدير لا بواسطة، يعني بالتقدير السابق في القدم بواسطة الفضل والكرم.

الحكاية الثانية والثلاثون

عن الشيخ الصالح أبي نصر صالح بن أبي المعالي -رحمه الله تعالى- أنه كان مع الشيخ الكبير العارف بالله عبد الرحمن الطفسونجي ﷺ(٢) ذات يومٍ تحت جبلٍ في صحراء من

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص٣٨١)، وقلائد الجواهر (ص٣٤٠).

(٢) هو من أكابر مشايخ العراق، وأعيان العارفين، وصدور المقرَّبين، صاحب الأحوال الفاخرة، =

صحاري العراق، فقال: سبحان من يسبحه الوحش في القفار، فإذا بين يديه وحوش عظيمة قد ملأت البطحاء، وهي تترنم بلعابها، وتهمهم بأصواتها، وامتزجت الأسد بالأرانب والضباء، وجاء بعضها يتمرَّغ على قدميه.

ثم قال: سبحان من تسبحه الطيور في أوكارها، فإذا على رأسه في الهواء طيور كثيرة من كل جنسٍ قد سدَّت الفضاء وهي تلحن بألحانها، وترجع بأصواتها، فدنت منه حتى عكفت على رأسه في الهواء.

ثم قال: سبحان من تسبح له الرياح العواصف، فهبَّت رياح مختلفة من كل جهةٍ لم أرَ أكثر ولا ألطف نسيمًا ولا أرق هبوبًا منها، وما هبت بعد كلامه.

ثم قال: سبحان من تسبح له الجبال الشوامخ، فاضطرب الجبل الذي كنا تحته وسقطت منه صخرات.

وهو ﷺ من أصحاب الأحوال الفاخرة، والكرامات الظاهرة، والمقامات العلية، والمعارف السنية، والتصريف النافذ، والفقه العظيم لأحكام الولاية، والتمكن المكين في أحوال النهاية، وكان فقيهًا فاضلاً، فصيحًا، ظريفًا، سخيًّا، كريمًا، عارفًا، محققًا.

ومن كلامه ﷺ: طوبى لمن شرب كأسًا من محبته، وذاق نعيمًا من مناجاته، وامتلأ قلبه حبًّا

=

والكرامات الظاهرة، والتصريف النافذ.

وكان يقول: أنا بين الأولياء كالكركي بين الطيور، أطولهم عنقًا.

وكان يتكلَّم في الشريعة والحقيقة بطفسونج على كرسي عالٍ، ويحضره المشايخ والعلماء، ويلبس لباس العلماء، ويركب البغلة.

وكان يقول: من اشتغل بطلب الدنيا ابتُلي بالذل فيها، ومن تعامى عن نقائص نفسه طغى وبغى، ومن تزيَّن بباطلٍ فهو مغرورٌ.

وكان يقول: أنفع العلوم العلم بأحكام العبودية، وأرفع العلوم علم التوحيد.

وكان يقول: لا يضر مع التواضع بطالة إذا قام بالواجبات والسنن، ولا ينتج مع الكبر عمل مندوب ولا علم مطلوب.

وكان يقول: إن أقامك ثبتَّ، وإن قمت بنفسك سقطت.

سكن طفسونج بلدة بأرض العراق، وبها مات مسنًا، وقبره بها ظاهر يُزار.

انظر في ترجمته: طبقات الشعراني (١/ ١٢٧)، وبهجة الأسرار (ص٢٩٦) بتحقيقنا.

فطار بالله طربًا، وهام إليه اشتياقًا، فيا له من واثق أنس بربه كلف دنف بحبه، ليس له سكن ولا مألوف سواه.

وكان يتمثَّل بهذه الأبيات:

حَـــاضِرٌ فِي القَلْـــبِ يعمِّـــره لَـــسْتُ أَنْـــسَاه فَـــأَذْكُره

إنْ يـــصلني كنـــت فِي دِعـــة أَوْ جَفَـــانِي مَـــا أغـــيره

فَهُـــوَ مَـــوْلاَي أدِل بِـــهِ وَكَـــمَا أَرْجُـــوه أَحْـــذره

الحكاية الثالثة والثلاثون

عن الشيخ أبي الحسن أحمد الطفسونجي ﷺ قال: لما احتضر شيخنا الشيخ عبد الرحمن الطفسونجي رحمه الله تعالى قال له ولده: أوصني، قال: أوصيك بحفظ حرمة الشيخ عبد القادر، والوقوف عند أمره، ولزوم طاعته وخدمته، فلما تُوفي جاء ابنه إلى الشيخ عبد القادر ببغداد، فأكرمه الشيخ وألبسه خرقة، وزوَّجه ابنته، وكان يلبس لباس العلماء، فجلس يومًا في مدرسة الشيخ عبد القادر فجاء فقيرٌ موله وقعد إلى جانبه، وجلس يقلب أكمامه ويقول: ما هذه أكمام من الشيخ عبد الرحمن الطفسونجي هذه أكمام ابن هبيرة، يعني الوزير، فقام ودخل إلى داره وخلع ثيابه ولبس مسحًا، وخرج من بغداد ولم يُعرف له خبر، ولم يقف له أحدٌ على أثرٍ، فقال الشيخ عبد القادر بعد مدةٍ لرجلين من أصحابه: اذهبا إلى عبادان تجدا فيها الشيخ عبد الرحمن، فإذا وقع نظركما عليه، وصار في أسركما فائتيا به، فلما دخلا عبادان سألا عنه بعض رجال عبادان المقيمين على شاطئ البحر، فقالوا لهما: إنه يأتي كل يوم إلى البحر يتوضأ منه، وله زئير كزئير الأسد، يكاد البحر يضطرب من حسِّه، فما لبثنا أن جاء على ذلك الوصف، فلما نظراه قال لهما: قد أسرتماني في قبضة من أرسلكما، فقالا له: أجب الشيخ عبد القادر، فقال: سمعًا وطاعةً، فكانا يمشيان وهو خلفهما يمشي إذا مشيا، ويجلس إذا جلسا، حتى أتيا به بغداد، جلس بين يدي الشيخ عبد القادر مطرقًا مؤدبًا، فنزع عنه الشيخ مسحه وألبسه ثوبه، وأدخله على زوجته، رضي الله عنهم أجمعين.

الحكاية الرابعة والثلاثون

عن الفتح خادم الشيخ الجليل العارف بالله أبي زكريا يحيى بن محمد المرتعش ﷺ قال: سألت شيخنا الشيخ يحيى عن ارتعاشه هل هو مرضٌ أو بسببٍ؟ فقال: مررت يومًا بالهواء على قرية الشيخ بقا ﷺ[1] فرأيت رجلاً جالسًا على مزبلةٍ، فقلتُ: يا جالسًا على هذه المزبلة قم؛ فإنه لا يجلس على المزابل إلا من منـزلته صدور المراتب، فرفع رأسه ونظر إليَّ فإذا هو الشيخ بقا، فأخذني ارتعاش من هيبة نظرته إليَّ.

وكان يومًا يتحدث في كرامات الأولياء وعنده رجلٌ من ذوي الأحوال والكشف والفتح، فقال ذلك الرجل: الرجل في زماننا هذا من إذا استقى ماء من البئر طلع إليه في الدلو ذهب، وإذا توجَّه إلى جهةٍ رآها ذهبًا، وإذا وقف يصلِّي رأى الكعبة أمامه، وكان هذا حال ذلك الرجل، فنظر إليه الشيخ بقا ثم أطرق، ففقد جميع أحواله، وتوارى عنه جميع ما يشهده أو يجده، فجاء إلى الشيخ مستغفرًا، فقال له: ما مضى لا يعود، أو قال: لا يُعاد.

قال: وزاره ثلاثة من الفقهاء وصلُّوا خلفه العشاء، فلم تقوم القراءة كما يريد الفقهاء، فساء ظنهم به، وباتوا في زاويته، فأجنبوا ثلاثتهم، وخرجوا إلى نهرٍ على باب الزاوية ونزلوا فيه يغتسلون، فجاء أسدٌ عظيم الخلقة، وربض على ثيابهم، وكانت ليلة شديدة البرد، فأيقنوا بالهلاك، فخرج الشيخ من الزاوية فجاء الأسد وتمرَّغ على رجليه، فجعل الشيخ يضربه بكمه:

---

(١) هو العارف الكبير من جلّة مشايخ العراق.

انتهت إليه تربية المريدين بالاستحقاق، وقصد للأخذ عنه من الآفاق، وكان عظيم الجناب رافعًا للأسباب، ويعتزل ويختلي المدد بعد المدد، ولا يطلب من أحد شيئًا من المدد، وقد قيل: التصوف الإناخة على باب الحبيب وإن طرد، قال في حقه العارف الجيلاني ﷺ: كل المشايخ أعطوا بالكيل إلا بقاء أعطى جزافًا.

وانتهت إليه رياسة ما وراء النهر، أخذ عنه خلق كثير وقصد للزيارة وبالنذور.

ومن كلامه:

الفقر تجرّد القلب من علائق الدارين ثقة بالله، وعلامة صحة تجرده أن يتغير حاله بوجود الأسباب وفقدها.

وقال: من أنصف الناس من نفسه وقبل النصح من درنه أدرك أشرف المنازل.

وقال: من لم يجد له من قلبه زاجرًا فهو من إخوان الشياطين وقلبه خراب.

وقال: من لم يستعن بالله على نفسه صرعته. مات سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة.

انظر: طبقات الشعراني الكبرى (١/ ١٤٧)، والكواكب (٤١٤).

لِمَ تعارض ضيوفنا وإن أساءوا الظن بنا؟ فولى الأسد وطلعوا من الماء واستغفروا له، فقال لهم: أنتم أصلحتم ألسنتكم، ونحن أصلحنا قلوبنا.

وقد حُكي مثل هذه القصة لغيره من المشايخ، وقال فيها: أنتم اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد.

الحكاية الخامسة والثلاثون

عن الشيخ الجليل علي بن إدريس اليعقوبي ﷺ قال:

وقع حريقٌ فظيعٌ في قرية الشيخ بقا، وفشا واستطار في أرجائها، فجاء الشيخ بقا بين النار وبين المواضع التى ما كانت وصلت إليها النار وقال: إني هنا يا مباركة، فخمدت مكانها في الحال.

قال: وكان يومًا جالسًا على شط نهر الملك فمرَّت به سفينة فيها جندٌ ومعهم خمر وفواكه ونساء متبرجات وصبيان ومغاني، وهم في غلبةٍ من اللهو والطغيان، فقال الشيخ بقا للملاح: اتَّقِ الله، وقدم إلى البحر فلم يلتفتوا إلى كلامه، فقال: أيها النهر المسخر خُذ الفجرة، فنما الماء عليهم حتى طلع إلى السفينة، وأشرفوا على الغرق، فضجُّوا بالشيخ وأعلنوا بالتوبة، فعاد الماء إلى حاله، وحسنت توبتهم، وكانوا بعد ذلك يكثرون من زيارته.

وكان ﷺ من أحد العارفين، وأكابر المقرَّبين، صاحب الأحوال البهية، والمعارف السنية، والمقامات العلية، والكرامات الباهرة، والآيات الظاهرة، والإشارات اللطيفة، والمعاني الشريفة، والباع الطويل في الكشف، والمحل العالي في التمكين، والمقر السامي في القرب، والقدم الراسخ في الطريق.

ومن كلامه ﷺ:

أنصف الناس من نفسك، واقبل النصيحة ممن دونك تدرك شرف المنازل.

ومن لم يجد في قلبه زاجر فهو خرابٌ، وإذا سلا القلب عن الشهوات فهو معافي.

ومن لم يستعن بالله تعالى على نفسه صرعته.

ومن لم يقم بآداب أهل البداية كيف تتم له دعوى مقامات أهل النهايات. انتهى مختصرًا.

قلت: وقوله: (من لم يستعن بالله على نفسه صرعته) من شواهد ذلك أني رأيت في المنام امرأتين تعرضتا إليَّ، فصارعتني إحداهما وكانت شابة، فلاقيت شدة حتى كادت ترميني، فقلت: استعنت بالله فرميتها على الأرض بعون الله تعالى، والأخرى قائمة لم تقربني، ثم

استيقظت وخطر لي والله أعلم أن التى صارعتني هى النفس، والأخرى هى الدنيا، وقد رأيتها مرة أخرى مع شيخٍ عليها من الحلى والحلل ما يدهش الناظرين، وكان ذلك الشيخ يقول لي: انظر إليها، وهو يزينها ويحسنها مثل ماشطة العروس، وكأنها تقول لي: بالله عليك قبِّلني، فلم أفعل والحمد لله. فأولت ذلك الشيخ أنه الشيطان وتلك المرأة الدنيا، نعوذ بالله من شرِّها ومن شرِّ النفس الأمَّارة بالسوء، ومن شرِّ كل ذي شرٍّ.

وقال بعض الصالحين: رأيت امرأة حسنة مُزينة بالحُلى والحُلل، أو كما قال: ثلاث ليالٍ وهى على يساره، وألا يلتفت إليها، ونحو ذلك من المقال، وأشار إلى أن يكون على اليسار عدم الالتفات إليها بحماية الله ﷻ، والسلامة من فتنتها.

نسأل الله الكريم السلامة من جميع الفتـن، ونعوذ به من جميع البلاء والمحن، إنه حميدٌ مجيدٌ.

الحكاية السادسة والثلاثون

عن الشيخ العارف بالله أبي محمد طلحة بن مظفر قال: كان الشيخ أبو سعيد القيلوي ﷺ من أجلاَّء المشايخ، وأولي التصريف الخارق، ما دعا بأمرٍ إلا نفذت فيه دعوته، ولا عاد مريضًا إلا عُوفي في يومه إن كان له أجل، ولا نظر بعين الرِّضا إلى قلب خراب إلا عُمِّر، ولا نظر بعين الغضب إلى قلبِ عامرٍ إلا خرب.

قال: وكنت معه يومًا عند الزوال بظاهر قيلوية، فطلع على صخرةٍ عظيمةٍ وأذَّن، فلما قال: الله أكبر، انفلقت الصخرة على خمس قطع، وخُيِّل إليَّ أن الأرض اهتزَّت من هيبة التكبير.

وكنت عنده بقيلوية وقد أُهدى إليه رمان حلو وحامض، ففرَّقه على من حضره وناولني واحدة، فكسرتها فإذا هي شديدة الحموضة، فقلت: لو كانت هذه حلوة، فقال الشيخ: ناولني إياها فناولته إياها فقلبها بيده وأكل منها وقال: هي حلوة، فناولني إياها، فإذا هي شديدة الحلاوة.

الحكاية السابعة والثلاثون

عن الشيخ أبي محمد المدني -رحمه الله تعالى- قال: استأذنت شيخنا الشيخ أبا سعيد ﷺ بمسيري إلى دمشق، فأذن لي وأعطاني تفاحتين، وقال: كُلْ إحداهما في روحتك، والأخرى في رجعتك، ولا تأكل شيئًا من غيرهما، قال: فلقد كانت إحداهما زادي من العراق إلى دمشق،

وكنت كلما احتجت أكلت منها فتشبعني، ولا أقدر على إنهائها، فإذا رجعت ثانيًا وجدتها صحيحة كأن لم يمسها أحدٌ، فلما وصلت إلى العراق تبقى على ما وصفت من حال أختها.

قلت: يعني أنه شبع منها، ثم تعود صحيحة كما كانت كل حينٍ مدة سفره.

وكان الشيخ أبو سعيد المذكور من أكابر العارفين المحققين، صاحب المقامات العلية، والمعارف الجلية، والسر السني، والمشرب الهني، والمكان المكين في المعالي، والمعراج العالي في أحوال النهاية، والطور الرفيع في منازل الولاية، وهو أحد الفقهاء المعتبرين، والعلماء المعنيين.

ومن كلامه ﷺ:

التصوُّف لأقوام أغلبوا حتى بسطوا، وابتغوا في طلب الوصل حتى قُيدوا، ثم نُودوا من أسرار قربه فقالوا: لبيك اللهم لبيك.

وحسن الإرادة الدخول في كل خلقٍ سنيٍّ، والخروج من كل وصفٍ دنيٍّ، ومراقبة الأحوال، ولزوم الآداب في كل نفسٍ، والإقبال على الله تعالى بمحو الشرف، وإسقاط التكلف.

والتوكُّل: الثقة بالمضمون، والقيام بالأوامر، ومراعاة السر، والتخلي من الكونين.

والتوحيد: غض الطرف من الأكوان بمشاهدة من هو منـزَّهٌ عن كل نقصانٍ.

الحكاية الثامنة والثلاثون

عن الشيخ عوض بن سلامة البغدادي -رحمه الله تعالى-[1] قال: أخبرنا الشيخ والدي قال: مررت بقرية الشيخ الباذراني فإذا جراد عظيمة سدَّت الأفق من كثرتها، يقدمها رجلٌ راكب على جواده، ينادي بأعلى صوته: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، والجراد يتبعه حيث توجَّه، فخرج الشيخ مطر الباذراني ﷺ[2] إلى ظاهر زاويته ونادى: يا جند الله ارجعي من حيث

---

(١) هو أبو بكر بن محمد بن سلامة.

كان فقيهًا صوفيًا صالحًا، ورعًا زاهدًا، غلبت عليه العبادة والتنسك، جامعًا بين الطريقين، وقدوة للفريقين. وكان يحج بالناس فلا يقدر أحد من العرب أن يعترضهم بمكروه، وبينه وبين الجبرتي صحبة وصداقة، وكان يقول عنه أنه بلغ رتبة سهل التستري. مات سنة تسع وسبعمائة.

انظر: العقود اللؤلؤية (٢/٢٠٠)، طبقات الخواص (١٧٦)، والكواكب (٥٩١).

(٢) انظر: قلائد الجواهر (ص٣٤٧)، وبهجة الأسرار (ص٣٠٨).

جنتٍ، فنكص الجراد على عقبيه مدبرًا جميعه، وانقض الرجل من الهواء كالعقاب حتى سقط بين يدي الشيخ، فقال: يا هذا، ما حملك أن تمر ببلدي بغير إذني؟ فانكب على رجل الشيخ يقبّلها ويستغفر، وسأله أن يرد عليه ما سلبه، فقال له الشيخ: قم فاذهب، فمرَّ الرجل في الهواء كالسهم المفوق، وسقط الجراد عن بلاد العراق، وأخذه الناس وأكلوا منه أيامًا.

وقال الشيخ مطر: إن هذا الجراد أراد أن يهلك الحرث والنسل، وإني استأذنت الله تعالى أن أرده فأذن لي.

الحكاية التاسعة والثلاثون

عن الشيخ العارف بالله أبي طاهر بن أحمد الصرصري عن أبيه قال: شممت ليلة عند السحر بأذاران رائحة تكاد تتقطع الأرواح لذةً، والعقول سكرةً، ثم أعقبتها برقة من نورٍ أضاء به الأفق، فقيل لي: قد تجلّى نور خمار الحق ﷺ الليلة بقلب عبده الشيخ مطر، ثم احتجبت عنه فتنفّس حسرةً على عدم دوام تلك المشاهدة، وما شممت من طيب نفسه، ونظر إلى الوجود بعين الحيرة في ذلك التجلّي، فما رأيت من نظر نوره نظرة.

فبكرت إلى زيارته فرأيت عشبًا على باب زاويته، كنت أعرفه بالأمس يابسًا فإذا هو أخضر، ورأيت رجلين في زاويته كنت أعرف أحدهما بالأمس أعمى والآخر مريضًا، فإذا الأعمى بصير، والمريض مُعافى، فسألت أصحابه عن ذلك فقالوا: بات الشيخ البارحة وسط العشب وفرشنا للمريض في آخر العشب، ونام الأعمى عنده، فأصبح العشب أخضر، والأعمى بصيرًا، والمريض مُعافى.

وهو ﷺ من سادات العارفين، أكابر الشيوخ المحققين، صاحب أحوال شريفة، ومقامات منيفة، وكرامات ظاهرة، وآيات باهرة، وتصريف نافذ، وباع طويل في أحكام الولاية، وقدم راسخ في درجات النهاية، وهو أحد أركان هذه الطريقة، وأكابر أئمة الحقيقة علمًا وعملاً وحالاً ومقالاً وزهدًا وتحقيقًا ومهابةً.

وقال أيضًا ﷺ: لذة النفوس معرفة الرفيق الأعلى، ومناجاة العلي العظيم.

ولذة القلوب من أعراس تطير في مقاصير قدس الحال، بتوحيد في رياض تمجيد بمطربات المغاني في فلك المعاني الحادية لأهلها إلى الفهم الداني الرافعة لأربابها في مدارج الأماني، إلى مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ.

ولذة الأرواح الشرب بكأس المحبَّة من أيدي عراف الفتح اللدني في خلوة وصل على بساط المشاهدة، وإلهام من معالم الكون، أو قال: عوالم الكون سيره في نور العزة، ومرآه ما كتب على صفحات ألواح نسمات درات الوجود علم التوحيد، كلا بل هو الله العزيز الحكيم.

ولذة الأسرار مطالعة نسيم الحياة الدائمة، والوصول إلى حقائق الغيوب بضمائر القلوب، والمعاينة بالأفكار سرائر الأسرار.

ولذة العقول ملاحظة أسرار الملكوت الخفية عن الأبصار بالسرائر المحيطة بالأفكار، فتعاين القلوب حقائق الغيوب، ويصحبها قبول شواهد الأسرار، فتلج الضمائر بحار الأفكار، وتطمئن النفوس إلى ما لحقت به، أو قال: تحققت من العالم المحجوب، فلما كشف عن الغيوب أذيال دلالتها على إتقان صنع، وإبداع فطرة، قابلتها من العقول هيبة وفكرة، ويخرج الاعتبار من القلب، وإذا كان القلب طاهرًا نفذ الاعتبار بالشواهد، وسمت به الهمَّة، ويرقى به الفكر، ولم يمنعه مانع، فالفكر طريق إلى الحق، ودليل على الصدق، والفكر أصل ثمرته المعرفة، والمعرفة ثمرة طعمها العمل، والعمل طعمه لذة الإخلاص، والإخلاص لذة غايتها النعيم، والنعيم غاية ليس لها انقضاء، وأيدي العقول تمد أعنة النفوس، والنفوس مسخَّرة للعقل، والعقل يستمد من الأنوار الإلهية، وعنه يصدر الحكم التي هي رأس العلوم، وميزان العدل، ولسان الإيمان، وعين البيان، وروضة الأرواح، ونور الأشباح، وجند المحاسن، وميزان الحقائق، وأنس المستوحشين، ومتجر الراغبين، ومنية المشتاقين، والحكمة إجابة إلى الحق، فإذا وردت على القلب دلَّت على مكانٍ من الهدى، وهذا الكلام في الحقائق لفظ فائق، ومخبر عن مشرب رائق، ويطرب له كل مريدٍ صادقٍ.

ومن كلامه ﷺ:

كما قال لغيره فالضرورة سمته، وكلما كان بالجسم ظهوره فالعرض من ملزومه، وكلما كان له حس لزمه نوع، وكلما كان له عرض فالطول مشاحنته، وكلما يظفر به الوهم فالنفوس ترتقي إليه، وكلما سكن تحرك، وكلما يفكر فمشغول، وكلما يشاور أو يؤازر فناقص، وكل هذه النعوت من أوصاف الحدث، والقديم سبحانه وتعالى بائنٌ بذاته وصفاته عن خلقه، منـزَّهٌ عن ذلك كله.

قلت: وكان ﷺ من أصحاب الكرامات الباهرة، والأحوال الفاخرة، والمقامات العلية، والمعارف السنية، والمكانة والتمكين الشريف، وكمال الولاية، ونفاذ التصريف، وقلب

الأعيان له خرق العادات، وظهور العجائب على يديه، والنطق بالحكم والأسرار والمغيبات.

ومن كلامه ﷺ:

قوله: ما أخذت العهد على أحدٍ حتى رأيت اسمه مرقومًا في اللوح المحفوظ من جملة مريدي.

وقال أيضًا ﷺ: أُوتيت سيفًا ماضي الحد، أحد طرفيه بالمشرق والآخر بالمغرب، لو أسير به الجبال الشوامخ لولَّت.

وقال: في المشاهدة ارتفاع الحجب بين العبد وربه، فيطالع بصفاء القلب إلى ما يخبر به من الغيب، فيشاهد الجلال والعظمة، وتتغيَّر عليه الأحوال والمقامات، وهذا أصله الحيرة والدهشة، ثم تخرجه الحيرة إلى البهتة، فتراه شاخصًا بالحق إلى الحق، فتارة يشاهد الجلال، وتارة يطالع الجمال، وتارة يرى البهاء، وتارة ينظر إلى الكمال، وتارة يلوح له الكبرياء والعزة، وتارة تبدو له الجبروت والعظمة، وتارة يشهد اللطف والبهجة، فهذا يبسطه وهذا يقبضه، وهذا يطويه وهذا ينشره، وهذا يفقده وهذا يوجده، وهذا يبديه وهذا يعيده، وهذا يبقيه وهذا ينفيه، وهو زائلٌ عن نعوت البشرية، قائمٌ بصفات العبودية، لا يحس بالأغيار، ولا يشهد غير عظمة الجبَّار.

وقال: إذا قدحت نار التعظيم مع نور الهيبة في زبد السر تولَّد منها شعاع المشاهدة، فمن شاهد الحق ﷻ في سرِّه سقط الكون من قلبه، وإذا توالت المشاهدة على القوم تولأَّهم الحق سبحانه بأسباب أستار التولِّي، فحجبهم عن رؤية المولى، وينجذبون من الحيرة في نور المشاهدة إلى الحيرة في نور الأزل، ويختطفون من الدهشة في قدس الأنس إلى الدهشة في سر الجمع، فمن حائر بين الاستتار والتجلِّي، ومن هائم بين البُعد والتدلي، ومن ساكن بين الوصل والتعالي، وهو محل الاستقامة والتمكين، وذلك صفة الحضرة ليس فيها سوى الذبول تحت موارد الهيبة.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ [الأحقاف:٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠]؛ لأن من عرف الله ﷻ لا يرى غيره، ومن أحب شيئًا لا يطالع سواه.

وكان ﷺ يتمثل بهذين البيتين:

الـــــشَّوْقُ وَالوَجْـــــدُ فِي مَكَـــــانِي قَـــــدْ منعَـــــانِي مِـــــن القَـــــرَارِ

هما معي لا يفارقاني فذا شعاري وذا دثاري

الحكاية الأربعون(١)

عن الشيخ القدوة الإمام الصدر الكبير، العارف بالله الشهير شهاب الدين السهروردي ﷺ أنه قال: انحدرت إلى البصرة لأزور الشيخ أبا محمد البصري بن عبد الله ﷺ، فمررت في طريقي بمواشي وزروع ونخيل كثيرة، وكنت كلما اجتزت بشيء منها سألت عنه راعيه ومن يقوم به، فيقولون: هذا للشيخ محمد بن عبد الله، فخطر في نفسي أن هذا حال الملوك، فدخلت البصرة وأنا أتلو سورة الأنعام، وقلت في نفسي: أي آيةٍ انتهيت إلى دار الشيخ وأنا أقرأها فهي حالي معه، يعني صفة الشيخ، وحاله المناسب له، قال: فوصلت إلى باب داره ووضعت رجلي على باب عتبة داره وأنا أتلو: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فخرج إليَّ خادمه على الفور مسرعًا قبل أن استأذن وقال: إن الشيخ يدعوك، فدخلت عليه وقال لي ابتداءً: يا عمر جميع ما رأيته على الأرض هو على الأرض وليس في قلب عبيد منه شيء، قال: فاشتدَّ تعجبي من علمه بحالي في شيء لم يعلمه إلا الله ﷻ، قلت: لعل هذه القصة وقعت في بداية الشيخ شهاب الدين، رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

الحكاية الحادية والأربعون

عن الشيخ الصالح الزاهد العابد أبي عبد الله محمد البلخي ﷺ قال: كنت في بعض السنين مجاورًا لحرم مكة زادها الله شرفًا، فبينما أنا جالسٌ يومًا وقت الضُّحى في مقام إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، إذ دخل الشيخ أبو محمد بن عبد البصري ﷺ المقام ومعه أربعة أشخاص.

قلت: وكلامه هذا أيضًا في غاية من الحسن والتحقيق، [والتأويل] الأنيق في علم الأصول، والتنزيه للحق سبحانه وتعالى عن نعت الحدث الذي ليس له إليه وصول.

وكان ﷺ يتمثَّل بهذه الأبيات:

سهرتُ الليل مِن وجدي بميًا وأذكرها فتجري مقلتيا

أضمُّ جوانحي بيدي شوقًا فيشتعل الزفير براحتيا

---

(١) هناك خطأ في المخطوط للناسخ في الترتيب والترقيم وقد تم تصويبه.

ويسكرني مدام الحب تيها ... ومَنْ يصحو إذا شرب الحميا
وما خوفي من السُّكر اختبالاً ... ولكن أن أبوح بسر ميا
فجودي وارحمي يا مي مضني ... كواه هجرك والبُعد كيا
ورقي لذلك أمسى كئيبًا ... من البلوى تسامره الثريا[1]

الحكاية الثانية والأربعون

عن الشيخ الجليل سلمان ابن الشيخ الكبير العارف بالله أبي محمد ماجد الكردي[2] قال: كنت عند والدي في خلوته، ولم يكن فيها شيء يُؤكل ولا يُشرب. فخرج فجلس على بابها وأنا معه، فقدم عليه عشرون رجلاً، فقال لي: يا سلمان ادخل هنا، يشير إلى بيت الخلوة، وائتنا بطعامٍ، ولم أستطع مخالفته، فدخلت ودخل معي خادمان له وإذا فيها أوان مملوءة طعامًا، فأخرجناها فأتوا عليها جميعًا حتى إذا لم يبقَ عليها شيءٌ دخل علينا خمسة عشر رجلاً، فقال لي: يا سلمان ادخل هنا وائتنا بطعامٍ، فدخلت والخادمان معي فإذا فيها أوان كثيرة مملوءة طعامًا غير الطعام الأول، فأخرجناها وأكلوا، ونظر والدي إلى الخادمان، فوقعا على الأرض مغشيًا عليهما، فرُفعا إلى منازلهما كالخشبتين لا ينطقان، ولا يتحرك منهما سوى أعينهما، فأقاما كذلك إلى أن جاءت أمهاتهما بعد زمانٍ طويلٍ، يبكيان ويشكوان حال ولديهما، فقال لي والدي:

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص٣١٠)، وسر الأسرار (ص٣٤٠).

(٢) هذا الشيخ من أعيان مشايخ العراق، وأكابر العارفين، وصدور المقربين، وأئمة المحققين، صاحب الكرامات الظاهرة، والأحوال الفاخرة، والمقامات الجليلة، والرتب السامية، والمواهب الجسيمة، له الحقائق والمعارف، والدقائق واللطائف، وله التقدم في مراتب القرب، والتصدر في منازل الحضرة، والري من مناهل الوصل، والسبق إلى حلية المعالي.

وكان له كلام نفيس على لسان أهل الحقائق منه:

قلوب المشتاقين منورة بنور الله، فإذا تحرك فيها الاشتياق، أضاء نورها ما بين السماء والأرض، فيباهي الله ﷻ بهم الملائكة، ويقول: أشهدكم أنني إليهم أشوق، ومن اشتاق إلى ربه تبارك اسمه أنس، ومن أنس طرب، ومن طرب قرب، ومن قرب سار، ومن سار حار، ومن حار طار، ومن طار قرت عينه بالاقتراب، فالزاهد يعالج الصبر والمشتاق يعالج السكر، والواصل يعالج الولاية، والشوق نار الله ﷻ تضطرم في قلوب الأحباب، فلا تهدأ إلا بلقائه، والنظر إليه، ونار الهيبة تذيب القلوب، ونار المحبة تذيب الأرواح، ونار الشوق تذيب النفوس. وانظر: بهجة الأسرار (ص٣١٣) بتحقيقنا.

اذهب وائتني بهما، فذهبت إلى أحدهما وقلت له: والدي يدعوك، فقام في الحال كأن ما به بأس، ثم فعلت بالآخر كذلك، وأتيت بهما إليه فقاما في الاستغفار زمانًا، فأقبلت عليهما فسألتهما عن أمرهما. فقال لي أحدهما: لما أخرجنا الطعام في المرة الثانية هالني ما رأيت، ووقع في نفسي أن هذا سحرٌ، وقال الآخر: وأنا وقع في نفسي أنه يأتي به جني، وأقسم كل واحدٍ منهما بالله تعالى أنه لم يعلم بما في نفسه غير الله تعالى، وأنه ردع خاطره عند الاستغفار، وعلما أنه خاطر سوء، ولم يكن بأسرع من رجوع العقل إلى حاله الأول.

الحكاية الثالثة والأربعون

عن الشيخ سلمان المتقدم ذكره قال: قال لي والدي يومًا: يا سلمان اذهب إلى آخر الجبل تجد فيه نفرًا فقل لهم: والدي يسلم عليكم ويقول لكم: ما تشتهون؟ قال: فأتيتهم فقلت لهم ذلك فقال أحدهم: رمانة، وقال الثاني: تفاحة، وقال الثالث: عنبًا، فأتيت والدي فأخبرته، فقال لي: اذهب إلى الشجرة الفلانية فاجنِ منها ما طلبوا، وتلك الشجرة أعرفها يابسة، فلم أرد عليه كلامه، وأتيت الشجرة فإذا هي خضراء مورقة، ووجدت عليها رمانة وتفاحة وقطف عنب لم أرَ مثل ذلك منظرًا ورائحةً، فأتيت والدي بذلك فقال: اذهب به إليهم، فأتيتهم فأكل صاحب الرمانة رمانته، وصاحب العنب عنبه، وقال صاحب التفاحة: قد آثرتك بها، ولم يأخذها، فوجدت في نفسي من ذلك. ثم مشوا قليلاً وأنا معهم ثم مروا في الهواء، ولم يستطع صاحب التفاحة أن يرتفع من الأرض قدر شبر، فسقط في يده ونزل إليه صاحباه وقالا له: بامتناعك عن أخذ التفاحة. ثم جاءوا إلى والدي مكشوفة رؤوسهم، فتلقّاهم ثم قال لذلك الرجل: يا بني ما منعك عن قبول كرامتي وموافقة صاحبيك؟ فأكب على قدم والدي يقبلها، فقال له: لا بأس عليك، ثم قال: يا سلمان أين التفاحة؟ فناولته إيّاها فكسرها أجزاء، وأطعمه جزءًا وأطعم كلاً منهم جزءًا، فإذا هي لا عجم لها، وكذلك كان العنب والرمان، ثم دفع والدي بيده بين كتفي الرجل، فمرَّ مع صاحبيه في الهواء كالسهم المفوق، فسألته عنهم فقال: هؤلاء من رجال الغيب السيارة، وأخذ عليَّ ألا أعلم أحدًا بشيءٍ من ذلك وهو حيٌّ ﷺ.

وكان من أكابر العارفين، وصدور المقرَّبين، وأجلّة الأئمة المحققين، صاحب الكرامات الظاهرة، والأحوال الفاخرة، والمقامات الجليلة، والمواهب الجزيلة، والحضور في منازل

الحضرة، والنـزول في منازل الوصل، والصعود إلى مراق التصريف، والسمو إلى مدارج العالم.

ومن كلامه ﷺ:

من اشتاق إلى ربّه تعالى أنس، ومن أنس طرب، ومن طرب قرب، ومن قرب سار، ومن سار حار، ومن حار طار، وقرة عينه بالاقتراب.

فالزاهد يعالج الصبر، والمشتاق يعالج الشكر، والواصل يعالج الولاية.

والشوق بالله مضطرم في قلوب المحبين، ولا يهدأ إلا بلقاء المحبوب والنظر إليه، ونار الهيبة تذيب القلوب، ونار المحبَّة تذيب الأرواح، ونار الشوق تذيب النفوس، والصمت عبادةٌ بغير عناءٍ، وزينةٌ من غير حلي، وهيبةٌ من غير سلطانٍ، وحصن من كل سوءٍ، وراحة الكاتبين، وغنيةٌ عن الاعتذار، وكفى بالمرء علمًا أن يخشى الله ﷻ، وكفى به جهلاً أن يعجب بنفسه، والعجب بالعمل حمق يغطي به صاحبه عيوب نفسه، فلم يدرِ أنّى يذهب به فيصرفه الكبر، وما خلق الله سبحانه وتعالى من عجيبةٍ إلا ونقشها في صورة آدمي، ولا أوجد أمرًا غريبًا إلا ويجمله فيها، ولا أبرز سرًّا إلا وجعل فيها مفتاح علمه، فهو نسخة مختصرة من العالم.

الحكاية الرابعة والأربعون

عن الشيخ الكبير العارف بالله الحبر الشهير الشيخ جاكير ﷺ[1] قال:

---

(١) هو من أكابر المشايخ، وأعيان العارفين المقرَّبين، وأئمة المحققين، وهو أحد أركان هذه الطريقة، وكان تاج العارفين أبو الوفا يثني عليه وينوِّه بذكره، وبعث إليه طاقية مع الشيخ عليّ بن الهيتي وأمره أن يضعها على رأسه نيابةً عنه، ولم يكلِّفه الحضور إليه، وقال: سألت الله أن يكون جاكير من مريديّ، فوهبه لي.

وكانت المشايخ بالعراق يقولون: انسلخ الشيخ جاكير من نفسه كما تنسلخ الحية من ثوبها.

وكان يقول: ما أخذت العهد قط على مريدي حتى رأيت اسمه مكتوبًا في اللوح المحفوظ أنه من أولادي.

وكانت نفقته من الغيب، وكان من الأكراد، وسكن صحراء من صحاري العراق، بالقرب من قنطرة الرصاص، على يومٍ من سامراء، واستوطنها إلى أن مات بها مسنًّا، وبها دُفن وقبره ظاهرٌ يُزار، وعمَّر الناس عنده قرية يطلبون البركة بذلك. انظر في ترجمته: طبقات الشعراني (١/ ١٢٨)، وكرامات النبهاني (١/ ٣٧٨)، والانتصار (ص٤٤٦)، وبهجة الأسرار (ص٣١٦) كلاهما بتحقيقنا.

جاء تاجرٌ من أهل واسط إلى والدي، وكان يحبه وله فيه اعتقادٌ، واستأذنه في ركوب البحر إلى الهند؛ لتجارة له، وودَّعه وقال له: إذا وقعت في شدَّةٍ ولم تقدر على دفعها فنادِ باسمي.

فسافر الرجل فبعد ستة أشهر وثب والدي قائمًا ونحن حوله وصفق بكفيه وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٣]، ومشى خطوات يمينًا وشمالاً ونحن نشاهد منه ذلك، ثم جلس فسألناه عن سبب ذلك فقال: كاد فلان وسُمِّي التاجر الواسطي، يغرق الآن لولا أن ناداني باسمي فأرخنا ذلك اليوم، فتمَّ سبعة أشهر فوصل ذلك التاجر، وأكب على رجلي والدي يقبلها ويقول له: يا سيدي لو لا أنت لهلكنا في ذلك اليوم، ووالدي مبتسمٌ، فلما خلونا بالتاجر سألناه عن أمره فقال: إننا أوغلنا في البحر المحيط في بلاد الصين وتهنا عن الطريق، وأيقن الرفاق وكل من في السفينة بالهلاك، ثم لما كان وقت كذا في يوم كذا وذكر الوقت الذي أرخناه عندنا فعصفت علينا الرياح العواصف من جهة الشمال، وهاج البحر، وتلاطمت أمواجه واشتدَّ علينا الأمر، وأشرفنا على الغرق، فذكرت قول الشيخ فنهضت قائمًا، واستقبلت جهته وناديته باسمه يا فلان اذكرنا، فلم يتم كلامي حتى رأيته قائمًا في وسط السفينة، وأشار بكمه إلى جهة الشمال فسكن الريح، ثم وثب من السفينة، وانتقل على متن البحر وصفق بكفيه وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، ويمشي على الماء خطوات يمينًا وشمالاً، فلما سكن البحر وخمدت أمواجه وصار وكأنه عين ديك، ثم أشار بكمه إلى جهة الجنوب فهبَّت علينا ريح طيبة، أقلعنا بها من ذلك المكان حتى وصلنا إلى طريق السلامة، ومشى الشيخ على متن البحر حتى غاب، ونجَّانا الله تعالى ﷻ ببركته من الهلاك.

قال: فحلفنا له بالله أن الشيخ لم يغب عن أبصارنا في ذلك الوقت، بل كنا جلوسًا معه، فأقسم بالله العظيم أنه كان حاضرًا معه، ولو لم يحضر معه لم ينج منهم إلا ما شاء الله تعالى.

الحكاية الخامسة والأربعون

عن الشيخ أبي الحسن الخباز -رحمه الله تعالى- قال: كنت عند بعض أصحابنا ببستانٍ له بالبصرة، فدخل علينا فقيرٌ أشعثٌ أغبرٌ، وقال لصاحب البستان: أشبعني، فقدم وزنة بعد أخرى وهو يستزيد حتى أكل ألف رطل، ثم أتى نهرًا هنالك وجعل يغترف بكفيه، فشرب ماءً كثيرًا وانصرف، ثم بعد مدة قال لي صاحب البستان: إن نخلة من بين بستاني تضاعفت أمثالاً عن مقدارها كل سنةٍ.

قال: ثم حججت في العام الثاني فبينما أنا أمشي يومًا وحدي أمام الركب فخطر في نفسي شأن ذلك الرجل، وتمنيت رؤيته فإذا به عن يميني، فدهشت وسررت به، وكان يمشي وأنا معه، وإذا جلس نزل الركب جميعه، وإذا سار سار الركب جميعه، فجاء إلى بركةٍ كبيرةٍ فيها ماء، وقد رسب فيه طين كثير، فجعل يصلح من الطين بكفيه ويأكل منها كما يأكل أحدنا الحلوى، حتى أكل منه شيئًا كثيرًا، وألقمني قطعة من ذلك الطين فإذا هو في فمي ألذ من الحلوى، وله رائحةٌ كالمسك الأذفر، ثم اغترف بكفيه من ذلك الماء فشرب منه ماءً كثيرًا وقال لي: يا علي ما هذه الأكلة من تلك الأكلة التي رأيت، وليس مثلهما طعام ولا شراب، فقلت: يا سيدي من أين لك هذا؟! قال: نظر إليَّ الشيخ أبو محمد بن عيد نظرةً فملأ قلبي بحبِّه، ووصل السر بربي، وانطوت الأكوان، وقلبت لي الأعيان، وقرب مني البعيد، ونلت المراد بنظرته، وكساني معنى استغنيت به عن الطعام والشراب، إلا في وقت عود أحكام البشرية إليَّ. ثم غاب عني فما رأيته.

الحكاية السادسة والأربعون

عن الشيخ العالم أبي طالب عبد الرحمن بن أبي الفتح الهاشمي الواسطي المصري رحمه الله قال: سمعت الشيخ القدوة جمال الدين، إمام العارفين، أبا محمد بن عبد البصري ﷺ يقول وقد سُئل عن الخضر عليه السلام: أحيٌّ هو أم ميِّتٌ؟ فقال: اجتمعت بأبي العباس الخضر عليه السلام فقلت له: أطرفني بأعجوبة مرَّت بك مع الأولياء؟ فقال: اجتزت يومًا بساحل البحر المحيط، حيث لا يُرى آدمي ولا غيره، فرأيت رجلاً نائمًا ملتفًّا بعباءةٍ، فوقع لي أنه وليٌّ فركضته برجلي، فرفع رأسه وقال: ما تريد؟ فقلت: قم للخدمة، فقال: اذهب واشتغل بنفسك، فقلت له: لئن لم تقم لأناديِن عليك في الناس، وأقول لهم: هذا وليٌّ. فقال: لئن لم تذهب لأقولنَّ: هذا الخضر، فقلت: وكيف عرفتني؟ فقال: أما أنت فأبو العباس الخضر، فقل لي أنت: من أنا؟ فرفعت همتي إلى الله ﷻ في سرِّي وقلت: يا رب يا نقيب الأولياء، فنُوديت: يا أبا العباس أنت نقيب من يحبنا، وهذا نقيب من نحبه، فأقبل عليَّ وقال: يا أبا العباس أسمعت حديثي؟ قلت: نعم فزِدني بدعائك، فقال: منك الدعاء يا أبا العباس، فقلت: لا بدَّ، قال: مر، وفر الله نصيبك منه، قلت: زدني، فغاب عني ولم يكن الأولياء يقدرون على الغيبة عني.

ثم رأيت في نفسي بقية من المشي، فمشيت حتى انتهيت إلى كثيب عظيم من الرمل، فدعتني نفسي إلى صعوده، فلما استويت على أعلاه، فظننت أني ساميت السماء، فرأيت على

ظهره نورًا يخطف، فقصدته فإذا ثمَّ امرأة نائمة، ملتفة بعباءة تشبه عباءة الرجل، فأردت أن أركضها برجلي، فنُوديت: تأدَّب مع من نحبه، فجلست أنتظر انتباهها فاستيقظت وقت صلاة العصر وقالت: الحمد لله الذي أحياني بعدما أماتني، وإليه النشور، والحمد لله الذي آنسني به وأوحشني من خلقه، ثم التفتت فرأتني فقالت: مرحبًا بك يا أبا العباس، ولو كنت تأدبت معي من غير نهي كان أحسن.

قلت: بالله عليك أنت زوجة الرجل؟ قالت: نعم، وقد ماتت في هذه البرية فساقني الله ﷻ إليها فغسلتها وكفنتها، فلما فرغت من تكفينها وتجهيزها رُفِعَتْ من بين يديّ نحو السماء حتى غابت عن بصري، فقلت: زوديني بدعاء، فقالت: منك الدعاء يا أبا العباس قلت: لا بدَّ. فقالت: لا تلمنا إذا غبنا عنك فالتفت فلم أرَها.

قال الشيخ أبو محمد: فقلت للخضر عليه السلام: فهل لهؤلاء الأحباب رجل فرد في كل وقتٍ يرجعون إلى أمره، قال: نعم، قلت: ومن هو في وقتنا هذا؟ قال: هو الشيخ عبد القادر، قلت: أخبرني عن حال الشيخ عبد القادر، قال: هو مرد الأحباب، وقطب الأولياء في هذا الوقت، وما أوصل الله وليًا إلى مقامٍ إلا وكان الشيخ عبد القادر أعلاه، ولا يسقي الله حبيبًا منهم كأسًا من حبِّه إلا وكان للشيخ عبد القادر أهناه. وهذا بعض كلامه في فضائل الشيخ عبد القادر.

ولنرجع إلى ذكر الشيخ ابن عبيد، كان من أكابر العارفين المشهورين، وأجلاَّء المقرَّبين المذكورين، صاحب الأحوال الفاخرة، والكرامات الباهرة، والمقامات السنية[1].

الحكاية السابعة والأربعون

عن الشيخ أبي العباس أحمد بن بركات السعدي المقري -رحمه الله تعالى- قال:

شهدت يومًا الشيخ القدوة، أبا عمرو بن عثمان مرزوق القرشي رضي الله عنه وقد دخل عليه شيخًا أشعث أغبر ما رأيته من قبل، ولا من بعد، فجلس بين يديه متأدبًا خاضعًا، فأطرق الشيخ عثمان ساعة، ثم نظر إلى الرجل، فخرَّ مغشيًا عليه، فقال الشيخ: ارفعوه، فرفعناه إلى بيتٍ فمكث فيه شهرًا لا يتحرك، وحاله حال الميت إلا أنه يتنفَّس، ثم أتاه الشيخ ومسح بيده على صدره فأفاق.

فسألت عن أمره فقال: يا أبا العباس كبر سني، وتباعدت مجاهداتي، وطالت سياحاتي،

---

(١) انظر: البهجة (ص٣٢٠)، والقلائد (ص٣٣٧).

وما رأيت من أحوال هذا الشأن شيئًا، فلما استغثت إلى الله تعالى بسرِّي فنُوديت: اذهب إلى سلطان هذا الوادي، فعنده ما تريد، فقلت: من هو؟ فقيل: هو الشيخ أبو عمرو بن مرزوق، فلما جلست بين يديه ونظر إليَّ، قطعت نظرته حجتي، فاختطفني عن حسِّي وعالمي، وغيَّبني عن الوجود وما فيه، وقمت على قدم الفناء وغيبة الأكوان في مقام القُرب، ونلت مطلوبي، ووصلت إلى محبوبي ببركة نظره.

فمرَّ بي وقتٌ وأنا على هذا الحال في مقامي ذلك، فنظر إليَّ وقال: آن لنا أن نضع في عقله تمكنًا يظهر بقوته سلطان هذا الحال؛ ليرجع إلى أهله، ويقوم بأحكام الشرع، فأسر إليَّ الشيخ أبو عمر فوجدت عندي قوة ملكت بها حالي، فرجعت إلى وجودي كما ترى، ثم ذهب فما رأيته بعد.

الحكاية الثامنة والأربعون

عن الشيخ أحمد بن بركات السعدي أيضًا رحمه الله تعالى قال: حضر عند الشيخ عثمان بن مرزوق ﷺ رجلان: رجل عربي لا يعرف العجمية، وعجمي لا يعرف من العربية كلمة واحدة، فجعل كل منهما يتكلَّم ولا يفهم الآخر ما يقول صاحبه، فقال العربي: وددت أني أعرف بالعجمية، وقال العجمي: وددت أني أعرف بالعربية، وقاما ثم أتيا الشيخ من الغد، والعربي يتكلَّم بالعجمية، وأفصح العجمي بالعربية، وقال العربي: إني رأيت الليلة في منامي إبراهيم ﷺ ومعه الشيخ أبو عمرو، وقال الخليل صلوات الله عليه لأبي عمرو: علمه بالعجمية، وقال العجمي: إني رأيت هذه الليلة في منامي رسول الله ﷺ ومعه الشيخ أبو عمرو فقال المصطفى ﷺ لأبي عمرو: علمه العربية نيابةً عني، فتفل أبو عمرو في فمي فاستيقظت وأنا أتكلم بالعربية.

الحكاية التاسعة والأربعون

عن الشيخ الجليل الأصيل أبي الخير سعد بن الشيخ القدوة العارف بالله أبي عمرو عثمان ابن مرزوق القرشي ﷺ قال: سمعت والدي يقول: خرجت مرة تلقاء جبل المقطم بقرافة مصر، فمكثت فيه أيامًا لا أرى فيه أحدًا، فسمعت ليلة عند السحر قائلاً يقول في مناجاته بصوت يزعج القلوب، وحنين يذهل العقول: كتمت بلائي عن غيرك، وبحت بسرِّي إليك، واشتغلت بك عمن سِواك، ثم انتحب بالبكاء وقال: عجبت لمن عرفك كيف يسلو عنك،

ولمن ذاق حبك كيف يصبر عنك، يا مأمول العارفين، وحبيب المقرَّبين، وأنس المحبين، وغاية أهل الطالبين، وبغية المنقطعين، ثم صاح: واشوقاه واكرباه. فتبعت الصوت وقد أخذ بمجامع قلبي حتى انتهيت إليه، فإذا هو شيخٌ نحيفُ الجسم، مصفر اللون، تعلوه الهيبة، ويجلله الوقار، وعليه سمة أهل المعرفة، فدنوت منه وسلمت عليه، فقال: مرحبًا بك يا أبا عمرو، فقلت: وكيف عرفتني وما رأيتني قبل هذه الساعة؟ قال: نظرت إلى شخصك في الأرض فعرفت ما مقامك في السماء، وقرأت اسمك في اللوح المحفوظ، فقلت لـه: يا سيدي أفدني فائدة؟ فقال: يا أبا عمرو أوحى الله ﷻ إلى نبيه داود ﷺ: قل لأحبابي وأوليائي: كيف أعرفن كلاًّ منهم صاحبه، وإني مؤنسهم بذكري، ومحدثهم بأُنسي، وكاشف الحجاب فيما بيني وبينهم؛ لينظروا إلى عظمتي وجلالي، في كل يومٍ أدنيهم، وفي كل ساعةٍ أقربهم مني، وأذيقهم من طعم كرامتي، فإذا فعلت ذلك لهم عميت نفوسهم عن الدنيا، فما أنس إليهم شيء، ولا أقر لعيونهم من النظر إليَّ، يستعجلون القدوم عليَّ وأنا أكره أن أميتهم؛ لأنهم موضع نظري، من بين خلقي أنظر إليهم وينظرون إليَّ، فإذا رأيتهم يا داود وقد ذابت نفوسهم، ونحلت أجسامهم، وخشعت عيونهم، وتهشمت أعضاؤهم، وانخلعت قلوبهم، إذا سمعوا بذكري فأباهي بهم ملائكتي، وأهل سماواتي، ينظرون إليَّ فيزدادون خوفًا وعبادةً، إن ناجوني أصغيت إليهم، وإن نادوني أقبلت عليهم، وإن أقبلوا إليَّ أدنيتهم، وإن دنوا مني قربتهم، وإن والوني واليتهم، وإن صافوني صافيتهم، وإن عملوا لي جازيتهم.

أنا مدبر أمورهم، وأنيس قلوبهم، ومتولي أحوالهم، لم أجعل في قلوبهم راحة في شيءٍ غير ذكري، ولا يلتفتون إلا إليَّ، ولا يحطون رحال قلوبهم إلا عندي، فوعزتي وجلالي لأمكننهم في رؤيتي.

إني حبيبٌ لمن أحبَّني، وجليسٌ لمن جالسني، وأنيسٌ لمن آنس بي، وصاحبٌ لمن صاحبني، ومطيعٌ لمن أطاعني، ومختارٌ لمن اختارني، وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومعاملتي، وأنا الجوَّاد الماجد أقول للشيء: كُنْ فيكون.

ثم خنقته العبرة حتى غُشي عليه، فلما أفاق قلت له: يا سيدي أوصني؟ فقال: يا أبا عمرو اقطع عن قلبك كل علاقةٍ، ولا تضع شيئًا دونه، فقلت له: يا سيدي ادعُ لي، فقال: خفف الله عنك مؤن نصب السير إليه، ولا جعل بينك وبينه حجابًا، ثم ولى كالهارب من الأسد، وأنشد

متمثلاً بشعر:

ذَكَرتُكَ لاَ أني نَسِيتُكَ لمحةً ... وَأَيْسَرُ مَا فِي الذِّكْرِ ذِكْرُ لِسَانِي

وَكِدتُ بِلاَ وَجدٍ أَمُوتُ مِن الهوَى ... فَهَامَ عَلَيَّ القلبُ بِالخَفَقَانِ

فَلَمَّا رَأى الوجْدُ أنَّكَ حَاضِري ... شَهدتكَ مَوْجُودًا بِكُلِّ مَكَانِ

فَخَاطبت مَوْجُودًا بغَيرِ تكلمٍ ... وَلاَحَظتُ مَعْلُومًا بغَيرِ عيانِ

الحكاية الخمسون

عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن الحسن المخزومي في سنده المتصل أنه كان رجل من وجوه أهل سنجار، كثير الوقيعة في الأولياء السابقين- رضوان الله عليهم أجمعين- فلما حضرته الوفاة جعل يتكلَّم بكل شيءٍ إلا الشهادة، فإذا قيل له: قل: لا إله إلا الله، يقول: لم يُؤذن لي في ذلك، فهاج الناس وأتوا إلى الشيخ سويد السنجاري رضي الله عنه[1] فأتاه وجلس عنده، وأطرق طويلاً ثم قال: قُل: لا إله إلا الله، فقالها وكرَّرها مرارًا، فقال الشيخ: إنه عُوقب بذلك

---

(١) هو من أكابر مشايخ المشرق، وصدور العارفين، وأكابر المحققين، صاحب الكرامات والمقامات السنية، والإشارات العليَّة، وهو أحد من ملكه الله تعالى التصرف في العالم، وجمع له بين علمي الشريعة والحقيقة، وانتمت إليه الرئاسة في تربية المريدين الصَّادقين بسنجار وما يليها، وأجمع العلماء والمشايخ على تبجيله واحترامه، وقُصد بالزيارات من سائر الأقطار.

وكان يقول: أصل العقل الصَّمت، وباطنه كتمان الأسرار، وظاهره الاقتداء بالكتاب والسُّنة.

وكان يقول: من وقع في أولياء الله تعالى ابتلاه الله تعالى بانعقاد لسانه من النطق بالشهادتين عند الموت، ولقد كان شخص من أكابر علماء بلدنا يقع في حق الفقراء فحضرته الوفاة فقالوا له: قل: لا إله إلا الله، فقال: لا أستطيع، فعلمت من أين أتى، فدخلت الحضرة وجعلت أترضَّى خواطرهم حتى رضوا عنه، فأطلق الله تعالى لسانه، وأسأل الله قبول توبته.

ورأى رجلاً يحدق إلى امرأةٍ ببصره، فنهاه فلم ينتهِ، فقال: اللَّهُمَّ بصره، فعمي في الحال، فجاءه بعد سبعة أيام وتاب واستغفر، فقال الشيخ: اللَّهُمَّ رد عليه بصره إلا في معاصيك، فردَّ الله بصره في الحال، وكان إذا أراد أن ينظر بعد ذلك إلى محرمٍ حُجب عنه بصره ثم يعود إليه.

وجاءه أعمى فقال: أنا ذو عيالٍ، وقد عجزت عن الكسب، فقال له الشيخ: نوَّر الله بصرك، فخرج من المسجد بصيرًا، وبعد عشرين سنة مات بصيرًا.

سكن رضي الله عنه سنجار، واستوطنها إلى أن مات بها مسنًّا، وقبره بها ظاهرٌ يُزار. وانظر في ترجمته: طبقات الشعراني (١/ ١٣١)، والانتصار (ص٤٤٧)، وبهجة الأسرار (ص٣٣٣) بتحقيقنا.

لوقيعته في الأولياء السابقين، وإني شفعت فيه، فقيل لي: قد شفعناك فيه إن رضي عنه أولياؤنا السالفون، فدخلت الحضرة الشريفة، واستوهبت ديته من معروف الكرخي، وسري السقطي، والجنيد، والشبلي، وأبي يزيد، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، فأطلق لسانه في الشهادة، فقال الرجل: إني كلما أردت أن أشهد رأيت شيئًا أسود يشد الثقل على لساني، ويمنعني النطق، وقال لي: إني وقيعتك في أولياء الله تعالى، ثم جاء بعده نورٌ يتلألأ فطرد ذلك السواد عني وقال: أنا رِضا أولياء الله، وها أنا أنظر خيلاً من نورٍ بين السماء والأرض قد ملأت الجو، عليها ركبان من نورٍ مطرقة، رؤوسهم هيبة يقولون: سبوح قدوس رب الملائكة والروح، قال: وما زال ذلك الرجل يلهج بالشهادتين حتى مات رحمه الله تعالى.

الحكاية الحادية والخمسون

عن الشيخ العارف أبي المحاسن يونس بن الشيخ القدوة أبي الحسن الريحاني -رحمه الله تعالى- قال: كان من أصحاب الشيخ سويد السنجاري ﷺ رجل يُقال له: الشيخ فرج بن عبد الله الحبشي، وكانت له أحوال جليلة، فورد عليه مرة حال من حالات العظمة، وصار جسده كالماء الجامد، فذكر ذلك للشيخ سويد، فأتاه وفكر ساعة، وقال: ائتوني بنساء حسان يتحدثن عنده بأعلى أصواتهن ولا يمسسنه، فإذا رجع إلى أحكام العبادة فليبادرن بالخروج، ففعلن ذلك، ومسته إحداهن بإصبعها، فغارت إصبعها فيه، فلما رجع إلى بشريته سُئل الشيخ عن ذلك فقال: إني طفت المهالك بسرِّي، ولم أجد لهمته تعلقًا بشيءٍ منها غير أني وجدت في نفسه ميلاً إلى النساء الحسان، فأردت أن تجذبه نفسه إلى مثلها، ولو دام عليه ذلك الحال لذهب وجوده ألبتة، قال: وما زال موضع غوص إصبع تلك المرأة في فخذ الشيخ فرج إلى أن تُوفي رحمه الله تعالى.

قلت: ومما يتفق مع هذا ما بلغني عن بعض شيوخ اليمن الأكابر، أنه كان إذا ورد عليه الحال وأراد أن ينصرف عنه يدنو من زوجته، أو يركب العريش، فيخف عنه شيئًا فشيئًا، وكانت الحكمة في ذلك والله أعلم أن المستلذات البشرية تضاد الواردات الإلهية.

قال الراوي: وسمعت الشيخ سويدًا ﷺ يقول: جاهدت نفسي في بدايتي ومنعتها الماء مدة، فاجتزت في بعض سياحتي بغدير من الماء، فراودتني نفسي على الشرب فامتنعت، فوثب مني شيءٌ أسود وألقى نفسه في الماء، فإذا هي نفسي تمثَّلت بين يدي في الماء، وسألتني بالله التخفيف عنها، فقلت: والله لا حلت عن مجاهداتي ولا عما بايعت الله عليه.

الحكاية الثانية والخمسون

عن الشيخ الأصيل إسماعيل ابن الشيخ الجليل أبي الفضائل سويد السنجاري قال: سمعت أبي يقول: وشى بي عند سلطان سنجار فأمر بإحضاري، فخاف عليه أصحابه، فأطرق الشيخ ثم قال: لا بأس لا تخف إنا معك، فلما وصل إلى باب دار السلطان أخذ السلطان قولنج عظيم، فلما دخل الدهليز اشتدَّ القولنج، وغُشي على السلطان، وصاح نساؤه وأهله، وما شكوا أن ذلك سبب إحضار الشيخ، فجروا إليه وأكبُّوا على قدميه معتذرين، ورجع وزال القولنج لوقته.

ومما رُوي عن الشيخ المذكور ﷺ أنه رأى رجلاً يحدق إلى امرأةٍ ذات هنّةٍ، فنهاه الشيخ فلم ينتهِ وقال: اللهم خذ بصره، فعمي الرجل بعد سبعة أيام، ثم جاء إلى الشيخ وشكا من ظلمة العمى، وأذعن بالتوبة، وأكثر بذلك، فبسط الشيخ يده وقال: اللهم رد عليه بصره إلا في معاصيك، فرد الله عليه بصره في الحال، فكان إذا أراد النظر إلى محرم حُجب عنه بصره ثم يعود إليه.

وكان ﷺ من أعيان الشيوخ العارفين، أكابر المحققين، صاحب المعارف الفاخرة، والكرامات الظاهرة، والمقامات العليَّة، والأحوال السنيَّة، والإشارات والتعريف والتمكين والتصريف، انتهى إليه خلقٌ كثيرٌ من الصلحاء، وأجمع على تبجيله واحترامه المشايخ والعلماء.

ومن كلامه ﷺ:

مقامات العارفين على سبعة أصول: القصد إلى الله تعالى في السرّ، والاعتصام بالله تعالى في الأمر، والجلوس مع الله تعالى بالأدب، والنصيحة لعباد الله تعالى في السرِّ والجهر، والكتم لأسرار الله تعالى في الطي والنشر، وثبوت الحال مع الصبر، وذكر لا إله إلا الله الملك الحق المبين.

فإذا قطع العارف هذه الأحوال، ورقِيَ عن رؤيته الأفعال، فتح الله له في القصد إليه بالسر باب النفس، وعلامته أن يتروّح القلب إلى أنوار التجلِّي، ويتنفَّس السرور وسراج الأنس في مشكاة الكشف، وهذه النفس لا تكون إلا في حضرة الشهود بعد غيبة الأرواح في معارج الأحوال، واستغراق الأسرار في مدارج روح القدس، وحسم مادة الجهات وإيجاد العلم، وذهاب الرسم.

وهذا أول ملابس العارفين، وأول استرواح أنفاس أرواح التجلِّي، وهذا الزي لا تطفئ

نار شهوده نار وجوده، ولا يحجب نور وجوده حقيقة شهوده، وحقيقة القصد إلى الله تعالى بالسر ظهور الحقيقة بإذنه في حجاب العالم، ثم يفتح الله له في الاعتصام في الله تعالى باب المعاينة، وعلامته أن يفتح الله تعالى له من بصيرته عيونًا ثلاثة: عينٌ يدرك بها أنوار المعرفة، وعينٌ يدرك بها أنوار الروح، كما ورد: «العيون ثلاثة: عين البصر، وعين البصيرة، وعين الروح»، فعين البصر يدرك بها المحسوسات، وعين البصيرة يدرك بها المعنويات، وعين الروح يدرك بها الملكوت، ثم يفتح الله له في الجلوس مع الله سبحانه تعالى باب الاستغراق في عين التفريد، وله خمسة أركان: القرب في عين المشاهدة، والعلم في بحر الجمع، واستهلاك الفناء في بحر الأزل، واستغراق الوجود في طي القدم، واستعدام البقاء في برق الأبد، ففناء القرب في عين المشاهدة للمرسلين مقامات الأسرار، وللمقربين عنايات الأنوار، والعلم في بحر الجمع للصديقين رؤية، وللأبرار مشاهدة؛ لأن الرؤية للذات في مشاهدة الأنوار والصفات، واستهلاك الفناء في بحر الأزل للمرسلين حقيقةً، وللمقرَّبين طريقةً، واستغراق الوجود في طي العدم للصديقين تفريد التوحيد، وللأبرار تحقيق التجريد، واستعدام البقاء في برق الأبد للشهداء حياة قرب، واستدامة رزق، وللصالحين نسيم روح، واسترواح ريحان، ومعارف جنة نعيم، فبقاء القرب في عين المشاهدة كان عقلاً، وبالعلم في بحر الجمع كان روحًا، وباستهلاك الفناء في بحر الأزل كان سرًّا، وباستغراق الوجود في طي العدم كان دارًا، وباستعدام البقاء في برق الأبد كان ذاتًا، كاملة الوجود، تامة التقويم، فبالعقل يثبت الإيمان، وبالروح يسمع الخطاب، والخطاب ظاهره الإيمان، والإيمان ظاهره الصفات، والصفات ظاهر الذات، والإيمان بصيرة العقل، والسر بصيرة الروح، والأمر بصيرة الحكم، والحكم بصيرة الحكمة، وذلك حقيقة ما يكشف للعارف المنتهي في درجة المعرفة.

ومنه: العلوم ثلاثة: علمٌ من الله تعالى، وهو العلم بالأمر والنهي والأحكام والحدود، وعلمٌ مع الله تعالى، وهو علم الخوف والرجاء والمحبَّة والشوق، وعلمٌ بالله وهو علم نعوته وصفاته، وعلم الظاهر علم الطريق، وعلم الباطن علم المنزل، يعني علم الحقيقة، وموطن الوصف إلى رب الخليقة، وعلم الحكم علم الشرع، فكل باطنٍ لا يقيمه ظاهر فهو باطلٌ، وأصل العقل الصمت، وباطنه كتمان الأسرار، وظاهره الاهتداء بالسُّنة، وإذا غُلب الهوى نُوِّر العقل، ومن احتجب في شيءٍ من علومه فلا ينظر إلى شيءٍ من عيوبه.

الحكاية الثالثة والخمسون

عن الشيخ الأصيل أبي حفص عمر ابن الشيخ الجليل، ذي المجد الأنبل، العارف بالله حياة بن قيس الحراني، قدَّس الله روحه وسره[١].

قال الشيخ زُغَيب - بالزاي المضمومة وفتح العين المعجمة والياء المثناه والباء الموحدة - الرحبي رحمه الله تعالى: خرجت من الرحبة إلى خرابة لزيارة والدي بعد صلاة الصبح، فوجده جالسًا علي باب داره وبين يديه شاة فسلم عليه، وجلس على دكةٍ بإزائه من الجانب الآخر، بينهما أكثر من ذراعٍ، فلم يكلمه والدي، فقال الشيخ زغيب في نفسه: جئت إليه من الرحبة واشتغل عني بمعزاةٍ ينظر في أمرها، فنظر إليه وقال: يا زغيب قد أمرت أن أغصب منك شيئًا بسبب اعتراضك، فاختر إما من باطنك، وإما من ظاهرك، فقال: يا سيدي بل من ظاهري، فمد والدي إصبعه مشيرًا إلى عينه، فسالت عين الشيخ زغيب على خدِّه، فقبل الأرض وعاد إلى الرحبة.

قال: ثم رأيته بعد سنين بمكة صحيح العين، فسألته فقال: كنت في سماع ببلادنا، ووفد رجلٌ من مريدي والدك، فوضع يده على عيني فُردت صحيحة كما ترى، قال: ولما أشار

---

(١) هو من أجلاء المشايخ، وعظماء العارفين، وأعيان المحققين، صاحب الكرامات والمقامات، والهمم الفخيمة، والبداية العظيمة، صاحب الفتح السني، والكشف الجلي، حلال مشكلات القوم، وهو أحد الأربعة الذين يتصرفون في قبورهم بأرض العراق، وكان أهل خراسان يستسقون به فيُسقون.

ومن كلامه: لا يكون الرجل من المتمكنين حتى لا يطفئ نور معرفته نور ورعه.

وكان يقول: حقيقة الوفاء إقامة السر عن رقدة الغفلات، وفراغ الهم عن الكائنات.

وكان يقول: من أحب أن يرى خوف الله في قلبه ويكاشف بأحوال الصديقين فلا يأكل إلا حلالاً، ولا يعمل إلا في سنةٍ أو فريضةٍ، وما حرم من حرم عن الوصول ومشاهدة الملكوت إلا بشيئين: سوء الطعمة، وأذى الخلق.

وكان يقول: تعرَّض لرقة القلب بمجالسة أهل الذِّكر، واستجلب نور القلب بدوام الجد.

وكان يقول: من علامة المريد الصادق ألا يفتر عن ذكر الله تعالى، ولا يمل من حقه، ويلزم السُّنة والفريضة، فالسُّنة: ترك الدنيا، والفريضة: صحبة الحق جلَّ وعلا.

وكان يقول: اجعل الزهد عبادتك، واحذر أن تجعله حرفتك.

سكن ﷺ حرّان واستوطنها إلى أن مات بها سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، ودُفن بظاهرها، وقبره هناك ظاهرٌ يُزار. وانظر: طبقات الشعراني (١/ ١٣٢)، والانتصار للكردي (ص٤٤٨) بتحقيقنا.

والدي ﷺ بإصبعه إلى عيني وسالت على خدِّي انفتحت في قلبي عينًا شاهدتُ بها أسرارًا وعجائب من آيات الله تعالى.

ومما رُوي عن الشيخ حياة ﷺ لما أرادوا تعيين محراب مسجد بحران، فقال المهندس: القبلة هنا، فقال الشيخ: لا بل القبلة هنا انظر، فرأى الكعبة الشريفة بإزائه ليس بينه وبينها شيء يحجبها، فخرَّ مغشيًّا عليه.

الحكاية الرابعة والخمسون

عن الشيخ الصالح أبي يعلى غانم بن يعلى البكري قال: سافرت مرة من اليمن في البحر المالح، فلما توسَّطنا بحر الهند تهنا وغلبت علينا الريح، وأخذتنا الأمواج من كل جانبٍ، وانكسرت بنا السفينة، فنجوت على لوحٍ منها، فألقاني البحر إلى جزيرةٍ فلم أرَ فيها أحدًا، وإذا هي كثيرة الخيرات، ورأيت فيها مسجدًا فدخلته فإذا فيه أربعة نفر، فسلمت عليهم فردُّوا عليَّ السلام، وسألوني عن قصتي فأخبرتهم، وجلست عندهم بقية يومي ذلك، فرأيت من توجههم وحسن إقبالهم على الله تعالى أمرًا عظيمًا، فلما كان العشاء دخل الشيخ حياة الحراني وقاموا يتبادرون إلى السلام عليه، فتقدَّم وصلَّى بهم العشاء، ثم استرسلوا في الصلاة إلى طلوع الفجر، وسمعت الشيخ حياة يناجي ويقول: إلهي لا أجد لي في سِواك مطمعًا، ولا إلى غيرك ملاذًا، فإني ببابك ناظرٌ إلى حجابك متى تكشف لي عن تفريج الكربة فأتحلل، وقال: أنظر إلى مجلس القربة وقد أوثقت نفسي عند السرور بك، وسمعنا بذكرك، ولي فيها كوانين ترتاح إليها صبابات أشواقي، ولي معك أحوال سيكشفها اللقاء، ويا حبيب التائبين، ويا سرور العارفين، ويا قرة عين العابدين وأنيس المتفردين، ويا حرز اللاجئين، وظهير المنقطعين، ويا من حنَّت إليه قلوب الصديقين، وبه أنست أفئدة المحبِّين، وعليها عكفت همة الخائفين.

ثم بكى بكاءً شديدًا ورأيت الأنوار قد حفَّت بهم، وأضاءت ذلك المكان كما يضيء القمر ليلة البدر.

ثم خرج الشيخ من المسجد وهو يقول:

سَـيرُ المحـبِّ إِلَى المحبـوبِ إِعْجَـالُ ... وَالقلْـبُ فِيْـه مِـن الأَهْـوَالِ بلبـال

أَطـوي المهامَـه مِـن قَفـرٍ عَـلَى قَدَمِـي ... إِلَيْـكَ يَدْفَـعني سَهْـل وأَجْـبَال

فقال لي أولئك النفر: اتبع الشيخ، فتبعته فكانت الأرض برها وبحرها وسهلها وجبلها

يُطوى تحت أقدامنا طيًّا، وكنت أسمعه كلما خطا خطوة يقول: يا رب حياة كن لحياة، فإذا نحن بحران في أسرع وقت فوافيناها والناس يصلون صلاة الصبح.

قال ﷺ: إنه حجَّ في بعض السنين فنـزلوا منـزلاً رحبًا، فاستظلَّ هو ومن معه بشجرةٍ من أم غيلان، فقال له خادمه: يا سيدي نشتهي الرُّطب، فقال: هِزْ هذه الشجرة، فقال: يا سيدي هذه شجرة أم غيلان، فقال: هزها، ففعل فتساقط منها رطبٌ فأكلوا منها حتى شبعوا.

وكان ﷺ من أجلاَّء المشايخ العارفين، وأعيان المقرَّبين المحققين، صاحب الكرامات الكريمة، والأحوال العظيمة، والأعطيات الجزيلة، والمحاسن الجميلة، والمقامات العلية، والشمائل السنية، والكشف الجلي، والقدر العلي، والمعراج الرفيع، والجاه الوسيع، والتصريف النافذ في الوجود، والاستقاء من مناهل الجود، والقدم المقدم الراسخ.

أجمع على جلالته العلماء والمشايخ، وهو أحد الأربعة الذين قال فيهم الشيخ العارف بالله أبو الحسن علي القرشي ﷺ: رأيت أربعة من المشايخ يتصرفون في قبورهم كتصرف الأحياء.

وقد تقدم ذكرهم في الحكاية الخامسة عشرة، ومنهم الشيخ حياة بن قيس المذكور.

أقر الخاص والعام بتفضيله، واستسقى الأكابر من مناهل علمه، وكان أهل حران يستسقون بركته، ويلجأون إليه في المعضلات فيكشفها بعلو همته.

وقال أيضًا ﷺ: من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله تعالى؛ فإنها تذوب ويصفو، ومن نظر إلى سلطان الله تعالى ذهب سلطان نفسه؛ لأن النفوس كلها فقيرة إلى الله تعالى، فقيرة عند ظهور جلاله، ومن أحبَّ أن يريها خوف الله ﷻ في قلبه، ويكاشف في آيات الصديقين، فلا يأكل إلا حلالاً، ولا يعمل إلا في سنةٍ أو ضرورة، ومن حُرم من مشاهدة الملكوت حُجب عن الوصول.

وقال ﷺ: استجلب نور القلب بدوام الحذر، واستفتح باب الحذر بطول الفكرة، وتزيَّن لله تعالى بالصدق في جميع الأحوال، وتحبَّب إليه بتعجيل الخطى إليه، وإيَّاك والتسويف فإنه مهلكٌ، وإيَّاك والغفلة فإنها تسود القلب، وإيَّاك والتواني فيما لا عذر فيه فأنه ملجأ النادمين، واسترجع سالف الذنوب بدوام الندم وكثرة الاستغفار، وتعرَّض لعفو الله بحسن المراجعة والخوف.

وأول قدم يطلبه الصادق يجده.

وعلامة المريد على الحقيقة ألا يفتر عن ذكر الله تعالى، ولا يميل عنه، ولا يستأنس بغيره، ويلزم السُّنة والفرض، فالسُّنة ترك الدنيا، والفريضة المولى، ومن عمل بالسُّنة والفرض كمل أمره، ومن زهد في الدنيا فقد تنبَّه على قدرها من نفسه، فينبغي له أن يستحي من الله تعالى أن يتخذ عنده ندًّا مما لا قدر له عنده.

وعند نزول البلاء تظهر حقائق الصبر، وعند مكاشفة الأقدار تظهر حقائق الرِّضا، فإيَّاك أن تجعل الزهد حرفتك ولكن اجعله عبادتك.

قال ﷺ: المحبَّة: تعلق القلب عن الهيبة، والأنس: هو سمة الطائفة وعنوان الطريقة ومقصد السُّنة.

وقال: ومقصد يكسب تعلقًا إلى رؤية المحبوب، واهتمامًا إلى لقاء المطلوب.

الحكاية الخامسة والخمسون

عن الشيخ العارف أبي محمد بن إبراهيم بن محمود البعلبكي المصري رحمه الله تعالى قال: كان الشيخ رسلان الدمشقي ﷺ(١) ببستان من باب دمشق في زمان الصيف ومعه جماعة من

---

(١) هو من أكابر مشايخ الشام، وأعيان العارفين، وصدور البارعين، وصاحب الإشارات العالية، والهمم السَّامية، والأنفاس الصادقة، والكرامات الخارقة، والتصريف النافذ، انتهت إليه تربية المريدين بالشَّام، واحترمه العلماء والمشايخ وبجَّلوه، وقصده الزائرون من كلِّ فجٍّ.

وكان يقول: الحدة مفتاح كل شيء، والغضب يقيمك مقام ذلّ الاعتذار.

وكان يقول: مكارم الأخلاق: العفو عن القدرة، والتواضع في الذِّلة بغير منَّةٍ.

وكان يقول: إذا قدرت على عدوِّك، فاجعل العفو عنه شكرًا لقدرتك عليه.

وكان يقول: الكريم من احتمل الأذى ولم يشكِ البلوى.

قال الشيخ تقي الدين السبكي: حضرت سماعًا فيه الشيخ أرسلان، فأنشد القوّال شيئًا، وكان الشَّيخ أرسلان يشبّ في الهواء ويدور فيه دورات، ثم ينـزل إلى الأرض يسيرًا يسيرًا، يفعل ذلك مرارًا والحاضرون يشاهدونه، فلمَّا استقرَّ على الأرض أسند ظهره إلى شجرة تين في تلك الدَّار، وقد يبست وقطعت الحمل منذ سنين، فأورقت واخضرَّت وأزهرت وأينعت، وحملت في تلك السنة.

سكن دمشق واستوطنها إلى أن مات بها مسنًّا، ودُفن بظاهرها، وقبره ظاهرٌ يُزار، ولَمَّا حُمل على أعناق الرِّجال، جاءت طيورٌ خضرٌ وعكفت على نعشه ﷺ.

انظر في ترجمته: طبقات الشعراني (١/ ١٣٣)، والكواكب الدرية للمناوي (٢/ ٨٥)، وبهجة الأسرار (ص٣٣٩)، والانتصار (ص٤٥٠)، وكتابنا سيدي أبو مدين الغوث، أتم الله تصنيفه.

أصحابه، فقال له أحدهم: يا سيدي ما وصف الولي المشتمل على أحكام التمكين؟ فقال: هو الذي مكّنه الله من أزمة التصريف في الوجود، فقال له: ما علامة ذلك؟ فأخذ الشيخ أربعة قضب وأفرد منها واحدًا، وقال: هذا للصيف، وأفرد منها واحدًا وقال: هذا للربيع، وأفرد منها واحدًا وقال: هذا للخريف، وأفرد منها واحدًا وقال: هذا للشتاء، ثم أخذ الذي سمّاه للصيف بيده وهزّه فاشتدّ الحر جدًّا، ثم طرحه وأخذ الذي سمّاه للربيع بيده وهزّه فاخضرّت أوراق أشجار البستان، وأينعت أغصانه، وفاحت رياح الربيع ونسماته، ثم طرحه وأخذ الذي سمّاه للشتاء وهزّه فجاءت الشتاء، واشتدّ بنا البرد، ويبس ورق شجر البستان، ثم نظر إلى طائرٍ على أشجار في البستان، فقام إلى شجرةٍ منها وهزّها، وأشار إلى الطائر الذي عليها أن سبّح خالقك، فترنّم الطائر بصوتٍ شجيٍّ أطرب السامعين، ثم أتى إلى شجرةٍ أخرى ففعل ذلك حتى أتى على الجميع، وأشار إلى طائرٍ منها أن مجّد خالقك، فلم ينطق، فقال الشيخ: اسكت لا عشت! فوقع الطائر إلى الأرض ميتًا.

الحكاية السادسة والخمسون

عن الشيخ الإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الشيخ أبي العلاء الخزرجي -رحمه الله تعالى- قال: سمعت أبي يقول: حضر الشيخ رسلان سماعًا في دارٍ بدمشق في جمعٍ من المشايخ والصلحاء، فأنشد القول(١):

كأني أنادي صخرة حين أعرضت	من الصم لو تمشي بها العصم زلت
صفوحًا فما يلقاك إلا بحيلة	فمن ملّ منها ذلك الوصل ملّت
أسيئي بنبأ أو أحسني لا ملولة	لدينا ولا فعلته إن فعلت
ولكن أنيلي واذكري من مودةٍ	لذي خلة كانت لديكم فضلت
فكنا سلكنا في صعودٍ من الهوى	فلما توافينا شددت وحلت
فإن سأل الواشون ممّ هجرتها	فقل نفس حر سليت وحلت
هنيئًا مريئًا غير داء مخامر	لعزة من أعراضنا ما استحلّت

(١) في الأصل اضطراب في الشعر، تم تصويبه من البهجة (ص٣٤٨).

وكان الشيخ رسلان يمشي في الهواء، ويدور فيه دورانًا ثم ينـزل إلى الأرض، ويسير سيرًا، يفعل ذلك مرارًا والحاضرون يشاهدونه، فلما استقرَّ على الأرض أسند ظهره إلى شجرة تين في تلك الدار، وقد كانت يبست وقطعت الحمل من مدةٍ، فأورقت واخضرَّت وأينعت، وحملت التين في تلك السنة، وكان حملها من أطيب تين دمشق[1].

وكان ﷺ من أكابر مشايخ الشام، وأعيان العارفين الأعلام، صاحب الأنفاس الصادقة، والكرامات الخارقة، والمقامات العلية، والأحوال السَّنية، والكشف الواضح عن حقائق الآيات، والقدم الراسخ في معرفة الأسرار المغيبات، والتمكين المكين، والتصريف النافذ في الوجود، والمشرب العذب من سلسبيل فيض الفضل، ومنبع عين الوجود.

أشار إليه بالاحترام والتبجيل المشايخ أولو الجلالة والتحقيق، ونزلت بفنائه الركائب، وسارت بآثاره ومآثره الركبان إلى كل فجٍّ عميقٍ، وله كلامٌ جليلٌ في الحقائق والمعارف والعلوم التي لا ينطق بها إلا كل عارفٍ من ذلك قوله:

العارف ترد عليه أسرار الله تعالى جملة مكنونة زاهرة باهرة، وهو مصطلمٌ بأنوارها، مستغرقٌ في بحارها، مستهلكٌ في تلاطم موج لجتها، قائمٌ بإيضاحها، وإقامة براهين حججها، التقريب مشهده، والتهذيب يوجده، والتخصيص يفرده.

وقوله: العارف من جعل الله قلبه لوحًا مُلِئ بأسرار الموجودات، ويمد بأنوار حق اليقين، وبهجة التجليات يدرك بها حقائق الصدور المرقومات على اختلاف أطوارها، ويدرك بها من مكامن العلوم وأسرارها، لا يتحرك بحركةٍ ظاهرة ولا باطنة في الملك والملكوت إلا ويكشف الله تعالى له عن بصيرة إيمانه، وعين عنايته يشهدها علمًا وكشفًا، وهو الذي يصعد بسرِّه في أكوان الملكوت كالشمس، فلا يُطاق النظر إليه، وصفته ألا يكمل إلا بالعلم.

وقوله: الحِدَّة مفتاح كل شرٍّ، والغضب يقيمك على ذل الاعتذار، ومكارم الأخلاق العفو عند القدرة، والتواضع في الدولة، والعطاء بغير مِنَّةٍ، والكريم من احتمل الأذى ولم يشكُ عند البلاء، وأحسن المكارم عفو المقتدر، وجود المفتقر، وسبب الغضب هجوم ما يكون ضد النفس ممن فوقها، فالغضب يتحرَّك من باطن الإنسان إلى ظاهره، والحزن يتحرك من ظاهر الإنسان إلى باطنه.

---

(١) انظر: البهجة (ص٣٤٨).

الحكاية السابعة والخمسون

عن الفقيه أبي العباس أحمد بن قرشي التلمساني قال: سمعت شيخنا أبا محمد صالح الدكالي ﷺ قال: قامت الحرب مرة بالمغرب بين المسلمين والإفرنج في حياة شيخنا الشيخ أبي مدين المغربي ﷺ، وكان الإفرنج قد ظهروا فيها على المسلمين، فأخذ الشيخ سيفه وخرج إلى الصحراء مع نفرٍ من أصحابه وأنا معهم، وجلس على كثيبٍ من رملٍ، فإذا بين يديه خنازير قد ملأت البرية من كثرتهم، فوثب الشيخ حتى سار بينهم وسل سيفه وعلا به رؤوس الخنازير، حتى صرع منهم كثيرًا، وولوا بين يديه هاربين، ورجع الشيخ. فسألناه فقال: هؤلاء الإفرنج وقد خذلهم الله تعالى، وأرخنا الوقت فجاء الخبر بكسر الإفرنج في الوقت الذي أرخناه، فلما قدم المجاهدون أكبُّوا على قدم الشيخ يقبلونها، وأقسموا بالله العظيم لو لم يكن بينهم بين الصفوف لهلكوا، وأخبروا أنه كان سيفه يعلو رأس الفارس من الإفرنج فيصرعه وفرسه، وأنه قتل منهم مقتلة عظيمة، وولوا مدبرين، وأنهم لم يروا الشيخ بعد انقضاء الحرب.

قال: وكان بين الشيخ وبين موضع القتال أكثر من مسيرة شهر.

الحكاية الثامنة والخمسون

عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى الشهير عبد الرزاق المغربي ﷺ قال:

مرَّ شيخنا أبو مدين المغربي قدَّس الله روحه في بعض قرى المغرب، فرأى أسدًا قد افترس حمارًا وهو يأكل منه، وصاحبه بالبعد منه يندب بالويل والثبور من الفاقة، فجاء الشيخ وأمسك بناصية الأسد وقاده ذليلاً، ونادى صاحب الحمار، فدنا صاحب الحمار حتى لصق بالأسد، فقال الشيخ: امسك الأسد واذهب واستعمله بدل حمارك، فقال: يا سيدي إني أخاف منه، قال: لا تخف منه؛ فإنه لا يستطيع أن يؤذيك، فمرَّ الرجل يقود الأسد والناس ينظرون، فلما كان آخر النهار أتى به إلى الشيخ وقال: يا سيدي إني شديد الخوف منه، وإنه يتبعني أينما ذهبت، قال: فلا بأس عليك، قال: وما هو إلا ذاك، فقال الشيخ للأسد: اذهب ومتى ما آذيت بني آدم سلطتهم عليك.

قال: وكان يومًا مارًّا على الساحل فتعرضته طائفة من الإفرنج، وحملوه معهم أسيرًا إلى سفينةٍ عظيمةٍ لهم، فإذا فيها جماعة من المسلمين أسارى، فلما استقرَّ الشيخ فيها جهزوا

قلوعها، وعوّلوا على المسير، فلم تذهب بهم السفينة يمينًا ولا شمالاً، ولا تحركت من مكانها على قوة الريح، فلما أيقنوا أنهم لا يقدرون على المسير، وخافوا أن يدركهم المسلمون، قال بعضهم لبعض: هذا بسبب هذا المسلم، ولعله من أصحاب السرائر عند الله تعالى، يشيرون إلى الشيخ، فأمروه بالنزول فقال: لا أفعل إلا إن أطلقتم كل من في سفينتكم من المسلمين، فلما علموا أنهم لا بدَّ لهم من ذلك فعلوا وسارت بهم السفينة.

الحكاية التاسعة والخمسون

عن الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبي محمد صالح الدكالي -رحمه الله[1] قال: ورد ناسٌ من المشرق على شيخنا الشيخ أبي مدين قدَّس الله سرَّه، قالوا له: نشتهي عنبًا ولم يكن ذلك الوقت وقت العنب، فقال لي الشيخ: يا صالح اذهب إلى البستان، واتينا منه بعنبٍ، فقلت: يا سيدي الآن خرجت منه ولا عنب فيه، فقال: اذهب ترى فيه العنب، فأتيت البستان فوجدت الدوالي مملوءة عنبًا كحالها وقت كرمه، ووالله لقد فارقته قبل ذلك ولا عنب أراه، فاحتملت منه شيئًا كثيرًا، وأتيت به فأكلوا وأكلت معهم، فإذا هو بلا عجمٍ، فقالوا: إنا كنا نشتهي العنب ونعلم أنه لا يطعمنا أحدٌ بالمغرب إلا أنت.

الحكاية الستون

عن الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن حجاج المغربي -رحمه الله تعالى- قال: قال شيخنا الشيخ أبو مدين قدَّس الله روحه في مجلسه: كل بدلٍ في قبضة العارف؛ لأن ملك البدل من السماء إلى الأرض، وملك العارف من العرش إلى الثرى، وما مناقب الأبدال في مناقب العارفين إلا كلمحة بارق خاطف، وما درجة المعرفة إلا استقراب إلى حضرة الربوبية، واستدناء من مجالس العرش.

ثم قال: التوحيد سرٌّ أحاط أمره بالكونين.

قال: فلما كان الليل رأيت في المنام الشيخ أبا مدين، والشيخ أبي حامد الغزالي، والشيخ أبي طالب المكي، والشيخ أبي يزيد البسطامي، والشيخ أبا عبد الرحمن السلمي، وجماعة من الصوفية والأبدال، فقالوا للشيخ أبا مدين: أخبرنا عن حقيقة سرك في توحيدك. فقال: سري

(١) انظر: المنهاج الواضح في كرامات سيدي أبي محمد صالح لأحمد بن إبراهيم الماجري -تحت قيد الطبع- بتحقيقنا، دار الكتب العلمية.

مسرور بأسرار تُستمد من البحار الإلهية التي لا ينبغي منها لغير أهلها؛ إذ الإشارة تعجز عن وصفها، فأبت الغيرة إلا سترها، هي أسرارٌ محيطةٌ بالوجود لا يدركها إلا من كان وطنه مفقودًا، وكان في عالم الحقيقة سره موجودًا، يتقلب في الحياة الأبدية، وهو يسير في فضاء الملكوت، ويسرح في سرادقات الجبروت، قد تخلق بالأسماء والصفات، وفني عنها بمشاهدة الذات. هنالك داري ووطني وقرة عيني ومسكني، والحق ﷺ غنيٌّ عن الكل، قد أظهر في وجودي بدائع قدرته، وأقبل عليَّ بالحفظ والتوفيق، وكشف لي مكنون التحقيق، فحياتي قائمة بالوحدانية، وإشاراتي إلى الفردانية، وروحي راسخة في علم الغيب. فقالوا: يا أبا مدين زادك الله من أنواره.

الحكاية الحادية والستون

عن الشيخ الجليل سليمان بن عبد الوهاب المغربي قال: كان شيخنا أبو مدين ﷺ يومًا جالسًا على الساحل يتوضأ وفي إصبعه خاتم، فسقط في الماء فقال: يا رب خاتمي أريده، فطلعت سمكة في الحال في فمِّها الخاتم فأخذه.

وكان سائرًا مرة وفي يده مزرد فيه سويق مذاب بماء، فسقط من يده وانكسر قطعًا، وتبدَّد السويق على الأرض، فوقف وقال: يا رب أريد مزردي بسويقي، فعاد المزرد صحيحًا وفيه السويق.

الحكاية الثانية والستون

عن الشيخ الجليل العارف بالله أبي إسحاق إبراهيم بن الشيخ الصالح الفاضل أبي العباس بن أحمد بن محمد الأنصاري التلمساني قال: قال أبي -رحمه الله تعالى: سمعت شيخنا أبا مدين يحكي في مجلسٍ وكان محفوفًا بالنور والبهاء والوقار والسناء والسكينة والأولياء.

قال الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الحصري رحمه الله تعالى: دخل الشيخ الفاضل أبو العباس أحمد بن علي يزوره فقال له: ادعُ لي، فقال له: أراك الله موضع الشح من نفسك، وكان أبو العباس كثير العطاء من أكرم الناس، فانصرف وقال في نفسه: لو يعلم الشيخ مني شحًّا لما قال ذلك، فجاء فجلس على دكة مزين ليحلق رأسه قال: فلما فرغ من حلقه أتاه رجلٌ بمائة دينار، فأعطاها أبا العباس وقال: إنها مائة دينار، فقال له المزين: هذا مكان الشُّح الذي ذكره لك الشيخ أبو إسحاق، فقال له: أخبرني عنه، قال: الشُّح عندهم أن تفرق بين الدانق

والمائة دينار، ولو لم يكن في نفسك شح لما نبهتني عليها، قال: فذهب وجلس في بيته سنة لا يتكلَّم إلى أحدٍ، ولا يخرج إلا لصلاة الجمعة، فاجتمع الناس على بابه يسألونه أن يتكلَّم عليهم فامتنع، فلما ألزموه خرج فوافى عصافيرًا على سدرة في الدار، فلما رأته فرَّت فرجع وقال: لو صلحت للحديث عليكم لم تفر مني الطيور؛ لأن العبد إذا تحقق فيه الخوف أمن منه كل شيءٍ، ثم رجع وجلس في البيت سنة أخرى، ثم خرج فلم تهرب الطيور، فتكلَّم على الناس فلم يتم الشيخ من كلامه حتى جاءت الطيور، ودارت حوله، وعكفت عليه، فتواجد وأنشد أبياتًا منها:

توجعُ مِنْ أمْرَاضٍ وَحرقَةِ مَطَالِبِي ... وَإِشْفَاقِ مَهْمُومٍ وَحُزْنِ كَئِيبِ

وَلَوْعَةِ مُشْتَاقٍ وَزفرَةِ وَالِهٍ ... وشفيت سِقَام بغيرِ طَبِيْبِ

أَلَمْ تقلب حِيْرَته طَوَارق ... مِن الشَّوْقِ حَتَّى ذُلَّ ذل غَرِيْبِ

فَكَأَنَّمَا أَسْمَانَا وَبِي محبَّة ... نُور واستكنت فِي فُؤادِ حَبِيْبِ

قال: فهاج الناس وضجَّ أهله، وما زال طائر من تلك الطيور يصفق بجناحيه حتى تقطعت، ومات رجلٌ ممن كان حاضرًا.

الحكاية الثالثة والستون

عن أبي محمد عبد الله بن أبي بكر الصنهاجي[1] قال: صليت إلى جانب الشيخ أبي مدين

(١) هو أبو العباس بن العريف الصنهاجي، شيخ العارف ابن عربي -رضي الله عنهما- كان من أكابر الأعيان، ومن أعاظم أهل الشأن، صوفي همى على المريد سحابه، وأنار في أفق الطريق شهابه، وكان يقول في دعائه: اللهم إنك سددت باب النبوة والرسالة دوننا ولم تسد باب الولاية. اللهم مهما عينت أعلى رتبة في الولاية لأعلى ولي عندك فاجعلني ذلك الولي.

قال تلميذه العارف ابن عربي ﷺ: فهذا من المحققين الذين طلبوا ما يمكن أن يكون حقًا لهم.

ولقي في سياحته أحد الأبدال وهو يمشي على وجه الماء، فأخذ يذكر له ما الناس عليه من فساد أحوال الملوك والرعايا، فغضب البدل وقال: مالك وعباد الله لا تدخلن بين السيد وعبده، فإن الرحمة والمغفرة والإحسان لهؤلاء، أتريد أن تبقى الألوهية معطلة الحكم؟ اشتغل بنفسك، وليكن نظرك إلى الله تعالى وشغلك.

قال العارف ابن عربي ﷺ: وقد دخلت على شيخنا هذا وأنا في مثل هذا الحال في بدايتي، وقد تكدّر علي وقتي لما أرى الناس فيه من مخالفة الحق فقال: عليك بالله، فخرجت من عنده ودخلت على شيخنا أبي عمران =

ﷺ يوم الجمعة، فأتى علينا بعض أصحابه وكان حسن الهيئة، وعليه حدة الإرادة، فقلت له: يا سيدي ولدٌ مليحٌ، فنفض يده وقال لي: لا شيء، ثم التفت وإذا أبا محمد عبد الرزاق جالسٌ في الصف قدامه، وقال: هذا هو المليح هذا ولدي.

وقال الشيخ أبو مدين ﷺ: كنت في بعض الجبال مارًّا في طريق ملاصق بجبل، وإذا بأسدٍ أقبل، لا بُدَّ له مني، ولا بُدَّ لي منه؛ لأن الطريق ليس فيها ما يمكنه الرجوع، فقلت في نفسي: ألم يقل الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧]، فجعلت يدي على حافة الجبل وجافيت بنفسي على الطريق، وجعلت أطراف أصابعي على حافة الطريق، فمرَّ بيني وبين الجبل، فقالت نفسي: لم يرى، فالتفت الأسد برأسه وزأر زئيرًا شديدًا، ومضى فقلت: امضِ بسلامٍ.

وكان الشيخ ﷺ من أكابر الشيوخ، وصدور المقرَّبين، وأجلاَّء المحققين، صاحب الأحوال الشريفة، والمقامات العالية، والكرامات الخارقة، والأنفاس الصادقة، والبركات الباقية، والفتح السني، والكشف الجلي، والمحاسن الجميلة، والمواهب الجزيلة، والقدم

=

ﷺ فقال: عليك بنفسك، فقلت: يا سيدي، حرت بينكما، أبو العباس يقول: عليك بالله، وأنت تقول بنفسك، فبكى وقال: الذي دلَّك عليه أبو العباس هو الحق وإليه الرجوع، وكل منا ذكر ما يقتضيه حاله، وأرجو الله أن يلحقني بمقامه، فرجعت إلى أبي عباس وذكرت له مقالته فقال: قد أحسن في مقالته، هو ذلك على الطريق وأنا دللتك على الرفيق، فاعمل بما قال لك وبما قلته لك تجمع بينهما، وكل من لا يصحب الحق في سفره فليس على بينة من سلامته.

وكان يسأل شهوة الحب لا الحب.

وسئل عن حد المحبة فقال: الغيرة من صفات المحبة، والغيرة تأبي إلا التستر فلا تحد. وقال: سألت أحد المشايخ متى يعلم المريد أنه مريد، فأعرض عني، فكررته ثلاثًا فقال: لا تقل هكذا، أظنك تسأل عن أول قدم يضعه المريد في الإرادة؟ قلت: نعم، قال: إذا اجتمع فيه أربع خصال تطوي له الأرض فتكون عنده كقدم واحدة ويمشي على الماء ويأكل من الكون متى أراد، ولا ترد له دعوة، فعند ذلك يضع أول قدم في الإرادة.

وقال: وأما متى علم المريد عندنا أنه مريد سقط من حد الإرادة، فقلت له: آيستنا من الإرادة يا أبا القاسم؟

وقال: إذا أراد الله تعالى أن يهيء عبده للإمامة والاقتداء شغله في أيام غفلته بعلم الظاهر من القرآن والحديث والفقه والعربية، ثم ينقله إلى علم الأحوال والمقامات، فعند ذلك يستحق الإمامة والتقدم، وسمع «السلام عليكم يا عبادي». انظر: المطرب (٩٠)، المغرب (٢/ ٢١٢)، وفيات الأعيان (١/ ١٦٨)، الكواكب الدرية (٤١١).

الراسخ في التمكين المحمود، والباع الطويل في التصريف النافذ في الوجود، واليد البيضاء في السبق إلى معارج الفضل، والمشرب الهني من كئوس مدام الوصل، مطلعًا لشموس الأنوار، ومنبعًا لعيون الأسرار، سارت بذكر فضائله الركبان في الآفاق، وانعقد على جلالة قدره الإجماع.

قلت: ورأيت كلامًا مجموعًا في جزء: قال الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبي عبد الله القرشي ﷺ: لقيت الشيخ أبا مدين ﷺ وكانت له الغارة وشرف الهِمَّة، وأقمت عنده أحضر مجلسه وأسمع كلامه، وكنت آوي في سور البلد، ولا أخالط من أصحابه أحدًا، وأقمت مريضًا بحمى الربيع مدة ثلاثة أشهر وأنا مطروحٌ تحت السور. قال: ودخل على الشيخ أبي مدين في بعض الأيام ولدٌ له صغيرٌ من المكتب، فالتفت إلى أصحابه وقال: هذا الذى أفسد مملكتي، فعن قريب تُوفي الصغير.

ومن كلامه ﷺ:

المُقَرَّب مسرور بقربه، والمحبُّ معذَّبٌ في حبِّه، ومن خرج إلى الخلق قبل وجود حقيقة تدعوه إلى ذلك فهو مفتونٌ، ومن رأيته يدَّعي مع الله حالاً لا يكون على ظاهره منه مشاهدة فاحْذَره، وإذا ظهر الحق لم يبْقَ معه غيره، وليس للقلب سوى وجهة واحدة، فإلى أي جهةٍ توجَّه حُجب عن غيرها، وإذا سكن الخوف في القلب أورثه المراقبة، ومن تحقَّق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء، وما وصل إلى الحرية من بقى عليه من نفسه بقية.

ومن كلامه: شاهد مشاهدته لك ولا تشاهد مشاهدتك له.

الفقر أمارة على التوحيد، ودلالة على التفريد، والفقر ألا يشهد سواه، والفقر نور ما دمت تستره، فإذا أظهرته ذهب نوره، ومن كان الأخذ أحب إليه من العطاء فما شم رائحة الفقر.

والإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق، ومن عرف أحدًا لم يعرف الأحد.

والحق ما بان عنه أحدٌ من حيث العلم والقدرة، ولا اتصل به أحدٌ من حيث الذات والصفات، ومن لم يصلح للمعرفة شُغل برؤية الأعمال، والشهيد يشاهد حاله فيسرّه، والميت يشاهد عمله فيقلقه، وهذا بالقبول والرد مخوف، وذلك بالرحمة والرضوان مبشر ومشرف.

قال ﷺ: الحق مباين للخلق بالقدم والربوبية، كما باينوه بالحدث والعبودية.

وقال: الإخلاص ما خفي على النفس درايته، وعلى الملك كتابته، وعلى الشيطان غوايته، وعلى الهوى إمالته.

والفقر فخرٌ، والعلم غنمٌ، والصمت نجاةٌ، واليأس راحةٌ، والقناعة غِنى، والزُّهد عافيةٌ، ونسيان الحق خيانةٌ، والاشتغال عنه دناءةٌ، والحضور معه جنةٌ، والغيبة عنه نارٌ، والقرب منه لذَّةٌ، والبُعْد عنه حسرةٌ، والأُنس به حياةٌ، والاستيحاش منه موتٌ، والخمول نعمةٌ على العبد لو عرف شكرها.

وطلب الإرادة قبل تصحيح التوبة غفلةٌ، ومن قطع موصولاً بره قُطع به، ومن شغل مشغولاً بقربه أدركه المقت.

الأعمال والأحوال لا تصلح لبساط الحق تعالى.

ومن دعائه ﷺ: اللهم إن العلم عندك وهو محجوبٌ عني، ولا أعلم أمرًا أختاره لنفسي، فقد فوَّضت أمري إليك، ورجوتك لعافيتي وفقري فأرشدني، اللهم ائتني أحب الأمور إليك، وأرضاها عندك، وأحمدها عافية لديك، فإنك تفعل ما تشاء وأنت على كل شيء قدير.

ومن قوله رحمه الله تعالى:

يَا مَنْ عَلاَ فَرَأى مَا فِي الغيوبِ وَمَا ... تَحْتَ الثَّرَى وَظَلاَمُ الليلِ مُنْسَدلُ

أَنْتَ الغياثُ لمنْ ضَاقَتْ مَذَاهِبه ... أَنْتَ الدَّلِيْلُ لِمَنْ حَارَتْ بِهِ الحِيَلُ

إِنَّا قَصَدْنَاكَ وَالآمَال وَاثِقَة ... وَالكُل يَدْعُوكَ مَلْهُوفٌ وَمُبْتَهِلُ

فَإِنْ عَفَوتَ فَذُو فَضْلٍ وَذُو كَرَمٍ ... وَإِنْ سَطَوتَ فَأَنْتَ الحَاكِمُ العَدْلُ

وقال أيضًا ﷺ: أوقفني ربي ﷻ وقال لي: يا شعيب ماذا عن يمينك؟ قلت: يا رب عطاؤك، قال: وماذا عن شمالك؟ قلت: يا رب قضاؤك، قال: يا شعيب قد ضاعفت لك هذا، وغفرت لك هذا، طوبى لمن رآك أو رأى من رآك.

ومن الشعر الممدوح به قصيدة لبعض العلماء الصلحاء أهل المغرب:

تَبَدَّت لَنَا أَعْلاَمُ عِلْم الهُدَى صِدْقًا ... فَشِمَارُه شَمْس الدِّين مغربًا شرقًا

وَأَشْرَقَ مِنْهَا كُلَّمَا كَانَ أَفلاً ... فَأَصْبَح نُور السَّعْدِ قَدْ مَلأَ الأفقَا

ثم مدح المشايخ المحققين العارفين فقال ﷺ:

هُـمُ القَـوْمُ لاَ يَـشْقَى بهـم جَلِيْـسهم ... وَهَـلْ أَحَـد يحظـى قُـرْبهم شـقَا
أَبـا مِـدْيَن أَنْـتَ لِـدِيْنِكَ عـصمة ... فَـوَاليتهم حُبًّـا وَدَانَيْـتهم رقًـا
لَـكَ اللهُ يَـا شَـمْسٌ أَضَـاءَ بِنُورِهَـا ... مِـن الـدِّيْنِ مَـا قَـدْ أظلـم إذ رقَـا
سَـقيتَ قُلُوبًـا طَالَمَـا شَـفهَا الظَّـمَا ... فَأَمطرتهـا مِـنْ مَـاءِ عِلْـم الهُـدَى ودقَـا
فَأَحْيَيْـتَ مِنْهَـا كُلَّـمَا كَـانَ مَيِّتًـا ... ورقيـت مِنْهَـا كُـل مَـا كَـانَ لاَ يرقَـا
وَأَخْرَجتَهَـا مِـنْ كُـلِّ جَهْـلٍ وَظُلْمَـةٍ ... فَمِنْهَـا دَخَـا لِيـل الحـبُّ لَـه برقَـا
وَأَدْخَلتَهَـا حـصن التَّوكُّـل فَأَسْـلمت ... وَأمـسكها ذُو العـزِّ بـالعَرْوَةِ الوثْقَـا
شَـفيت بِعِلْـمٍ يَـا شـعيب قُلُوبنـا ... فَاسْمُكَ مِنْ شعبِ القلوبِ قَدْ اشتقَا

هذه عشرة أبيات اقتصرت على ذكرها، وقد روى بالإسناد المتصل إلى الشيخ الكبير العارف بالله أبي الحجاج الأقصري قال: سمعت شيخنا أبا محمد عبد الرزاق يقول: لقيت الخضر أبا العباس ﷺ في المغرب في سنة ثمانين وخمسمائة فسألته عن شيخنا أبي مدين ﷺ قال: هو إمام الصدِّيقين في هذا الوقت، أتاه الله مفتاحًا من السر المصون بحجاب القدس، ما في هذا الوقت أجمع لأسرار المرسلين منه.

قال: ثم مات الشيخ أبو مدين بعد ذلك بيسير رحمه الله تعالى.

قال الشيخ: وجميع كلام الخضر ﷺ قد وقع بعد موت الشيخ عبد القادر؛ فإنه مات سنة ستين وخمسمائة كما سيأتي، وإنما نبَّهت على هذا لئلا يتناقض الكلام، هو ها هنا مشعرٌ بتفضيله على أهل زمانه، وقد علم في موضع آخر أن الشيخ عبد القادر يُفضَّل على أهل زمانه مطلقًا، وأن الشيوخ كلهم وضعوا رقابهم تحت قدمه، ومنهم الشيخ أبو مدين المذكور.

الحكاية الرابعة والستون

عن الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبي الحسن بن الصباغ ﷺ[1] قال: حضر الشيخ أبو محمد عبد الرحيم القناوي المغربي[2] سماعًا بقنا، بكسر القاف بعدها نون، وفيه جماعة من

---

(١) انظر: البهجة (ص٤١٤)، والقلائد (ص٣٨٤).

(٢) قال أبو العباس التادلي في المعزى: وأما الشيخ عبد الرحيم فكان كامل الأوصاف، فهو من أصحاب =

=

الشيخ أبي مدين، وقد لقي جماعة من الفضلاء كشيخه أبي مدين وكان خدم كثيرًا أبي النجاة المدفون بغوث .

قال ابن بادس في شرحه: كان اسم هذا الإمام في المغرب أسدًا قال: فلما فتح الله عليَّ وعاينت كرامة الله عليّ ورأيت وصف الرحمة وشاهدت ألطاف المولى سميت نفسي عبد الرحيم طمعًا فيما عاينت.

وقال أيضًا أبو عبد الرحيم بن أحمد بن حجون المغربي نزيل قنا، له إشارات ثابتة، وكرامات خارقة، وأنفاس صادقة، واليد البيضاء في تفصيل معاريج القلوب، والبصيرة الثاقبة، والسريرة الشارقة، وهو ممن آتاه الله كنـزًا من معرفة الكتاب والسنة والحكمة، ومفتاحًا من علم السر المصون ورفع له القبول والهيبة في القلوب.

وقال صاحب حرز الأنقياء: اجتمع بالشيخ أبي مدين ومن عاصره، وقال عن بعض أصحابه: رأيت الملائكة تصافحه والجن بعد صلاة الصبح إلى الضحى فركع وخرج إلى بستانه فرأيت الأشجار تسلم عليه وتشتكي إليه بالعطش وكان هذا الشيخ خدم أيضًا أبا النحاة المدفون بغوت ونسبه إليه ابن أبي المنصور في رسالته وكان له التصرف البالغ.

وحكى أبو الحجاج الأقصري أنه اجتمع بالشيخ عبد الرحيم والشيخ عبد الرزاق الجزولي بمصر فأطرق الشيخ عبد الرحيم مليًا ثم قال لعبد الرزاق: يا أخي إني نظرت اللوح فرأيت فيه حضور رجل من الأبدال في القدس وأنه محتضر في هذه الساعة وقد أُمرت أن أحضر وفاته فقاما وحضرا موته ودفناه وعادا في بقية يومهما لمصر ثم قال للشيخ أبي محمد عبد الرزاق قد وهب مقام هذا البدلي لشيخ في سفينة في النيل وقد أُمرت أن آتي به فذهبا إلى الشاطئ فإذا السفينة في الشاطئ الآخر فغرس عصاه في الأرض فوقفت السفينة لا تذهب يمينًا ولا شمالاً فمرَّ الشيخ عبد الرحيم حتى وقف عليها ونادى باسم الرجل فأجابه فلما قرب منه أخذه بيده ومَشيا على الماء إلى الشاطئ الآخر ونزع الشيخ العصا الذى غرس فسارت السفينة ثم انطلق الشيخ عبد الرحيم وأبو محمد عبد الرزاق مع الرجل الذى أتى معهما لبيت المقدس بقية يومهم وصلّوا به المغرب وجلس الرجل في مقام الميت ووهبه الله مثل حاله ومقامه، ويحكى عن الشيخ أبي محمد عبد الرحيم أنه شكاه رجل بفاقته وفقره وكثرة عياله فأعطاه قدحًا من بُر فقال له: اخلطه على بُرك واطحن ولا تكتل، فكانت زوجته تطحن كل يوم قدحين أربعة أشهر فلما أعلمت الجيران بذلك نفذ.

وحكى الإمام تقي الدين بن دقيق العيد عن أبيه فخر الدين أنه قال: زرت أنا والشيخ أبو الحجاج الأقصري قبر الشيخ أبي محمد عبد الرحيم فلما وقفنا عليه خرج من القبر نور كدائرة الشمس وجاءت حتى مست أبي الحجاج فكنت أقول روح الشمس أبي محمد عبد الرحيم وهو شريف حسنى سكن قنا من بلد الصعيد إلى أن مات سنة اثنين وتسعين وخمسمائة، وكان هذا الشيخ مع جلالة قدره يثنى على الشيخ سيدي عبد القادر كشيخه سيدي أبي مدين، وشيخه سيدي أبي يعزى رضي الله عن جميعهم ووهبنا ما به أتحفهم وأكرمهم .

=

المشايخ والعلماء فأنشد القوال:

كَـمْ آيَـةٍ فِيْـكَ أمسيت أخفيهَـا ... خَـوْف العِـدَا أَوْ دمـوع العَـيْنِ تُبْـدِيْهَا

وَمِـنْ حِرْمَـان شَـوْقِي طُـول لَيْلَتـه ... إِلَيْـكَ يَنْـشُرهَا عـودًا وَيَطْوِيهَـا

فَـارْحَمْ بِقَلْبِـكَ قَلْبًـا حـشوه حـرق ... تخبـو الجحـيم ولا تخبـوا أَمَاقيهَـا

فَلَـيْسَ فِي بَـدَنِي عُـضو وَجَارِحَـة ... إلاَّ وَحُبـكَ فِيْهَـا مِـلء مَـا فِيْهَـا

وقال ﷺ:

سُرُورِي أَنْ أَرَاكَ وَأَنْ تَـرَانِي ... وَأَنْ يَـدْنُو مَكَانَـكَ مِـنْ مَكَـانِي

وَعَيْـشِي فِي لِقَائِـكَ كُـلّ يَـوْمٍ ... وَحَـسْبِي ذَاكَ مِـنْ كُـلِّ الأَمَـانِي

لأَنْ وَاصـلتني فَـأَردتَ قُـرْبِي ... وَحَقـكَ لاَ أُبَـالِي مَـنْ جَفَـانِي

قال: فداخل الشيخ أمرٌ عظيمٌ وقال للقوال: أعده، فدخل القوال فترة في ذلك فقال له الشيخ: اسكت، فلم يقدر على النطق، ومكث كذلك أيامًا، ثم جاء إلى الشيخ معتذرًا مستغفرًا، فقال له: قُلْ شيئًا من القرآن، فقرأ عند الشيخ ما شاء الله أن يقرأ وانصرف مسرورًا، وكان إذا أراد أن يقرأ قرأ، وإذا أراد أن يقول شيئًا من الشعر أو غيره لم يقدر على النطق، فأتى إلى الشيخ مستغيثًا فقال له: اذهب فتكلَّم، فانصرف الرجل مطلق اللسان كحاله أولاً.

=

قال الشيخ أبو العباس الورنيدي: الشيخ أبو محمد عبد الرحيم بن أحمد المغربي: صاحب كرامات وخوارق عادات وأنفاس صادقة ، وذكر أن الله أعطاه مواهب عظيمة فى فهم معانى القرآن والإطلاع على أسراره وليست بظنية بل حقائق ربانية وعلوم لدنية ليست بحدسية ولا ظنية بل مواهب ربانية والهامات قطعية وكشوفات يقينية لا يطرقها شك ولا يخالطها ظن وبهذا الوجه فاق الأولياء غيرهم فإن علم الأولياء قطعي وعلم غيرهم أكثره ظني، انتهى .

وقال أيضًا: إن هذا الشيخ فاضت عليه بحور أسرار الله تعالى المكنونة عن غيره وأطلعه الله تعالى على كنوز علم القرآن ومعارجه وخواصه؛ لأن علوم القرآن وأسراره لا تتناهى ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]، وإنما يفتح الله تعالى منها لأوليائه على قدر مقاماتهم عنده وذكر أن الشيخ معدود فى جملة الأقطاب من غير أن يتأخر عن درجاتهم انتهى. وانظر: المعزى في مناقب أبي يعزى، (بتحقيقنا).

الحكاية الخامسة والستون

عن الشيخ الجليل أبي الحجاج الأقصري ﷺ قال: اجتمع بمصر الشيخان عبد الرحيم، وعبد الرزاق رضي الله عنهما، فأطرق الشيخ عبد الرحيم وقال: إن الله ﷻ قد وهب مقام البدل شيخًا، ثم قال لعبد الرزاق: إني نظرت في اللوح المحفوظ فرأيت فيه حضور أجل رجل من الأبدال في بيت المقدس في وقتها، وحضرا موت البدل وجهازه ودفنه، وعادا إلى مصر في بقية يومها، فقال الشيخ عبد الرحيم لعبد الرزاق: اذهب إن الله ﷻ قد وهب مقام البدل شيخًا في سفينةٍ في النيل، وقد أُمرت أن آتي به، فذهبا إلى شاطئ النيل فإذا تلك السفينة جارية في الشاطئ الآخر، فأخذ الشيخ عبد الرحيم عصا فغرزها في الأرض فوقفت السفينة، لا تذهب يمينًا ولا شمالاً، فمرَّ الشيخ عبد الرحيم على الماء حتى وقف على السفينة، ونادى باسم الرجل فأجابه، فلما قرب منه أخذ بيده ومشيا على الماء إلى شاطئ البحر، ونزع الشيخ بيده تلك العصا فسارت السفينة، ثم ساروا ثلاثتهم إلى بيت المقدس، فصلُّوا فيه صلاة المغرب من يومهم ذلك، وجلس الرجل في مقام الميت ووهبه الله تعالى مثل حاله.

الحكاية السادسة والستون

عن الإمام تقي الدين ابن الشيخ الإمام مجد الدين أبي الحسين علي بن وهب القشيري(١)

---

(١) قال التادلي: وممن شهد أيضًا للشيخ عبد القادر الشيخ العارف الصدر أبو الحسن علي بن وهب السنجاري، وكان آية من آيات الله ﷻ، وروى عنه أنه رأى أبا بكر الصديق في النوم فأخرج له طاقية من كمه فألبسها له ووضعها على رأسه ثم بعد أيام أتاه الخضر، وقال له: يا علي اخرج إلى الناس ينتفعون بك، قال: فتثبت في أمري فرأيت أبا بكر الصديق أيضًا في النوم فقال لي كمقالة الخضر ﷺ، فتثبت في أمري فرأيت رسول الله ﷺ في الليلة الثالثة فقال لي كمقالة الصديق، فعزمت على الخروج فنمت، فرأيت كأني واقفٌ بين يدي الله ﷻ وهو يقول لي: يا عبدي جعلتك من صفوتي في أرضي أقمتك رحمة لخلقي فاحكم بين الناس بما علمتك من حكمتي أو قال: من حكمي فخرجت إلى الناس فأسرعوا من كل جانب.

ويُحكى عن عمر البزار أنه قال: اجتمع المشايخ مع الشيخ أبي الحسن علي بن وهب عند صخرة عظيمة تحت جبل فقالوا له: يا علي ما الوجد؟ فأشار بيده إلى الصخر وقال: الله، فانفلقت على نصفين وهي إلى الآن معروفة يصلي الناس بين نصفيها على وجه التبرُّك، ومع هذه العناية العظيمة والولاية الكريمة كان يقول: الشيخ عبد القادر أحد أعيان الدنيا، الشيخ عبد القادر واحد أفراد الدنيا، الشيخ عبد القادر نخبة =

رحمه الله تعالى قال: سمعت أبي رحمه الله تعالى يقول:

خرجت مع الشيخ أبي الحجاج الأقصري ﷺ إلى قبر الشيخ عبد الرحيم بجبانة قنا، فلما وقفنا على قبره خرج من القبر نور كهيئة دائرة الشمس، وجاءت حتى لاقت الشيخ أبا الحجاج، فكنت أقول: إنها روح الشيخ ﷺ.

وعن الشيخ الجليل العارف بالله أبي إسحاق بن أبي طاهر الأنصاري رحمه الله قال: كان رجل من أهل مصر له حالٌ فاخرٌ، وقدمٌ ثابتٌ، وكشفٌ ظاهرٌ، فتوارى عنه ذلك كله، فأتى إلى الشيخ عبد الرحيم ﷺ فوافاه جالسًا يتوضأ في إناءٍ، فقال: يا سيدي قد جئتك قاصدًا، وكان لي حال مع الله ﷻ وقد فقدته كله، فقال له الشيخ: اشرب ما في هذا الإناء، يعني ماء وضوءه، فشربه فوجد حاله كله في الحال.

وقال الشيخ ذو الجلالات والكرامات والبركات الطاهرات أبو عبد الله القرشي[1] قدَّس الله روحه: أنوار الشيخ عبد الرحيم عَلَت على أنوار جميع أصحاب الأحوال من أهل الديار المصرية في وقته ﷺ.

ومن كلام الشيخ عبد الرحيم -قدَّس الله روحه: قطع العلائق يمحق البعد، وظهور

=

الأكوان والوجود. طوبى لمن رآه، طوبى لمن جالسه، طوبى لمن بات في خاطره، الشيخ عبد القادر من هدايا الله ﷻ لخلقه أو قال: إلى الكون.

وروى أنه لما ألبسه أبو بكر الصديق الطاقية قال له: إني أُمرت بإلباسها لك، وقالوا: ما ألبس أحد من أرباب المحققين طاقية في النوم ثم أصبحت على رأسه إلا أبو الحسن هذا، وأبو بكر بن هوارة.

وقد حكى صاحب حرز الأتقياء أن الشيخ أبو السعود محمد بن العشائر المسعودي الواسطي أمره النبي ﷺ في نومه بعد مجاهدة وأسفار ولقاء شيوخ أنه يأخذ العهد لنفسه، وأنه وضع طاقيته على رأسه وقال له: ما يسمع مني أحد، قال له: علامة ذلك إذا استيقظت تجد الطاقية على رأسك، فاستيقظ فوجدها فأغمي عليه يومين، ثم فاق وأظهرها وثوب الناس لوقته، وإلى هذا الشيخ انتهت التربية ويُقال: إنه كان من أصحابه أربعون رجلاً كلهم أصحاب أحوال.

ويُحكى عن الخضر أنه أتاه فكلمه وسلَّم عليه فردَّ عليه السلام، ثم اشتغل يكنس في مدرسة الشيخ فقال له: أو ما عرفتني؟ قال: بلى، قال: ولما لا تبتهل بي! قال: لأن الشيخ عبد القادر كفاني عن كل أحد لا أنت ولا غيرك. وانظر: المعزى، والبهجة (ص٤٢٨) بتحقيقنا.

(١) كان ﷺ جليل القدر، وكان يعظم الفقراء أشد التعظيم، ويقول: إنهم انتسبوا إلى الله تعالى، وكان كثيرًا ما يجتمع بالخضر ﷺ، وكان يطبخ طعام القمح كثيرًا، فقيل له في ذلك. فقال ﷺ: إن الخضر ﷺ زارني ليلةً فقال: اطبخ لي شوربة قمح. فلم أزل أحبها لمحبة الخضر ﷺ لها.

الفقد بعدم الالتفات إلى السوى، وثقة القلب بترتيب القدر السابق والتجريد صار حكمًا، والذهول على الكونين حالاً، حتى تنقلب الأكوان باطنًا لظاهرٍ، ومتحركًا لساكنٍ، فيسكن القلب بتمكين القدر، وانشراح الصدر بصور الأكوان مع ثبوت المقام بعد التلوين، ورسوخ التمكين، فتكون السماء له رداءً، والأرض له بساطًا، والهيبة في القلب لعظمة الله.

طمس أبصار البصائر عن مشاهدته فلا يُرى إلا بأنوار الجلال، وسواطع الجمال، والرِّضا بسكون القلب تحت مجاري الأقدار بنفي التفرقة حالاً، وعلم التوحيد جمعًا، فيشهد القدرة للقادر، والأمر للآمر، وذلك يلزمه في كل حالٍ من الأحوال.

والتمكين: شهود العلم كشفًا، ورجوع الأحوال إليه قهرًا، والتصرف حكمًا وكمال الأمر شرعًا.

والجوع: صفاء الأسرار في استغراق الأذكار، والشوق: الاستغراق في بادئ الذِّكر طربًا، ثم الغيبة في وسط الذِّكر سكرًا، ثم الحضور في آخر الذِّكر صحوًا، فهو بين استغراق يهيجه وغيبة تزعجه وحضور يبعثه.

والحياة أن يحيا القلب بنور الكشف، صدرك سر الحق الذي برزت به الأكوان في اختلاف أطوارها، فكيف وهي جنة الله تعالى، وتخاطبه بأسرار معانيها، وألطاف مبانيها، والتبري من الحول والقوة ذهاب الخواطر من المتجلى عليه، وفناء الأكوان في امتزاج الأنفاس عليه، ويفيد صاحبه أن يحفظ الله عليه حاله، ويرقى في كل لحظةٍ مقامه، فلا يرى في الملك ولا في الملكوت حركة ولا اختلاف ظهور حكم إلا ولـه فيه زيادة نوره، وحقيقة إيمانه، وهو مقامٌ فلا يتكدَّر عليه حاله، ولا يختلف عليه وجده، فإن ظهرت عليه القدرة أخفته، وإن بطنت فيه أظهرته، فرؤيته عرشية - أو قال: غيبية -، وحضوره - أو قال: ظهوره - بطونه واله فان بالأسرار لا يسمع إلا من مخاطبٍ في سرِّه بسر المراد في العلم، وتتنوع له الأفهام باختلاف المقامات في العمل، فهو يرتع في رياض الأسرار، وُيصافى بخالص الأنوار، ويتجلَّى له الحكم في أنوار الجمال، يهدي إليه ويمنحه هباتها، والواصل ألقى السمع للإصغاء، وفتح البصيرة للنظر، فتنطق حروف الأكوان في سر أسمائه تدبرًا وحكمًا ومواعظ، فهو في رياض التدبُّر بين حدائق المواعظ الناطقة الصامتة، وأزهار الحكم الباطنة والظاهرة.

والتقوى: ألا يظهر على محله حركة إلا وهي بحبل العلم مرتبطة، أو كما قال: مع غيبته عن حركته، فإن يكن باطنه مع باطن العلم حكمها، وإن يكن ظاهره مع ظاهر العلم

وجودها مع طهارة القلب، وتسليم النفس، ومبادرة الوقت، وإذا صحَّ هذا الوصف للعبد أتاه الله العلم اللدني، وفتح له باب إلهام الوحي، فتحدث روحه بأسرار الملكوت.

والتحقيق: الاستغراق في الأنوار الغيبية، فيرى في قلبه مشكاة دانية الأنوار، فيدرك به حقيقة النفس، وكيف رتب الله وضعها والناس في ذلك على قسمين: متمكن أمكن، ومتمكن عين أمكن، فالأول هو الذي يجد العبارة منوطة بلطف الحال، مفصحة للتبليغ بشرط التلقِّي، والثاني هو الذي يدرك ذلك كشفًا، ويمنع منه عبارة وهو مولهٌ، غير مبلغ حقيقة ما أدركه من لطف الأنوار، وجلي الأسرار، والكشف بروز الأفعال والأحوال على القسطاس الصديقي، والصراط الحقيقي، وكذلك الأكوان تدركه حقائقها على الوضع الأول من غير إشارةٍ لتمثيلٍ، ولا محو، بل التحويل بروز التشكيك، فهي تظهر له على اثني عشر قسمًا: صنوان، وغير صنوان، شموس المعارف ولطائف العوارف، ويشهد في ذلك ما له قبل الانفصال والاتصال.

والذِّكر: اضمحلال الذِّكر برؤية المذكور حتى يبقى محقًّا في عين المحق، وسكر في سر الصحو.

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف:٢٤]، معناه: إذا نسيت أنك ذاكرٌ فنسيانك ذِكرٌ، وغيبتك عن النسيان شهود المذكور، وهو المعبَّر عنه بذكر الذاكر، وأما من قال معناه: إذا نسيت من سواه فاذكره، فهو لا يصلح إلا للغافلين لا للمحققين، وهذه المقامات كلها نتائج الكتاب والسُّنة بحسن الأدب، ومن لا اتِّباع له للشرع فلا شيء له في هذه المقامات والأحوال. انتهى كلامه ﷺ.

وهو كلام عارف محقق في الأسرار، مدقق عزيز نفيس، لا يعرفه إلا أهله من كل غواصٍ على الأسرار ذي تفتيشٍ.

وكان ﷺ من أكابر العارفين، وأجلاَّء المقرَّبين المشهورين المشكورين، أصحاب الكرامات الخارقة، والأنفاس الصادقة، والآيات الباهرة، والأنوار الزاهرة، والأحوال والمقامات العلية، والمحل الأرفع، والجاه الأوسع، والكشف الجلي، والقدر العلي، والمورد العذب من مناهل الوصل والتقريب في القطع، والوصل والتولية والعزل ممن جمع الله له بين علمي الشريعة والحقيقة، وجعله إمامًا دالاً في سلوك الطريقة، كثير السر المصون، مفتاحًا لمغالقه الغامض المكنون.

وكان يقول: إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن لا إله لا الله، يقول: شهدنا بها شهدنا، ويقول: المتكلمون يدندنون حول الحق، كُشفت لهم خفيات الأسرار، وجُليت لهم جليات الأنوار.

وشهد له المشايخ والعلماء بالجلالة والتقدم في المعارف، والقدم الراسخ في استظهار الآيات وكثرة البركات، نفعنا الله به وسائر الصالحين، وأعاد علينا من بركاته. آمين.

ونسبه شريفٌ علوي، راجع إلى الحسين بن علي، رضوان الله عليه وعلى سائر عباد الله الصالحين.

الحكاية السابعة والستون

عن الشيخ العارف أبي حفص عمر بن مصدق الواسطي -رحمه الله تعالى- أن الشيخ عثمان بن مُرُورَة، بضم الميم والراء الأولى وفتح الثانية، بينما هو ليلة متهجدًا إذ طرقه طارقٌ من جناب الحق، ومُدَّت له أنوار تجلّي من سرادقات الجلال، فوقف مكانه شاخصًا إلى السماء سبع سنين لا يأكل ولا يشرب، ثم رد إلى أحكام بشريته، فقيل له: اذهب فادخل قريتك، وأطأ زوجتك؛ فإن في ظهرك ولدًا وقد آن وقت ظهوره، فأتى إلى قريته وطرق باب داره، فكلمته زوجته فأخبرها بالسبب الذي جاء فيه، فقالت له: لئن فعلت وعدت إلى مكانك من ليلتك، ولم يعلم بك أحدٌ ليتحدثن الناس فِيَّ، فصعد إلى سطح داره، ونادى بأعلى صوته: يا أهل القرية أنا عثمان بن مرورة، اركبوا فإني سأركب، فأبلغ الله صوته أهل القرية، وأفهمهم مراده، فمن وطئ زوجته من أهل القرية في تلك الليلة رزقه الله تعالى ولدًا صالحًا، ثم اغتسل الشيخ عثمان، ورجع إلى مكانه بالبطحاء ووقف شاخصًا إلى السماء سبع سنين أُخر، كحاله الأول، وطال شعره حتى ستر عورته، ونبت العشب حوله، وأَلِفَته السباع والوحوش، وعكفت عليه الحيوانات والطيور، ثم رد إلى أحكام البشرية بعدما قضى فرائض أربعة عشرة سنة، وكانت الكلاب عنده تلعب مع السباع لا توقفها ولا تتعرَّض لها.

الحكاية الثامنة و الستون

عن الشيخ العارف أبي الفتح بن أبي الغنائم الواسطي -رحمه الله تعالى- قال: جاء رجلٌ من أهل البطائح بثور أعجف يقوده إلى شيخنا الشيخ أحمد الرفاعي -قدَّس الله روحه- فقال: يا سيدي ليس لي ولعيالي عيش إلا من هذا الثور، وإنه قد ضعف عن

العمل، فادعو فيه بالبركة والقوة، فقال له الشيخ: اذهب إلى الشيخ عثمان بن مرورة وسلِّم عليه عني، واسْأَله لي الدعاء، فذهب الرجل يقود الثور إلى الشيخ عثمان فوجده جالسًا والأُسد محدقة به، فهاب الرجل أن يتقدَّم إليه، فقال له: تقدَّم، فتقدم حتى قرب منه، فقال له ابتداءً: وعلى الشيخ أحمد السلام، ختم الله له ولي بالخير، ثم أشار إلى بعض تلك الأُسد أن قُم وافترس هذا الثور، فقام الأسد فافترسه وأكل منه، فقال الشيخ للأسد: قم عنه، ثم قال لأسد آخر: قم وكُلْ منه، فقام وأكل، ثم قال له: قُمْ عنه، وما زال يأمر الأسد أسدًا أسدًا بالأكل حتى لم يبقَ من لحم الثور شيءٌ، فإذا بثورٍ ثمينٍ قد أقبل من صدر البطحاء، فجاء ووقف بين يدي الشيخ، فقال الشيخ للرجل: قُمْ إلى هذا الثور فخذه بدلاً عن ثورك، فقام إليه وأخذه وهو يقول في نفسه: هلك ثوري، وأخشى أن يعرف هذا معي أحد فأُوذي، وإذا برجلٍ قد أقبل يعدو حتى وقف على الشيخ فقبَّل يده وقال: يا سيدي نذرت لك ثورًا وأتيت به إلى البطحاء، فانساب عني ولا أدري أين ذهب، فقال له الشيخ: قد وصل نذرك وهذا هو، فلما رآه الرجل أكب على قدم الشيخ يقبلها، فقال لـه: يا سيدي قد عرفك الله بكل شيءٍ، وعرّفك بك كل شيءٍ حتى البهائم، فقال له الشيخ: يا هذا الحبيب لا يخفى على حبيبه شيئًا، ومن عرف الله ﷻ عرفه كل شيءٍ، قلت: مع كل شيءٍ أقصد يعرفه أو له تعلُّق به.

وقد أوضحت هذا في غير هذا المكان في قول بعضهم: العارف لا يخفى عليه شيءٌ.

ثم قال للرجل صاحب الثور: تخاصمني بقلبك؟ تقول: هلك ثوري ولا أعلم من أين هذا الثور، وأخشى أن يعرفه معي أحدٌ فأوذي، فجعل الرجل يبكي فقال له الشيخ:

ألم تعلم أن الله يعلمني بما في قلبك؟ اذهب بارك الله لك في ثورك وأخذه وانصرف، ومشى الرجل خطوات، فخطر في نفسه: أخشى أن يعترضني أو يعترض ثوري أسد، فقال: يا سيدي، هو ذاك، فأشار الشيخ إلى أسدٍ بين يديه: أن قم معه إلى أن ينجو بنفسه وبما معه، قال: فلقد كان ذلك الأسد يزود عنه الأُسد وغيرها كما يزود عن أشباله، ويمشي تارة عن يمينه، وتارة عن شماله، وتارة أمامه، وتارة خلفه، حتى وصل إلى مأمنه.

وأتى إلى الشيخ أحمد ﷺ فأخبره بقصته معه، فبكى وقال: عجزت النساء أن تلد بعد ابن مرورة مثله، قال: وبارك الله للرجل في ذلك الثور حتى صار منه مالاً كثيرًا ببركة دعوة الشيخ عثمان، رضي الله عنهم أجمعين.

الحكاية التاسعة و الستون

عن الشيخ العارف عبد اللطيف بن أحمد البغدادي الفقيه الصوفي- رحمه الله تعالى- قال: قصد إلى الشيخ عثمان ﷺ رجلان من البطائح، أحدهما أعمى، والآخر مجذوم؛ ليدعو لهما بالعافية، فلقيهما رجلٌ مُعافى ليس به عاهة، فسألهما عن قصدهما، فأخبراه فقالا لهما: إن هذا الرجل ما هو عيسى بن مريم ﷺ، والله لو أشاهده وقد أبرأ الأكمه ما صدقته، وأنا ذاهبٌ معكما، فلما وصلوا إلى الشيخ عثمان قال: يا عمى ويا جذام انتقلا عنهما إلى هذا، فأبصر الأعمى، وبرأ المجذوم، وعمي المُعافى وجُذم، فقال له الشيخ: إن شئت صدقت، وإن شئت لا تصدق، فانصرفوا من بين يديه على هذه الحالة.

نسأل الله الكريم العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

وكان الشيخ عثمان ﷺ من أعيان العارفين، وأكابر المحققين، عالي المقامات، كبير الكرامات، بحر الحقائق والمعارف، معدن الأسرار واللطائف، له القدم الراسخ، والتمكين الشريف، والجلالة العُظمى، والمحل الأسنى والتصريف.

ومن كلامه ﷺ:

قلوب الأولياء أوعية للمعرفة، وقلوب العارفين أوعية للمحبَّة، وقلوب المحبِّين أوعية للشوق، وقلوب المشتاقين أوعية للمشاهدة، وقلوب المشاهدين أوعية للفرائد الإلهية، ولكل حالٍ من هذه الأحوال آداب، فمن لم يستعملها بأوقاتها هلك من حيث يرجو النجاة.

ومنه: الحب شغفٌ، بدايته الأسف وغايته الدنف. ونهايته الزلف، من ذاقه عرفه، ومن عرفه أَلِفَه، ومن أَلِفَه وصفه، والمحبُّون يعيشون على بساط أُنس الله، فيطعمهم ويسقيهم، فهم قائمون مع الله ﷻ على قدمٍ واحدةٍ، إن تقدموا عرفوا، وإن تأخروا حُجبوا.

الحكاية السبعون

عن الشيخ العارف بالله أبي محمد عبد الله المارديني -رحمه الله- قال: كنت عند الشيخ الإمام جمال الدين بن يونس بمدرسته في الموصل، فذكروا قضيب البان الموصلي، ووقعوا فيه ووافقهم ابن يونس، فبينما هم بمجلسه يخوضون فيه إذ دخل عليهم قضيب البان فبُهتوا، فقال: يا ابن يونس أنت تعلم كل ما يعلمه؟ قال: لا، قال: فإن كنت أنا من العلم الذي لا تعلمه أنت؟ فلم يدرِ ابن يونس ما يقول، قال المارديني: فقلت في نفسي: لا بُدَّ أن ألزمه اليوم

والليلة حتى أرى ما يصنع، فلزمته بقية يومي، فلما كان العشاء اخترق الأزقة وأخذ منها سبع كسرات، وأتى إلى باب دار فطرقه، فخرجت إليه عجوزٌ وقالت: يا قضيب البان، أبطات عليَّ، فناولها تلك الكسر، وانصرف حتى أتى إلى باب الموصل وهو مغلقٌ، فانفتح له فخرج وأنا خلفه ومشى يسيرًا، وإذا بنهرٍ يجري وعنده شجرة، فخلع ثيابه واغتسل في ذلك النهر، وعمد إلى ثيابٍ معلقةٍ على تلك الشجرة فلبسها، وانتصب يصلِّي إلى أن طلع الفجر، وغلب عليَّ النوم فما استيقظت إلا بحر الشمس وأنا في صحراءٍ مقفرةٍ، لا أرى أحدًا ولا يترائى لي أحدٌ، لا قريب ولا بعيد.

فوقفت متحيرًا لأمري بأي أرضٍ أنا، فمرَّ بي ركبٌ، فأتيتهم وسألتهم وقلت لهم: أنا من الموصل وخرجت منها الليلة وقت العشاء، فأنكروا أمري، وقالوا: ما ندري أين يكون الموصل، فتقدم إليَّ منهم شيخٌ كبيرٌ وقال لي: أخبرني بقصتك، فأخبرته فقال: والله لا يقدر على ردِّك إلى الموصل إلا الذي جاء بك إلى ها هنا، يا أخي أنت ببلاد المغرب وبينك وبين الموصل مسيرة ستة أشهر، فامكث هاهنا لعله يعود، ثم مضوا وتركوني، فلما كان الليل إذا أنا بقضيب البان قد نزع ثيابه واغتسل وقام يصلِّي إلى الصبح، فلما طلع الفجر نزع تلك الثياب وليس أحدًا معه وسار، فتبعته فلم يلبث إلا يسيرًا حتى جئنا الموصل، فالتفتَ إليَّ وعرك أذني، وقال لي: لا تَعُدْ إلى مثلها، وإيَّاك وإفشاء الأسرار، قال: فوافينا الناس يصلون صلاة الصبح بالموصل.

الحكاية الحادية والسبعون

عن الشريف أبي عبد الله محمد بن الخضر بن عبد الله الحسيني الموصلي قال: سمعت أبي رحمه الله يقول: كنت سيء الظن بقضيب البان على كثير ما يبلغني من كراماته ومكاشفاته، وكنت عزمت أن أكلم السلطان في إخراجه من الموصل، إذ رأيت قضيب البان مقبلاً من صدر الزقاق على هيئته المعروفة، ولم يكن في تلك الساعة في ذلك الزقاق غيري وغيره، فقلت في نفسي: لو كان معي أحدٌ آمره بإمساكه، فمشى خطوة فإذا هو على هيئة كردي بصورةٍ غير صورته الأولى، ثم مشى خطوة فإذا هو على هيئة بدوي بصورةٍ غير الصورتين الأوليين، ثم مشى خطوة فإذا هو في هيئة فقيه بصورةٍ غير الصور المتقدمة، فقال لي: يا قاضي هذه أربع صور أيتهن قضيب البان منهن حتى تكلِّم السلطان في إخراجه؟ قال: فلم أتمالك أن أكببت على قدميه أقبلهما واستغفرت.

الحكاية الثانية والسبعون

عن الشيخ الأصيل أبي المفاخر عدي ابن الشيخ أبي البركات بن صخر بسنده المتصل أن قضيب البان[1] خرج يومًا عند آذان الظهر من زاويةٍ في لاشين، بالشين المعجمة على ما ضبطه بعضهم، فقال له بعض الصالحين من الفقراء: هل لك في الصُّحبة؟ قال: نعم يا أخي، بشرط ستر الحال، قال: ذلك الفقير؟ فقلت له: نعم، فمشينا غير بعيدٍ فأتينا إلى مدينةٍ لا أعرفها ولا أدري من أي أرضٍ هي، فقام إليه أهلها فتلقوه وبالغوا في إكرامه، فإذا هم من أكمل الناس أدبًا، وأوفرهم عقلاً، وأكثرهم خشوعًا، فصلَّى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح، وخرجنا من عندهم وقت الإسفار، وما أكلنا ولا شربنا، فسار غير بعيدٍ، وصار يطعمني من أنواع الفواكه والحلوى وسقاني، ولقد خرجنا من تلك المدينة وما معه شيءٌ، فلم نمشِ إلا يسيرًا حتى أتينا الموضع الذي خرجنا منه، فقلت له: ما هذه المدينة؟ قال: يا أخي هذه مدينة من وراء بحر الهند، أهلها مسلمون يصلي بهم كل ليلةٍ ويومٍ وليٌّ من أولياء ذلك الزمان، وإنه لا يدخلها عليهم إلا وليٌّ، ولو لم يؤذن لي في مصاحبتك لما استطعت أن ترافقني.

الحكاية الثالثة والسبعون

عن الشيخ أبي حفص عمر بن مسعود البزار ببغداد رحمه الله تعالى[2] قال: ذكرت قضيب البان عند شيخنا محيي الدين عبد القادر ﷺ فقال: هو وليٌّ مُقرَّبٌ، ذو حالٍ مع الله تعالى، وقدم صدق عنده ﷻ، فقيل له: إنه ما نراه يصلِّي، قال: إنه يصلِّي من حيث لا ترونه، ولا يخرج يوم ولا ليلة وعليه فيهما فرض أبدًا، وإني أراه إذا صلَّى بالموصل أو بغيرها من آفاق الأرض يسجد عند باب الكعبة.

وكان ﷺ أحد الأولياء المشهورين، صاحب الكرامات الباهرة، والإشارات الفاخرة، والهِمم العلية، والمقامات السَّنية، والمعارف الجلية، والمواهب الجزيلة، والكشف الظاهر، والقلب الغواص في بحار الأسرار، أجمع المشايخ والأولياء على ولايته عجمًا وعربًا، وسارت الركبان بآثاره ومناقبه شرقًا وغربًا، وكان الغالب عليه من حاله الاستغراق والوله، وكان يتردَّد في الرسائل بين الشيخ عبد القادر والشيخ عدي بن مسافر، رضي الله عنهم أجمعين.

ومن كلامه ﷺ:

---

(١) انظر: البهجة (ص٣٦٧)، والقلائد (ص٣٦٦)، وطبقات السبكي (٩/ ١١٦).

(٢) انظر: القلائد (ص٣٦٩).

تصحيح البدايات هو اتّقاء الرخص بمواظبة النفس على العزائم، وتحكم السنة بامتثال الأمر ومشاهدة الحكم.

والحزم في السلوك ترك الراحة، وامتثال أحكام المشايخ بعدم الاعتراض، واستحقاق العمل باستشعار الحال - أو قال: الأجل -، والتمسك بعروة الإخلاص.

واعلم أن التطلع لعالم النهايات لا يصح إلا بتحقيق البدايات.

وكان ﷺ يتمثَّل بهذه الأبيات:

يا ناهري لما وقفت ببابه ... والرفق بالشاكي هو الأولى به

أكذا جرى رسم الذين تقدموا ... يشكو المحب الجور من أحبابه

قال اشتكاني بعدما قرَّبته ... وجعلت لمح الطرف بعض ثوابه

فوحق حاجته إليَّ وفقره ... لأواصلن نعيمه بعذابه

ولأمزجنَّ حياته بمماته ... حتى يقصر وصفه عما به

لا يتعب المحبوب قتل محبه ... فلديه ما يغنيه عن أتعابه

وحياته لو سل سيف لحاظه ... بلغ المنى ويداه تحت ثيابه(١)

الحكاية الرابعة والسبعون

عن الشيخ أبي محمد علي بن إدريس رحمه الله تعالى قال:

كان الشيخ مكارم بن النهر الخالصي ﷺ(٢) يتكلَّم على أصحابه في وقتٍ، فذكر النار وما أعدَّ الله لأهلها، فوجلت القلوب ودمعت العيون، وكان هناك رجلٌ معطلٌ فقال: إنما هذا تخويفٌ، وما ثمَّ نار يُعذَّب بها أحدٌ، فقال الشيخ: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٤٦]، وسكت الشيخ وسكت الحاضرون، فصاح الرجل: الغوث الغوث، واضطرب اضطرابا شديدًا، وأبصروا دخانًا يخرج منه يكاد يصرع من شمه من شدة ريحه، فقال الشيخ: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان:١٢].

---

(١) انظر: سر الأسرار (ص٣٦٦).

(٢) انظر: البهجة (ص٣٧١).

فسكن روع الرجل، وقام إلى الشيخ يقبّل قدميه، وجدد إسلامه، وصحّح معتقده، وقال: وجدت في قلبي وهجًا ولفحًا من نارٍ عليّ ونارٍ في باطني، ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور:١٤، ١٥]، ولولا أن الشيخ سببه الله لهلكت.

الحكاية الخامسة والسبعون

عن الشيخ مكارم ﷺ بداره في نهر الخالص، فخطر في نفسي: لو رأيت شيئًا من كراماته، فالتفتَ إليَّ مبتسمًا وقال: سيدخل الساعة نفرٌ، أحدهم عجمي أصم بخده الأيمن شامة، بقي من عمره تسعة أشهر، يموت بالفالج، وآخر عراقي أشقر بعينه حور وبرجله عرج، يمرض بعد أشهر ثم يموت، وآخر مصري أسمر في كفه الأيسر ستة أصابع، وبفخذه اليمنى طعنة رمح، أُصيب بها منذ ثلاثين سنة، يموت بأرض الهند بعد عشرين سنة، وآخر شامي أدم اللون، خشن الأصابع، يموت بالجذام على باب دارك بعد سبع سنين وثلاثة أشهر وسبعة أيام، وآخر جاء من أرض اليمن أبيض اللون، وهو نصراني وتحت ثيابه زنار، خرج من بلاده منذ ثلاثين سنة، ولم يعلم به أحدٌ؛ ليمتحن المسلمين من يكشف منهم حاله، وقد اشتهى العجمي لحمًا مشويًا، واشتهى العراقي أوزة بأرزٍ، واشتهى المغربي عسلاً بسمنٍ، واشتهى الشامي تفاحًا من فواكه الشام، واشتهى اليمني بيضًا مسلوقًا، ولم يعلم أحدٌ منهم بشهوة الآخر، وستأتينا أرزاقهم وشهواتهم رغدًا من كل مكانٍ، والحمد لله رب العالمين"[1].

قال أبو المجد: فوالله ما لبثنا إلا يسيرًا حتى دخلوا جميعهم كما ذكر الشيخ ووصف، لم يخلُ من أوصافهم شيئًا، وسألت المصري عن طعنة فخذه فتعجب من سؤالي إياه وقال: هذه طعنة أُصبت بها منذ ثلاثين سنة. قال: ثم جاء رجلٌ ومعه تلك الأصناف التي اشتهوها فوضعها بين يدي الشيخ، فأمره فوضع بين يدي كل رجلٍ منهم شهوته، وقال لهم الشيخ: كلوا مما اشتهيتهم، فأُغمي عليهم، فلما أفاقوا قال أحدهم: يا سيدي ما وصف الرجل المطلع على أسرار الخلق؟ قال: إن يعلم أنك نصراني وتحت ثيابك زنار، فصرخ الرجل وقام إلى الشيخ وأسلم، فقال له: يا بني كل من رآك من المشايخ قد عرف حالك، ولكن علموا إن إسلامك على يدي، فسكتوا عن كلامك، قال: ولقد جرى في وفاتهم ما أخبرنا الشيخ عنه في الوقت الذي ذكر، والمكان الذي عينه من غير تقديمٍ ولا تأخيرٍ، ومات العراقي عند الشيخ في

---

(١) انظر: قلائد الجواهر (ص٣٧٠).

الزاوية بعد أن مرض شهرًا، وكنت ممن صلَّى عليه، ومات الشامي عندنا بالجُذام على باب داري طريح، ونُودي لي فخرجت وإذا هو صاحبنا الشامي، وبين موته وبين الوقت الذي اجتمعت به عند الشيخ سبع سنين وثلاثة أشهر وسبعة أيام.

الحكاية السادسة والسبعون

عن الشيخ أبي الحسن الجوسقي -رحمه الله تعالى- قال: حضرت الشيخ مكارمًا ﷺ بمسجدٍ يتكلم على أصحابه في الشوق والمحبَّة، فقال في كلامه: أسرار المحبِّين إذا طافت عند ظهور سلطان الهيبة والجلال خمدت لأنوارها كل نورٍ قابلته أنفاسها، ثم تنفَّس الشيخ فانطفأت مصابيح المسجد، وكانت نيفًا وثلاثين قنديلاً، قال: وإذا طاشت أسرارهم بتجلِّي أنوار الأُنس والجمال أضاءت بأنوارها كل ظلمةٍ قابلتها أنفاسها، ثم تنفَّس فاشتعلت المصابيح وأضاء المسجد كحاله أولاً.

وكان الشيخ مكارم كاسمه صاحب مكارم وكرامات ظاهرات، وأحوال فاخرات، ومقامات تامات، وكشفٌ جليٌّ، وأنفاس صادقات، وعزم ماض، وهِمم عاليات، وتصريف نافذ، وإشارات ظاهرات، وجلالة واحترام وإعزاز وإكرام عند المشايخ والعلماء والعوام.

وقال أيضًا ﷺ: أول وصال العبد للحق هجرانه نفسه، وأول هجران العبد للحق مواصلته لنفسه، وأول درجات القرب محق شواهد النفس، وإثبات شواهد الحق والقلب، ومن طلب الدلالة فإنها لا غاية لها، ومن طلب الله ﷻ وجده بأول خطوة يقصده بها.

وقال أيضًا: المريد الصادق: من وجد في قلبه حلاوة العدم، ونفى عن نفسه الألم وسكن إلى ما جرى به القدم.

والفقير: من صبر فقلَّ طمعه، وتأدَّب وحسن خلقه، وراقب ربه، وكتم سره، وخاف مقام ربه، وستر حاله، ووثق بمولاه، ولم يشكُ إلى أحدٍ مرة، ولجأ إلى الله فتضرَّع إليه في كل أحواله.

والزَّاهد: من خلع الراحة، وترك الرئاسة، وأمسك النفس عن الشهوات، وزجر الهوى على الإرادات.

والوَرِع: من نظره إلى الدنيا بعين المهانة، ورجع إلى مولاه بالإنابة، وأدَّى ما عليه من الإنابة، وأمسك عن الفضول وما لا يعنيه، وعقل قلبه عن الهوى، وفرَّ بسرِّه إلى مولاه.

والمجاهد في الله: من تجنَّب أهل الفترة، وعانى الصبر والفكرة، ولزم الخشوع والحسرة، واستعمل الحقيقة، وأمات الهوى، وأحيا الصفا، وسلك تحت مجاري القضاء، وجانب الأذى، واستحيا من الملك الأعلى، ورفض الراحة في الجد، (ولا ينفع ذا الجد منك الجد).

والشاكر: من صبر عند الحاجة مع الملك العلاَّم، ولم يرجع إلى أحدٍ من الخاص والعام، وخلا قلبه من التدبير والاهتمام.

والمتوكل: من أعرض بقلبه عن الخلق، وأخذ الرزق من الحق، وقام بهمته على باب مولاه، واستعان باليقين على طاعته، وترك المألوفات، والتجأ إلى باب مولاه، واستقام باليقين حال طاعته.

والمحب: من أَلِفَ الخلوة، وأَنِس بالوحدة، واستحيا من ربه، وقام ببابه وسارع إلى طاعته، وأكثر من ذِكره وعبادته، وأسبل دمعه واشتياقه، والتمس قربه، وخاف فراقه، فصفا قلبه من الأكدار، وطهر سره من الأغيار، وعفر خديه بالأسحار بين يدي الملك الجبار.

وكان ﷺ يتمثَّل بهذه الأبيات:

أَحبُّــكَ أَحْيَانًــا مِــن الحَــبُّ لَمْ أَجِــدْ ... لمغرفتـــي مِنْـــه الَّـــذِي يَتَـــصَرَّفُ

وَفِـيْهِنَّ أَنْ لاَ يخطـر الـشَّوْق ذِكْـركم ... عَـلَى القلْـبِ إِلاَّ كَـادَتْ الـنَّفس تتلـفُ

وَحُـب لَـدَي لِلْجِسْمِ وَالـشَّوْقِ ظَـاهِره ... وَحُـب لَـدَى نَفْـسِي مِـن الـرُّوحِ أَلْطَـفُ

وَحُبـــه هُـــوَ الـــدَّاءُ العـــضَال لِعَيْنِـــهِ ... لَـــهُ قَـــدَمٌ تعـــدُو عَـــلَيَّ فـــأدنفُ

فَـــلاَ أَنَـــا مِنْـــهُ مُـــسْتَرِيحٌ وَمَيِّـــتٌ ... وَلاَ أَنَـــا مِنْـــهُ مَـــا حييـــتُ مخفـــفُ

الحكاية السابعة والسبعون

عن الشيخ الصالح أبي محمد الحسن بن الحسن ﷺ قال: أخبرنا أبي عن جدي قال: حجَّ أخٌ لي في بعض السنين، وكنت شديد المحبَّة له، كثير الشوق إليه، ثم بعد سفر أخي اختلج في خاطري أمرٌ عظيمٌ، فحضرت عند الشيخ خليفة بن موسى العراقي، وقد اشتدَّ شوقي إلى أخي، فنظر إِلَيَّ الشيخ وقال: يا محمد، أتحب أن تنظر إلى أخيك؟ فقلت: وأنَّى لي بذلك؟ فأخذ بيدي وأخرجني من باب داره، وإذا الركب سائر بالقرب منا، بيننا وبينه قدر عشرين خطوة بحيث نراهم عيانًا، ورأيت أخي راكبًا على جمله، فوثبت لأعدو إليه فأمسك

الشيخ بيدي وقال لي: لن تصل إليه، فأنا في ذلك مع الشيخ فإذا أخي قد نعس وسقط من فوق الجمل، فوثب الشيخ وتلقَّاه قبل أن يصل إلى الأرض، ووضعه على ظهر الجمل ورجع إليَّ، فلما سار الركب وغاب عنا، أتى الشيخ إلى موضع سير الركب فأخذ منديلاً وركوة، وأتاني بهما وقال: هذان سقطا من أخيك عند سقوطه فأخذتهما، ورجعت وقد اطمأنت نفسي برؤية أخي، وأرَّخت هذه الواقعة في يومها، فلما أتى أخي سألته عن حاله في ذلك اليوم الذي أرَّخته، فقال: سقطت من ظهر راحلتي، فلولا أن الله رحمني بالشيخ خليفة وأدركني قبل أن أصل إلى الأرض ووضعني على راحلتي، ولم تتألم فِيَّ جارحة، ثم ذهب الشيخ ولم أدرِ من أين جاء ولا من أين مرَّ، ولا رأيته بعد ذلك، وفقدت في ذلك اليوم منديلي وركوتي، قال: وقمت وأخرجت له المنديل والركوة، فلما رآهما اشتدَّ تعجبه، وأخبرته بقصتي مع الشيخ في ذلك اليوم، ثم أتينا إلى الشيخ مكارم وذكرنا له القصة فقال: إذا كانت المقامات تُطوى بين يدي الشيخ خليفة كالكرة، فكيف لا تكون الأرض بين يديه كالذرة.

وقال: وكان بين دار الشيخ خليفة وبين منـزل الحاج في ذلك الوقت مسيرة شهرين.

الحكاية الثامنة والسبعون

عن الحسن بن القاسم المعروف جده بأبي فوقا قال: سمعت جدي يقول: حُكي عن بعض أصحابنا الصلحاء من أهل بغداد أنه قال: انتبهت ليلة في السحر وبايعت الله تعالى أن أجلس في جامع الرصافة متوكلاً، من حيث لا يشعر به أحدٌ من الخلق، وأتيت من وقتي الجامع وجلست فيه يوم الإثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، فما رأيت فيها أحدًا، وما أكلت فيها طعامًا، واشتدَّ جوعي، وخفت من السقوط، وكرهت الخروج من تلقاء نفسي، واشتهت نفسي شوي سخينًا وخبزًا رَصَّافِيًا وتمرًا يثربيًّا، فأنا في ذلك وإذا حائط المحراب قد انشقَّ وخرج إليَّ منه رجلٌ هيئته كهيئة أهل السواد، وبيده ميزر فوضعه بين يدي وقال لي: قال لك الشيخ خليفة: كُلْ شهوتك واخرج من هنا، فما أنت من أرباب مقام التوكُّل، ثم غاب الرجل عني، ففتحت الميزر فإذا فيه شواء سخينًا وخبزًا رصافيًا وتمرًا يثربيًّا، فأكلت وخرجت، وأتيت الشيخ خليفة في نهر الملك فلما رآني قال لي: يا هذا لا ينبغي للرجل أن يجلس متوكلاً حتى يحكم أساسه في قطع الطريق باطنًا وظاهرًا، وإلا يكون عاصيًا في ترك الأسباب.

وكان ﷺ من كبار المحققين، والأدلاء العارفين، رفيع المقامات، وسيع الكرامات، صاحب الآيات الباهرة، والأحوال الزاهرة، والأنفاس الزكية، والمكاشفات الجلية، والسيرة الحسنى، والمنهاج الأسنى، والسبق إلى التقدم في مدارج الفتح الإلهي، والتجرد عن أسباب الحظوظ النفسية، والانسلاخ من البقايا، والتحقيق بأوصاف الحرية، والتصريف النافذ في الوجود، والنصيب الوافر في القرب، وفيض الفضل والجود.

ومن كلامه ﷺ: من توصَّل إلى الله تعالى بتلف نفسه حفظها الله ﷻ عليه، وأوصله إليه، وأفضل الأعمال مخالفة هوى النفس، والرِّضا بمجاري المقدور وسيلة إلى نيل درجات المعرفة، ومن أظهر الانقطاع إلى الله ﷻ فقد وجب عليه خلع ما دونه، ومن كان الصدق وسيلته إلى نيل درجات المعرفة كان رِضا الله عنه جائزته.

وأقوى سبب بين العبد وربه محاسبة بورعٍ، ومراقبة بعلمٍ، وأدب باتِّباعٍ، وكل عملٍ ليس له ثواب في الدنيا ليس له جزاء في الآخرة، وإذا جاع القلب وعطش صفا، وإذا شبع وروي عمي، ومن رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة المناجاة، والقناعة من الرِّضا بمنـزلة الورع من الزُّهد.

وإذا أصبت بالوسواس فافزع يزول عنك، فإن أبغض الأشياء إلى الشيطان سرور المؤمن، وإن اغتممت به زادك.

وقال: صلاح القلب في أربع خصال: التواضع لله، والافتقار إلى الله، والخوف من الله، والرجاء في الله، فالخوف يوصلك إلى الله، والكبر يقطعك عن الله، والتفويض رد علم ما لا تعلم إلى عالمه، وهو مقدمته إلى الرِّضا.

والرِّضا باب الله الأعظم، والصبر على الطاعة؛ لئلا تفوتك المداومة عليه، والصبر عن الغضب؛ لتنجو من الإصرار عليه، وأصل التعلُّق بالخيرات قصر الأمل، ومن صحبه نفسه صحبه العجب، وعلامة التوفيق أن يطيع الله تعالى وأن يخشى الرد، وعلامة الخذلان أن تعصيه، وأنت ترجو أن تكون مقبولاً.

وكان ﷺ يتمثَّل بهذه الأبيات:

قُلُوبُنَـــا لِـــشَرَابِ الحُـــبِّ أَقْـــدَاحُ ... وَمَجْلِـسُ الأُنْـسِ فِيْـهِ الـروحُ والـرَّاحُ

وَخلـوةُ الوصْـلِ قَـدْ طَـابَ الـسَّمَاعُ بِهَـا ... حَقًّـا وَقَـدْ رَقَـصت لِلْوَجْـدِ أرواحُ

وَنَحْـــنُ فِي خلــــوةِ ســـكرٍ يُنَادمنَـــا أَهْلَ الحَقيقةِ كَـمْ صَاحُوا وَكَـمْ نَـاحُوا

وكان رحمه الله تعالى ينشد هذين البيتين:

أَسَـــامِي بِنَفْـــسِي ذِلَّـــةً وَاسْـــتِكَانَةً إِلَى الخلـةِ العَلْيَـاءِ مِـن جَانِـب الكـبرِ

إِذَا مَا أَتَـانِي الكـبر مِـنْ جَـانِب العُـلاَ سموتُ إِلَى العَلْيَاء مِنْ جَـانِبِ الفقـرِ

الحكاية التاسعة والسبعون

عن الشيخ أبي الحسن الخباز -رحمه الله تعالى- قال: قصدت مع جماعة من أصحابنا إلى الجوسق لزيارة الشيخ أبي الحسن الجوسقي ﷺ، فلما دخلنا عليه كاشفنا بكل ما جرى لنا في طريقنا، وأوضح لكلٍّ منا ما اختلج في نفسه، وبتنا عنده فخرج علينا في الليل براغيث فكنا نجتهد أن نقتلهن، فلم نقدر فلما أصبحنا قال أحدنا: يا سيدي، إذا كان للرجل جاه عند الله أيعم جاهه أهل بلده؟ قال: نعم، ودوابهم وحشراتهم حتى البراغيث.

قال الشيخ أبو الحسن المذكور: سمعت الشيخ أبا حفص البزار يقول: مرض الشيخ عليّ بن الهيتي ﷺ فعاده الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ وأرضاه، فاجتمع هناك الشيخ بقا، والشيخ أبو سعيد القيلوي، والشيخ أبو العباس أحمد بن علي الصرصري، رضي الله عنهم أجمعين، فأمر الشيخ علي بن الهيتي خادمه أبا الحسن الجوسقي بمد السفرة فبسطها، ووقف مفكرًا بمن يبدأ بوضع الخبز بين يديه، ثم أخذ ينبذ خبزًا كثيرًا، فدار على خوان السفرة دفعة واحدة من غير أن يقدم بعض الحاضرين على بعضٍ في ذلك، فقال الشيخ عبد القادر للشيخ علي بن الهيتي: ما أحسن خادمك هذا قد مدَّ السفرة بالحال، فقال: أنا وهو غلمانك.

الحكاية الثمانون

عن يحيى بن محفوظ المعروف بابن الديبقي قال: كانت نخلتان إحداهما مثمرة والأخرى قد يبس أصلها وانقطع حملها، فسمعت صوتًا من جانب النخلة المثمرة يقول: أسألك بالله يا أبا الحسن ألا أكلت مني، فمدَّ يده فبدت له عراجين النخلة، ثم سمع صوتًا من جهة النخلة اليابسة: وأنا أسألك بالله العظيم ألا ما توضَّأت عندي، ثم انفجرت من تحتها عين ماء فتوضأ وشرب منها، فاخضرَّت النخلة وأثمرت لوقتها، ثم غارت تلك العين، وانصرف الشيخ وهو يقول: يا مولاي من خاطبته خاطبه كل شيء.

قال: وكنت بعد ذلك أمرُّ على ذلك الموضع فأتذكر ذلك الوقت، وآكل من تمر تلك النخلة؛ تبرُّكًا بالشيخ.

وأبو الحسن المذكور من أجلاَّء المشايخ العارفين، صاحب الكرامات الظاهرة، والأحوال الفاخرة، والمقامات العلية، والمكاشفات الجلية، والتصريف النافذ، والقدم الراسخ، والجلالة والاحترام عند المشايخ والعلماء والعوام.

ومن كلامه ﷺ:

ذِكْر اللسان كفَّارات وحسنات، وذِكْر القلب زلفى وقربات، وبكاء الزَّاهدين بعيونهم، وبكاء العارفين بقلوبهم، والتوكُّل رد العيش إلى واحدٍ، وإسقاط همه عنه، فمن وجد الله تعالى مع الإشارة إليه فقد استوجب الإرادة، وأصل الفقر معرفة التقصير – أو قال: رؤية التقصير –، وأصل الثبات على الفقر دوام الفقر إلى الله تعالى، وفساد العلماء من كونهم لا يعملون بما يعلمون، وآفة المريد الغضب في انتصاره لنفسه، وكلامه فيما لا ينفعه، وإفشاء السر لغير السَّادة من الشيوخ، وإذا رأيت الفقير يستزيد من الدنيا فذلك من علامة إدباره، وعلامة الشقاوة أن تُرزق العلم وتُحرم العمل، وأن تُرزق العمل وتُحرم الإخلاص، وأن تُرزق صحبة العارفين ولا تحترمنهم، والعلم حرز والجهل عرر، والصلة بقاء والقطيعة مصيبة، والصبر شجاعة والصدق قوة، فلا تصحب إلا من يسقط مؤنة التحفُّظ فيما بينك وبينه، ويدلك على أدب الشرع، وحفظ الحال عند غفلتك.

وعن يحيى بن محفوظ المتقدم ذكره أنه مرَّ في وقتٍ بالجوسق وقت الظهر، قال: فرأيت أبا الحسن الجوسقي ﷺ في بطحاء مقفرة ليس فيها غيره، ورأيته يتواجد يمينًا وشمالاً وينشد:

قَـــدْ بَـــانَ بَـــين بَينـــي فَنيـــتُ عَـــنْ بَـــين بَينـــي
وَتُهْـــتُ فِي كُـــلِّ قَفْـــرٍ وَجـــدًا بِقُـــرة عَيْنـــي

ثم بكى طويلاً وأنشد:

روحـي إِلَيْـكَ بكلِّهَـا قَـدْ أَجْمَعَـتْ لَـوْ أَنَّ فِيْـكَ هَلاكَهَـا مَـا أَقْلَعَـتْ
تَبْكِـي عَلَيْـكَ بِكلِّهَـا فِي كُلِّهَـا حَتَّـى يُقَـال مِـن الْبُكَـاءِ تَقَطَّعَـتْ
فَانْظُـرْ إِلَيْـهَا نَظْـرَة بمـودَّة فَلربمَـا مَنَعتـهَا فَتمنـعَتْ

ثم صاح صيحة عظيمة وخرَّ مغشيًّا عليه فلما أفاق أنشد:

أُجِلُّـكَ أَنْ أَشْـكُو الهَـوَى مِنْـكَ إِنَّنِـي   أُجِلُّـــكَ أَنْ تُـــومِي إِلَيْـــكَ الأَصَـــابعُ

وَأصرِفُ طَـــرفِي نَحْـــوَ غـيركَ عَامِـدًا   عَـــلَى أَنَّـــه بِـــالرغْمِ نحـــوكَ رَاجِـــعُ

ثم تهلّل وجهه مسرورًا وأنشد:

تَبَــادرت لِي حَتَّــى إذَا مَــا تَبَــادرت   مَعَانِيــكَ فِي مَعْنَــاي أدهــشني عَنــي

وَعَرَّفْتَنِــي إِيَّــاكَ حَتَّــى كَــأنني   أرَ كــل مَــنْ أَلْقَــاه مِــن دَهــشتي مِنــي

فَواأسَفَــا إِنْ فَاتَنِــي مِنْــكَ لحظَــة   وَوَاأَسَفِي إِنْ حُلْــتَ عَــنْ موضــعِ الظَّــنِ

الحكاية الحادية والثمانون

عن الشيخ الكبير العارف الخيِّر، ذي الآيات الزاهرات، والكرامات الطاهرات، والمقامات العاليات، والأحوال الساميات، والمحاسن الجميلات، والمواهب الجزيلات، وما لا حصر له من الأوصاف الحميدات، والمناقب العديدات، الشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد القرشي قدَّس الله روحه قال:

كنت يومًا عابرًا على عرصات العنب، فلما وليت وصل لي أنينٌ من بين الأحمال، ثم تزايد الأنين ولم يمكنني الذهاب، فرجعت إلى أن وقفت على المنادي، فنادى على الحمل وكانت قيمته درهمين أو ثلاثة، فدفع إنسان أكثر من قيمته، وكان يعصر الخمر، فقلت: إنما دفع فيه هذه القيمة ليعصره خمرًا، وإلا فقد تقدم في الأحمال ما لم يبلغ هذا المبلغ، فلم يقبل مني ولم يلتفت إليَّ، فاشتريته بما دفع فيه ولم يكن معي شيءٌ، فخلعت ثوبي ودفعته في قيمته، وخلَّصته من يد المشتري فسكن أنينه.

الحكاية الثانية والثمانون

عن الشيخ أبي عبد الله القرشي أيضًا ﷺ، قال: أتيت بعض المشايخ أزوره فقال لي: ها هنا أفراد مكاشفة من أهل العلم، فلو اجتمعت بها، ثم قال لبعض الصبيان: يا فلان امضِ

وقل لها: عندنا رجلٌ من الإخوان أتى زائرًا فأريد أن تجتمعي معه عندنا، قال: فجاءت امرأة منـزهة في لباسها، متضاوية في مشيها، فسلمت عليه وعليَّ، فقال: هذا رجلٌ أريد أن تعترفي به فجرت بيننا أحاديث فتحدثت بمكاشفات لها ومراءٍ رأتها، فبينما هي تتحدث إذ سمعت أنينًا من جيبها، ثم غفلت عنها، فوجدته متصلاً بي، فلما فرغت من كلامها قلت لَه: يا فلانة الذي في جيبك أعطيه لي فقالت: وما في جيبي؟ فقلت لها: أخرجي ما فيه، فأخرجت تفاحة نصفها أحمر ونصفها أخضر، وقد وضعت في رأسها غالية، فقلت: ادفعيها لي، فقالت: أنا أريد أن أهديها لبعض النساء، فقلت لها: ما تمضين بها وغرضي فيها، فدفعتها لي، فمضيت بها إلى الشيخ أبي زيد، فأكلها، فعلمت أن استغاثتها بي لمطلب الاتصال بالولي، وهرب من مكان أهل المعصية"[١].

الحكاية الثالثة والثمانون

عن الشيخ أبي العباس أحمد بن البلخي رحمه الله تعالى قال: كان للشيخ أبي عبد الله القرشي ﷺ جارية تخدمه فصُرعت، فجاء الشيخ وقعد عند رأسها وزجر العارض، وأخذ عليه ألا يعود إليها، وتعافت، ثم بعد مدة صُرعت، فجاء الشيخ وجلس عند رأسها فاضطرب الجني اضطرابًا شديدًا، وأقسم ألا يعود، فلما أراد الشيخ أن يسافر إلى بيت المقدس قال لبعض جيرانه: إن رأيتها صُرعت فأتها، وارفع رأسها واضرب هذا المسمار في الأرض موضع رأسها حتى يغيب، وإن سمعت صياحًا منكرًا فلا يروعنَّك ولا ترحم.

قال: فبعد مدة صُرعت فجاء الرجل وفعل ما أمره الشيخ، فسمع صياحًا منكرًا ارتاع منه، ثم ذكر كلام الشيخ فما منع الضرب حتى غاب المسمار في الأرض، وانقطع الصياح وأفاقت الجارية، وأرَّخ ذلك اليوم فجاء الخبر من بيت المقدس أن الشيخ مات في ذلك اليوم، قال: ولم يصب تلك الجارية بعد هذا اليوم عارضٌ حتى ماتت.

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص٣٩٢).

الحكاية الرابعة والثمانون

عن الشيخ البلخي أيضًا قال: عبر الشيخ أبو عبد الله القرشي ﷺ في بعض قرى مصر ومعه جماعةٌ من أصحابه، فوجدوا القرية عامرة بالبيوت والبساتين، ولم يروا بها أحدًا، فسأل الشيخ عن سبب خلوها من الناس، فقيل له: إنها مشهورة بسكني الجان، ومن سكنها من الناس آذوه أذًى فظيعًا، وقد تفرَّق أهلها في القرى، فقال الشيخ لبعض الفقراء: نادِ بأعلى صوتك في أرجاء القرية: معاشر الجان قد أمركم القرشي أن ترتحلوا من هذه القرية، ولا تعودوا إليها، ولا تؤذوا أحدًا من أهلها أينما كانوا، ومن خالف منكم هلك، قال: فجعل الرجل ينادي والفقراء يسمعون في القرية جلبة وهرجًا، فقال الشيخ: قد ارتحلوا، ولم يبقَ فيها أحدٌ، وتسامع أهل القرية فجاءوها، وعُمرت بالناس، ولم يتأذَّى أحدٌ منهم من الجان بعد ذلك.

الحكاية الخامسة والثمانون

عن الشيخ عبد الخالق بن أبي البقاء رحمه الله تعالى قال: كان الشيخ القرشي ﷺ يقول لأصحابه: إنكار المنكر بالباطن من حيث الحال أتم من إنكاره من حيث المقال، فقيل له: أرِنَا كيف ذلك، فقال لصاحبه الشيخ أبي عبد الله القرطبي: أجلسني على دكةٍ على الطريق، فأتى به إلى المسجد الذي عند مفترق الطريق بين مصر والقاهرة، وأجلسه على دكةٍ، فمرَّ بغلٌ عليه جرار خمر، فأعلمه القرطبي به، فأشار الشيخ بإصبعه إلى الجرار وقال: هو هذا، فعثر البغل وتكسَّرت الجرار، ومرَّ به ثلاثة أحمال وهو يصنع كذلك والجرار تتكسَّر، فقال الشيخ: هكذا يكون الإنكار.

الحكاية السادسة والثمانون

عن الشيخ أبي الفضائل بن علي المخزومي رحمه الله تعالى قال: دخلت يومًا على الشيخ أبي عبد الله القرشي بيت خلوة في حمامٍ بمصر، فوجدته وحده ورأيته بصيرًا، ورأيت جسده أبيض كالفضة البيضاء، ولا عاهة به، ورأيت في جانبٍ ببيت الخلوة وتدًا فيه ثوبٌ معلَّقٌ، فقلت: يا سيدى، ما هذا الحال وما ذاك الحال؟

فقال لي: أوَ رأيت؟ فقلت: نعم. فقال: قد ألبسني الله ثوبيّ العافية والبلاء، وصرفني فيهما أيهما شِئت، فلما فرغ من طهوره عمد إلى ذلك الثوب المُعلَّق فلبسه، فإذا هو أعمى مبتلى على

عادته المعروفة.

قال: وكان تزوَّج امرأة من أهل مصر، وكانت تقول: إنه إذا دنا منها تراه بصيرًا وترى جسده كالفضة أحسن ما يكون من الناس.

قال: وسمعته يقول: كنت أرى كأن القيامة قد قامت والأنبياء عليهم السلام قد عقدت لهم ألوية، والخلق يتبعونهم، وكنت أرى أهل البلاء قد عقدت لهم ألوية وقائدهم أيوب عليه السلام، وكنت أرى على رأسي لواءً مكتوبًا فيه: أيوب.

وقال رضي الله عنه: بينما أنا أسير على بعض السواحل إذ خاطبتني حشيشة وقالت لي: أنا شفاء هذا المرض الذي بك، فلم أتناولها ولم أستعملها.

قال الراوي: وهو الشيخ أبو العباس القسطلاني تلميذه رحمه الله تعالى، قلت له: يا سيدي فتعرفها الآن؟ قال: نعم، قلت له: فهل هي في ديار مصر؟ قال لي: ما رأيتها بها، فلو رأيتها لعرفتها.

الحكاية السابعة والثمانون

عن الشيخ أبي عبد الله القرشي رضي الله عنه قال: لما تزوَّجت بينما أنا في الطريق إذ سمعت شخصًا يقول: هذا فلان قد تزوَّج، ولا بُدَّ أن يتغيَّر حاله وسوف ترى، فقال: فعقدت ألا أشتري في تلك السنة قوتًا ولا أدَّخر مؤنة، حتى أنظر ما قد تخوفت عليَّ، فمضيت تلك السنة، فوجدت فيها من البركة والفوائد ما لا أصفه، ولم يحوجني الله تعالى إلى أحدٍ بل عاملني بلطفه.

وقال رضي الله عنه: كنت في ابتداء أمري أشتري الدقيق، فأدفع منه لمن يسألني طول الطريق إلى أن أصل إلى البيت، فأزِنَه فأجده كما أخذته.

قال رضي الله عنه: وكان معي درهم فخرجت أشتري به دقيقًا، فاستقبلني سائلٌ فأعطيته إيَّاه، ثم مشيت فوجدت يدي مطبقة ففتحتها فوجدت فيها درهمًا، فأشتريت به الدقيق ثم عُدت إلى البيت.

الحكاية الثامنة والثمانون

عن الشيخ أبي عبد الله القرشي ﷺ قال: كنت أبحث عن قوام الجسد في الغذاء، وأسأل عنه من ألقي من العلماء، فلم يزل الأمر بي حتى طويت أيامًا كثيرة وضعفت، فحضر بين يدي طعام، وجعلت أراقب نفسي إلى أي حدٍّ ترتد عليَّ قوتي، وأجد لذة الطعام، فأكلت مقدار ست أواق أو أربع أواق، فانتبهت نفسي ووجدت لذة الطعام، فأردت الزيادة على ذلك المقدار، فخرجت لي يدٌ من تحت يدي تريد أن تأكل معي، فمددت يدي إلى ذلك الطعام، فامتدَّت تلك اليد فتنغصت عليَّ الحال، واسودَّ الطعام في عيني، فلم أقدر أن آكل منه شيئًا فقمت عنه، فقيل لي: ذلك الحد هو قوام الجسد، وما سِواه فهو للنفس، فلم أزل على ذلك مدة حتى تمكن حالي.

وكنت إذا آتاني ضيفٌ فأكلت معه لم تخرج تلك اليد لي، فقيل لي: كم كان صبرك على ذلك المقدار؟ قلت: كنت أصبر عليه يومًا وليلةً، وكان لي حال مستمرًا ونفسي ساكنة، وجوارحي هادئة، ولساني ذاكرٌ، وقلبي طيبٌ، ودمت على ذلك مدة من الزمان.

وقال أيضًا: أضافنا في بعض القرى رجلٌ، وقدّم إلينا طعامًا فقلت لصاحب لي: كُلْ، فقال لي: لا أستطيع أن أمد يدي إليه؛ إني أجده نارًا، فقلت له: أيضًا وأنا أراه دمًا، فاعتذرنا وانصرفنا، وسألنا عن الرجل فإذا هو حجامٌ.

وقال أيضًا ﷺ: كنت في بعض الطريق فنعست فنمت تحت شجرةٍ، وكنت عطشانًا فأتاني شخصٌ بقدح زجاج فشربت ما فيه، فزال تعبي وعطشي فقمت ومشيت.

وكان ﷺ من أجلاَّء المشايخ العارفين، وأكابر الأئمة المحققين، وعظماء المرادين المريدين، والجهابذة أدلاء الطريقة السالكين، لاحت من بركاته لوامع السعود في البدايات، وفاحت روائح طيب أنفاسه في الوجود في النهايات، صاحب الآيات الخارقة، والأنفاس الصادقة، والمحاضرات القدسية، والمعارف السَّنية، والمنـزل الأعلى في أرائك القدس، والمقر الأسنى في مجالس الأُنس، والأخبار الصادقة عن مكنونات الأسرار، والأنوار اللامعة في مطالع الأنوار، والباع الطويل في أحكام الولاية، والذراع الرحيب في أحوال النهاية، واليد البيضاء في علوم المشاهدة، والقدم الراسخ، والتصريف النافذ بقوة المجاهدة والتمكين المكين في مرتبة المقرَّبين، والتحقيق في آداب العبودية المؤدية إلى كمال الحرية.

أجمع على جلالته وعلو شأنه أعلام العلماء، وأكابر المشايخ الموجودون في زمانه، فاق أقرانه علمًا وعملاً ومقامًا وحالاً وورعًا وتوكُّلاً وتحقيقًا وتمكينًا وجلالةً.

وكان قد أراد الانتقال إلى مصر والتوجُّه إلى المغرب، فجاءه بعض الفقراء مودعًا له فوضع تحت سجادته نفقة فوجدها، فتعجَّب من أدب الفقير، وجعل يفكر في خلق الفقير معه في ذلك، فنوى الإقامة لنفعه فأقام بسببه.

هكذا روى عنه تلميذه الشيخ أبو العباس القسطلاني.

وقال ولده الشيخ الإمام قطب الدين القسطلاني(١) رحمة الله عليهما: الفقير الذي وضع النفقة تحت سجادة الشيخ هو والدي، يعني الرواي المذكور، باع دارًا له بخمسة آلاف فوضعها تحت سجادة الشيخ(٢).

وله لسان عالٍ في الشرائع والحقائق، مشتمل على فوائد جليلة، وفرائد جميلة، وها أنا أذكر شيئًا منها، فاصلاً بعض أقواله ببعضٍ، بفاصل بين كل قولين، فمن ذلك قولـه:

الزمْ الأدب وجدك من العبودية، ولا تتعرَّض لشيء؛ فإن أرادك له أوصلك إليه، ومن لم يدخل في الأمور بالأدب لم يدرك مطلوبه منها، ومن لم يراعِ حقوق الإخوان بترك حقوقه حرم بركة الصُّحبة، ولن يبلغ العبد من قلوب الرجال بعمل ما يبلغه بمحاسن الأخلاق، والشأن كله في التخلُّق، وعلى قدره يكون التحقيق في الشريعة، والاطلاع على أسرار ما يتحقق به أهل الحقيقة والشريعة، وبحفظ أدب الشريعة صار إمامًا للمتَّقين.

من أخرج مريدًا عن حاله وهو غير قادرٍ على ردِّه عليه فهو متعد، لا ينبغي للشيخ أن يأمر المريد بالخروج عن أسبابها، إلا أن يكون قادرًا على حمله ومتحكم في حفظه.

القدر سرٌّ لا يعلمه إلا الأنبياء وبعض الصدِّيقين، ومن لم يجد الزيادة بعد ورود الواردات فهو خداعٌ، والعمل من غير سنة بطالة.

الخوف طريق أهل العلم، والرجاء طريق أهل العمل.

---

(١) قال الشيخ القوصي: جمع بين التصوف والعلم ومكارم الأخلاق والنفع لعباد الله تعالى أقام بمكة- شرّفها الله تعالى- سنين كثيرة وهبط إلى القاهرة وأقام بها مدرسًا.

وكان يلبس الخرقة الشيخ شهاب الدين السهرَوَرْدِي، ورأيته وما خالطته، وصفاته مشهورة- رحمه الله تعالى. انظر: الوحيد (٣١٣) بتحقيقنا، طبع دارة الكرز.

(٢) انظر: القلائد (ص٣٧٤).

من علامات الخواص إذا نظروا إلى شيءٍ سُلِّط عليهم، وإذا استشرفوا إلى شيءٍ حرموه، فعامل الضعفاء بغير معاملة الأقوياء؛ فإن لكلٍّ حاله، ولكل عبدٍ حكمًا.

ومن لم يُعطَ علم معرفة الحركات والسكنات لا يصلح الاقتداء به في هذا الشأن، والفهم أول خلع القبول.

لا ينبغي للشيخ أن يتكلَّم مع المريد إلا فيما يصلح به أو قال له، وإلا كان فتنة عليه، ولا ينبغي للمريد أن يأخذ من العلم إلا ما وافق حاله.

الواردات من نِعَم الله، فإذا لم يحسن العبد جوارها بالتقييد والامتثال ذهبت، وإذا ذهبت فقلَّ أن تعود.

الزَّاهد يغلب علمه الغضب؛ لعلمه بما فات، والعارف سمته الحلم لمعرفته بالآفات.

من لم يفرق بين الإلهام والوسوسة لا يُباح له السماع.

العارف من استوى في نظره تصريف القدرة وتدبير الحكمة.

الأحوال ثمرات الأعمال، والعلوم ثمرات الأحوال، فمن لم يكن علمه من حاله فهو ناقلٌ، وأصل العلم التوفيق والإلهام، ومادته الاطلاع والاتباع، ويد الله على أفواه العلماء لا ينطقون إلا بحقٍّ، قلت: يعني علماء الباطن أصحاب الأنوار والمعارف والأسرار.

وقال ﷺ: هذا العلم وراثة تنقل من قلبٍ إلى قلبٍ، ومن عينٍ إلى عينٍ، ليس من علم الرواية في شيءٍ، أصله التوفيق والإلهام.

ومن آداب السالك إذا أخذ في ترك أو عمل أو تهذيب أو خلق أو تكلف بعادة أن يأخذ على نفسه في ذلك المعنى أشد الأخذ، ويسامح ما سواه؛ لأن النفس إذا لم تجد متروحًا عجزت وحُرمت، أو قال: وحزنت، وربما أبقى أهل الرياضة بقية من أسبابهم؛ كيلا تنفر نفوسهم فينقطعوا من التزام حسن التوكُّل، إنما يباح له الخروج للأسباب في حق الغير إذا خاف خللاً في فرضه.

قال ﷺ: وقد سُئل عن قول الشيخ الكبير العارف بالله الشهير سهل بن عبد الله ﷺ عن الصلاة من جلوس لعلة تناول الغذاء مع سكون النفس، فقال: اعلم أن الله افترض على الخلق التوجُّه والسكون بين يديه، ولم يسقط على الخلق هذا الفرض ما دام العقل، وقد يسقط عن العباد فروضًا لعدم القدرة عليها، ورضي عنهم تخفيفًا.

وقال ﷺ: الفتوة ترك ما لك والقيام بما عليك، ومن أعظم المحن ورود الفيض على العبد وهو

لا يشعر، ومن لم يكن له في قلبه شاهد يستحي منه في حركاته لم يتم له أمر، لن يضل عن موارد الأعمال من سلك على عين السُّنة.

المفروضات إذا أُديت على الكمال أورثت الحرية.

قلت: ويشهد لصحة قوله هذا قول الحق ﷻ: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، حاكيًا عن إبراهيم عليه السلام.

وقال رضي الله عنه: قد يمنع الله العبد من العمل اختبارًا لينظر حاله عند الفقد لذلك في تضرعه وافتقاره وعطيته واستغنائه، وقد يمنع الله العبد من العمل رفقًا به، وإبقاءً عليه، وترويحًا لنفسه، وعملاً على ضعفه، وقد يمنعه تعالى أيضًا تنبيهًا له، ومحبةً له عن دعوى الاستطاعة؛ ليتبرى من حوله وقوته، فيرجع إليه معترفًا بامتنانه وفضله، ناظرًا إلى فضله وإحسانه، إن الله يعيد من حركات الظواهر على البواطن ما يكون سببًا في تنويرها وإصلاحها، حتى إذا صفت السرائر وتخلَّصت من شوائب الكدورات عادت بالإصلاح على الأعمال الظاهرة، فزكت الأعمال وارتفعت الأحوال بطهارة أصولها وثبات أساسها.

ما في الوجود أعز من الأخ في الله، فإذا ظفرت به فاشدد يدًا عليه.

خدمة الشيخ بالأدب أنفع للمريد في بدايته من الخلوة.

إيَّاكم ومخالطة الأحداث، ومعاشرة النسوان، وصحبة الأضداد.

أكثر ما يقطع المريد في ابتداء الإرادة الاشتغال بهم الرزق، فإذا فرغ الله قلب المريد في ابتداء إرادته من اشتغال خاطره بهذه الكثرة فقد لطف به.

رؤية الفضل والمنَّة في العمل وإن قلَّ أتم في حق واجب الربوبية من رؤية التقصير في حق العبودية.

من لم يكن له دليل في الطريقة لم يصل إلى الله تعالى؛ لأن الله جعل في أهل كل صناعة أئمة، يرجع إليها أهل تلك الصناعة، ولولا ذلك لأدعى تلك الصناعة ودخل فيها من ليس أهلها، وإذا صحَّ للفقير الفقر فهو الاسم الأعظم.

احتقار الفقير سببٌ لكل رزيلةٍ، ومن لم يصحب الفقراء بحسن الأدب حُرم بركتهم.

النفس مجبولة على الفزع للفوائد عند ورود الشدائد.

الولي لا يأكل إلا حلالاً، الولي إذا حضر الطعام انقلب عينه بحضوره، وقد يجتمع اثنان على طعام يأكل هذا حلالاً ويأكل هذا حرامًا.

يتشبه العبد بالصالحين ما استطاع التشبه.

المريد الصادق ورده إرادته.

من لم تهديه أحكام المشايخ لا يصلح الاقتداء به.

للطريق آداب وسنن تخصها، فمن جهلها لم يصلح للاقتداء، السماع ثم الفهم ثم المناولة ثم الذوق.

العالم هو الذى يعرف مراتب العلوم ولا يتكلَّم بعلمٍ إلا مع أهله بوقته.

أول ما يُؤمر به المريد بعد التوبة هجر قرناء السوء، والبُعد من المواطن التي تدعوه إلى المخالفات، ومن لم يتأدَّب في الأخذ وقع في الكدية.

محبة الفقر نعمة إن لم تُحمد بالأدب سُلبت.

من صبر على مجالسة الفقراء نوَّر الله تعالى قلبه.

من لم تكن له سابقة عناية لم يقدر أحدٌ على نفعه.

الورع أساس الأعمال، فقد الناس سائلاً محترق الفؤاد يسأل عما ينـزل به من الأمور وتلجئه الضرورة إلى طلب العلماء ولقاء الفقهاء.

الحاجة إذا تحققت قلبت الأعيان.

من لم يفهم الإشارة والخطاب فهو في السماع على خطرٍ.

الفكرة في الأنات تورث المعرفة، والفكرة في الآلاء تورث المحبَّة.

محبة الصالحين دليل على صلاحك، وسلوكك طريق الأحباب سبب فلاحك.

العبادة الانتظار، والعبودية الاصطبار، والعبودية للإجلال والإكبار.

أضر الأشياء صحبة عالم غافل، وصوفي جاهل، وواعظ يداهن.

من لم يحفظ الأدب أدركه العطب.

انكسار العاصي خير من صولة المطيع على علمٍ أو عملٍ.

الالتجاء طريق أهل الاصطفاء.

المريد إذا أكرم المشايخ والإخوان بالأدب عاد عليه من بركة أحوالهم ما لم يكن يبلغه بعملٍ؛ لأن مـا يرد عليه منهم يوافق أحوالهم المتقبلة، وما يرد عليه منه فهو ثواب عمله ولا يقدر على تخليصه.

الولي في بدايته هو الحريص على أخبار الأولياء وأحوالهم، يسمع الحق فلا ينكره ولا يعترض عليه، يشتاق إلى الأحوال ويحرص على حصولها، ويتمنى المقامات ووصولها، والولي في

نهايته هو الذي يفيد ويستفيد، ويجد في أحواله وأعماله البركة، والمريد من سلم نفسه إلى الله حفظها عليه.

حسن الخلق معاملة كل شيء بما يؤنسه ولا يوحشه، فمع العلماء بحسن الاستماع والافتقار، ومع أهل المعرفة بالسكوت والانتظار، ومع أهل المقامات بالتواضع والانكسار.

إذا قبلت قلوبهم المريد يرى الأشياء من وراء حجاب الشرع.

العالم من نطق بحق سرك، واطَّلع على عواقب أمرك، من أنكر على شيء لا يجني منه شيء.

إذا وفى العبد الأمانة خُلعت عليه الكرامات.

هتك الحرمات من كانت همته في لقاء العالم الاطلاع على كنه علمه. حرم بركة من أخلاق الفتوة احتقار الكثير منهم، وإعطاء القليل إليهم.

إذا خاف العبد على نفسه اعتياد النظر إلى أهل العطاء والتشوف لهم جاز له الرد.

من لم يكن كارهًا لظهور الآيات وخوارق العادات منه كراهية الخلق لظهور المعاصي عليهم، وخائفًا عليهم منه لخوفه على نفسه من المعاصي، فهي في حقه حجاب وسترها عنه رحمة.

يجب على العبد الرِّضا بالحكم عقدًا، وعدم الرِّضا بالطباع ميل من حيث لا يشعر.

العبد من لم يفرغ قلبه قبل الدخول في الصلاة من غير طائل المحبة.

من علامة حسن الخلق أن يكون مع الفقراء بالأنس والانبساط، ومع العارفين بالتواضع والانحطاط، لا يجد الأنس بالصالحين إلا من عمَّر وقته بالذِّكر، وجاهد نفسه في طاعة الله ﷻ، فإنه يراه ويسمع شكواه ويدفع بلواه.

وقال أيضًا ﷺ: سمة الولي الحياء والسخاء، واحتمال الأحزان، والرحمة للخلق، والقيام بالحق.

إن الله قد جعل للآفاق الفاضلة مريدًا في القلوب، والأعمال يشهدها أهلها من العمال، اتِّباع الرسول ﷺ في قلوبهم أحلى من كل لذَّةٍ، وأرفع عندهم من كل حالٍ، من سلم هذا الحال فهو مسلمٌ، ومن آمن به فهو مؤمنٌ، ومن أيقن به فهو صديقٌ.

لولا طول الأمل لما اشتغل أحدٌ إلا بنفسه، لو طهرت القلوب لم تشبع من تلاوة كتاب الله ﷻ.

حظك من العالم على قدر استعدادك للقبول منه.

العمل الصالح لا يوفق له إلا المراد، وقد تظهر الانفعالات على أيدي المستدرجين.

لا ينبغي للمريد أن يعود أكل الشهوات، وإنما الذي ينبغي له ملازمة المعلوم من القوت؛ حتى تتعود نفسه الأدب والسكون.

إذا رأيت الفقير يغني فاعلم أنه فارغ بطال.

من كان أهلاً للاقتداء به جاز له إظهار علمه وعمله بنية الاقتداء به.

إذا كانت فترة المريد إلى سعة فقد علم من فوائد الفقر وثمرات وجود ألم الجوع والعري والتلذذ بهما، والزيادة منهما، والمنافسة فيهما.

وكان ﷺ ينشد هذه الأبيات:

أحرى الملابس أن تلقى الحبيب بها ... يوم الزيارة في الثوب الذي خلعا

فقر وصب هما ثوبان تحتهما ... قلبٌ يرى ألفه الأعياد والجمعا

الدهرُ لي مأتم إن غبت يا أملي ... والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا

قلت: وهذا ما اعتمد من حكاياته المشتملة على عظيم كراماته، وكلامه المحتوي على نفائس من آداب الطريقة وأحكامها، وتعظيم الشريعة واحترامها، وتربية المريد وإرشاد السالكين، نفعنا الله به وسائر عباده الصالحين[1].

الحكاية التاسعة والثمانون

عن الشيخ العارف بالله أبي حفص عمر بن محمد المغربي رحمه الله تعالى قال: كنت جالسًا عند الشيخ أبي البركات بن صخر في جانب الزاوية، فخطر في نفسي لحم مشوي في رغيف بر حار، واشتدَّ الخاطر عندي، فبينما أنا كذلك إذ دخل علينا أسدٌ وفي فمه رغيفٌ، وقعد إلى الشيخ أبي البركات فقال له: اذهب فضعه بين يدي الشيخ عمر، فجاء ووضعه ومضى، وإذا فيه لحمٌ مشوي ورغيف حار، فلم يستقر بنا القرار حتى نزل بنا من الجو رجلٌ أشعث أغبر، فلما رأيته ذهبت عني شهوة اللحم والخبز، فأتى الرجل إلى الرغيف الذي جاء به الأسد فأكله، وما فيه جميعه، وقعد يتحدث مع الشيخ أبي البركات، ثم ذهب في الهواء من حيث جاء، فقال لي الشيخ أبو البركات: يا شيخ عمر الشهوة التي اشتهيتها لم تكن لك إنما هي شهوة الرجل الذي رأيته، والرجل من المدللين إذا خطر في نفسه شيءٌ لم يتم خاطره حتى يُقضى له، وإنه الآن ببلاد الصين الأقصى.

(١) انظر: القلائد (ص٣٧٤)، والبهجة (ص٣٨٦).

الحكاية التسعون

عن الشيخ العالم المقرئ أبي الفتح نصر ﷺ قال: خرجت في بعض الأيام في فصل الخريف مع الشيخ أبي البركات ﷺ من الزاوية إلى الجبل ومعه جمعٌ من الفقراء فقال: اشتهينا اليوم رمانًا حلوًا وحامضًا فلم يتم كلامه، حتى امتلأت جميع أصناف الشجر الذى في الوادي والجبل رمانًا فقال لنا: دونكم والرمان، فقطعنا منه شيئًا كثيرًا، وكنا نقطع الرمان من شجرة التفاح والأجاص والمشمش وغير ذلك، وكنا نأخذ من الشجرة الواحدة الرمان الحلو والحامض، وأكلنا منه شيئًا كثيرًا حتى شبعنا، قال: ثم خرجنا وبعد ساعة رجعنا وليس الشيخ معنا فلم نرَ على الأشجار رمانة واحدة.

الحكاية الحادية والتسعون

عن الشيخ الأصيل أبي محمد عبد الله ابن الشيخ العارف بالله أبي المفرج عبد الرحمن بن الشيخ الناسك أبي الفتح نصر الله بن علي الحموي الشيباني، رحمه الله تعالى، قال: سمعت أبي يقول: كان أبي رحمه الله تعالى ماشيًا على حافة الجبل في يوم ريح عاصف، فغلبت عليه الريح فسقط، وكان الشيخ أبو البركات ﷺ جالسًا تجاه الجبل، فأشار بيده نحوه فثبت مكانه في الهواء بين أعلى الجبل والأرض، ولم يضطرب يمينًا ولا شمالاً، ولا إلى فوق ولا إلى تحت، كأن من يمسكه ويمنعه الحركة، ومكث كذلك ساعة، فقال الشيخ: يا ريح اصعدي به إلى سطح الجبل، فصعدت به رفقًا كأن من يحمله حتى انتهى إلى سطح الجبل.

الحكاية الثانية والتسعـون

عن الشيخ الجليل أبي البركات العراقي رحمه الله تعالى[1] قال: خرجت في بعض السنين إلى ظاهر البصرة، أمشي على البحر فرأيت عند الساحل سفينة صغيرة ليس بها سوى رجلٌ واحدٌ عليه سمت القوم، فركبت معه في السفينة، فلم يكلمني وسارت بنا السفينة غير بعيدٍ، فأرسينا على جزيرةٍ لا أعرفها، فصعد صاحبي وصعدت معه، فإذا هي جزيرة في أقصى البحر المحيط، وفيها مساحات كثيرة، وما رأيت فيها أحدًا، فمشينا حتى انتهينا إلى مسجدٍ فيها، وإذا بسبعة نفر عليهم البهاء والوقار والسكينة والأنوار، وفيهم رجل كلهم يعظمونه ويسمعون

(١) انظر: القلائد (ص٣٥٣).

كلامه، فقال كبيرهم لصاحبه: ما هذا؟ فقال له: هذا ساقته الأقدار.

فجلست في زاويةٍ من المسجد فلما كان وقت الصلاة اجتمعوا، وأمَّهم كبيرهم ثم تفرَّق كل واحدٍ منهم في زاويةٍ من المسجد، مقبلاً عليَّ بوجهه، مشتغلاً بحاله، ولا يكلم أحدٌ منهم صاحبه، فلما صلَّوا المغرب قام أحدهم إلى مخدعٍ هناك ومكث كثيرًا، وأخرج طبقًا وعليه طعامٌ ووضعه بين أيديهم، فأكلوا ثم صلُّوا العشاء وانتصبوا يصلون إلى الصبح، فأقمت عندهم سبعة أيام على هذا المنوال، وما كلمني منهم أحدٌ، وكل واحدٍ منهم يدخل ليلة في ذلك المخدع ويخرج منه طبقًا، فلما كان عشية اليوم الثامن قالوا: الليلة نوبتك في الطعام، فقمت ودخلت المخدع فلم أرَ فيه شيئًا، فخفت منهم، وانكسر قلبي، وتضرَّعت إلى الله تعالى، وسألته بهم ألا يخجلني معهم، فإذا طبق نازل عليَّ من جو السماء فأخذته ووضعته بين أيديهم، فقالوا: الحمد لله الذي رزقنا أخًا صالحًا، وقاموا إليَّ واعتنقوني.

واستيقظت في بعض الليالي وإذا أنا بريح شديدة الهبوب، وسمعت بأمواج البحر اضطرابًا عظيمًا، فقلت: لا إله إلا الله، فسكنت الريح وهدأ البحر، فأتاني كبيرهم وقال: كان في البحر مراكب كثيرة للإفرنج يقصدون بها المسلمين، وكانت قد أشرفت على الغرق فلما قلت: لا إله إلا الله، سكنت الريح وهدأ البحر، ونجت المراكب، فلما أصبحنا أخذ أحدهم بيدي ومشينا حتى أتينا الساحل، فرأيت السفينة التي جئت فيها بعينها، فنـزل فيها صاحبي وأمرني بالنـزول معه، فصارت بنا غير بعيدٍ، وإذا نحن في بر عبادان وغاب عني الرجل والسفينة فلم أرَها، فبقيت متحيرًا في أمرهم، متحسِّرًا على رؤيتهم، فبينما أنا بعد سنين عند الشيخ أبي البركات بن صخر في جبل الهكار إذ رأيته قام مسرعًا، وإذا بصاحبي كبير القوم قد أقبل، فتلقَّاه الشيخ أبو البركات وعظَّم شأنه، ورأيته يتأدَّب مع الشيخ أبي البركات تأدُّبًا عظيمًا، وجلسا يتحدثان، ثم قام فتبعته حتى انفرد فقبَّلت يده وسألته الدعاء وبكيت فدعا لي، ثم قال لي: يا أبا البركات عليك بالشيخ أبي البركات فببركته صرت إلى ما صرت، وإني كلما وجدت في قلبي قسوة أتيت إليه فتزول قسوة قلبي برؤيته، ثم غاب عني، فدخلت على الشيخ أبي البركات وسألته عنه، فقال: هو مقدم رجال الأوتاد، أو قال: الأبدال، وهو الآن في أقصى جزائر البحر المحيط.

الحكاية الثالثة والتسعون

عن الشيخ أبي المفاخر عدي ابن الشيخ أبي البركات بن صخر قال: رأى والدي رجلاً يصلِّي، وهو يعبث بيديه عبثًا كثيرًا يبطل الصلاة، فنهاه فلم ينتهِ وأكثر من العبث كالمعاند للشيخ، فقال له الشيخ: لتكفنَّ عن العبث أو ليكفنَّ الله يديك، فتعطَّلت يداه في الحال الحاضر حتى عادت كالخشب، فعاد إلى الشيخ باكيًا بعد أيامٍ متضرعًا فقال له الشيخ: ما ينفعك هذا إن هي إلا غضبة الله تعالى عليك، قال: فلم تزل تلك حالة الرجل حتى مات.

وكان الشيخ أبو البركات من أجلاَّء مشايخ العراق، وجهابذة العارفين، وأكابر المقرَّبين، صاحب الكرامات الظاهرة، والأحوال الفاخرة، والمقامات الجليلة، والمواهب الجزيلة، والعلوم اللدنية، والأسرار الإلهية، والمعراج الأعلى في مدارج القدس، والمنهاج الأسنى في مراتع الأُنس، والطور الثاني في الحقائق، والعالي في المعارف، والبصيرة الخارقة لحجب طوابق المكنون، ممنوحًا بمحاسن الشريعة، راسخ القدم، نافذ التصريف بالاطلاع والتعريف، صحب عمه الشيخ الكبير أبا الفضائل المشهور المشكور المذكور عدي بن مسافر قدَّس الله روحه، وخلفه بالمشيخة بعد وفاته، وهاجر إليه إلى جبل الهكار في حياته، وله كلامٌ في الحقائق شريفٌ نفيسٌ رائقٌ من ذلك قوله:

المحبَّة لذة، ومواضع التحقيق منها الدهش والحيرة، ويلزمها الشوق، وهو توق النفس إلى رؤية المحبوب، فإذا امتلأ القلب من حب حبيبه على كثرة ما يصيبه التجأ إلى الذل والخضوع، وانفجرت العيون بالدموع، وأنفذت في السرائر خمرة إرادة رؤية المحبوب على قلة الصبر، فالشوق يقع على الرؤية، والمحبة تقع على اللذات، والقلب الجذوع هلوع، والسر المنوع فجوع.

ومن سكر بكأس المحبَّة لا يصحو إلا بمشاهدة محبوبه، فإن السُّكر ليلة صباحها المشاهدة، كما أن الصدق شجرة ثمرتها المجاهدة، ثم تزايد وبكى.

وأتيته وأنشد:

إِذَا جَازَ ركبُ الشَّوْقِ فِي رَبْعِ لَوْعَتِي جعلت لَه بـاد الأنـين دَلِيْلا

وَقَدْ عَادَ لَيْل الغيبِ مقمرًا بالرِّضَا فعوضني مِنْه الكثير قَلِيْلا

فَـمَا لـدَخيلِ الحـبُّ في حلبـةِ الوفَـا   تطـرق للـدعوى إِلَيْـه سَـبِيْلا
سَأَعَـاتب الأيـام فِيْـكَ لعلَـها   تبلغـني بالغيـبِ فِيْـكَ قَبـولا

قلت: هكذا الصواب في هذا البيت: أُعاتب، أو ناغت على الأيام، تكون الباء [......(١)] الأصل المنقول منه ناغت الأيام، وهو عسير [......(٢)] المعنى كان الخلل وقع فيه من الكاتب، و(حيلة) بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة وتكون اللام بينهما، حبل تجمع للمساق من كل ناحية للناقة حتى لا يخرج من الإصطبل(٣).

وهذه الأبيات في غاية من الحسن في هذا الباب الذي ولج فيه المحبوب، ومنه برهان زكاة أعمالهم، وبراهين العارفين مع أحوالهم، وبراهين المحبين مع أنفاسهم، وبرهان [الغارفين] من عجائب قدره في أسراره، وبرهان المقربين إحاطة الأكوان بداعيهم إخبارهم عن مولاهم. والمحبة ولهٌ وسكرٌ، وذكر باستغراق وفكرة وخطرة وذعر، فمن ادَّعى المحبَّة فبرهانه تفتح الفؤاد، وتقطع الأكباد، وإعداد الأشباح، وبذل الأرواح، كما أن من ادَّعى العلم بالله فبرهانه بذل الحال.

من رأيته يدَّعي مع الله حالاً ومقالاً وهو يجوز في اعتقاده مع الله تشبيهًا وتمثيلاً أو تحديدًا، فاعلم أنه كاذبٌ، وكما أن الله تعالى لا يجوز في حقه تحديد لا يجوز كذلك في شيءٍ من صفاته، وكما أن الزيادة على الحق كفرٌ كذلك النقص منه، وكما أن التشبيه تحديد كذلك التعطيل، وكما أن الزيادة على معالم السُّنة بدعة كذلك التأويل في صفات الله سبحانه وتعالى، إلا بما ورد به نصٌّ، وألجأ إليه برهانٌ، والحق بنفسه أقوى من أن يقوى بالباطل، والعروة الوثقى الوقوف عند ما جاء عن الله تعالى ورسوله من غير زيادةٍ ولا نقصٍ.

وما رأيت أحدًا من المشايخ الذين يُقتدى بهم إلا على هذا السبيل، ولقد كنت أعرف رجلاً ممن ظهرت له كرامات ومكاشفات وكنت أعرف منه الميل إلى التشبيه والتحديد، فما مات حتى سُلب عنه جميع ما كان له، وسقط من دائرة المباح، وخرج إلى حمى المحرمات.

---

(١) بياض بالأصل.
(٢) بياض بالأصل.
(٣) هكذا في الأصل. وانظر: البهجة (ص٤٠٠).

نسأل الله العفو والعافية من جميع البليات.

قلت: وما أحسن كلامه المذكور وأصوبه لمن تأمله، وكان له ذوق ومعرفة بعقيدة أهل الحق ﷺ.

انظر إلى ما جمع فيه من التحقيق الدقيق في قوله إلا بما ورد به نص عدل عنه، إلى تأويل ألجأ إليه البرهان، فتوسط بين طريقي تفريط الخشونة، وإفراط المقرّ له ﷺ، ونفعنا به وسائر الصالحين.

وكان ﷺ ينشد هذه الأبيات:

حقيقة الحق في سر سرائره ... مكشوفة بين معنائي ومولائي

إذا تلألأ شعاع الحق في خلدي ... فنيت عني فناداني بأسمائي

أفنيتني عن بلادي يا منى شغفي ... يا سر سري ويا أنسي ومعنائي

يا شاهدي يا أنيسي يا رضا أملي ... يا نور ناظري ويا صدق دعوائي

الحكاية الرابعة والتسعون

عن الشيخ الصالح أبي المجد بن سعدان الواسطي رحمه الله تعالى قال: كنت حاضرًا مجلس الشيخ أبي إسحاق إبراهيم الأعزب ﷺ[1] وكان يتكلّم على أصحابه، فقال في بعض كلامه: أعطاني ربي ﷻ التصريف في كل من حضرني، فلا يقوم أحدٌ ولا يقعد ولا يتحرك في حضرتي إلا وأنا متصرفٌ فيه، فقلت: أنا في نفسي، فها أنا أقوم إذا شِئت، وأقعد إذا شِئت، فقطع الشيخ كلامه والتفت إلى جهتي وقال لي: إن قدرت على القيام فقُمْ، فنهضت لأقوم فلم أستطع الحركة، وإذا أنا كالمقعد، فحُملت إلى داري على أعناق الرجال، فبطل سعيي وبقى

(١) هو من أعيان مشايخ البطائح، وأعلام العارفين، وصدور المحققين، صاحب الكرامات الظاهرة، والأحوال الفاخرة، والمعارف الزاهرة، وهو أحد من أظهره الله إلى الوجود، وصرفه في الكون، وخرق له العادات، وأظهر على يديه الخارقات، وأنطقه بالمغيبات، وأجرى على لسانه الحكم، ومكنه من أحوال النهايات، وملكه أسرار الولاية، ونصبه قدوة وحجة.

خلف أباه الشيخ أبا الحسن عليًا بعد وفاته بالمشيخة برواقي أم عبيدة، وكان أجل أهل بيته يومئذ، وكان قيما بحل المشكلات الواردة مؤيدًا في كشف مخيفات الأحوال. وانظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي (ص٤٠٦) بتحقيقنا.

حالي كذلك شهرًا، وعلمت أن ذلك بسبب اعتراضي على الشيخ، فعقدت التوبة مع الله تعالى، وقلت لأهلي: احملوني إلى الشيخ، ففعلوا فقلت: يا سيدي إنما كانت خطرة فنهض وأخذ بيدي، ومشى ومشيت معه وذهب ما كان بي.

الحكاية الخامسة والتسعون

عن الشيخ الصالح أبي الفرج عبد الحميد بن معالي بن هلال العباداني قال: سمعت أبي يحدث عن أبيه قال: سمعت الشيخ إبراهيم الأعزب ﷺ يقول: لا يزورنا أحدٌ إلا إذا أردناه، قال: فقصدت مرة زيارته، وخطر في نفسي هذا الكلام، وقلت في نفسي: ها أنا أزوره إن أراد أو إن لم يرد، فلما أتيت باب الرواق رأيت ثمَّ أسدًا عظيمًا هالني منظره، فكشر عليَّ فوليت على عقبي مدبرًا، وقد اشتدَّ هلعي، أو قال: فزعي، وكنت معتادًا لصيد الأسد وقتلها، فلما أبعدت وقفت أنظره وإذا الناس يدخلون ويخرجون ولا يعترضهم، ولا يرونه في ظني، وأتيت من الغد وإذا هو في موضعه على حاله، فلما رآني قام إليَّ، ففررت منه وصارت حالي إليه كذلك شهرًا لا أستطيع الدخول ولا القرب من الباب، فأتيت إلى بعض مشايخ البطائح وشكوت إليه حالي فقال: انظر في نفسك وأي ذنبٍ أتيت، فذكرت له خطرتي فقال: منها أتيت والأسد الذي رأيته هو حال الشيخ إبراهيم، قال: فاستغفرت الله ونويت التوبة من الاعتراض، ثم أتيت الرواق فقام الأسد ودخل إلى أن أتى إلى الشيخ ومازجه، وغاب عني فلما قبَّلت يد الشيخ قال لي: مرحبًا بالتائب.

الحكاية السادسة والتسعون

عن الشيخ أبي المعالي عامر بن مسعود العراقي التاجر الجوهري قال: عزمت السفر في بعض السنين إلى بلاد العجم في تجارةٍ، فأتيت إلى الشيخ إبراهيم مودعًا فقال لي: إن وقعت في شدةٍ فنادِ باسمي، فلما توسَّطنا صخر خراسان خرجت علينا خيل، فأخذوا أموالنا وساقوها بين أيديهم، ونحن ننظر وذهبوا، فذكرت قول الشيخ إبراهيم، وكنت في جماعة معتبرين من رفقتي، فاستحييت منهم أن أذكر اسم الشيخ بلساني، فاختلج في سري الاستصراخ به، فلم يتم خاطري حتى رأيته من بعد على جبلٍ بيده عصا يومئ بها نحو أولئك الخيل، حتى جاءوا بجميع أموالنا وسلموها إلينا، وقالوا لنا: انطلقوا راشدين، فإنا لكم نبأ، فقلنا: وما هو؟ قالوا: رأينا رجلاً على الجبل بيده عصا وهو يومئ إلينا برد أموالكم، وقد ضاق علينا الفضاء من هيبته، ورأينا هلاك من يخالفه، وكان منا من يفرق بعض أموالكم فرده حتى جمعنا بعصاه، ثم رأيناه وما نظنه إلا من السماء.

الحكاية السابعة والتسعون

عن الشيخ المعمر أبي المظفر منصور بن المبارك بن الفضيل الواعظ الواسطي المعروف بجُرّادة رحمه الله تعالى قال: عُدت مع الشيخ أبي إسحاق إبراهيم الأعزب ﷺ مريضًا عليه جربٌ كثيرٌ، فشكا منه ضررًا كثيرًا، فالتفت الشيخ إلى خادمه وقال له: احمل هذا الجرب عن هذا المريض الفقير، فقال: نعم يا سيدي، فقال الشيخ للمريض: قد حملته عنك وحمّلته هذا، يشير إلى خادمه، فانتقل جميع ما كان على الرجل من الجرب إلى خادم الشيخ، وبقي جسد ذلك الرجل كالفضة البيضاء، ثم خرج الشيخ ونحن معه وخادمه يشكو من الألم، فلما كان في بعض الطريق رأينا خنـزيرًا فقال الشيخ لخادمه: قد حملت عنك هذا الجرب وحمّله هذا الخنـزير، وعُوفي الخادم من وقته.

الحكاية الثامنة والتسعون

عن الشيخ أبي عبد الله القرشي المقدم ذكره ﷺ قال: سمعت أبا العباس الجوزي ﷺ يقول: جاءني رجلٌ من أصحابي وقال لي: يا أبا العباس هذا وقتٌ قد ضاق في الإنفاق، ونحن ندخل هاهنا ونخرج، ولا ينبغي أن نكون في سعةٍ وأنت في ضيقٍ، تشغل قلوبنا من أجلك، وتشتت خواطرنا من أجلك، وعندنا قليل من القمح، أنا أحمله إليك، فأشتهي أن تأخذه ونتركه عندك؛ لتطمئن نفوسنا بكفايتك، فقلت: حتى استخير الله في هذا الليلة، فاستخرت الله ودعوت الله، فسمعت هاتفًا يقول: ﴿لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهَّ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧]، جاءني الرجل فقلت: لا حاجة لي بذلك.

الحكاية التاسعة والتسعون

عن الشيخ العارف أبي الفرج المقري البصري قال: حكى لنا بعض أصحابنا الصلحاء قال: حضرت سماعًا بأم عبيدة وفيه الشيخ إبراهيم بن الأعزب، وفيه أكثر من سبعة آلاف رجل، وأنا في آخر الناس، فعسر عليَّ رؤية الشيخ إبراهيم لبعده عني، فخطر في نفسي إنكار على جمعهم، فلم يتم خاطري حتى جاء الشيخ إبراهيم يشق صفوف الناس حتى وقف عليَّ وعرك أذني وقال لي: يا بني إياك والاعتراض على أمر الله، فلو وجدت ما وجدوا لم تنكر عليهم، ثم ولى عني فخررت لوجهي مغشيًا عليَّ، وحُملت إليه فقال لي: يا بني ألم تعلم أن قلوب الخلق بين أيدينا كالمصابيح من وراء الستار، فنشهدها رأي العين ولا يخفى علينا شيءٌ.

الحكاية المتممة المائة

عن الشيخ منصور البطائحي المتقدم ذكره، خال الشيخ أحمد الرفاعي ﷺ، أنه لما حضرته الوفاة قالت له زوجته: أوصِ لولدك، فقال: بل لابن أختي أحمد، فكررت عليه القول فقال: لابنه ولابن أخته، ائتياني بشجر كذا وكذا، فأتى ابنه بكثيرٍ من ذلك الشجر ولم يأتِ ابن أخته بشيء، فقال له: يا أحمد ولِمَ لا تأتي بشيء؟ فقال: إني وجدت الشجر كله يسبح، فلم أستطع أن أقطع منه شيئًا، فقال الشيخ لزوجته: سألت غير مرة أن يكون ابني، فقيل لي: بل ابن أختك أحمد، قلت: هكذا أرغب إلى الله تعالى في مناجاته. والله أعلم حيث يجعل رسالته.

الحكاية الأولى بعد المائة

عن المقرئ العالم أبي طالب عبد الرحمن بن أبي الفتح الهاشمي الواسطي رحمه الله تعالى قال: جمع الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن الأعزب ﷺ مريديه ذوي الأحوال، وخاطبهم فأبلغ، ثم قال: إني استخرت الله تعالى لكم في أن آخذ أموالكم منكم وأدخرها لكم عند الله؛ لنـزكيها لكم عنده، فإن آفات الحياة كثيرة، وإني خفت عليكم منها.

وعن الشيخ إبراهيم الصالح فقيه السلف يحيى بن يوسف العسقلاني قال:

سمعت أبي رحمه الله تعالى يقول: مرضت مرة ظننت أني فيها ميتٌ، فذكرت ذلك للشيخ إبراهيم بن الأعزب ﷺ وكنت يومئذٍ عنده زائرًا بأم عبيدة، فأطرق الشيخ وقال لي: أنت ما تموت في هذه المدة، قد بقي من عمرك زمانٌ طويلٌ.

قال الراوي: ثم عاش من بعد ذلك أكثر من خمسين سنة، ولما تُوفي الشيخ إبراهيم الأعزب كُسفت الشمس في ذلك اليوم.

فقال بعض مشايخ الشام: قد كُسفت شمس السماء، وتخافتت شمس الأرض، فقيل: ومن شمس الأرض؟ فقال: هو الشيخ إبراهيم بن الأعزب، وقد مات اليوم رحمه الله تعالى.

الحكاية الثانية بعد المائة

عن الشيخ الأصيل العارف بالله تعالى العباس أحمد ابن الشيخ الجليل أبي الحسن البطائحي قال: كان الشيخ إبراهيم بن الأعزب[1] دائم المراقبة، كثير الخشوع، شديد الهيبة،

(١) هو من أعيان مشايخ البطائح، وأعلام العارفين، وصدور المحققين، صاحب الكرامات الظاهرةو والأحوال الفاخرة، والمعارف الزاهرة، وهو أحد من أظهره الله إلى الوجود، وصرفه في الكون، وخرق له العادات، وأظهر على يديه الخارقات، وأنطقه بالمغيبات، وأجرى على لسانه الحكم، ومكنه من أحوال =

ملازم الإطراق، لا يرفع رأسه لأحدٍ إلا عن ضرورةٍ، ومكث أربعين سنة لا يرفع طرفه إلى السماء؛ حياءً من الله ﷻ، ورأيت الأُسد غير مرةٍ تأتِيه وتمرّغ وجوهها على قدميه، ورأيته قائمًا في الرواق في يوم صائف شديد الحر، وعند رأسه حيةٌ عظيمةٌ في فيها طاقة نرجس تروحه بها.

قال: وشهدته مرة وقد أتاه رجلٌ ومعه شابٌّ فقال له: هذا ابني، وقد أكثر من مخالفتي، وزاد في عقوقي، فرفع الشيخ رأسه وكان مطرقًا ونظر إلى الشاب، فمزق ثيابه وأُخِذَ من نفسه وحواسه، وعدا إلى البطحاء وبقي شاخصًا إلى السماء يأوي إلى السباع ولا يأكل ولا يشرب، وبقي على هذا الحال أربعين يومًا، ثم جاء أبوه يشكو إلى الشيخ سوء حاله، فأعطاه خرقة وقال: امسح بها وجه ابنك، ففعل فأفاق وجاء إلى الشيخ ولزم خدمته، وكان من أخص أصحابه.

وكان الشيخ إبراهيم ؓ من أعيان المشايخ العارفين، وصدور المحققين، كثير الكرامات الباهرة، شهير الأحوال الفاخرة، علي المقامات الجليلة، جلي المكاشفات الجميلة، جميل المحاسن الطريفة، جزيل المواهب بالعناية السابقة، والعلوم النادرة من مخادع الأسرار والكشوف، ومطالع الأنوار، والمشرب الهني في مناهل الوصل على بساط الأُنس، والمجلس

=

النهايات، وملكه أسرار الولاية، ونصبه قدوة وحجة. خلف أباه الشيخ أبا الحسن عليًا بعد وفاته بالمشيخة برواقي أم عبيدة، وكان أجل أهل بيته يومئذٍ، وكان قيما بحل المشكلات الواردة مؤيدًا في كشف مخيفات الأحوال.

وقال القوصي: وأخبرني الشيخ عبد العزيز عن سيدي إبراهيم الأعزب -رحمهما الله تعالى- قال: أخبرني فقير قال: دخلت العراق، فوجدت خلقًا لا يكادون ينحصرون، الكلُّ يقول: يا سيدي إبراهيم، فقلت في نفسي: هذا يعرِف عدد هؤلاء فضلاً عن أنْ يربِّيهم قال: فلمّا دخلت على الشيخ وجدتُ عليه ثوبًا أزرق وطاقية من ثوبه، وهو جالس في الرِّواق فقال لي: ماهم الكل على ما رأيتهم قلت: نعم قال: قلوب الكل في يدي قال: ثم قام ووقف على باب الرِّواق، وجمع كفَّه في الهواء وإذا هم يصيحون ويخرجون من الرحال ويجيئون من كل مكان، ويقولون: لبيك يا سيدي إبراهيم، لبيك يا سيدي إبراهيم حتى صاروا بين يديه -ولو رمى القمح ما وصل إلى الأرض- ثم بسط أصابعه أو بسط كفَّه فراح كل واحد منهم إلى جهته التي جاء منها حتى لم يبقَ بين يديه أحد.

فانظر يا أخي، رحمك الله تعالى، إلى هذا التصريف الأول :والثاني، وهذا الرجل وما أعطيه من العطاء. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١]. وصفات الشيخ إبراهيم كثيرة. وانظر: قلادة الجواهر للصيادي (ص٤٤٩)، والبهجة (ص٤٠٦)، والوحيد (١/ ٢٨٢).

العالي من مراتب الفضل في حضرة القدس، والجاه الواسع، والنفس الصادق، والقدم الراسخ، والتصريف الخارق، أجمع على جلالته أجلاَّء العلماء، وكبراء مشايخ الأولياء، صحب خاله الشيخ الجليل المشكور المذكور الجميل جميل المحاسن حميد المساعي الشيخ أحمد بن أبي الحسن الرفاعي، قدَّس الله روحه، ونوَّر ضريحه، وأخذ عنه علم الطريقة، وجمع بين علمي الشريعة والحقيقة.

وكان له كلامٌ عال في نفس عارف، وعلى لسان أرباب أسرار المعارف، من ذلك قولـه: كل حالٍ طرقك وأشكل عليك فاطلبه بمعارف العلم، فإن لم تجده ففي ميدان الحكمة، فإن لم تجده فزنه بميزان التوحيد، فإن لم تجده في هذه المواضع فاضرب به وجه الشيطان.

والعبودية في أربع خصال: الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرِّضا بالموجود، والصبر على المفقود، والعلم الأكبر الهيبة والحياء، فمن عُري منهما فقد عُري عن الخيرات.

والشوق احتراق الأحشاء، وتلهب القلوب، وتقطع الأكباد، وإذا عاين القلب أربعة أشياء يرى الأشياء كلها لله ﷻ ملكًا من الله تعالى ظهورًا، وبالله قيامًا، وإلى الله تعالى مرجعًا، فقد أمن من النفس.

من تأدَّب بآداب الصالحين صلح لبساط الكرامة، ومن تأدَّب بآداب الصديقين صلح لبساط الأُنس والانبساط، وإذا كانت نفسك غير ناظرةٍ لعلتها فأدبها.

وقال غيره وهو الشيخ أبو عبد الله الكافوري: إذا كان المريض يعشق علته فمتى يجد الطبيب السبيل إلى برئه.

ومن كلام الشيخ إبراهيم أيضًا: ذكرك منوطٌ بك إلا أن تصل ذكرك بذكره، فحينئذٍ يرفع ويخلص من العلل.

فما قارن الحدث القديم إلا تلاشى الحدث، وبقي الأصل وذهبت الفروع كأن لم تكن، والوقوف على حد الاختيار نجاة، واللياذ بالهرب من الذنوب وسيلة، والاستماع في قبول الخطاب والانبساط في محل الأنس عبرة، والتصرف مراقبة الأحوال، ولزوم الآداب، ومن تحلَّى بمشاهدته قصم، ومن تحلَّى بمشاهدة الحق عُصم.

وقال أيضًا: حكم المقتدي أن يقتدي بالحقائق، ويسير بالعلم، ويجدّ في العمل.
من علامات المقرَّبين أن تُرفع الحجب من القلوب بينها وبين علاَّم الغيوب، فقوم شهدوا

الدَّاعي، وقوم شهدوا النداء، وقوم شهدوا البلاء، ومن شهد النداء صار إلى الحبيب، ومن شهد البلاء انتهى في الدرجات، ومن شهد الدَّاعي صار إلى الجنة، وكلهم خواص الخواص الذين لا يُحجبون عن الله ﷻ طرفة عين، أولئك عباد الله، ربط هومهم بأزمة التيقُّظ، وحرس بابهم عن طوارق الاعتلال، واقتطع إرادتهم عن التطلُّع إلى غيره، وأظمأ قلوبهم في الاشتياق إلى رؤيته، وأنفذ عقولهم في حكم صنعته، وأطلع أفئدتهم على قرب مراقبته، وخول أرواحهم من نسائم صفاته، وأدناهم إدناء من أَنِس به، وناجاهم مناجاة من أمنه، وفاوضهم مفاوضة من ارتضاه لسره، سيماهم الحياء في حال الإدناء، رضي الله عنهم، ورحمنا بهم آمين.

وكان يتمثَّل بهذه الأبيات:

تَكَشف غَيْم الهَجرِ عَنْ قَمَرِ الحُبِّ ... وَأَسْفَرَ نُور الصُّبح عَنْ ظلمةِ الغيبِ

وَجَاءَ نَسِيمُ الاتصَالِ محققًا ... وَصَادَفهُ حُسْن القُبولِ مِن القَلْبِ

وَدَنَتْ مِياه الوَصْلِ فِي رَوْضَةِ الرِّضَا ... وَصَارَ الهَوَى يَهْتَزُّ كَالغُصن الرطبِ

وَلَمْ نَدْرِ مِن طِيبِ الوِصَالِ وَحُسْنِهِ ... أَفِي نزهةٍ كُنَّا هُنَالَكَ أَمْ حربِ

فَيَا مَنْ سَبى عَقْلِي هَوَاه تركتني ... أفكر مَا بين التعجبِ والعجبِ

الحكاية الثالثة بعد المائة

عن الشيخين الجليلين عمر الكيماني، والشيخ عمر البزار، قالا:

قيل لشيخنا محيي الدين عبد القادر قدَّس الله روحه، ونوَّر ضريحه، ونحن عنده: ما سبب تلقيبك بمحيي الدين؟ قال: رجعت من بعض سياحاتي مرة في يوم جمعة في سنة إحدى عشر وخمسمائة إلى بغداد حافيًا، فمررت بشخصٍ مريضٍ، متغير اللون، نحيف البدن، فقال لي: السلام عليك يا عبد القادر، قلت: فرددت عليه، فقال لي: ادنُ مني، فدنوت منه فقال: أجلسني فأجلسته، فنما جسده وحسنت صورته، وصفا لونه، فخفت منه، فقال: أتعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا الدين كنت قد دثرت كما رأيتني، وقد أحياني الله بك، أنت محيي الدين، فلما قضيت الصلاة هرع الناس إليَّ يقبّلون يدي ويقولون: يا محيي الدين، وما دُعيت بها من قبل[1]. نفع الله به وببركاته.

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (١٠٩).

الحكاية الرابعة بعد المائة

عن الشيخ الجليل أبي محمد صالح المغربي الدكالي[1] ﷺ، قال:

قال لي سيدي الشيخ أبو مدين قدَّس الله روحه: يا صالح سافر إلى بغداد إلى الشيخ عبد القادر ليعلمك الفقر، فسافرت إلى بغداد فلما رأيته رأيت رجلاً ما رأيت هيبة أكثر منه، فأجلسني في خلوة ثمانية وعشرين يومًا، ثم دخل عليَّ وقال: يا صالح انظر إلى هنا، وأشار إلى جهة القبلة قلت: نعم، قال: ما ترى؟ قلت: الكعبة، قال: انظر إلى هنا، وأشار إلى جهة المغرب، قلت: نعم، قال: ما ترى؟ قلت: شيخي أبا مدين، قال لي: إلى أين تريد أن تذهب إلى هنا أو إلى هنا؟ قلت: بل إلى شيخي أبا مدين، قال: في خطوة تذهب أو كما جئت؟ قلت: كما جئت، قال: هو أتم، ثم قال: يا صالح إن أردت الفقر فإنك لن تنله حتى ترقَّى سُلَّمه، وسُلَّمه التوحيد، وملاك التوحيد محو كل ما يلوح من المحدثات بعين السر، قلت: فإني أريد أن تمدني منك بهذا الوصف، فنظر إليَّ نظرة فتفرَّقت عن قلبي حوادث الإرادات، كما يتفرَّق الظلام بهجوم ضوء النهار، وإني إلى الآن أنفق من تلك النظرة.[2]

الحكاية الخامسة بعد المائة

عن الشيخ الجليل محمد الأبهر بن أبي المغانم قال: أخبرني أبي بدمشق سنة تسعة وعشرين وستمائة قال: سمعت سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ ببغداد سنة تسع وخمسين وخمسمائة يقول:

حججت من بغداد وأنا شابٌّ على قدم التجريد، فلما كنت عند المنارة المعروفة بأم القرون لقيت الشيخ عدي بن مسافر ﷺ وهو شابٌّ يومئذٍ، فقال لي: إلى أين؟ قلت: إلى مكة، قال: هل لك في الصحبة؟ قلت: إني على قدم التجريد، قال: وأنا كذلك، فسرنا جميعًا فلما كان في بعض الطريق إذ نحن بجاريةٍ نحيفة البدن، مبرقعة، فوقفت بين يديّ، وحدقت النظر في وجهي وقالت: من أين أنت يا فتى؟ قلت: نعم من العجم.

قالت: قد أتعبتني اليوم، قلت: ولِمَ؟ قالت: لأني كنت الساعة في بلاد الجن فأُشهدت أن الله تعالى تجلَّى على قلبك ومنحك من فضله ما لم يمنح بمثله غيرك فيما أعلم، فأحببت أن

(١) وقع في الأصل: البكاكي، وكذلك البكالي، في موضع آخر.
(٢) انظر: بهجة الأسرار (١٠٥).

أعرفك، ثم قالت: أنا اليوم أصحبكما وأنتظر الليلة معكما، فجعلت تمشي في جانب الوادي - أو قال: في جانب الطريق، ونحن نمشي في الجانب الآخر، فلما كان العشاء إذ نحن بطبق نازل من الجو، فلما استقرَّ بين يدي وجدنا فيه ستة أرغفة وحلاوة وبقلاء.

قالت: الحمد لله الذي أكرمني وأكرم ضيفي، إنه ينـزل عليَّ كل ليلةٍ رغيفان، فأكل كل واحدٍ منا رغيفين، ثم نزل علينا ثلاثة أباريق، فشربنا منها ماءً لا يشبهه ماء الأرض لذةً وحلاوةً، ثم ذهبت عنا في ليلتها تلك فأتينا مكة، فلما كنا في الطواف مَنَّ الله ﷻ على الشيخ عدي بمنازلة من أنواره، فغشي عليه حتى يقول القائل: إنه قد مات، وإذا تلك الجارية واقفة على رأسه وهي تقول: سبحان الذي لا تقوم الحادثات لتجلِّي نور جلاله إلا بتثبيته، ولا تستقر الكائنات أيضًا لظهور صفاته إلا بتأييده، بل اختطفت سبوحات قدسه العقول، وأخذت بهجات بهائه ألباب الفحول"[1].

قال: ثم إن الله تعالى وله الحمد الذي منَّ عليَّ بمنازلة من أنواره في الطواف أيضًا، فسمعت خطابًا من باطني قال: يا عبد القادر اترك التجريد الظاهر والزم تفريد التوحيد وتجريد التفريد، فسنريك من آياتنا عجبًا، فلما ثبت مرادنا بمرادك ثبت قدمك بين أيدينا، ولا ترى في الوجود تصريفًا لسوانا يدم لك شهودنا، واجلس لنفع الناس، فإنا لنا خاصة من عبادنا سنواصلهم على يدك إلى قربنا، فقالت لي الجارية: يا فتى ما أدري ما شأنك اليوم، إنه ضربت عليك خيمة من نورٍ، وأحاطت بك الملائكة إلى عنان السماء، وشخصت إليك أبصار الأولياء في مقاماتهم، وامتدَّت إلى مثل ما أعطيت الآمال، ثم ذهبت فلم أرَها بعد، رضي الله عنهم أجمعين وعن جميع الصالحين.

الحكاية السادسة بعد المائة

عن الشيخ محمد عبد الله البطائحي ﷺ قال: حضر مجلس شيخنا الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ أبو المعالي محمد بن أحمد البغدادي التاجر رحمه الله، فأخذته حقنة شديدة منعته من الحركة لشدتها، وبلغت منه الجهد، فنظر إلى الشيخ نظرة المستغيث، فنـزل الشيخ مرقاة، فظهر على المرقاة العليا رأس كرأس الآدمي، ثم نزل أخرى فنظر كتفان وصدرًا، وما زال ينـزل

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١١١).

مرقاة ويظهر من الجسد شيء فشيء حتى تكملت على الكرسي صورة كصورة الشيخ، يتكلم على الناس بصوت مثل صوته، وكلام مثل كلامه، ولا يرى ذلك إلا هو ومن شاء، ثم جاء يشق الناس حتى وقف عليه، وغطى رأسه بكمه، - وفي رواية: بمنديله - فإذا هو في صحراء متَّسعة، فيها نهر عنده شجرة، فعلق فيها مفاتيح كانت في كمه، وأزال حقنته وتوضأ من ذلك النهر وصلَّى ثَمَّ ركعتين، فلما سلم منهما رفع الشيخ كمه أو منديله فإذا هو بالمجلس أعضاؤه مبتلة بالماء، ولا حقنة به، والشيخ على الكرسي كأن لم ينـزل فسكت، ولم يذكر ذلك لأحدٍ، وتفقد مفاتيحه فلم يجدها معه.

ثم بعد مدة جهز قافلة له إلى بلاد العجم، وساروا من بغداد أربعة عشر يومًا، ثم نزلوا منـزلاً في بريةٍ فيها نهر، فذهب ليزيل حقنته، فقال: ما أشبهه هذه الصحراء وهذا النهر بذلك النهر، وتذكَّر شأنه في ذلك اليوم، فإذا هو بذلك النهر وتلك الشجرة وبحقنته يعني ما خرج منه في ذلك اليوم، فعرف ذلك ولم ينكر منه شيئًا، ووجد مفاتيحه معلَّقة في الشجرة، فلما رجعوا إلى بغداد أتى إلى الشيخ يخبره، فأمسك بأذنه قبل أن يخبره بشيءٍ وقال: يا أبا المعالي لا تذكره لأحدٍ وأنا حيٌّ، ولازم خدمته إلى أن مات رحمه الله تعالى(١).

الحكاية السابعة بعد المائة

عن المشايخ الثلاث: أبي الحسن البغدادي، والشيخ أبي الحسن علي بن سليمان المعروف بالخباز، والشيخ الجليل الملقب بالقصير بسندهم المتصل، أن الشيخ عبد القادر ﷺ زار الشونزيه يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذي الحجة سنة سبع وعشرين وخمسمائة، ومعه جمعٌ كثيرٌ من الفقهاء والفقراء، ووقف عند قبر الشيخ حماد ﷺ زمانًا طويلاً حتى اشتدَّ الحر والناس واقفون خلفه ثم انصرف، والسرور بيِّن في وجهه، فسُئل عن سبب طول قيامه فقال: كنت خرجت من بغداد في يوم الجمعة منتصف شعبان سنة تسع وتسعين وأربعمائة مع جماعةٍ من أصحاب الشيخ حماد، رضي الله عنهم؛ لنصلي في جامع الرصافة والشيخ معنا، فلما كنا عند قنطرة النهر دفعني فرماني في الماء، وكان في شدة البرد في الكوانين، فقلت: بسم الله الرحمن الرحيم، نويت غسل يوم الجمعة، وكان عليَّ جبة صوف، وفي كمِّي أخرى، فرفعت

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (١٠٤).

يدي حتى لا تبتل فتركوني وانصرفوا، فخرجت من الماء وعصرت الجبة، وتبعتهم وقد تأذيت بالبرد أذى شديدًا، فطمع فِيَّ أصحابه، فنهرهم وقال: أنا أؤذيه لأمتحنه فأراه جبلاً لا يتحرك، وإني رأيته اليوم في قبره وعليه حلة من جوهرٍ، وعلى رأسه تاجٌ من ياقوتٍ، وفي يده أساورة من ذهبٍ، وفي رجله نعلان من ذهبٍ، ويده اليمنى لا تطيعه، فقلت: ما هذا؟ قال: هذه اليد التي رميتك بها هل أنت غافر ذلك؟ فقلت: نعم. قال: فأسأل الله تعالى أن يردها، فوقفت أسأل الله تعالى في ذلك، وقد ازدحمت الأرض من أولياء الله، وفي قبورهم يسألون الله ﷻ في مقامي ذلك حتى ردَّ الله عليه يده وصافحني بها، وقد تمَّ سروره"(١).

قالوا: فلما اشتهر هذا القول ببغداد اجتمع المشايخ والصوفية من أهل بغداد من أصحاب الشيخ حماد؛ ليطالبوا الشيخ عبد القادر بتحقيق ما قال في الشيخ حماد، ومعهم خلقٌ كثيرٌ من الفقراء، وأتوا إلى المدرسة فلم يتكلَّم منهم أحدٌ؛ إجلالاً للشيخ، فبدأهم بمرادهم، وقال لهم: اختاروا رجلين من المشايخ يتبيَّن لكم ما ذكرتم على لسانهما.

فأجمعوا على الشيخ يعقوب بن يوسف الهمذاني(٢)، وكان يومئذٍ قد ورد إلى بغداد، والشيخ أبي محمد عبد الرحمن بن شعيب بن مسعود الكردي وكان مقيمًا ببغداد، رضي الله عنهما، وكانا من ذوي الكشف الحاذق والأحوال الفاخرة، وقالوا له: أمهلناك في بيان ذلك على لسانهما جمعة، فقال لهم: بل ما تقومون من مقامكم هذا حتى يتحقق لكم هذا الأمر، وأطرق

(١) انظر: بهجة الأسرار (١٠٧).

(٢) وممن شهد للشيخ مولانا عبد القادر أبو يعقوب الهمداني، وكان ذا كرامات وآيات.
يُحكى عنه أنه كان يومًا يتكلم فكان فقيهان في المجلس فقالا له: اسكت؛ فإنك بدعي، فقال: اسكتا، وجاءت إليه امرأةٌ وهي باكيةٌ، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: إن الإفرنج سرقوا ولدي فصبَّرها فلم تصبر، وقالت: لم يبقَ لي من بعده صبرٌ، ثم قال: اللهم الأمر أمرك لك أسره فعجِّل سراحه، ثم قال لها: اذهبي إلى دارك تجديه بها، فذهبت المرأة فوجدت ولدها في الدار، فتعجبت وسألته فقال لها: إني كنت الآن في القسطنطينية العظمى والقيود على رجلي، والحرس عليَّ، فأتاني شخصٌ ما رأيته قط فاحتملني وأتى بي إلى هاهنا كلمح البصر.
ومع جلال قدره وما اختصَّه الله به من علي المقام شهد للشيخ سيدي عبد القادر قال الشيخ: نزلت بأبي يعقوب الهمداني فقام إليَّ إجلالاً وأجلسني وقال لي: تكلم على الناس، فقلت له: أنا رجلٌ أعجميٌّ وكيف أتكلم مع فقهاء بغداد، فقال لي: تكلَّم فإنك قطب العلماء والفصحاء في كل فنٍّ. وانظر: المعزى.

وأطرقوا، فصاح الفقراء من خارج المدرسة فإذا الشيخ يوسف قد جاء حافيًا، مشتدًا في عدوه حتى دخل المدرسة وقال: أشهدني الله تعالى الساعة الشيخ حمادًا وقال لي: يا شيخ يوسف أسرع إلى مدرسة عبد القادر، وقل للمشايخ الذين فيها: صدق الشيخ عبد القادر بما أخبر عني، فلم يتم كلامه حتى جاء الشيخ عبد الرحمن وقال مثل ما قال الشيخ يوسف، فقام المشايخ كلهم يستغفرون للشيخ عبد القادر ﷺ.

الحكاية الثامنة بعد المائة

عن الشيخ المظفر منصور المبارك الواسطي المعروف بجرادة المتقدم ذكره قال: دخلت وأنا شابٌ على الشيخ عبد القادر ﷺ ومعي كتابٌ يشتمل على شيء من الفلسفة وعلوم الروحانيات، فقال لي من دون الجماعة قبل أن ينظر في كتابي أو يسألني عما فيه: يا منصور بئس الرفيق كتابك هذا، قُمْ فاغسله، فعزمت أن أقوم من بين يديه وأطرح الكتاب في بيتي، ثم لا أحمله بعد ذلك خوفًا من الشيخ، ولم تسمح نفسي بغسله من محبتي فيه، وكان قد علق بذهني من مسائله وأحكامه، فنهضت لأقوم بهذه النية فنظر إليَّ الشيخ كالمتعجب مني، فلم أستطع النهوض، وإذا أنا على حال المقيد فقال لي: ناولني كتابك ففتحته فإذا هو كاغد أبيض لا حرف مكتوب فيه، فأعطيته إياه فتصفح أوراقه وقال: هذا كتاب فضائل القرآن لمحمد بن الضريس، وأعطانيه فإذا هو فضائل القرآن لابن الضريس مكتوبًا بأحسن خط، وقال لي الشيخ: تتوب أن تقول بلسانك ما ليس في قلبك؟ قلت: نعم يا سيدي، قال: ثم نهضت فإذا أنا قد أنسيت جميع ما كنت حفظته من مسائل الفلسفة، وأحكام الروحانيات، ونُسخ من باطني حتى كأنه لم يرَني قط إلى الآن.

الحكاية التاسعة بعد المائة

عن الشيخ أبي الحسن علي بن إبراهيم بن إسماعيل الواسطي بسنده المتصل، والشريف أبي العباس أحمد بن محمد الأزهري البغدادي بسنديهما المتصلين، أن الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ قال وهو على الكرسي:

مكثت خمسًا وعشرين سنة متجردًا سائحًا في براري العراق وخرابه، وأربعين سنة أصلِّي الصبح بوضوء العشاء، وخمسة عشرة سنة أصلِّي العشاء ثم استفتح القرآن وأنا واقفٌ على

رِجلٍ واحدةٍ، ويدي في وتدٍ مضروبٍ في حائط خوف النوم، حتى انتهي إلى آخر القرآن عند السحر.

وكنت ليلة طالعًا في سلمٍ فقالت لي نفسي: لو نمت ساعة، فوقفت موضع ما خطر لي هذا وانتصبت على رجلٍ واحدةٍ، واستفتحت القرآن حتى أتيت على آخره وأنا على هذه الحالة، وكنت أمكث من الثلاثة أيام إلى الأربعين يومًا ولا أجد ما أقتات به، وكان النوم يأتيني في صورةٍ فأصيح عليه فيذهب، فتأتيني الدنيا وزخارفها وشهواتها في صور حسان وقباح فأصيح عليها فتفر هاربة.

وأقمت في البرج المُسمَّى الآن ببرج العجمي أحد عشر سنة، فتطول إقامتي فيه حتى بقيت فيه مرة أربعين يومًا لا آكل شيئًا، فبعد الأربعين جاء رجلٌ ومعه خبز وطعام فوضعه بين يدي ومضى وتركني، فكادت نفسي تقع على الطعام من شدة الجوع.

فقلت: والله لا حلت عما عاهدت الله تعالى عليه، فسمعت صارخًا من باطني ينادي الجوع، فلم أرتع منه.

فاجتازني الشيخ أبو سعيد المخرمي فسمع الصارخ، فدخل عليَّ وقال لي: ما هذا يا عبد الله، أو قال: يا عبد القادر؟ فقلت: هذا قلق النفس، فأما الروح فساكنة إلى ربها ﷻ فقال لي: تعالَ إلى باب الأزج، ومضى وتركني على حالي، فقلت في نفسي: ما أخرج من هذا المكان، فجاءني أبو العباس الخضر ﷺ وقال: قم وانطلق إلى أبي سعيد، فجئته فإذا هو واقفٌ على باب داره ينتظرني، وقال لي: يا عبد القادر، ألم يكفيك قولي: تعالَ إليَّ حتى أمرك الخضر بما أمرتك به، ثم أدخلني داره فوجدت طعامًا شهيًّا، فقعد يلقمني حتى شبعت، ثم ألبسني الخرقة بيده ولازمت الاشتغال عليه.

وكنت قبل ذلك في سياحتي فأتاني شخصٌ ما رأيته قبل، فقال لي: هل لك في الصحبة؟ قلت: نعم، قال: بشرط ألا تخالفني، قلت: نعم، قال: اجلس هنا حتى آتيك، وغاب عني سنة ثم عاد إليَّ وقال: لا تبرح من مكانك حتى آتيك، فغاب عني سنة أخرى، ثم جاء وأنا في مكاني فجلس عندي ساعة، ثم قام وقال: لا تبرح من مكانك حتى أعود، ثم غاب عني سنة أخرى ثم عاد ومعه خبزٌ ولبنٌ، فقال لي: أنا الخضر، وقد أُمرت أن آكل معك، فأكلنا ثم قال: قم فادخل بغداد، فدخلنا جميعًا. فقيل للشيخ: من أين كنت تقتات في مدة تلك السنين الثلاث؟ قال: من المنبوذات[1].

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١١٨)، والقلائد (ص٢١١).

الحكاية العاشرة بعد المائة

عن الشيخ أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي العباس الخضر بن عبد الله بن يحيى الحسني الموصلي قال: حدَّثنا أبي بالموصل قال: كنا في ليلةٍ في مدرسة شيخنا الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ ببغداد، فجاء الإمام المستنجد أبو المظفر يوسف رحمه الله تعالى، وسلم عليه واستوصاه، ووضع بين يديه مالاً في عشرة أكياس يحملها عشرة من الخدم، فقال: لا حاجة لي فيها، فأبى إلا إعطاءها له وألحَّ عليه، فأخذ كيسًا منها في يمينه وآخر في يساره وعصرهما بيده فسالا دمًا، فقال له: يا أبا المظفر ما تستحيي من الله أن تأخذ دماء الناس وتقابلني بها، فغشي عليه، فقال الشيخ: وعزة المعبود لولا حرمة اتصاله برسول الله ﷺ لتركت الدم يجري إلى منـزله.

قال: ثم شهدته يومًا عنده فقال له: أريد أن أرى شيئًا من الكرامات؛ ليطمئن قلبي، قال: وما تريد؟ قال: تفاحًا من الغيب، ولم يكن ذلك الأوان أوان التفاح بالعراق، فمدَّ يده في الهواء فإذا فيها تفاحتان، فأعطاه إحداهما وكسر الشيخ بيده واحدة فإذا هي بيضاء، تفوح منها رائحة المسك، وكسر المستنجد التي بيده فإذا فيها دودة، فقال: ما هذا والتي بيدك كما أرى؟ قال: يا أبا القاسم المظفر هذه لمستها يد الظلم فدودت(1).

الحكاية الحادية عشرة بعد المائة

عن أبي محمد بن الحسن أبي المنصور الداوودي، وأبي زيد عبد الرحمن بن ناصر القرشي، وأبي عبد الله محمد بن عبادة الأنصاري، بأسانيدهم المتصلة أن الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ جاءه أبو غالب فضل بن إسماعيل البغدادي التاجر فقال له: يا سيدي قال جدك رسول الله ﷺ: «من دُعي فليجب»(2)، وها أنا قد دعوتك إلى منـزلي، فقال: إن أذن الله لي قمت، ثم أطرق مليًّا ثم قال: نعم، فركب بغلته وأخذ الشيخ علي بن الهيتي بركابه الأيمن وأخذت أنا بالأيسر، وأتينا داره فإذا فيها مشايخ بغداد وعلماؤها وأعيانها، ومد سماطًا فيه من كل حلوٍ وحامضٍ، فأتى بسلةٍ كبيرةٍ مختومة يحملها اثنان، ووضعت في آخر السماط، وقال أبو غالب: الصلاة، والشيخ مطرق فما آكل ولا أذن في الأكل، ولا أكل أحد، وأهل هذا المجلس كأن على رؤوسهم الطير من هيبته.

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٢١).

(٢) رواه أبو داود (٣/ ٣٤١)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٧٩).

قال الراوي: فأشار الشيخ إليَّ وإلى الشيخ علي بن الهيتي أن قدّموا إليَّ تلك السلة، فقمنا بحملها وهي ثقيلة حتى وضعناها بين يديه، فأمرنا ففتحناها فإذا فيها ولدٌ لأبي غالب، أكمه مقعد مجذوم مفلوج، فقال له الشيخ: قم بإذن الله تعالى مُعافى، فإذا الصبي يعدو وهو لا عاهة به، وخرج الشيخ ولم يأكل شيئًا، فجئت إلى سيدي أبي سعيد القيلوي وأخبرته بذلك فقال: الشيخ عبد القادر يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله تعالى[1].

قال: وشهدت مجلسه مرة في سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وقد أتى جمعٌ من الرافضة بقفتين مخيطتين مختومتين، وقالوا له: قل لنا ما في هاتين القفتين؟ فنزل من على الكرسي ووضع يده على إحداهما وقال: في هذه صبيٌّ مقعدٌ، وأمر ابنه عبد الرزاق بفتحها ففتحها فإذا فيها صبيٌّ مقعدٌ، فأمسك يده وقال له: قم، فقام يعدو ووضع يده على الأخرى، وقال: في هذا صبيٌّ لا عاهة به، فأمر ابنه ففتحها، فإذا فيها صبيٌّ فقام يمشي، فأمسك بناصيته وقال له: اقعد فقعد، فتابوا عن الرفض على يديه، ومات في المجلس يومئذٍ ثلاثة[2].

الحكاية الثانية عشرة بعد المائة

عن أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي بكر الأزهري البغدادي، وأبي محمد عبد الواحد بن صالح بن يحيى القرشي البغدادي، والشيخ الإمام أبي عبد الله ابن العلاَّمة أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي بأسانيدهم المتصلة قالوا: جاءت امرأة للشيخ عبد القادر ﷺ بولدها وقالت له: إني رأيت قلب ابني هذا شديد التعلق بك، وقد خرجت عن حقي فيه لله ﷻ ولك، فقبله الشيخ ﷺ وأمره بالمجاهدة وسلوك طريق السلف، فدخلت عليه أمه يومًا فوجدته مصفرًا نحيلاً من آثار الجوع والسهر، ووجدته يأكل قرصًا من شعير، ودخلت إلى الشيخ فوجدت بين يديه إناء فيه عظام دجاجة مسلوقة قد أكلها، فقالت: يا سيدي، تأكل الدجاج ويأكل ابني خبز الشعير، فوضع يده على تلك العظام وهي رميمٌ فقامت الدجاجة سوية وصاحت، فقال الشيخ: إذا صار ابنك كذلك أكل هذه مهما شاء[3].

قال: ومرَّت على مجلسه حدأة طائرة في يوم شديد الريح فصاحت، فشوشت على الحاضرين فقال: يا ريح خذي رأس هذه الحدأة، فوقعت في الوقت ناحية ورأسها في ناحية،

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٢٤).
(٢) انظر: بهجة الأسرار (ص١٢٤).
(٣) انظر: بهجة الأسرار (ص١٢٨).

فنـزل الشيخ من على الكرسي وأخذها في يده وأمر يده الأخرى عليها،وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، فحييت وطارت، والناس يشاهدون ذلك(١).

الحكاية الثالثة عشرة بعد المائة

عن الشيخين أبي عمرو عثمان الصيرفيني، وأبي محمد عبد الحق الحريمي، قالا: كنا بين يدي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ بمدرسته في يوم الأحد ثالث صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فقام وتوضأ في قبقابٍ له، وصلَّى ركعتين فلما فرغ منهما، صرخ صرخة عظيمة وأخذ فردة من قبقابه ذلك ورمى بها في الهواء فغابت عن أبصارنا، ثم صرخ أخرى ورمى بالفردة الأخرى فغابت عن أبصارنا، ثم جلس فلم يتجاسر أحد على سؤاله، ثم بعد ثلاثة وعشرين يومًا قدمت قافلة من بلاد العجم، وقالوا: إن معنا للشيخ نذرًا فناشدناه، فقال: خذوه منهم، فأعطونا مناديل من حرير، وثوبًا من خزٍّ، وذهبًا وقبقاب الشيخ الذي رمى به في ذلك اليوم، فقلنا لهم: من أين لكم هذا القبقاب؟ فقالوا: بينما نحن سائرون يوم الأحد ثالث صفر إذ خرجت علينا عرب لهم مقدمان، فانتهبوا أموالنا وقتلوا منا ونزلوا واديًا يقسمون أموالنا، ونزلنا في شفير الوادي فقلنا: لو ذكرنا الشيخ عبد القادر في هذا الوقت، فنذرنا له شيئًا من أموالنا إن سلمنا فما هو إلا أن ذكرناه، فسمعنا صرختين عظيمتين ملأتا الوادي، فرأيناهم مذعورين، فظننا أن قد جاءهم عرب آخرون، فجاء إلينا بعضهم وقالوا: تعالوا خذوا أموالكم، وانظروا ما قد دهمنا فأتوا بنا إلى مقدميهم فوجدناهما ميتين، وعند كل منهما فردة من هذا القبقاب مبتلة، فردوا علينا أموالنا وقالوا: إن لهذا الأمر نبأً عظيمًا(٢).

الحكاية الرابعة عشرة بعد المائة

عن الشيخ أبي حفص عمر الأصفهاني رحمه الله تعالى قال: كنت في خلوتي ليلة فانشقَّ الحائط، ودخل عليَّ شخصٌ كريه المنظر، فقلت له: من أنت؟ فقال: إبليس، وقد جلس يضحك، قلت: وما يضحكك؟ قال: أعلمك جلسة المراقبة وجلس القرفصاء ورأسه منكس، قال: فلما أصبحت أتيت سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ لأذكر لـه ذلك، فلما صافحته أمسك يدي قبل أن أذكر لـه شيئًا من ذلك وقال: يا عمر صدقك وهو كذابٌ،

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٢٨).

(٢) انظر: بهجة الأسرار (ص١٣٢).

فلا تقبلن منه بعدها أبدًا.

قال الشيخ أبو الحسن: فكانت هذه الجلسة جلسة الشيخ عمر أربعين سنة ﷺ.

وعن الشيخ أبي الحسن البغدادي رحمه الله تعالى قال: كنت أشتغل على سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ، وكنت أسهر الليل لأترقب حاجة له، فخرج من داره ليلة من صفر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، فناولته إبريقًا فلم يأخذه، وقصد باب المدرسة فانفتح له الباب، فخرج وخرجت معه وأنا أقول: إنه لا يشعر بي، ومشى إلى أن قرب من باب بغداد فانفتح له الباب، وخرج وخرجت ثم عاد الباب مغلقًا، ومشى غير بعيد فإذا نحن ببلد لا أعرفه، فدخلت مكانًا فيه يشبه الرباط فإذا فيه ستة نفر، فنادوا بالسلام والتحيات، فالتجأت إلى ساريةٍ هناك، وسمعت في جانب ذلك المكان أنينًا، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى سكن الأنين، ودخل رجلٌ وذهب إلى الجهة التي سمعت منها الأنين، ثم خرج يحمل شخصًا على عاتقه، ودخل آخر مكشوف الرأس طويل الشارب فجلس بين يدي الشيخ، فأخذ عليه الشيخ الشهادتين، وقص شعر رأسه وشاربه وألبسه طاقية وسمَّاه محمدًا. وقال لأولئك النفر: قد أمرت أن يكون هذا بدلاً عن الميت، قالوا: سمعًا وطاعةً، ثم خرج الشيخ وخرجت معه ومشينا غير بعيد، وإذا نحن عند باب بغداد كأول مرة، ثم أتى المدرسة فانفتح بابها أيضًا ودخل داره.

فلما كان الغد جلست بين يديه أقرأ على عادتي فلم أستطع من هيبته، فقال: ادنُ مني اقرأ فلا عليك، فأقسمت عليه أن يبين لي ما رأيت، فقال: أما البلد فنهاوند، وأما الستة الذين رأيتهم فهم الأبدال النجباء، وأما صاحب الأنين الذي سمعته فهو سابعهم، كان مريضًا فلما حضرت وفاته جئت أحضره، وأما الرجل الذي خرج يحمل شخصًا على عاتقه فأبو العباس الخضر ﷺ، ذهب ليتولى أمره، وأما الرجل الذي أخذت عليه الشهادتين فرجل من أهل القسطنطينية، كان نصرانيًا فأمرت أن يكون بدلاً عمن تُوفي، فأُوتي به وأسلم على يدي وهو الآن منهم.

قال: وأخذ عليَّ العهد ألا أحدث أحدًا بذلك وهو حيٌّ[1].

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٣٨).

الحكاية الخامسة عشرة بعد المائة

عن أبي سعيد عبد الله بن أحمد البغدادي قال: صعدت لي ابنة اسمها فاطمة إلى سطح دارنا فاختطفت وكانت بكرًا، وسنها يومئذ ست عشرة سنة، فأتيت الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ فذكرت له ذلك، فقال: اذهب الليلة إلى خراب الكرخ واجلس على التل الخامس، وخط عليك دائرة في الأرض، وقُل وأنت تخطها: بسم الله على نية عبد القادر، فإذا كانت دجنة الليل مرَّت بك طوائف من الجن على صورٍ شتى فلا تروعنك سطوتهم، فإذا كان وقت السحر مرَّ بك ملكهم في جحفلٍ منهم فيسألك: ما حاجتك؟ فقل له: قد بعثني إليك عبد القادر، واذكر له شأن ابنتك، فذهبت وفعلت ما أمرني فمرَّت منهم صور مزعجة المنظر، ولا يقدر أحد منهم أن يدنو إلى الدائرة التي أنا فيها، وما زالوا يعبرون زمرًا زمرًا إلى أن جاء ملكهم راكبًا فرسه، وبين يديه أمم منهم، فوقف بإزاء الدائرة وقال لي: ما حاجتك؟ قلت: قد بعثني الشيخ عبد القادر إليك، فنـزل عن فرسه وقبَّل الأرض وجلس خارج الدائرة وجلس من معه وقال: ما شأنك؟ فذكرت له قصة ابنتي، فقال لمن معه: من فعل هذا؟ فلم يعلموا من فعل، فأتى بماردٍ وهي معه، وقيل له: هذا من مردة الصين، فقال له: ما حملك على أن اختطفت من تحت ركاب القطب؟ فقال: إنها وقعت في نفسي، فأمر به فضُربت عنقه، وأعطاني ابنتي، فقلت: ما رأيت كالليلة في امتثالك أمر الشيخ عبد القادر؟ قال: نعم، إنه ينظر من داره إلى المردة الذين بأقصى الأرض فيفرون من هيبته إلى مساكنهم، وإن الله تعالى إذا أقام قطبًا مكَّنه من الجن والإنس(١).

قال: وأتى الشيخ ﷺ رجلٌ وقال: أنا أصبهاني ولي زوجة تصرع كثيرًا، وقد أعيا أمرها المعزمين، فقال له الشيخ: هذا ماردٌ من مردة وادي سرنديب، اسمه خانس، فإذا صرعت زوجتك فقل في أذنها: يا خانس، يقول لك عبد القادر المقيم ببغداد: لا تعد وإن عدت هلكت، فذهب الرجل وغاب عشر سنين، ثم جاء فسألناه فقال: فعلت ما قال الشيخ فلم يعد إليها الصرع إلى الآن(٢).

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٤٠).

(٢) انظر: السابق (ص١٤١).

وقال: رؤساء صناعة التعزيم: إن بغداد سكنت في حياة الشيخ عبد القادر أربعين سنة لا يصرع فيها أحدٌ، فلما مات وقع الصرع فيها كثيرًا(١).

وعن الشريف أبي العباس ابن الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي الغنائم قال: دخل الشيخ أبو الحسن بن الهيتي يومًا إلى دار سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ وأنا معه، فوجدنا في الدهليز شابًّا ملقى على قفاه، فقال للشيخ علي: اشفع فِيّ عند الشيخ عبد القادر. فلما دخلنا على الشيخ ذكر له ابن الهيتي فقال: وهبته لك، فخرج له الشيخ علي وأنا معه، فقال له: قد شفعنا فيك، فقام وخرج من كوة في الدهليز وطار في الهواء وأنا أنظر، فدخلنا إلى الشيخ وقلت له: ما هذا؟ فقال: إنه عبر مارًّا في الهواء، فقال في نفسه: ما في بغداد رجل، فسلبته حاله ولولا الشيخ ما رددته عليه.

قال: وكنت ملقي على ظهري فوق سطح المدرسة بين المغرب والعشاء في ليلة السبت، التاسع من ربيع الآخر سنة اثنين وخمسين وخمسمائة، والوقت صائف، وسيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر قدامي مستقبل القبلة، فرأيت في الجو رجلاً مارًّا في الهواء مرور السهم، على رأسه عمامة لطيفة لها عذبة بين كتفيه، وعليه ثوبٌ أبيض، وفي وسطه فوطة، فلما قرب من رأس الشيخ نزل كعقاب منقض على الصيد، حتى جلس بين يديه وسلم عليه، ثم ذهب في الهواء حتى غاب عن بصري، فقمت إلى الشيخ وسألته عنه فقال: ورأيته؟ قلت: نعم، فقال: هو من رجال الغيب السيارة عليهم السلام(٢).

قال: واجتمع يومًا في شهر محرم سنة تسع وخمسين وخمسمائة في رواق من رباطه في الحلبة من الزوار له نحو من ثلاثمائة رجل، فخرج من داخل الدار عَجِلاً فصاح بالناس: أسرعوا إِلَيَّ أسرعوا إِلَيَّ، فأسرعوا إليه حتى إذا لم يبقَ في الدار أحدٌ سقط السقف، وسلم الناس فقال: إني كنت في الدار فقيل لي: إنه سيقع السقف الآن فأشفقت عليكم(٣).

---

(١) انظر: السابق.
(٢) انظر: بهجة الأسرار (ص١٤٢).
(٣) انظر: المصدر السابق.

الحكاية السادسة عشرة بعد المائة

عن الشيخ أبي طاهر غانم الأنصاري نزيل مصر قال: حججت مرة وأتيت بغداد أنا ورفيقٌ لي، وما كنا دخلناها قبل، ولا نعرف فيها أحدًا، ولم يكن معنا إلا مدية فبعناها بطسوج - بالجيم بعد الواو - واشترينا به أرزًا وأكلناه، فلم يطب لنا ولم نشبع، وأتينا مجلس الشيخ محيي الدين عبد القادر فقطع كلامه وقال: مساكين الغرباء، جاءوا من الحجاز ولم يكن معهم إلا مدية فباعوها بطسوج واشتروا به أرزًا، وأكلوه ولم يشبعوا، فأعجبت من كلامه إعجابًا شديدًا، فلما انقضى كلامه أمر بمد السماط، فقلت لرفيقي سرًّا: ما تشتهي؟ فقال: كشكًا بدراج، وقلت في نفسي: وأنا أشتهي شهدًا، فقال الشيخ على الفور للخادم: أحضر كشكًا بدراج وشهدًا، فأحضرهما وقال: ضعهما بين يدي ذلك الرجلين، وأشار إلينا، ووضع الكشك قدامي والشهد قدام رفيقي، فقال له الشيخ: اقلب تصب، فلم أتمالك أن صرخت وسعيت إليه أتخطى رقاب الناس، فقال لي: أهلاً وسهلاً بواعظ الديار المصرية، فقلت: وكيف وأنا لا أحسن أصحح الفاتحة؟ فقال: قد أُمرت أن أقول لك هذا القول، فاشتغلت عليه ففتح الله عليَّ في سنةٍ بما لم يفتحه على بصيرتي في عشرين سنة، وتكلمت ببغداد.

قال: ثم استأذنته في السفر إلى مصر، فقال: إنك تنتقل إلى دمشق وتجد بها الغز متهيئين للدخول إلى مصر ليملكوها، فقل لهم: إنكم لن تنالوا ما تريدون في هذه المرة بل تعودون وترجعون إليها مرة أخرى وتملكوها، فلما أتيت دمشق وجدت الأمر كما ذكر الشيخ، فقلت لهم ما قاله الشيخ، فلم يقبلوا مني.

ودخلت إلى مصر فوجدت الخليفة متهيئًا للقائهم، فقلت له: لا بأس عليك، إنهم ينقلبون خائبين، ويرجعون غير ظافرين، فلما وصل الغز إلى مصر كُسروا، فاتخذني الخليفة خطيبًا، أطلعني على أسراره، ثم جاء الغز في الثانية فملكوا مصر، فأكرموني إكرامًا عظيمًا بالكلام الذي قلت لهم بدمشق، فحصل من الدولتين مائة ألف وخمسين ألف دينار بكلمةٍ واحدةٍ من الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ[1].

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٤٣).

الحكاية السابعة عشرة بعد المائة

عن الشيخ بقا ﷺ قال: جاء شيخٌ معه شابٌّ إلى الشيخ عبد القادر ﷺ وقال له: ادعُ الله له، فإنه ولدي، ولم يكن ولده بل كانا على سريرةٍ غير صالحةٍ، فغضب الشيخ وقال: بلغ أمركم إلى هذا الحد، ودخل داره ووقع الحريق في أرجاء بغداد من وقته، وكلما طفأ مكان اشتعلت النار في مكانٍ آخر، قال: ورأيت البلاء نازلاً على بغداد كقطع الغمام بسبب غضب الشيخ عبد القادر، فأسرعت في الدخول إليه فوجدته على حاله مغضبًا، فجلست إلى جانبه وجعلت أقول: يا سيدي ارحم الخلق، فقد هلك الناس، حتى سكن غضبه فرأيت البلاء قد انكشف وانطفأ الحريق كله.

وبهذا الإسناد إلى الشيخ عمر البزار قال: خرجت مع سيدي الشيخ عبد القادر ﷺ إلى الجامع يوم الجمعة الخامس عشر من شهر جمادى الآخر، سنة خمسين وخمسمائة، فلم يسلم عليه أحدٌ، فقلت في نفسي: يا عجبًا! نحن كل جمعةٍ لا نصل الجامع إلا بمشقةٍ من ازدحام الناس على الشيخ، فلم يتم خاطري حتى نظر إليَّ الشيخ متبسمًا، وأهرع الناس إلى السلام عليه حتى حالوا بينه وبيني، فقلت في نفسي: ذلك الحال خير من هذا الحال. والتفت إليَّ متابعًا لخاطري وقال: يا عمر فأنت الذي أردت هذا، أما علمت أن قلوب الناس بيدي إن شئت صرفتها عني، وإن شئت أقبلت بها إليَّ.

الحكاية الثامنة عشرة بعد المائة

عن الشيخ أبي البقاء محمد بن الأزهر الصيرفي قال: مكثت مدة أسأل الله ﷻ أن يريني أحدًا من رجال الغيب، فرأيت ليلة في المنام أني زرت قبر الإمام أحمد بن حنبل ﷺ، وعند قبره رجلٌ فوقع في قلبي أنه من رجال الغيب، فاستيقظت ورجوت أن أراه في اليقظة، فأتيت قبر الإمام في وقتي فوجدت الرجل الذي رأيته في المنام بعينه، فعجلت في الزيارة وخرج قدامي وتبعته إلى أن وصل دجلة، فالتقى له طرفاها حتى صارت قدر خطوة الرجل، فعبر إلى الجانب الآخر، فأقسمت عليه أن يقف لي يكلمني، فوقف فقلت: ما مذهبك؟ فقال: ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧]، فوقع عندي أنه المذهب، وانصرف، فقلت في نفسي: آتي الشيخ عبد القادر فاذكر له ما رأيت، فأتيت مدرسته وقمت على بابه، فناداني من داخل داره: يا محمد، ما في الأرض من المشرق إلى المغرب في هذا الوقت ولي لله ﷻ حنفي سواه، قال: ولم يفتح لي بابه.

الحكاية التاسعة عشرة بعد المائة

عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن الخضر الحسيني الموصلي قال: أخبرنا أبي سنة اثنتين وعشرين وستمائة قال: خدمت سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ ثلاثة عشر سنة، وشهدت له خارقات منها:

إنه كان إذا أعيا الأطباء دواء مريض أتى به إليه، فيدعو له ويمر يده عليه فيقوم من بين يديه وقد برئ، ولا يزال يسر عنه حتى يصح في أسرع وقت.

وأتي مرة بمستسق من أقرباء الإمام المستنجد وقد علا بطنه، فأمر يده عليه فقام ضامر البطن كأن لم يكن به شيءٌ.

وأتى أبو المعالي أحمد بن ظفر بن يونس البغدادي الحنبلي وقال له: إن لابني محمد خمسة عشر شهرًا لا تفارقه الحمى وقد أودت به، فقال له: اذهب وقل في أذنه: يا أم ملدم يقول لك عبد القادر: ارتحلي عن ولدي إلى الحلة، ثم سألنا أبا المعالي فقال: ذهبت وفعلت ما آمرني الشيخ به فلم تعد إلى ولدي إلى الآن، وسألناه بعد سبع سنين فقال: ما رجعت إلى ولدي من بعد ذلك اليوم.

وجاء الخبر أن أهل الحلة يحمون كثيرًا، وأتاه أبو حفص عمر بن صالح الحدادي يقود ناقة وقال له: إني أريد الحج وهذه ناقتي قد وهنت وليس لي غيرها، فوكزها الشيخ برجله ووضع يده على ناصيتها، قال: فكانت تسبق الرواحل بعد أن كانت في أخرياتهن.

ومرض الشيخ أبو الحسن علي بن أحمد بن وهب الأزجي فعاده، ورأى في بيته راعبيًا وقمريًّا، فقال له: يا سيدي هذا الراعبي ما يبيض منذ ستة أشهر، وهذا القمري ما يصيح منذ تسعة أشهر، فوقف الشيخ على الراعبي وقال له: متع مالكك، ووقف على القمري وقال له: سبح خالقك، قال: فصاح من وقته حتى كان أهل بغداد يجتمعون ليسمعونه، وفرخ الراعبي ما قطع إلى أن مات.

وقال لي في سنة ستين وخمسمائة: يا خضر اذهب إلى الموصل؛ ففي ظهرك ذرية يظهر منها ولدًا ذكرًا اسمه محمد، يلقنه القرآن رجلٌ بغداديٌّ أعمى اسمه علي في سبعة أشهر، ويستكمل حفظه وهو ابن سبع سنين، وتعيش أنت أربعًا وتسعين سنة وشهرًا وسبعة أيام، وتموت بإربل صحيح السمع والبصر والقوة.

قال أبو عبد الله: فسكن والدي الموصل، ووُلدت مستهل صفر سنة إحدى وستمائة، وأحضر لي والدي رجلاً أعمى لقنني القرآن عندما بلغت سني ست سنين وخمسة أشهر، فما استكملت سبعًا حتى ختمت القرآن حفظًا، فسأله والدي عن اسمه وبلده فقال اسمه علي، ومكانه بغداد، فذكر كلام الشيخ ﷺ، ومات والدي بإربل في تاسع صفر سنة خمس وعشرين وستمائة، وقد استكمل أربعًا وتسعين سنة وشهرًا وسبعة أيام، وحفظ الله تعالى حواسه وقواه إلى حين وفاته، كما ذكر الشيخ عبد القادر ﷺ.

الحكاية العشرون بعد المائة

عن أبي الحسن علي بن يحيى بن أبي القاسم الحسن بن عبد الله الأبهري، وأبي محمد رجب الداري، وأبي علي الحسن بن نجم الجوزاني، وأبي محمد سالم بن علي الدمياطي، بأسانيدهم المتصلة قالوا: كان الشيخ عباد والشيخ أبو بكر بن الحمامي -رحمهما الله- من ذوي الأحوال السنية، وكان الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ يقول لأبي بكر: يا أبا بكر، الشريعة تشكو إليَّ منك، وكان ينهاه عن أمورٍ ولا ينتهي، فدخل الشيخ ﷺ إلى جامع الرصافة فوجده، فمرَّ بيده على صدره وقال: أسرع أبا بكر واخرج من بغداد، ففقد جميع أحواله ومعلوماته، وتوارت عنه منازلاته، وخرج إلى الجرف، وبقي كلما أتى إلى بغداد وهمَّ لدخولها سقط لوجهه، فإن حمله أحدٌ ليدخل معه سقطا جميعًا، وجاءت أمه باكية إلى الشيخ تذكر شوقها إلى ولدها، وتشكو العجز عن المسير إليه، فأطرق ثم قال لها: قد أذنا له أن يأتي من الجرف إلى بغداد من تحت الأرض، ويكلمك من بئر دارك، قالوا: فكان يأتي كل أسبوعٍ مرة من الجرف إلى دار أمه من تحت الأرض ويجتمع بها.

وبعث الشيخ عدي بن مسافر قضيب البان إلى الشيخ يشفع له عنده فيه فوعده، وكان بين مظفر الجمالي وبين أبي بكر أنسٌ وودٌّ، فرأى مظفر في تلك الواقعة رب العزة سبحانه وتعالى فقال له: يا عبدي تمنَّ. قال: يا رب أتمنى رد حال أخي أبي بكر عليه، قال: ذلك في حضرة وليي في الدنيا والآخرة عبد القادر، اذهب إليه وقل له: يقول لك بأمارة أني أردت أن أنزل بالخلق نازلة فشفعتَ فيهم فشفَّعتك، وبأمارة أن سألتني أن أرحم بجودي وأعم بفضلي من رآك من المؤمنين ففعلت ذلك، وقد رضيت عن أبي بكر فارضَ عنه. وإذا برسول الله ﷺ يقول: يا مظفر، قل لنائبي في الأرض، ووارثي الشيخ عبد القادر: يقول لك جدك: رد على

أبي بكر حاله، إنك لم تغضب إلا لشريعتي والآن قد وهبته، فلما سرى عن مظفر من واقعته ذهب مسرورًا إلى أبي بكر ليبشره، وكان قد كُوشف بجميع ما جرى في الواقعة، ولم يكاشف بعد فقد حاله بشيء قبلها، فتلاقيا في نصف الطريق وأتيا إلى الشيخ محيي الدين عبد القادر، فقال: يا مظفر بلِّغ رسالتك، فذكر له ما وجد في واقعته ونسي شيئًا منها، فذكره إياه الشيخ، ثم استتاب أبا بكر عما كان يكرهه منه وضمه إلى صدره، فوجد في الحال جميع ما كان قد فقده بزيادة.

وقالوا: وكان مظفر يحكي ما رآه وسمعه في واقعته، وقلنا لأبي بكر: كيف كنت تأتي إلى أمك؟ قال: كنت إذا أردت زيارتها حُملت ولا أزال أمر تحت الأرض حتى البئر فاجتمع معها، ثم أُحمل من حيث أُتي بي إلى أن أرد إلى مكاني.

قالوا: وقال عباد: أنا أعيش بعد وفاة الشيخ عبد القادر وأرث حاله، فأمسك الشيخ بيده وقال: يا عباد لأبعدن بينك وبين ربعك، ولأجعلن خيول هجري تجول في حمى ميدانك، وأفلت يده من يده وقد سلبه حاله، وفقد جميع معاملاته، وبقي على ذلك مدة، فبينما الشيخ جميل البدوي رحمه الله ليلة في خلوته إذ ورد عليه وارد قهره، فظهر فيه نورٌ لطيفٌ، شديد الإشراق، يسمع ويبصر ويدرك، ثم حمل روحه إلى الحضرة في عالم الملكوت، وانتهى به إلى مجلسٍ فيه جمعٌ من المشايخ، منهم من يعرفه، ومنهم من لا يعرفه، فهبَّت عليهم نسمة أسكرتهم، قالوا: هذه من طيب مقام الشيخ عبد القادر ﷺ، وألقى في سمعه هذا علم لا يُدرك بوصف محجوب، ووصف لا يُعلم غايته، فسمع ناطقًا ينطق من باطنه يقول: يا رب أسألك أخي عبادًا، فألقى على سمعه: لا يرد عليه حاله إلا من سلبه، ثم عاد جميل إلى حال بشريته وأتى إلى الشيخ عبد القادر، فقال له: يا جميل سألت في عباد؟ قال: نعم، قال: ائتني به، فأتى به فقال: يا عباد سر مع الحاج خفيرًا له، قال: نعم، وذلك حين خروج الركب العراقي من بغداد، فسار معهم إلى قيد، فرأى شجرة فداخله وجد فصاح ودار في السماء حتى غاب في وجده عن وجوده، وانفتحت مسامه، وخرج منها الدم حتى خرَّ تحت قدميه، ثم أفاق وقد رجع إليه حاله كله ومثله معه، فقال الشيخ محيي الدين في ذلك الوقت لجميل: إنه قد ردَّ الله ﷻ على عبّاد حاله ومثله معه، وكنت أقسمت على الله ﷻ ألا يرد عليه حاله حتى يخوض في دم الهجر، وقد خاض فيه اليوم.

قالوا: وسار عبَّاد مع الحاج إلى فيد، فخرجت عليهم عرب، وكان عبَّاد إذا أراد أمرًا صرخ، فيفعل له ما يريد بصرخته، فصرخ يريد هزيمة العرب بصرخته، فرُدَّت عليه صرخته فمات مكانه، واشتهر صوته بين الحاج بقيد ودُفن بها.

فأخبر الشيخ محيي الدين ﷺ يقول بعدها بين الواقعتين: نازعني في حالي جميل بموته في يومه[1].

الحكاية الحادية والعشرون بعد المائة

ذكر ما اتفق له في حكايةٍ تقدَّمت عن الشيخ القدوة أبي سعد السعود أحمد بن بكير الخزيمي قال: سمعت الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ يقول: أقمت في صحاري العراق وخرابه خمس وعشرين سنة، مجردًا سائحًا، لا أعرف الخلق ولا يعرفوني، تأتيني طوائف من رجال الغيب والجانّ أعلمهم الطريق إلى الله ﷻ، ورافقني الخضر ﷺ في أول دخولي العراق، وما كنت عرفته بعد، وشرط عليَّ ألا أخالفه، وقال لي: اقعد ها هنا، فجلست في المكان الذي أقعدني فيه ثلاث سنين، يأتيني في كل سنةٍ مرة، يقول لي: مكانك حتى أعود إليك، وكانت الدنيا وزخارفها وشهواتها تأتيني في صورٍ، فيحميني الله ﷻ من الالتفات إليها، وتأتيني الشياطين في صورٍ شتى مزعجات ويقاتلوني، ويقويني الله تعالى عليهم، وتبرز إليَّ نفسي في صورةٍ فتاة تتضرَّع إليَّ فيما تريده، وتارة تحاربني فينصرني الله عليها، وما حدَّثت نفسي في حال البداية بطريقٍ من طرق المجاهدات إلا ولازمته وأخذته بكلتا يدي.

وأقمت زمانًا في خرائب المدائن آخذ نفسي بطريق المجاهدات، فمكثت سنة آكل المنبوذات، وسنة لا آكل ولا أشرب ولا أنام، ونمت بإيوان كسرى في ليلةٍ شديدة البرد، فاحتلمت فقمت وذهبت إلى الشط، واغتسلت في تلك الليلة أربعين مرة، ثم صعدت على الإيوان خوف النوم، وأقمت في خراب الكرخ سنين لا أقتات فيها إلا بالبردي، ويأتيني رجلٌ في رأس كل سنةٍ بجبة صوف، ودخلت في ألف فنٍ حتى أستريح من دنياكم، وما كنت أعرف إلا بالتخارس والبله والجنون، وكنت أمشي حافيًا في الشوك وغيره، وما هالني شيء إلا سلكته، ولا غلبتني نفسي فيما تريده قط، ولا أعجبني شيء من زينة الدنيا قط بحال، فقلت له: ولا لما كنت صغيرًا؟ قال: ولا لما كنت صغيرًا[2].

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٦١).

(٢) انظر: قلائد الجواهر (ص١٩٨) بتحقيقنا.

الحكاية الثانية والعشرون بعد المائة

عن الشيخ العارف أبي عمر الصيرفيني: قال: سمعت الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلي ﷺ يقول: كنت أجلس في الخراب الليل والنهار ولا آتي إلى بغداد، وكانت الشياطين تأتيني صفوفًا ورجالاً وركبانًا بأنواع السلاح، وأزعج الصور، يقاتلونى ويرموني بشهب النار، أمنًا لا يفتر عني، وأسمع مخاطبًا من باطني يقول لي: قُمْ إليهم يا عبد القادر قد ثَبَّتناك وأيَّدناك بنصرنا، فما هو إلا أن أنهض إليهم فيتفرقون يمينًا وشمالاً، ويذهبون من حيث أتوا، وكان يأتيني الشيطان منهم وحده ويقول لي: اذهب من هنا وإلا فعلت وفعلت، ويحذرني تحذيرًا كثيرًا، فألطمه بيدي فيفر مني، فأقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فيُحرق وأنا أنظر، وآتاني مرة شخص كريه المنظر نتن الريح، وقال لي: أنا إبليس، أتيتك أخدمك فقد أعييتني وأعييت أتباعي، فقلت له: اذهب، قال: فجاءته يد من فوقه وضربت أم رأسه فغاص في الأرض، ثم أتاني ثانية وبيده شهاب من نارٍ يقاتلني به، فأتاني رجلٌ متلثمٌ راكبٌ فرس أشهب، وناولني سيفًا فنكص إبليس على عقبيه، ثم رأيته مرة ثالثة جالسًا بالبعد عني وهو يبكي، ويحثو التراب على رأسه، ويقول: قد أيست منك يا عبد القادر، فقلت: اخسأ يا لعين، فإني لا أزال حذرًا منك، فقال: هذه أشد عليَّ.

ثم كُشف لي عن أشراك كثيرة ومصائد ومحائل حولي، فقلت: ما هذا؟ فقيل لي: هذه أشراك الدنيا التي يُصاد بها مثلك، فتوجَّهت في أمرها سنة حتى تقطعت، كلها ثم كشف لي عن أسباب كثيرة متصلة إليَّ من كل جهةٍ، فقلت: ما هذا؟ فقيل لي: هذه أسباب الخلق متصلة بك، فتوجهت في أمرها سنة أخرى حتى تقطَّعت كلها، وانفردت عنها.

ثم كُشف لي عن باطني فرأيت قلبي مناطًا بعلائق كثيرة، فقلت: ما هذا؟ فقيل لي: هذه إرادتك واختياراتك، فتوجهت في أمرها سنة أخرى حتى تقطَّعت جميعها، وتخلص منها قلبي. ثم كُشف لي عن نفسي فرأيت أدواءها نائمة، وهواها حيٌّ وشيطانها ماردًا، فتوجهت في ذلك سنة أخرى فبرأت أدواء النفس، ومات الهوى، وأسلم الشيطان، وصار الأمر كله لله.

فبقيت وحدي، الوجود كله من خلفي، وما وصلت لنهاية مطلوبي بعد واجتُذِبت إلى باب التوكل لأدخل منه على مطلوبي فإذا عنده زحمة فجزته. ثم اجتذبت إلى باب الشكر لأدخل منه على مطلوبي فإذا عنده زحمة فجزته، ثم اجتذبت إلى باب التسليم لأدخل منه على

مطلوبي فإذا عنده زحمة فجزته، ثم اجتذبت إلى باب الغنى لأدخل منه على مطلوبي فإذا عنده زحمة فجزته، ثم اجتذبت منه إلى باب القرب لأدخل منه على مطلوبي فإذا عنده زحمة فجزته، ثم اجتذبت إلى باب المشاهدة لأدخل منه على مطلوبي فإذا عنده زحمة فجزته، ثم اجتذبت إلى باب الفقر فإذا هو خال فدخلت منه، فرأيت فيه كل ما تركته وفتح منه الكنـز الأكبر، وأتيت فيه العز الأعظم والغنى السرمد، والحرية الخالصة، ومحقت البقايا، ومحيت الصفات[1].

الحكاية الثالثة والعشرون بعد المائة

عن الشريف أبا عبد الله محمد بن الخضر بن عبد الله الحسني الموصلي قال: أخبرنا أبي قال: صحبت سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ ثلاثة عشر سنة، فما رأيته فيها يتمخط ولا يتنخع، ولا قعدت عليه ذبابةٌ، ولا قام لأحدٍ من العظماء، ولا لمن له شأن وذي سلطان، ولا جلس على بساط الملوك، وكان يأتيه الخليفة والوزير أو من له الحرمة الوافية وهو جالسٌ فيقوم الشيخ ويدخل داره؛ لئلا يقوم لهم، فإذا خرج الشيخ من داره قاموا له، وإنه يكلمهم الكلام الحسن، ويبالغ لهم في العظة وهم يقبلون يده، ويحلقون بين يديه متواضعين متصاغرين.

وكان إذا كاتب الخليفة يكتب إليه: «عبد القادر يأمرك بكذا أو كذا، وأمره نافذ عليك، وطاعته واجبة عليك، وهو لك قدوةٌ، وعليك حجةٌ». فإذا وقف على ورقته قبَّلها ويقول: صدق الشيخ ﷺ.

وأنه قال: كانت الأحوال تطرقني في بدايتي في السياحة فأقاومها فأملكها، فأغيب عنها وعن وجودي، وأعدو وأنا لا أدري، فإذا سرى عني ذلك وجدت نفسي في مكانٍ بعيدٍ عن المكان الذي كنت فيه، وطرقني الحال مرة في خراب بغداد، وغدوت قدر ساعة وأنا لا أدري، ثم سرى عني وأنا في بلاد شيشتر، وبينها وبين بغداد اثنا عشر يومًا، فبقيت مفكرًا - أو قال: متفكرًا - في أمري.

---

(١) انظر: قلائد الجواهر (ص١٩٩).

الحكاية الرابعة والعشرون بعد المائة

عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن قائد الأواني قال: كنت عند الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ فسأله سائلٌ: علام بنيت أمرك؟ قال: على الصدق، ما كذبت قط، ولا لما كنت بالمكتب، ثم قال ﷺ: كنت صغيرًا في بلدنا فخرجت إلى السواد في يوم عرفة وتبعت بقرة الحراثة، فالتفتت إليَّ وقالت: يا عبد القادر، ما لهذا خُلقت ولا بهذا أُمرت. فرجعت فزعًا إلى دارنا، فصعدت إلى سطح الدار فرأيت الناس واقفين بعرفات، فجئت إلى أمي فقلت لها: هبيني لله تعالى، وائذني لي في المسير إلى بغداد أشتغل بالعلم وأزور الصالحين، فسألتني عن سبب ذلك فأخبرتها خبري، فبكت وقامت إلى ثمانين دينارًا ورثها أبي، فتركت لأخي أربعين دينارًا، وأذنت لي في المسير، وعاهدتني على الصدق في كل أحوالي، وخرجت مودعة لي وقالت: يا ولدي اذهب فقد خرجت عنك لله ﷻ، وهذا وجه لا أراه إلى يوم القيامة، وسرتُ مع قافلة صغيرة تطلب بغداد، فلما جاوزنا همذان وكنا بأرض كذا وكذا - بلادًا سمَّاها - خرج علينا ستون فارسًا فأخذوا القافلة، ولم يتعرَّض لي أحدٌ، فاختارني أحدهم وقال لي: يا فقير ما معك؟ فقلت له: أربعون دينارًا، قال: وأين هي؟ قلت: هي مخاطة في دلقي تحت إبطي، فظن أني أستهزئ به، فتركني وانصرف، ومرَّ بي آخر فقال لي مثل ما قال الأول فأجبته بجواب الأول، فتركني وانصرف، فتوافيا عند مقدمهم، فأخبراه بما سمعا مني، فقال: عليَّ به، فأُوتي بي إليه فإذا هم على تلٍّ يقتسمون أموال القافلة، فقال لي: ما معك؟ فقلت: أربعون دينارًا، فقال: وأين هي؟ قلت: مخاطة في دلقي تحت إبطي، فأمر بدلقي ففُتح فوجد فيها أربعين دينارًا، فقال لي: ما حملك على الاعتراف؟ قلت: إن أمي عاهدتني على الصدق، وأنا لا أخون عهدها، فبكى المقدم وقال: أنت لم تخن عهد أمك وأنا لي كذا وكذا أخون عهد ربي، فتاب على يديّ، فقال له أصحابه: أنت كنت مقدمنا في قطع الطريق وأنت الآن مقدمنا في التوبة، فتابوا كلهم على يدي، وردُّوا على أهل القافلة ما أخذوا منهم، فهم أول من تاب على يدي.

الحكاية الخامسة والعشرون بعد المائة

عن الشيخ الإمام أحمد بن صالح بن نافع الجيلي قال: كنت مع الشيخ عبد القادر بالمدرسة النظامية فاجتمع إليه الفقهاء والقراء، فتكلَّم عليهم في القضاء والقدر، فبينما هو يتكلم عليهم إذ سقطت حيةٌ عظيمةٌ في حجره من السقف، ففرَّ منها كل من كان حاضرًا عنده ولم يبقَ إلا هو، فدخلت الحية تحت ثيابه ومرَّت على جسده، وخرجت من طوقه والتفَّت على عنقه، ومع

ذلك ما قطع كلامه ولا غيَّر جلسته، ثم نزلت إلى الأرض وقامت على ذنبها بين يديه، فصوتت ثم كلمها بكلامٍ ما فهمناه ثم ذهبت، فجاء الناس إليه وسألوه عما قالت له وقال لها، فقال: قالت لي: قد اختبرت كثيرًا من الأولياء فلم أرَ مثل ثباتك، فقلت لها: إنك سقطتِ عليَّ وأنا أتكلم في القضاء والقدر، وهل أنت إلا دودة يحركك ويسكنك القضاء والقدر، فأردت ألا يناقض فعلي قولي.

الحكاية السادسة والعشرون بعد المائة

عن الشيخ أبي بكر عبد الرزاق قال: سمعت والدي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ يقول: كنت ليلة في جامع المنصور أصلِّي، فسمعت حس شيء يمشي على السواري، فجاءت صلة عظيمة ففتحت فاها موضع سجودي، فلما أردت السجود دفعتها بيدي فسجدت، فلما جلست للتشهد مشت على فخذي، وطلعت على عنقي والتفَّت عليه، فلما سلمت لم أرَها، فلما كان الغد دخلت خربة بظاهر الجامع فرأيت شخصًا عيناه مشقوقتان طولاً، فعلمت أنه جنيٌّ، فقال لي: أنا الصلة التي رأيتها البارحة، ولقد اختبرت كثيرًا من الأولياء بما اختبرتك به فما ثبت أحدٌ منهم كثباتك، وكان منهم من اضطرب ظاهرًا وباطنًا، ومنهم من اضطرب باطنه وثبت ظاهره، ورأيتك لم تضطرب لا ظاهرًا ولا باطنًا، فسألني أن يتوب على يدي فتوّبته.

الحكاية السابعة والعشرون بعد المائة

عن الشيخ عبد الله بن الحسين الجيلي أن الشيخ عبد القادر ﷺ قال: إذا وُلد لي ولدٌ أخذته على يدي وقلت: هذا ميتٌ، فأخرج حبه من قلبي، فإذا مات لم يؤثر عندي موته شيئًا؛ لأني قد أخرجته من قلبي أول ما يُولد، قال: فكان يموت من أولاده الذكور والإناث ليلة مجلسه فلا يقطع المجلس، ويصعد على الكرسي ويعظ الناس والغاسل يغسل الميت، فإذا فرغوا من غسله جاءوا به إلى المجلس فينـزل الشيخ ويصلِّي عليه[1].

وبهذا الإسناد إلى الحافظ أبي عبد الله محمد بن النجار البغدادي قال: سمعت الحافظ عن أبي المعالي عبد الرحيم مظفر بن محمد الأحمر يقول القرشي: كنت أدخل على الشيخ عبد القادر ﷺ في وسط الشتاء وقوة برده وعليه قميصٌ واحدٌ، وعلى رأسه طاقية، والعرق يخرج من

---

(١) انظر: الروض الزاهر للبرهان القادري (ص٧٨) بتحقيقنا.

جسده وحوله من يروحه بالمروحة، كما يكون في شدة الحر(١).

الحكاية الثامنة والعشرون بعد المائة

عن الزوجين الصالحين الشيخ الإمام الورع أبي سعيد بن سليمان عبد الله الهاشمي الجيلي وامرأته قالا: كان لأم الخير فاطمة أم الشيخ عبد القادر رضي الله عنهما قدم في هذا الأمر، وسمعناها تقول غير مرة لما وضعت ابني عبد القادر: كان لا يرضع ثديي في نهار رمضان، وغم على الناس هلال رمضان فأتوا وسألوني عنه، فقلت لهم: لم يلتقم اليوم ثديًا، ثم اتضح أن ذلك اليوم كان من شهر رمضان. واشتهر ببلدنا في ذلك الوقت أنه وُلد للأشراف ولدٌ لا يرضع في نهار رمضان.

وعن قاضي القضاة أبي صالح قال: سمعت من الشيخ عبد الوهاب يقول: الأكابر من مشايخ العجم وعلمائها يروون عن أكابرهم أنه كان لا يرضع في نهار شهر رمضان، يعني ولدها الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ.

وروى أن أمه حملت به وهي بنت ستين سنة، ويُقال: لا تحمل لستين سنة إلا قرشية، ولا لخمسين إلا عربية، والله أعلم.

الحكاية التاسعة والعشرون بعد المائة

عن الشيخ عمر الكيماني قال: حضر يومًا مجلس الشيخ عبد القادر ﷺ بقبة النقباء فلان، وسمَّاه ولم يكن حضره قبل، فقال الشيخ مشيرًا إليه: ليتك لم تُخلق وإن خُلقت علمت لما خُلقت. يا نائم انتبه، افتح عينك، وانظر ما أمامك، قد أتتك جنود العذاب. يا راحل. يا ذليل. يا منتقل. سافر إليَّ لتسمع مني كلمة واحدة. المبلغ عندك حب الدنيا. كم تيمت الدنيا مثلك بالجاه والكبر ثم قتلته. وأنت يا مريد وقد قطعت الدنيا والآخرة وقد وصلت إلى الله، ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣].

فلما نزل عن الكرسي قال له بعض تلاميذه: يا سيدي، لقد بالغت في القول له، فقال: إنما هو نورٌ جلا ظلمة، قال: فلم يزل بعد ذلك يحضر مجلسه ويأتيه في غير وقت المجلس ويجلس بين يديه متواضعًا(٢).

---

(١) انظر: الزاهر (ص٣٤).

(٢) انظر: بهجة الأسرار (ص١٧٧).

الحكاية الثلاثون بعد المائة

عن عبد الله قال: قال لي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ: كنت أمرُّ وأمشي في النوم واليقظة، وكان يغلب عليَّ الكلام، ويزدحم على قلبي، وإن لم أتكلم أكاد أختنق ولا أقدر أن أسكت.

وكان يجلس عندي الرجلان والثلاثة يسمعون كلامي ثم تسامع الناس بي، وازدحم الخلق عليَّ، فكنت أجلس في المصلى بباب الحلبة، ثم ضاق على الناس الموضع، فحمل الكرسي إلى خارج البلد وجعل في المصلى، وكان الناس يجيئون الموضع على الخيل والبغال والجمال والحمير، ويقفون على دار المجلس، وكان يحضر بالمجلس نحو من سبعين ألف.

الحكاية الحادية والثلاثون بعد المائة

عن الشيخ أبي زكريا يحيى بن نصر البغدادي المعروف بالصاوي قال: سمعت أبي يقول: استدعيت الجان مرة بالعزائم فأبطأت عليَّ إجابتهم أكثر من عادتهم، ثم أتوني وقالوا: لا تعد تستدعينا إذا كان الشيخ يتكلم على الناس، فقلت: ولِمَ؟ قالوا: إنا نحضره، قلت: وأنتم أيضًا؟ قالوا: إن ازدحامنا بمجلسه أشد من ازدحام الإنس، وإنا منا طوائف كثيرة أسلمت وتابت على يديه[1].

وعن أبي حفص عمر بن حسين بن خليل الطيبي قال: قال الشيخ عبد القادر ﷺ في بعض الأيام: أي عمر. لا تنقطع عن مجلسي؛ فإن الله يفرق فيه الخلع والويل لمن يفوته. قال الشيخ أبو حفص: ومضى على ذلك مدة، فبينما أنا في بعض الأيام في المجلس إذ غشيني النوم، فغمضت عيني فرأيت خلقًا نزل من السماء حمرًا وخضرًا، فتقع على أهل المجلس ففتحت عيناي منزعجًا، ووثبت لأقول للناس قال: فناداني الشيخ ﷺ: اسكت فليس الخبر كالمعاينة[2]، والله أعلم.

---

(١) انظر: السابق (ص١٨٠).

(٢) انظر: بهجة الأسرار (ص١٨٠).

الحكاية الثانية والثلاثون بعد المائة

عن الشيخ أبي حفص عمر بن حسن بن خليل الطيبي قال: حضرت مجلس الشيخ عبد القادر ﷺ وكنت قاعدًا محاذيًا وجهه، فرأيت شيئًا على هيئة القنديل البلور نزل من السماء إلى أن قرب فم الشيخ، ثم عاد وصعد سريعًا، هكذا ثلاث مرات، فما تمالكت أن قمت لأقول للناس لفرط تعجبي، فناداني وقال: اقعد فإن المجالس بالأمانة، قال: فجلست ولم أتكلم إلا بعد موته ﷺ"[1].

وعن يحيى ابن الحاج الأديب قال: قلت في نفسي: أريد أن أحصر كم يقص الشيخ محيي الدين عبد القادر شعرًا في مجلس وعظه، فحضرت المجلس ومعي خيط، وكلما قص شعرًا عقدت عقدة تحت ثيابي من الخيط، وأنا في آخر الناس وإذا به يقول: أنا أحل وأنت تعقد"[2].

الحكاية الثالثة والثلاثون بعد المائة

عن الشيخ الإمام الحافظ أبي زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي الرازي -رحمه الله تعالى- قال: حضرت مجلس الشيخ محيي الدين عبد القادر ببغداد في سنة سبع وخمسين وخمسمائة، فسمعته يقول: إنما كلامي على رجال يحضرون مجلسي وراء جبل قاف، أقدامهم في الهواء، وقلوبهم في حضرة القدس، تكاد قلانسهم وطواقيهم تُحرق من شدة شوقهم إلى الله ﷻ، وكان ابنه عبد الرزاق إذ ذاك جالسًا على المنبر تحت رجلي أبيه، فرفع رأسه في الهواء فشخص ساعة ثم غشي عليه واحترقت طاقيته، ونزل الشيخ وأطفأها وقال: وأنت أيضًا يا عبد الرزاق منهم، قال: وسألت عبد الرزاق عما غشيه، فقال: لما نظرت إلى الهواء رأيت رجالاً واقفين مطرقين منصتين لكلامه قد ملأوا الأفق، وفي ثيابهم ولباسهم النار، ومنهم من يصيح ويعدو في الهواء، ومنهم من سقط في المجلس، ومنهم من يرعد في مكانه، قال: وكان يسمع عند كلامه في الهواء صياحًا ورجةً تعلو في الأرض.

---

(١) انظر: الروض الزاهر (ص٣٣).

(٢) انظر:السابق (ص٣٤).

الحكاية الرابعة والثلاثون بعد المائة

عن الشيخ الأصيل أبي الفلاح، أن الشيخ الجليل أبي الخير ابن الشيخ القدوة أبي محمد الباذراني ﷺ[1] قال: سمعت أبي يقول: لما حضرت الشيخ مطر الوفاة قلت لـه: أوصني بمن أقتدي به بعدك؟ قال: بالشيخ عبد القادر، فظننته في علة مرضه، فتركته ساعة ثم قلت له: أوصني بمن أقتدي بعدك؟ فقال: بالشيخ عبد القادر، فتركته ساعة وأعدت عليه القول فقال: يا بني زمانًا يكون فيه عبد القادر لا يُقتدى إلا به، فلما مات أتيت بغداد وحضرت مجلس الشيخ عبد القادر، وإذا فيه الشيخ بقا بن بطو، والشيخ أبو سعيد القيلوي، والشيخ علي بن الهيتي، وغيرهم من أعيان المشايخ، رضي الله عنهم، وسمعته يقول: ليس كلامي عليكم إنما أنا بأمر الله، إنما كلامي على رجال في الهواء، وجعل يرفع رأسه إلى الهواء، فإذا بإزائه صفوف رجال من نورٍ على جبلٍ من نورٍ، قد حالوا بين نظري وبين السماء من كثرتهم وهم مطرقون، ومنهم من يبكي، ومنهم من يرعد، ومنهم من في ثيابه نار، فغشي عليَّ، ثم قمت أعدو وأشق الناس، حتى طلعت إليه فوق الكرسي وأمسك بأذني وقال: أما اكتفيت من أول مرة بوصية أبيك فأطرقت من هيبته[2].

الحكاية الخامسة والثلاثون بعد المائة

عن الشيخ الكبير العارف بالله أبي سعيد القيلوي ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم في مجلس الشيخ عبد القادر ﷺ غير مرة، وأن السيد الخضر عنده، وأن أرواح الأنبياء لتجول في السماوات والأرض، جولان الرياح في الآفاق، ورأيت الملائكة عليهم السلام يحضرونه طوائف بعد طوائف، ورأيت رجال الغيب رضوان الله عليهم والجان يتسابقون إلى مجلسه، ورأيت أبا العباس الخضر ﷺ يكثر من حضوره فسألته فقال: من أراد

---

(١) وقيل: البادراني، وهذا الشيخ من أجلاء مشايخ العراق، وسادات العارفين، صاحب الكرامات الظاهرة، والأحوال الفاخرة، والأفعال الخارقة، والمقامات السنية، والهمم الفخيمة، صاحب الفتح المونق، والكشف المشرق، والتقدم في مراتب القرب، والتصدر في مواطن القدس، والترقي في معارج المعارف، والتعالي في مراقي الحقائق، له الباع الطويل في التصريف النافذ، له اليد البيضاء في أحكام الولاء، والقدم الراسخ في درجات النهاية، والطور السامي في الثبات والتمكين، وهو أحد من ملك أسراره، وقهر أحواله، وغلب على أمره. وانظر: بهجة الأسرار للشطنوفي (ص٣٠٨) بتحقيقنا.

(٢) انظر: بهجة الأسرار (ص١٨٣)، والقلائد (٢٣٢).

الفلاح فعليه بملازمة هذا المجلس"[1].

وعن الشيخ أبي عبد الله عبد الوهاب ابن الشيخ محيي الدين عبد القادر أن مدة كلام والده على الناس أربعين سنة، أولها سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، وآخرها سنة إحدى وستين وخمسمائة، ومدة تصدره للتدريس والفتوى بمدرسته ثلاث وثلاثون سنة، أولها سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وآخرها إحدى وستين وخمسمائة، وكان يكتب ما يقول في مجلسه أربعمائة محبرة عالم وغيره، وكان كثيرًا ما يخطو على رؤوس الناس خطوات ثم يرجع إلى الكرسي، وكان كثيرًا تموت في مجلسه الرجلان والثلاثة.

الحكاية السادسة والثلاثون بعد المائة

عن عبد الله الجبائي قال: قال الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ: أتمنى أن أكون في الصحاري والبراري كما كنت الأول، لا أرى الخلق ولا يروني.

وقال: أراد الله مني منفعة الخلق فإنه قد أسلم على يدي أكثر من خمسمائة من اليهود والنصارى، وتاب على يدي من الغيارين والمسالجة أكثر من مائة ألف، وهذا خيرٌ كثيرٌ انتهى"[2].

يحتمل أن المسالجة بالسين والجيم المهملتين: هم أصحاب السلاح من جند الولاية، ويحتمل أنه بالسين المعجمة، وكذا هو في الأصل المنقول منه، ولعل معناه والله أعلم الذين يسلحون في الطريق: أي ينهبون ويأخذون، فإنهم بالاستعمال المصطلح عليه في ألسنة الناس اليوم، وهذا راجعٌ إلى معنى الغيارين الذين ينهبون، ويكون اللفظان مترادفين؛ لأن الغيار أيضًا في اصطلاح الناس الذي ينهب، وكأنه الذي يختلس ويهرب مأخوذة من قولهم: غار الفرس يغير، فهو غارة إذا انفلت وجرى كالبعير إذا بدا وهرب، وصيغة غيار للمبالغة والتكثير، مثل لغة: ضرَّاب مبالغة في ضارب لمن كثر منه الضرب.

الحكاية السابعة والثلاثون بعد المائة

عن الشيخ عمر الكيماني قال: لم يكن مجلس الشيخ عبد القادر ﷺ يخلو ممن يسلم من اليهود والنصارى، ويتوب عن قطع الطريق وقتل النفس، وغير ذلك من الفساد، ويرجع عن

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٨٣).

(٢) انظر: الروض الزاهر (ص٣٠).

معتقده بعض الرافضة وغيرهم[١].

وأتاه راهبٌ وأسلم على يديه في المجلس، وقال للناس: إني رجلٌ من أهل اليمن، وإن الإسلام وقع في نفسي، وقوى عزمي ألا أسلم إلا على يد خير أهل اليمن في ظني، وجلست مفكرًا فغلب عليَّ النوم، فرأيت عيسى بن مريم صلوت الله وسلامه عليه يقول: يا إنسان اذهب إلى بغداد وأسلم على يدي الشيخ عبد القادر الجيلي، فإنه خير أهل الأرض في هذا الوقت[٢].

قال: وأتى مرة العراق ثلاثة عشر رجلاً من النصارى وأسلموا على يديه في مجلس وعظه، وقالوا: نحن من تجار المغرب أردنا الإسلام، وترددنا فيمن نقصده ونسلم على يديه، فهتف بنا هاتفٌ نسمع كلامه ولا نرى شخصه، يقول: أيها الركب ذو الفلاح، ائتوا بغداد وأسلموا على يدي الشيخ عبد القادر، فإنه يوضع في قلوبكم من الإيمان عنده ببركته ما لا يوضع فيها عند غيره من سائر الناس.

الحكاية الثامنة والثلاثون بعد المائة

عن أبي محمد مفرج بن نبهان الشيباني قال: لما اشتهر أمر الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ اجتمع مائة فقيه من أعيان فقهاء بغداد وأذكيائهم، على أن يسأله كل منهم مسألة في فنٍّ من العلوم غير مسألة صاحبه؛ ليقطعوه بها، وأتوا مجلس وعظه وكنت يومئذٍ فيه، فلما استقرَّ بهم المجلس أطرق الشيخ فظهرت من صدره بارقة من نورٍ لا يراها إلا من شاء الله ﷻ، ومرَّت على صدور المائة فقيه، ولا تمر على أحدٍ منهم إلا وبهت ويطرب، ثم صاحوا صيحة واحدة، ومزَّقوا ثيابهم، وكشفوا رؤوسهم، وصعدوا إليه فوق الكرسي، ووضعوا رؤوسهم على رجليه، وصاح أهل المجلس صيحةً واحدةً ظننت أن بغداد رجفت بها، فجعل الشيخ يضم إلى صدره واحدًا منهم بعد واحدٍ حتى أتى على آخرهم.

ثم قال لأحدهم: أما أنت فمسألتك كذا وجوابها كذا، حتى ذكر لكلٍّ منهم مسألته وجوابها.

قال: فلما انقضى المجلس جئتهم وقلت لهم: ما شأنكم؟ قالوا: لما جلسنا فقدنا جميع ما

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٨٣).

(٢) انظر: السابق (ص١٨٥).

نعرفه من العلم حتى كأنه نُسخ منا، فلما ضمنا إلى صدره رجع إلى كل واحدٍ منا ما نُزع منه من العلم، ولقد ذكرنا مسائلنا التي بيَّناها لـه، وذكر لنا فيها أجوبة لا نعرفها[1]، نفع الله به، وأعاد علينا من بركاته.

الحكاية التاسعة والثلاثون بعد المائة

عن الشيخ العارف أبي القاسم محمد بن أحمد الجهني، قال: كنت أجلس تحت كرسي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ، وكان له نقباء يجلسون على الكرسي على كل مرقاةٍ منهم اثنان، وكان لا يجلس كذلك إلا وليٌّ أو صاحب حال، وكان يجلس تحت كرسيه رجال كأنهم الأسد هيبة، ولقد استغرق مرة في كلامه على الكرسي حتى انحلت طية من عمامته وهو لا يشعر، فألقى الحاضرون عمائمهم وطواقيهم تحت الكرسي، فلما فرغ من كلامه ذلك أصلح عمامته وقال لي: يا أبا القاسم رد عليهم عمائمهم وطواقيهم، ففعلت وتخلفت عصابة لا أدري لمن هي، ولا بقي لأحدٍ في المجلس شيء، فقال لي الشيخ: أعطنيها، فأعطيته إيَّاها فجعلها على كتفه فإذا هي ليست عليه فبهت لذلك، فلما نزل الشيخ توكأ على كتفي - أو قال: على ساعدي - وقال لي: يا أبا القاسم لما وضع أهل المجلس عمائمهم وضعت امرأة بأصبهان عصائبها، فلما رددت على الناس عمائمهم وجعلتها على كتفي مدَّت يدها من أصبهان فأخذتها[2]، رضي الله عنهما، ونفع بهم أجمعين.

الحكاية الأربعون بعد المائة

عن الشريف أبي العباس أحمد، والشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد الأزهري الحسني رحمه الله تعالى قال: أخبرني أبي قال: كان يحضر مجلس الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ أكابر مشايخ العراق، وأعيان علمائها، وصدور مفتيها، مثل الشيخ بقا، والشيخ أبو سعيد القيلوي، والشيخ علي بن الهيتي، والشيخ أبي النجيب السهروردي، والشيخ أبي حكم بن دينار، والشيخ ماجد الكردي، والشيخ مطر، والشيخ أبي يعلى محمد بن الفراء، والعاص ابن الحسن علي بن الدمغاني، والإمام أبي الفتح وغيرهم، وما دخل أحدٌ من المشايخ والأعيان إلى بغداد إلا وحضر مجلسه، وما علمت أن الشيخ عبد الرحمن الطفسونجي دخل بغداد، ولكني رأيته

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٨٥).

(٢) انظر: السابق (ص١٨٦).

غير مرة بطفسونج ينصت طويلاً، ويقول لي: إني أنصت لأسمع كلام الشيخ عبد القادر.

ورأيت الشيخ عدي بن مسافر غير مرة ببلده خرج من زاويته إلى الجبل، ويدير دائرة بعكازه ويدخلها، ويقول: من أراد أن يسمع كلام الشيخ عبد القادر فليدخل هذه الدائرة، فيدخلها أكابر أصحابه ويسمعون كلام الشيخ عبد القادر، وربما كتب بعضهم ما يسمعه ويؤرخ ذلك اليوم، ويأتي بغداد ويقابل بها كتبه أهل بغداد من كلام الشيخ ذلك اليوم فيتفقان، وكان الشيخ عبد القادر يقول في الوقت الذي يدخل فيه الشيخ عدي الدائرة لأهل مجلسه: عبر الشيخ عدي"[1].

الحكاية الحادية والأربعون بعد المائة

عن الشيخ أبي عبد الله محمد أبي الفتح الهروي رحمه الله تعالى قال: حضرت مجلس الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ، فتكلم حتى استغرق في كلامه، فقال: لو أراد الله تعالى أن يبعث طيرًا أخضر يسمع كلامي لفعل، فلم يتم كلامه حتى طار طائر أخضر حسن الصورة ودخل في كمه وما خرج.

قال: وتكلَّم يومًا آخر في مجلسه فتداخل بعض الناس فترة، فقال: لو أراد الله سبحانه وتعالى أن يرسل طيورًا خضر تسمع كلامي، فلم يتم كلامه حتى امتلأ المجلس بطيور خضر فرآها من حضر.

قال: وتكلَّم يومًا في قدرة الله تعالى وعمَّ الناس من كلامه هيبة وخشوع، فمرَّ بالمجلس طائر أخضر عجيب الخلقة، فاشتغل الناس بالنظر إليه عن سماع كلام الشيخ، فقال: وعزة المعبود لو شئتم أن أقول لهذا الطائر: مت قطعًا قطعًا، لمات قطعًا قطعًا، فما أتمَّ كلامه حتى وقع الطائر إلى الأرض بالمجلس قطعًا قطعًا"[2].

الحكاية الثانية والأربعون بعد المائة

عن الشيخ أبي الحسن علي بن يحيى الأمرجي قال: أخبرنا الشيخ قاضي القضاة أبو صالح نصر قال: سمعت عمي أبا عبد الله عبد الوهاب يقول: سافرت إلى بلاد العجم وتفننت في العلوم، فلما رجعت إلى بغداد قلت لوالدي: أريد أن أتكلم على الناس بحضرتك، فأذن لي

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٨٦).

(٢) انظر: بهجة الأسرار (ص١٨٧).

فصعدت على الكرسي وتكلمت بما شاء الله من العلوم والمواعظ، ووالدي يسمع فلم يخشع، قلت: ولم يجرِ دمعه، فصاح أهل المجلس بوالدي يسألونه أن يتكلَّم عليهم، فنـزلت وصعد والدي، وقال: كنت بالأمس صائمًا وقلت لي أم يحيى بيضات، فجعلتها في سكرجة ووضعتها على الشرفة، فجاءت السنورة فرمت بها وانكسرت، فصاح أهل المجلس بالصراخ، فلما نزل قلت له في ذلك، فقال: يا بني أنت مدة سفرك سافرت إلى هنا، وأشار بإصبعه إلى السماء، ثم قال ﷺ: يا بني إني كلما صعدت الكرسي تجلَّى الحق ﷻ على قلبي وباسطني، فحدثتُ بها سمعت بسطًا مقبوضًا، وكان الذي رأيت من الناس، قال: وكنت بعد ذلك ربما أصعد الكرسي وأتكلم على الناس بفنون من العلم والأصول والفقه والمواعظ، ووالدي يسمع فلا يتأثر أحد من كلامي، ثم أنزل فيصعد والدي فيقول: إن الساعة خير ساعة، فيصيح أهل المجلس صيحة واحدة، وكنت لما أسأله عن ذلك فيقول لي: أنت المتكلم وأنا المتكلم في غيري، قال: وكان إذا سُئل عن مسألةٍ في مجلس وعظه ربما يقول: أستأذن الله في الكلام عليها، ويطرق وتجلله الهيبة ويعلوه الوقار، ثم يتكلَّم عليها بما شاء الله تعالى.

وكان يقول: وعزة العزيز ما تكلَّمت حتى قيل لي: بحقي عليك تكلم، فقد أمنتك من الرد، فيُقال لي: يا عبد القادر تكلم نسمع منك[١].

الحكاية الثالثة والأربعون بعد المائة

عن الشيخ الكبير الرفيع المتَّقي العارف المعروف بالشيخ بقا ﷺ قال: حضرت مجلس الشيخ عبد القادر ﷺ مرة، فبينما هو يتكلم على المرقاة الأولى من الكرسي إذ قطع كلامه وسها ساعة، ونزل إلى الأرض ثم صعد الكرسي، وجلس على المرقاة الثانية، فأشهدت المرقاة الأولى قد اتسعت حتى صارت مد البصر، وفُرشت من السندس الأخضر، وجلس عليها رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم، وتجلَّى الحق سبحانه على قلب الشيخ عبد القادر، فمال حتى كاد يسقط، فأمسكه رسول الله ﷺ لئلا يقع، ثم تضاءل حتى صار كالعصفور، ثم نما حتى صار على صورةٍ هائلةٍ، ثم توارى عني هذا كله، قال: فسُئل الشيخ بقا عن رؤيته النبي ﷺ وأصحابه، قال: أرواحهم شكلت وإن الله تعالى أيَّدهم بقوة يظهرون بها، فيراهم من قوّاه الله تعالى لرؤيته في صور الاعتقاد وصفات الأعيان، بدليل حديث

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٨٨).

المعراج، وسُئل عن تضاؤل الشيخ عبد القادر ونموه، فقال: كان التجلِّي الأول بصفةٍ، فلذلك كاد الشيخ يسقط لولا أن تداركه رسول الله ﷺ، وكان التجلِّي الثاني بصفة الجلال من حيث موصوفه، فلذلك تضاءل الشيخ، وكان التجلي الثالث بصفة الجمال من حيث المشاهدة، فلذلك معنى (ونما) الشيخ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

الحكاية الرابعة والأربعون بعد المائة

عن أبي الفضل أحمد بن أبي القاسم بن عبدان القرشي البغدادي البزار قال: كان الشيخ محيي الدين عبد القادر يتطليس ويلبس لباس العلماء، ويلبس الرفيع من القماش، ولقد أتاني خادمه سنة ثمان وخمسين وخمسمائة بذهبٍ وقال: إني أريد خرقة ذراعها بدينار لا تزيد حبة ولا تنقص، فأعطيته وقلت له: لمن هي؟ فقال: لسيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ، فقلت في نفسي: ما ترك الشيخ للخليفة من اللباس؟! فلم يتم خاطري حتى وجدت في رجلي مسمارًا، وشاهدت من ألمه الموت، واجتمع عليَّ الناس لينزعونه فلم يستطيعوا، فقلت لهم: احملوني إلى الشيخ، فلما طُرحت بين يديه قال لي: يا أبا الفضل ولِمَ تتعرض علينا بباطنك؟! وعزة المعبود ما لبسته حتى قيل لي: بحقي عليّ البس قميصًا ذراعه بدينار. يا أبا الفضل هذا كفنٌ. ثم مرَّ بيده على رجلي فذهب المسمار والألم لوقته، ووالله ما أدري من أين جاء ولا أين ذهب؟! ولا رأيته إلا في رجلي وقمت أعدو، فقال الشيخ: اعتراضه علينا تشكَّل له في صورة مسمار.

الحكاية الخامسة والأربعون بعد المائة

عن أبي محمد رجب بن أبي المنصور الداري وأبي زيد سالم القرشي، قال أبو محمد: أخبرنا الشيخ ابن قاضي القضاة أبو صالح نصر، والشيخ أبو الحسن علي الحداد ببغداد قال: قال أبو صالح: أخبرنا والدي عبد الرزاق، وقال أبو الحسن: أخبرنا الشيخ عمر البزار وقال: أخبرنا الشيخ العالم أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد الداري قال: كان شيخنا محيي الدين عبد القادر ﷺ يلبس لباس العلماء ويتطليس، ويركب البغلة ويرفع بين يديه الغاشية، ويتكلَّم على كرسي عالٍ، وكان في كلامه سرعة وجهر، وله كلمة مسموعة، إذا قال أُنصت له، وإذا أمر ابتدر لأمره، وإذا رآه ذو القلب الغاشي يخشع، وإذا رأيته فقد رأيت الناس كلهم، وإذا مرَّ إلى

الجامع يوم الجمعة وقف الناس في الأسواق، يسألون الله به حوائجهم.

وكان له سمت وصوت، ولقد عطس في الجامع يوم الجمعة فشمَّته الناس حتى سمعت في الجامع ضجة عظيمة يقولون: يرحمك الله ويرحم بك، وكان المعتمد في مقصورة في الجامع فقال: ما هذه الصيحة؟ فقيل له: عطس الشيخ عبد القادر فهاله ذلك.

وعن الشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن أحمد البغدادي الصوفي قال: كان الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ ذا هيبةٍ عظيمةٍ، إذا نظر إلى أحدٍ يكاد يرعد من هيبته، وإذا جلس يحدق به القوم كأنهم الأسد، وما يرى أسرع امتثالاً لأمره منهم، ولا أشد انقيادًا منهم، رضي الله عنهم أجمعين.

الحكاية السادسة والأربعون بعد المائة

عن الشيخ الصالح أبي الحسن علي بن محمد بن أحمد البغدادي المعروف بابن الحمامي رحمه الله تعالى قال: رأيت في المنام في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وأنا صبيٌّ، نهرًا قد صار ماؤه دمًا وقيحًا، وسمكه حيات وحشرات وهو ينمو، وأنا أهرب منه خوفًا أن ينالني، حتى انتهيت إلى منزلنا، فناولني رجلٌ من داخل المنزل مروحة وقال: امسك بها شديدًا، فقلت: بهذا يحملني؟ فقال: إيمانك يحملك، فتمسكت بطرفها فإذا أنا عنده فوق سرير في منزلنا، وقد سكن روعي، فقلت له: بالذي منَّ عليَّ بك من أنت؟ فقال: أنا نبيك محمد رسول الله ﷺ، فارتعدت من هيبته، فقلت: يا رسول الله، ادعُ الله لي أن أموت على كتابه وسنتك، قال: نعم وشيخك عبد القادر الجيلاني، وذكر أنه تكرَّر منه هذا الخطاب للنبي ﷺ، وأعاد عليه ﷺ هذا الجواب ثلاث مرات، قال: ثم استيقظت وقصصت الرؤيا على أبي وأهلي، فلما صلينا الفجر أخذني أبي ومضينا إلى الشيخ عبد القادر، وكان ذلك اليوم الذي يتكلم فيه في الرباط، فوافيناه يتكلم ولم نقدر على الجلوس بالقرب منه لكثرة الناس، فجلسنا في آخر الناس فقطع كلامه وقال: ائتوني بذالكما الرجلين، وأشار إلينا فحُملت أنا وأبي على أعناق الناس حتى أتوا إلى الكرسي، فاستدعانا فطلع إليه أبي وأنا خلفه، فقال لأبي: يا أبله ما أتيتنا إلا بدليلٍ، وألبسه قميصه وألبسني الطاقية التي كانت على رأسه، وجلسنا بين الناس فإذا القميص الذي ألبسه الشيخ لأبي مقلوبٌ، فهمَّ أن يصلحه فقيل له: اصبر حتى ينفض الناس، فلما نزل الشيخ أراد أبي أن يصلحه في غلبات الناس، فإذا هو غير مقلوبٍ، فغشي عليه واضطرب الناس لذلك،

فقال الشيخ: ائتوني به، فدخلنا عليه وهو جالسٌ في قبة الأولياء، قبة في الرباط سُمِّيت بذلك لكثرة ورود الأولياء ورجال الغيب إليها لزيارة الشيخ، فقال لي أبي: من يكون دليله رسول الله ﷺ وشيخه عبد القادر فكيف لا يكون له كرامة، وهذه كرامة لك، واستدعى بدواة وقرطاس وكتب لنا إسناد الخرقة ﷺ.

الحكاية السابعة والأربعون بعد المائة

عن الشيخ العارف بالله القدوة أبي النجيب السهروردي قال: أخبرنا أبي قال: كان الشيخ حماد الدباس، يُسمع له كل ليلةٍ دوي كدوي النحل، فقال أصحابه للشيخ عبد القادر في سنة ثمان وخمسمائة، وكان في صحبته يومئذٍ: اسأله عن ذلك، فسأله فقال لي: إن لي اثني عشر ألف مريد، وإني أذكر أسماؤهم كل ليلةٍ، وأسأل لكلٍّ منهم حاجته إلى الله ﷻ، وإذا أصاب مريد لي ذنبًا فلا ينقضي عنه شهره ذلك حتى يموت أو يتوب؛ إشفاقًا عليه أن يتمادى فيه، فقال له الشيخ عبد القادر: لأن أعطاني الله منـزلة عنده لأخذن من ربي تبارك وتعالى عهدًا لمريدي إلى يوم القيامة ألا يموت أحدهم إلا على توبةٍ، ولا أكونن بذلك ضمينًا لهم، فقال الشيخ حماد: أشهدني الله تعالى ذلك.

الحكاية الثامنة والأربعون بعد المائة

عن قاضي القضاة أبي صالح نصر قال: أخبرني أبي عبد الرزاق، وعمي عبد الوهاب ابني الشيخ محيي الدين عبد القادر، رضي الله عنهم، قالا: إنه قال:

طوبى لمن رآني أو رأى من رآني، أو رأى من رأى من رآني، أو رأى من رأى من رآني، وأنا حسرة على من لم يرني.

وقال فيما يُروى عن الشيخ أبي القاسم البزار: عثر الشيخ الحسين الحلاج فلم يكن في زمنه من يأخذ بيده. فقال الشيخ عبد القادر: لو كنت في زمانه لأخذت بيده وأنا لكل من عثرت به عثرة من أصحابي ومريدي ومحبي إلى يوم القيامة آخذ بيده.

الحكاية التاسعة والأربعون بعد المائة

عن الشيخ الإمام أبي محمد داوود بن علي البغدادي المعروف بالحائك قال: رأيت في منامي في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة معروفًا الكرخي ﷺ فأتته قصص الناس وهو يعرضها على الله ﷻ، فقال له: الحمد لله يا سيدي الشيخ إنا فقراؤك، فلا يردوني بجاهك عند مولاك اشفع لي، فقال لي: يا شيخ داوود هات قصتك أعرضها على الله ﷻ، قلت: وشيخي عزلوه؟

أعني الشيخ محيي الدين، قال: لا والله ما عزلوه ولا يعزلونه، ثم استيقظت وأتيت في السحر إلى مدرسة الشيخ عبد القادر، وجلست على باب داره لأخبره، فناداني من داخل داره قبل أن أراه أو أكلمه: يا داوود شيخك ما عزلوه وما يعزلونه، هات قصتك أعرضها على الله ﷻ، فوعزة ربي ما عرضت قصة لأصحابي ولا لغيرهم فردت عليَّ مسألتي فيها.

الحكاية الخمسون بعد المائة

عن الإمام الحافظ تاج الدين أبي بكر بن عبد الرزاق ابن شيخ الإسلام محيي الدين عبد القادر ﷺ قال: قال والدي لأم ولده يحيى ليلة الأربعاء التاسع من شعبان سنة خمس وخمسمائة: اطحني أرزًا، فقامت وطحنت وملأت سفرة ونامت، فلما كان جوف الليل انشقَّ الجدار فدخل منه رجلٌ يأكل ما هنالك كله، ثم همَّ ليذهب فقال لي أبي: ألحقه واسأله الدعاء لك، فلحقته خارجًا من الجدار كهيئته حين جاء، وسألته الدعاء فقال لي: بدعوة أبيك وبركة خرقته صرت إلى ما ترى من الخير، فلما أصبحت ذكرت ذلك للشيخ علي بن الهيتي ﷺ، فقال: ما أعلم خرقة وُضعت على رأس أحد وأسرع فتحًا لصاحبها ولا أكثر بركة من خرقة أبيك، ولقد فتح الله تعالى على سبعين رجلاً ممن لبس منه في وقتٍ واحدٍ في عشية اليوم الذي لبسوا فيه فتحًا عظيمًا، وأُعطوا عطاءً جزيلاً ببركة وضعه يده على رؤوسهم، وما رأيت يومًا أكثر بركة من اليوم الذي رأيت فيه وجه أباك نفع الله به.

الحكاية الحادية والخمسون بعد المائة

عن أبي الغنائم الشريف الحسين الدمشقي رحمه الله تعالى قال: أجنب خادم الشيخ محيي الدين عبد القادر في ليلة سبعين مرة، يرى في كل مرةٍ أنه يواقع امرأة غير التي قبلها. منهن من يعرفها، ومنهن من لا يعرفها، فلما أصبح أتى إلى الشيخ ليشكو علته، فقال له قبل أن يذكر شيئًا من ذلك: لا تكره جنابتك البارحة، فإني نظرت إلى اسمك في اللوح المحفوظ فوجدت فيه أنك تزني سبعين مرة بفلانة وفلانة، وذكر له أسماء من يعرفها منهن وصفاتهن، فسألت الله ﷻ حتى حوَّل ذلك عنك من اليقظة إلى النوم، نفع الله به وأعاد علينا من بركاته.

الحكاية الثانية والخمسون بعد المائة

عن عيسى بن عبد الله قال: سمعت الشيخ محيي الدين عبد القادر يقول: أيما امرؤ مسلم مرَّ على باب مدرستي فإنه أمن من عذاب القبر إلى يوم القيامة، يخفف عنه.

قال: وجاءه شابٌّ من أهل بغداد وقال له: إن أبي قد مات ورأيته البارحة في المنام وذكر

أنه معذَّبٌ في قبره، وقال لي: اذهب إلى الشيخ عبد القادر فاسأله لي الدعاء، فقال له: هل مرَّ على باب مدرستي؟ قال: نعم. فسكت فعاد ولده من الغد فقال: رأيته البارحة مستبشرًا وعليه خلعة خضراء، وقال لي: قد دفع الله عني العذاب، وكُسيت ما ترى ببركة الشيخ محيي الدين عبد القادر، فعليك يا ولدي بملازمته، وقال الشيخ: إن ربي ﷺ وعدني أن يخفف العذاب عمن مرَّ على مدرستي من المسلمين.

قال: وحضرته يومًا وقد قيل له: إنه يسمع صراخ ميت من قبره دُفن منذ أيام في قبره عند باب الأزج، فقال: ألبس مني خرقة؟ قالوا: ما نعلم ذلك، قالوا: أحضر مجلسي؟ قالوا: لا نعلم ذلك، قال: أكل من طعامي؟ قالوا: لا نعلم ذلك، قال: المفرط أولى بالخسارة، وأطرق ساعة تجلله الهيبة، ويعلوه الوقار، ثم قال: إن الملائكة قالت لي: إنه رأى وجهك وأحسن بك الظن، وأن الله تعالى قد رحمه بذلك، قال: فلقد تكرَّر ذهاب الناس بعد ذلك زمانًا، وما سُمع له صراخ بعدها أبدًا، أعاد الله علينا من بركاته.

الحكاية الثالثة والخمسون بعد المائة

عن المشايخ الصلحاء الشيخ أبي محمد عبد الكريم بن منصور البغدادي، والشيخ أبي زكريا بن يوسف الأنصاري الصرصري، والشيخ أبي الحسن بن محمد البصري المقري، والشيخ أبي الحسن علي محمد بن محمد بن وضاح قالوا: كنا عند الشيخ القدوة أبي محمد علي بن إدريس اليعقوبي في سنة عشر وستمائة، فجاء الشيخ الصالح أبو حفص عمر المعروف ببريدة فقال له الشيخ علي: اقصص رؤياك عليهم، قال: رأيت في المنام أن القيامة قد قامت والأنبياء وأممهم قادمون الموقف، ويتبع بعض الأنبياء الرجلان والرجل الواحد، ثم أقبل رسول الله ﷺ تقدمه أمته كالسيل، وفيهم المشايخ، ومع كل شيخ أصحابه معاونون عددًا وأنوارًا وبهجةً، وأقبل رجلٌ وعدد من المشايخ معهم خلقٌ كثيرٌ يفضلون غيرهم، فسألت عنهم فقيل لي: هذا الشيخ عبد القادر وأصحابه، فتقدمت إليه وقلت: يا سيدي ما رأيت في المشايخ أبهى منك، ولا في أتباعهم أحسن من أتباعك، فاستيقظت.

قال: وكان الشيخ محمد الواعظ الخياط حاضرًا، فقال له الشيخ علي بن إدريس: يا محمد أنشد شيئًا في هذا المعنى على لسان الشيخ عبد القادر ﷺ:

هَنِيْئًــا لِعَجَمِــي إِنِي قَائِــدُ الرَّكْــبِ ... أَسِيرُ بِهِــمْ قَصْدًا إِلَى المنْــزِلِ الرَّحْــبِ

وَأكـــنفهم وَالكـــل فِي شُـــغْلِ أَمْـــرِه　　وَأنزلهم فِي حَـضْرَةِ القـدسِ مِـنْ قـربِ
وَلِي مَقعـــد كـــل الطَّوَائِـــفِ عِنْـــدَه　　وَلِي مَنْهـلُ عَـذْب المشَارِبِ والـشربِ
وَأَهْـلُ الـصفَا يَسْعُونَ خَلْفِـي كلهـم　　هـم أمـضـى مِـن الـصَّارِمِ العـضبِ

فقال له الشيخ ابن الهيتي: أحسنت أحسنت ولقد صدقت.

وعن الشيخ أبي الحسن علي بن سليمان البغدادي قال: أخبرنا الشيخ القدوة أبو الحسن الجوسقي رحمه الله تعالى قال: حضرت عند الشيخ علي بن الهيتي والشيخ بقا، رضي الله عنهم أجمعين، فقال الشيخ عبد القادر: لي في كل طريقةٍ فحلٌ لا يبارى، ولي في كل أرضٍ خيلٌ لا يُسابق، ولي في كل جيشٍ سلطانٌ لا يُخالف، ولي في كل شعبٍ خليفةٌ لا يُعزل، نفع الله به.

الحكاية الرابعة والخمسون بعد المائة

عن الشيخ أبي محمد عبد الجبار ابن الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ قال: كانت أمي إذا دخلت مكانًا مظلمًا أضاءت عليها شمعة تسعى بها فيه، فدخل عليها والدي مرة فرأى الشمعة فوقعت فحينئذٍ أخمدت، فقال: إن هذا النور الذي رأيته شيطانًا كان يخدمك، وقد صرفته وأبدلتك منه نورًا، وكذلك أصنع بكل من انتمى إليَّ، أو كانت لي به عناية. قال: فكانت إذا دخلت بعد مكانًا رأت فيه نورًا مثل نور القمر على جوانب ذلك المكان.

الحكاية الخامسة والخمسون بعد المائة

عن بعض أصحاب الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ قال: نزلنا في بريةٍ مخوفةٍ لا يأمن فيها الأخ على أخيه من الخوف في طريقٍ بنيسابور - أو قال: خوارزم - قال: فلما حملنا الأحمال من أوائل الليل فقدت أربعة أحمال محملة سكرًا، فطلبتها فلم أجدها، ورحلت القافلة وانقطعت عنها أطلب الجمال، فتبعني الجمال ووقف معي، فطلبناها فلم نجدها، فلما انشقَّ الفجر وذكرت قول الشيخ يعني محيي الدين عبد القادر ﷺ: إن وقعت في شدةٍ فنادِني؛ فإنها تُكشف عنك، فقلت: يا شيخ عبد القادر جمالي، ثم التفتُّ إلى مطلع الفجر فرأيت في ضوء

الفجر أول ما انشقَّ رجلاً على رابيةٍ، وهو يشير إليَّ بكمه: أي تعالَ، قال: فلما صعدنا إلى الرابية لم نرَ أحدًا، ثم رأيت الأربعة الأحمال تحت الرابية باركة في الوادي، فأخذناها ولحقنا القافلة(١).

قال أبو المعالي: فأتيت الشيخ أبا الحسن الخباز رحمه الله تعالى، وحدَّثته بهذه الحكاية قال: سمعت سيدي الشيخ أبا القاسم عمر البزار يقول: سمعت سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ يقول: من استغاث بي في كربةٍ كُشفت عنه، ومن ناداني باسمي في شدةٍ فُرجت عنه، ومن توسَّل بي إلى الله ﷻ في حاجةٍ قُضِيت له، ومَنْ صلَّى ركعتين يقرأ في كل ركعةٍ بعد الفاتحة سورة الإخلاص أحد عشر مرة، ويصلِّي على رسول الله ﷺ بعد السلام ويذكره، ثم يخطو إلى العراق إحدى عشرة خطوة، ويذكر اسمي ويذكر حاجته فإنها تُقضى بإذن الله تعالى.

الحكاية السادسة والخمسون بعد المائة

عن الشيخ أبو المظفر منصور بن المبارك الواسطي الواعظ المعروف بجرادة قال: ما رأت عيناي أحسن خلقًا، ولا أوسع صدرًا، ولا أكرم نفسًا، ولا أشفق قلبًا، ولا أحفظ عهدًا وودًّا من سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ.

ولقد كان مع جلالة قدره، وعلو منـزلته، وسِعَة علمه، يقف مع الصغير، ويوقِّر الكبير، ويبدأ بالسلام، ويجالس الضعفاء، ويتواضع للفقراء، وما قام لأحدٍ من العظماء ولا الأغنياء ولا الأعيان، ولا ألمَّ بباب وزير قط ولا سلطان.

ولقد كنت عنده يومًا في داره وهو جالسٌ ينسخ، فسقط عليه من السقف تراب فنفَّضه ثلاث مرات، وسقط وهو ينفضه، ثم رفع رأسه في الرابعة إلى السقف فرأى فَأْرة تبعثر التراب، فقال: طار رأسك، فسقطت جثتها ناحية ورأسها ناحية، فترك النسخ وبكى، فقلت له: يا سيدي وما يبكيك؟ فقال: أخشى أن يتأذَّى قلبي من رجلٍ مسلمٍ فيصيبه مثل ما أصاب هذه الفأرة(٢).

وعن الشيخ أبي القاسم عمر بن مسعود البزار قال: كان سيدي الشيخ محيي الدين

---

(١) انظر: الزاهر (ص٣٢).

(٢) انظر: بهجة الأسرار (ص١٩٧).

عبد القادر ﷺ يتوضأ يومًا في المدرسة، فبال عليه عصفورٌ فرفع رأسه إليه وهو طائرٌ فسقط ميتًا، فلما أتمَّ وضوءه غسل موضع البول من الثوب وخلعه وأعطانيه، وأمرني أن أبيعه وأتصدَّق بثمنه، وقال: هذا بهذا، نفع الله به[1].

الحكاية السابعة والخمسون بعد المائة

عن قاضي القضاة أبي صالح نصر قال: أخبرنا والدي عبد الرزاق قال: لم يحج والدي رحمه الله تعالى بعد أن اشتهر إلا مرة واحدة، وكنت فيها قائد زمام راحته في الطلعة والرجعة، فلما كنا في الحلة قال لنا: انظروا أفقر بيت هنا، فوجدنا خربة فيها بيتٌ من شعرٍ فيه شيخٌ وعجوزٌ وصبيةٌ، فاستأذنه والدي في النـزول عنده، فأذن له فنـزل هو ومن معه بتلك الخربة، فجاء مشايخ الحلة يومئذٍ ورؤساؤها وأعيانها إليه، وسألوه أن يتحوَّل إلى منازلهم أو إلى غيرها فأبَى، فساق إليه أهل البلد من البقر والغنم والطعام والذهب والفضة والقماش شيئًا كثيرًا، ورحَّلوا له رواحل لأجل السفر، وأهرع الناس إليه من كل جانبٍ، فقال الشيخ لمن معه: أنا قد خرجت عن نصيبي من جميع ما هنا لأهل هذا البيت، فقالوا له: ونحن كذلك، فأمر بجميع ما هنالك فأُعطي لذلك الشيخ وصبيته، وبات الشيخ وارتحل في السحر، قال: فاجتذت في الحلة بعد سنين، وإذا ذلك الشيخ من أكثر أهلها مالاً، فقال لي: جميع ما ترى هو من بركة الشيخ محيي الدين عبد القادر.

نفع الله به في تلك الليلة، وإن تلك الماشية نتجت ونمت وهذا كله منها. رضي الله عن سيدي الشيخ عبد القادر ونفعنا به آمين.

الحكاية الثامنة والخمسون بعد المائة

عن الشيخ أبي محمد طلحة بن المظفر قال: قال شيخنا محيي الدين عبد القادر ﷺ:

أقمت ببغداد في بدء أمري عشرين يومًا ما أجد ما أقتات به، ولا أجد مُباحًا، فخرجت إلى خراب إيوان كسرى أطلب مُباحًا، فوجدت فيه هنالك سبعين رجلاً من الأولياء يطلبون ما أطلب، فقلت: ليس من المروءة أن أزاحمهم، فرجعت إلى بغداد، فلقيني رجلٌ كنت أعرفه من بلد أهلي فأعطاني قراضة، فقال: هذه بعثت بها أمك إليك معي، فأخذت منها قطعة تركتها لنفسي، وأسرعت بالباقي إلى خراب الإيوان، وفرَّقت القراضة كلها على أولئك

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٩٨).

السبعين، فقالوا: ما هذا؟ قلت: إنه جاءني هذا من عند والدتي وما أردت أن أختص به دونكم، ثم رجعت إلى بغداد واشتريت بالقطعة التي كانت معي طعامًا، ورأيت فقراء وأكلنا جميعًا، ولم يبت معي من القراضة شيءٌ، نفع الله ببركات هذا الشيخ(١).

الحكاية التاسعة والخمسون بعد المائة

عن الشيخ أبي العباس أحمد بن إسماعيل المعروف بابن البطال بسنده أن الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ كان إذا جاءه أحدٌ بذهبٍ يقول له: ضَعْهُ تحت السجادة، ولا يمسه بيده فإذا جاءه خادمه قال له: خُذْ ما تحت السجادة وأَعْطِهِ الخباز والبقال، وكان غلامه مظفر يقف عند باب دار الشيخ والطبق فيه الخبز، وكان إذا جاءه خلعة من الخليفة يقول: أعطوها لأبي الفضل الطحان، وكان يأخذ منه الدقيق بالقرض لأجل خبز الفقهاء والأضياف(٢)، وكانت له حنطة مرباة من الحلال بيد بعض أصحابه من الرستاقة، يزرعونها له كل سنةٍ، وكان بعض أصحابه يطحنها ويخبز منها كل يومٍ أربعة أرغفة أو خمسة، ويأتي بها في آخر النهار إلى الشيخ، وكان الشيخ يفرق منها على من حضر كسرة كسرة، والباقي يؤخره لنفسه.

وكان إذا أهديت له هدية فرَّق منها على كل من حضر في ذلك الوقت، وكان يقبل الهدية ويكافئ عليها، ويقبل النذور ويأكل منها ﷺ(٣)، وأعاد علينا من بركاته.

الحكاية الستون بعد المائة

عن الشريف أبي عبد الله محمد بن الحسيني رحمه الله تعالى قال: أخبرنا أبي قال: كنت مع سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ في الجامع يوم الجمعة، فأتاه تاجرٌ فقال له: إن معي مَالاً أريد أن أعطيه الفقراء والمساكين من غير الزكاة، وما وجدت له مستحقًّا، فمُرْنِي أن أعطيه لمن تريد، فقال له الشيخ: أَعْطِهِ لمن يستحق ولمن لا يستحق يعطك الله ما تستحق وما لا تستحق.

قال: ورأى فقيرًا مكسور القلب، فقال له: ما شأنك؟ قال: مررت اليوم بالشط وسألت ملاحًا أن يحملني إلى الجانب الآخر فأبى فانكسر قلبي لفقري، فلم يتم الفقير كلامه حتى

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٩٨).

(٢) انظر: الزاهر (ص٢١) بتحقيقنا.

(٣) انظر: الروض الزاهر (ص٢١)، وبهجة الأسرار (ص١٩٩).

دخل رجلٌ معه صرةٌ فيها ثلاثون دينارًا للشيخ، فقال الشيخ لذلك الفقير: خُذْ هذه الصرة واذهب بها إلى الملاح وأعْطِها له، وقل له لا يرد فقيرًا أبدًا، وخلع الشيخ قميصه وأعطاه الفقير فاشترى منه بعشرين دينارًا[1]، نفع الله به.

الحكاية الحادية والستون بعد المائة

عن أبي عبد الله الحسين بن بدران بن علي البغدادي بسنده إلى الشيخ أبي محمد عبد اللطيف بن أحمد رحمه الله تعالى قال: كان شيخنا الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ يومًا يتكلَّم، فتواجد الناس فترة فنظر إلى السماء وقال: لا تسقني وحدي، فما عودتني أن أشح بها على جلاَّسي، أنت الكريم، وهل يليق بكريم أن يعدم الندماء دور الكأس، فاضطرب الناس اضطرابًا شديدًا، وقد أحلَّ بهم أمرٌ شديدٌ عظيمٌ، فمات في المجلس واحد أو اثنان[2].

وعن الشيخ أبي القاسم قال: كانت الأوقات التي جالسنا فيها الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ كأنها المنام، فلما استيقظنا فقدناها، وكانت أخلاقه رَضِيَّة، وأوصافه زكيَّة، ونفسه أبيَّة، وكفه سخية، وكان يأمر كل ليلةٍ بمد السماط، ويأكل مع الأضياف، ويجالس الضعفاء، ويصبر على طلبة العلم، ويتفقَّد من غاب من أصحابه، ويسأل عن بيوتهم، ويحفظ ودّهم، ويعفو عن سيئاتهم، ولا يصدق من حلف له، ويخفي علمه فيه، ولا يظن جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه، وما رأيت أشد حياءً منه.

وكان الشيخ عمر المذكور إذا ذكر الشيخ عبد القادر ﷺ ينشد[3]:

الحَمْـــدُ لله إنِّي فِي جِـــوَار فَتَـــى حَـــامِي الحقيقـــةِ نَفَّـــاع وضَرَّار

لاَ يَـــرفَع الـــرَّف إلاَّ عِنْـــدَ مَكْـــرَمَةٍ مِـــن الحَيَـــاءِ وَلاَ يغـــضِي عَـــلَى عَـــار

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٩٩).
(٢) انظر: السابق (ص٢٠٠).
(٣) انظر: السابق (ص٢٠٠).

الحكاية الثانية والستون بعد المائة

عن أبي سعيد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي بن عمرون التميمي الشافعي رحمه الله تعالى قال: دخلت وأنا شابٌّ إلى بغداد في طلب العلم، وكان ابن السقا يومئذٍ رفيقي في الاشتغال بالنظامية، وكنا نتعبَّد ونزور الصالحين، وكان حينئذٍ رجل ببغداد يُقال له: الغوث، وكان يُقال: إنه يظهر أحيانًا ويختفي أحيانًا.

فقصدت أنا وابن السقا والشيخ عبد القادر وهو شابٌّ يومئذٍ إلى زيارته، فقال ابن السقا ونحن في الطريق: أسأله عن مسألةٍ لا يدري لها جوابًا، فقلت: وأنا أسأله عن مسألةٍ وأنظر ما يقول، وقال الشيخ عبد القادر: معاذ الله أن أسأله شيئًا، أنا بين يديه أنتظر بركات رؤيته.

فلما دخلنا عليه لم نَرَهُ في مكانه، فمكثنا ساعة فإذا هو جالسٌ، فنظر إلى ابن السقا مغضبًا وقال له: ويلك يا ابن السقا جئت تسألني عن مسألةٍ لا أدري لها جوابًا هي كذا وجوابها كذا، إني لأرى نار الكفر تلهب فيك، ثم نظر إليَّ وقال: يا عبد الله أتسألني عن مسألةٍ لتنظر ما أقول فيها، هي كذا وجوابها كذا، لتجرين عليك الدنيا إلى شحمتي أذنيك لقاء أدبك، ثم نظر إلى الشيخ عبد القادر وأدناه منه وأكرمه وقال: يا عبد القادر لقد أرضيت الله ورسوله بأدبك، كأني أراك ببغداد، وقد صعدت على الكرسي متكلمًا على الملأ، وقلت: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، وكأني أرى الأولياء في وقتك وقد حنوا رقابهم إجلالاً لك، ثم غاب عنا لوقته ذلك فلم نَرَهُ بعد.

قال: فأما الشيخ عبد القادر فإنه ظهرت عليه أمارات قربه من الله ﷻ، أجمع عليه الخاص والعام، وقال: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله تعالى[1].

وأقرَّ الأولياء له في وقته، وأما ابن السقا فإنه اشتغل بالعلوم الشرعية حتى برع فيها، وفاق بها كثيرًا من أهل زمانه، واشتهر بقطع من ناظره في جميع العلوم، وكان ذا لسانٍ فصيحٍ وسمتٍ بهيٍّ، فأدناه الخليفة منه وبعثه رسولاً إلى ملك الروم، فرآه الملك ذا فنونٍ كثيرةٍ وفصاحةٍ وسمتٍ، فأعجب به فجمع له القسيسين والعلماء بدين النصرانية، وناظرهم فأفحمهم فعجزوا فعظم عند الملك، ثم رأى بنتًا للملك حسناء ففتن بها وسأله أباها أن

---

(١) انظر: توجيه أهل العلم لذلك في المقدمة.

يزوجه بها، فأبى إلا أن يتنصر فأجابه إلى ذلك والعياذ بالله وزوَّجه بها.

وذكر ابن السقا كلام الغوث وعلم أنه ميت به وبسببه.

قال: وأما أنا فجئت إلى دمشق وأحضرني السلطان نور الدين الشهيد على ولاية الأوقاف فوليتها، وأقبلتْ عليَّ الدنيا إقبالاً كثيرًا. قال: وقد صدق قول الغوث فينا كلنا، نفعنا الله به.

الحكاية الثالثة والستون بعد المائة

حُكي مسندًا من ثلاث طرق عن جماعة من الشيوخ قالوا:

قال الشيخ أبو محمد أبو عبد الرحمن الطفسونجي ﷺ على الكرسي بطفسونج: أنا بين الأولياء كالكركي بين الطيور، أطولهم عنقًا، فقام الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الحسيني وكان ذا حالٍ فاخرٍ، ونزع دلقًا كان عليه فقال له: دعْني أصارعك، فسكت الشيخ عبد الرحمن وقال لأصحابه: ما رأيت فيه شعرة خالية من عناية الله ﷻ، وأمره أن يلبس دلقه، فقال: لا أعود فيما خرجت عنه، ثم التفت إلى جهة الحلة ونادى باسم زوجته: يا فاطمة ائتيني بما ألبسه، فسمعته وهي في الحلة، فسلمته في الطريق بما يلبسه، فقال له الشيخ عبد الرحمن: من شيخك؟ فقال: شيخي محيي الدين عبد القادر، قال: إني لم أسمع بذكر الشيخ محيي الدين عبد القادر إلا في الأرض، وإن لي أربعين سنة في دركات باب القدرة فما رأيته.

ثم قال لجماعةٍ من أصحابه: اذهبوا إلى بغداد وقولوا للشيخ عبد القادر: يسلِّم عليك عبد الرحمن ويقول لك أن له أربعين سنة في درجات باب القدرة، فما رآك ثَمَّ داخلاً ولا خارجًا، فقال الشيخ عبد القادر في ذلك الوقت لجماعةٍ من أصحابه: اذهبوا إلى الشيخ الطفسونجي، وستجدون في طريقكم أصحابه بعثهم إليَّ بكذا وكذا، وإذا لقيتموهم فردُّوهم معكم، فإذا أتيتموه فقولوا له: يسلِّم عليك عبد القادر ويقول لك: أنت في الدركات، ومن هو في الدركات لا يرى من هو في الحضرة، ومن هو في الحضرة لا يرى من هو في المخدع، وأنا في المخدع أدخل وأخرج من باب السر، من حيث لا يراني، بأمارة أني أخرجت لك الخلعة الفلانية في الوقت الفلاني على يدي، وهي خلعة الرِّضا، وبأمارة خروج التشريف الفلاني في

الليلة الفلانية لك على يدي خرج، وهو تشريف الفتح، وبأمارة أن خلع عليك في الدركات بحضرة اثني عشر ألف ولي لله تعالى خلعة الولاية، وهي فرجية خضراء طرازها سورة الإخلاص على يدي خرجت لك.

فانتهوا إلى نصف الطريق، فوجدوا أصحاب الشيخ عبد الرحمن فردُّوهم، وأتوا إليه وبلَّغوه رسالة الشيخ عبد القادر فقال: صدق الشيخ عبد القادر، سلطان الوقت، صاحب التصريف فيه[1]. نفعنا الله به آمين.

الحكاية الرابعة والستون بعد المائة

عن الشيخ أبي القاسم البطائحي نزيل الشام قال: أتيت إلى جبل لبنان لأزور من فيه من الصالحين في سنة تسع وستين وخمسمائة، وكان فيه رجلٌ من الصالحين من أصفهان يُقال له: الشيخ الجبلي، سُمِّي بالجبلي لطول إقامته في جبل لبنان، فأتيته وجلست إليه وقلت له: يا سيدي كم لك هنا؟ قال: ستون سنة، قلت: أي شيءٍ مرَّ بك من العجائب؟ قال: كنت هنا سنة تسع وخمسين وخمسمائة، فرأيت أهل الجبل في ليلةٍ مقمرةٍ يجتمع بعضهم إلى بعضٍ، ويطيرون في الهواء إلى جهة العراق جماعة بعد أخرى، فقلت لصاحب لي منهم: إلى أين تذهبون؟ قال: أمرنا الخضر عليه السلام أن نأتي بغداد، فنحضر بين يدي القطب، قال: ومن هو؟ قال: الشيخ عبد القادر، فاستأذنته في السفر معهم، قال: نعم.

فسرنا في الهواء فلم يكن إلا يسيرًا حتى أتينا بغداد، فإذا هم بين يديه صفوفًا، وأكابرهم يقولون: يا سيدنا، وهو يأمرهم بالأمر فيتبادرون بامتثاله، ثم أمرهم بالانصراف فرجعوا من بين يديه القهقري، حتى اشتغلوا في الهواء سائرين وأنا مع أخي، فلما رجعنا إلى الجبل قلت له: ما رأيت كالليلة تأدبكم بين يديه، وإسراعكم لامتثال أمره، فقال: يا أخي، كيف لا نمتثل أمره وهو الذي قد قال: (قدمي على رقبة كل وليِّ لله)، وقد أمرنا بطاعته واحترامه.

الحكاية الخامسة والستون بعد المائة

عن الشيخ أبي محمد عبد الله البطائحي رحمه الله تعالى قال: دخلت على شيخنا محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه يومًا فوجدت عنده أربعة ما رأيتهم قبل، فوقفت مكاني فلما قاموا من عنده

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص٦٠)، وفيه (الجبة) بدل (الحلة).

قال لي الشيخ: ألحقهم واسألهم أن يدعون لك، فلحقتهم في صحن دار المدرسة قبل أن يخرجوا، فسألتهم الدعاء، فقال لي أحدهم: لك البُشرى؛ أنت خادم رجل ببركته يحرس الله الأرض سهلها وجبالها، وبرها وبحرها، وبدعوته يُرحم الخليقة برها وفاجرها، ونحن وسائر الأولياء في خفارة أنفاسه، وتحت ظل خدمته، وفي دائرة أمره.

ثم خرجوا من باب المدرسة فلم أرَهم، فرجعت إلى الشيخ متعجبًا فقال لي قبل أن أخبره بشيءٍ: لا تُعلِم أحدًا بما قالوا لك وأنا حيٌّ، قلت: يا سيدي، من هؤلاء؟ قال: رؤساء جبل قاف، وهم الآن في مواضعهم من جبل قاف، أعاد الله علينا من بركاته.

الحكاية السادسة والستون بعد المائة

عن الشيخ الكبير العارف بالله الشهير علي بن الهيتي ﷺ قال: دخلت بغداد مرة لزيارة الشيخ عبد القادر قدَّس الله روحه فرأيته فوق سطح مدرسته يصلِّي الضُّحى، فنظرت إلى الفضاء فوجدت فيه أربعين صفًّا من رجال الغيب، واقفين في كل صفٍّ سبعين رجلاً، فقلت لهم: ألا تجلسون؟ فقالوا: حتى تنقضي صلاته ويأذن لنا؛ فإن يده فوق أيدينا، وقدمه على رقابنا، وأمره علينا كلنا، فلما سلَّم أقبلوا إليه مبادرين يسلمون عليه، ويقبّلون يده - أو قال: يديه - فقال الشيخ علي بن الهيتي: وكنا إذا رأينا الشيخ عبد القادر رأينا الخير كله.

الحكاية السابعة والستون بعد المائة

عن الشيخ عبد الرزاق ابن شيخ الإسلام محيي الدين عبد القادر رضي الله عنهما قال: قيل للشيخ عبد القادر: متى علمت أنك وليٌّ لله تعالى؟ قال: كان ذلك وأنا ابن عشر سنين في بلدنا، أخرج من دارنا وأذهب إلى المكتب وأرى الملائكة تمشي حولي، فإذا وصلت المكتب سمعت الملائكة يقولون للصبيان: افسحوا لولي الله حتى يجلس، فمرَّ بنا رجلٌ ما عرفته يومئذٍ، فسمع الملائكة يقولون ذلك، فقال لأحدهم: ما هذا الصبيُّ؟ فقالوا له: هذا سيكون له شأنٌ عظيمٌ، هذا يعطي فلا يمنع، ويمكّن فلا يحجب، ويقرّب فلا ينكر به. ثم عرفت ذلك

الرجل بعد أربعين سنة فإذا هو من أبدال ذلك الوقت(١).

قال: وكنت صغيرًا في بلد أهلي كلما هممت أن ألعب مع الصبيان سمعت قائلاً يقول لي: إليَّ أقبل يا مبارك، فأهرب فزعًا وألقي نفسي في حجر أمي، وإني لأسمع الآن هذا في خلوتي(٢).

قال: وكنت في زمن مجاهدتي إذا أخذتني سنة أسمع قائلاً يقول لي: يا عبد القادر ما خُلقت للنوم، قد أحييناك ولم تكن شيئًا فلا تغفل عنا وأنت شيءٌ(٣).

وعن الشيخين الجليلين: الشيخ أبي السعود أحمد بن أبي بكر الحزيمي العطار، والشيخ أبي عبد الله محمد بن عابد، قالا:

تكلَّم الشيخ صدقة البغدادي ﷺ بكلامٍ أُنكر عليه بطريق، فطُولع به إلى الخليفة، فأمر بإحضاره وتعزيره، فلما أحضروه وكُشف رأسه صاح خادمه: واشيخاه! فشُلَّت يد الذين يضربونه، وألقى الله الهيبة له في قلب المتولي، وطالع الوزير الخليفة، فألقى الله ﷻ الهيبة في قلب الخليفة، فأمر بإطلاقه، فدخل رباط الشيخ عبد القادر ﷺ فوجد المشايخ والناس جلوسًا ينتظرون خروج الشيخ ليتكلم عليهم، فجاء يجلس بين يدي المشايخ، فلما صعد الشيخ الكرسي لم يتكلَّم، ولم يأمر القارئ بالقراءة، فداخل الناس وجل عظيم، وداخلهم أمر جليل.

فقال الشيخ صدقة في نفسه: الشيخ لم يتكلَّم والقارئ لم يقرأ، لِمَ هذا الوجد؟ فالتفت الشيخ إلى جهتي فقال: يا هذا، جاء مريدٌ لي من بيت المقدس إلى هنا في خطوةٍ، وتاب على يدي والحاضرون اليوم في ضيافته، فقال الشيخ صدقة في نفسه: من تكون خطوته من بيت المقدس إلى بغداد مما يتوب؟ وما احتياجه إلى الشيخ؟ فالتفت الشيخ إلى جهتي وقال: يا هذا يتوب من الخطو في الهواء فلا يرجع إليه، ويحتاج إلى أن أعلمه الطريق إلى محبة الله ﷻ.

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص٤٨).

(٢) انظر: بهجة الأسرار (ص٤٨).

(٣) انظر: السابق.

ثم قال: أنا سيفي مشهورٌ، وقوسي موترٌ، وجبالي مطوَّقةٌ، وسهامي صائبةٌ، ورمحي منصوبٌ، وفرسي مُسرجٌ، أنا نارُ الله الموقدة، أنا سلابُ الأحوال، أنا بحرٌ بلا ساحلٍ، أنا المحفوظ، أنا الملحوظ، أنا قوَّامٌ. يا أهل الجبال دكَّت جبالكم، يا أهل الصوامع هُدِمت صوامعكم، أقبلوا إلى أمري من الله، أنا بنيان الطريق، ويا رجال، يا أبطال، يا أبدال، يا أطفال، هلمُّوا وخذوا عن البحر الذي لا ساحل له، يُقال: يا عبد القادر تكلَّم أسمع منك، يا عبد القادر بحقِّي عليك كُلْ، بحقِّي عليك اشرب، بحقِّي عليك تكلّم، وأمنتك من الردى"(١).

وكان شيخنا الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ يمشي في الهواء، وعلى رؤوس الأشهاد ويقول: ما تطلع الشمس حتى تسلم عليَّ، وتجيء السنة إليَّ وتسلم عليَّ، وتخبرني بما يجري فيها، ويجيء الشهر إليَّ ويسلم عليَّ، ويخبرني بما يجري فيه، ويجيء الأسبوع إليَّ ويسلم عليَّ ويخبرني بما يجري فيه، ويجيء اليوم إليَّ ويسلم عليّ ويخبرني بما يجري فيه، وعزة ربي إن السعداء والأشقياء ليعرضون على عيني في اللوح المحفوظ.

أنا غائصٌ في بحار علم الله ومشاهدته، أنا حجةُ الله عليكم جميعكم، أنا نائبُ رسول الله ﷺ ووارثه في الأرض"(٢).

نفع الله به آمين.

الحكاية الثامنة والستون بعد المائة

عن الشيخ أبي محمد الحسن بن أبي القاسم بن أحمد بن محمد البغدادي الخزيمي قال:

كنت أنا والشيخ أبو سعيد المخرمي، والشيخ أبو الخير الشنواني محفوظ، والشيخ أبو حفص عمر الكيماني، والشيخ أبو العباس أحمد الإسكافي، والشيخ سيف الدين عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر، جلوسًا عند شيخنا محيي الدين عبد القادر ﷺ آخر نهار يوم الجمعة، سلخ جمادى الآخر سنة ستين وخمسمائة، وهو يتكلَّم علينا، فجاء شابٌّ حسن الصورة وجلس إلى الشيخ وقال: السلام عليك يا ولي الله، أنا شهر رجب جئتك أهنيك، وما قُدِّر أن يكون فيَّ سوء عام على الناس، قال: فلم يرَ الناس في شهر رجب ذلك إلا خيرًا. فلما كان يوم الأحد

(١) انظر: بهجة الأسرار (٤٩).

(٢) انظر: السابق (٥٠).

جاء شخصٌ كريه المنظر، ونحن أيضًا عنده، فقال: السلام عليك يا وليُّ الله، أنا شهر شعبان، جئتك أهنيك وقد قُدِّر أن يكون فِيَّ فناء ببغداد وغلاء في الحجاز، وسيف بخراسان، قال: فوقع فناء ببغداد، وجاء الخبر بالغلاء الشديد بأرض الحجاز وبالسيف في خراسان، ومرض الشيخ في شهر رمضان أيامًا، فلما كان يوم الإثنين التاسع والعشرين منه ونحن أيضًا عنده.

وكان يومًا حاضرًا عنده الشيخ علي بن الهيتي، والشيخ أبو النجيب السهروردي، والشيخ أبو الحسن الجوسقي، والقاضي أبو العلاء محمد بن محمد الفراء، فجاء شخصٌ بهيّ السمت، وعليه وقارٌ، وقال له: السلام عليك يا وليُّ الله، أنا شهر رمضان، جئت أعتذر إليك مما قُدِّر عليك فِيَّ وأودعك، فهذا آخر اجتماع بك، ثم انصرف[1].

قال: فمات الشيخ ﷺ في ربيع الآخر السنة الثانية، ولم يدرك رمضان آخر.

قال: وسمعته مرة يقول على الكرسي: لله تعالى عبادٌ يأتي إليهم شهر رمضان يعتذر إليهم إن كانوا مرضوا في أيامه وأصابتهم فاقة، يقول لهم: كيف أنتم فيما قضي عليكم فِيَّ؟.

وقال لي ولده الشيخ حسين الدين عبد الوهاب رحمه الله: ما من شهرٍ إلا يأتي إليه قبل أن يهل، فإن كان قدَّر الله تعالى أن يكون فيه سوء وشدة جاءه في صورةٍ منكرةٍ، وإن قدَّر فيه خيرٌ ولطفٌ جاءه في صورةٍ جميلةٍ. أعاد الله علينا بركاته، ونفعنا الله به في الدنيا والآخرة[2].

الحكاية التاسعة والستون بعد المائة

عن الشيخ الإمام شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن محمد السهروردي رحمه الله تعالى[3] قال: سمعت الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ يقول على الكرسي بمدرسته:

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (٥٠، ٥١) بتحقيقنا.

(٢) انظر: السابق (٥١).

(١) هو الشيخ الجليل السيد الحفيل أستاذ زمانه وفريد أوانه، مطلع الأنوار ومنبع الأسرار. دليل الطريقة، وترجمان الحقيقة، أستاذ الشيوخ الأكابر، الجامع بين علمي الباطن والظاهر، قدوة العارفين، وعمدة السالكين، العالم الرباني، المربي أبو حفص عمر بن محمد البكري الصوفي السهروردي، مصنف كتاب عوارف المعارف، المشتمل على مكنونات المعارف، ومصونات المحاسن، واللطائف، وغير ذلك من التصانيف الحسنة الجامعة بين بداعة الملاحة، وبراعة الفصاحة، وحلاوة العبارة المشتملة على درر المعارف ومواقيت الحكم، وطلاوة الإشارة المحتوية على حياة القلوب، وشفائها من السقم، وعقيدته معروفة مشهورة موصوفة مشكورة، وكان إذا أشكل عليه شيء من أمرها منها، يرجع فيه إلى الله تعالى

كل وليٍّ على قدم نبي، وأنا على قدم جدي محمد ﷺ، وما رفع المصطفى ﷺ قدمًا إلا وضعت قدمي في الموضع الذي رفع قدمه منه، إلا أن يكون قدم من أقدام النبوة فإنه لا سبيل إلى إن يناله غير نبيه»[1].

الحكاية السبعون بعد المائة

عن الشيخ أبي محمد علي بن إدريس اليعقوبي قال: سمعت الشيخ ﷺ يقول: الإنس لهم مشايخ، والجن لهم مشايخ، والملائكة لهم مشايخ، وأنا شيخ الكل[2].

=

ويستخيره حول بيته ويتضرع إليه في التوفيق لإصابة الحق والتحقيق، وكان فقيهًا شافعي المذهب، كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة.

تخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة، ولم يكن في آخر عمره مثله.

صحب عمه الشيخ الإمام أبا النجيب، وعنه أخذ التصوف والوعظ.

وصحب أيضًا قطب الأولياء وقدوة الأصفياء الشيخ عبد القادر الجيلي، ثم انحدر إلى البصرة إلى الشيخ أبي محمد بن عبد، ورأى غيره من المشهورين، وكان شيخ الشيوخ ببغداد، وكان له مجلس وعظ عليه قبول وله نفس مبارك.

قال ابن خلكان رحمه الله: ورأيت جماعة ممن حضروا مجلسه وقعدوا في خلوته فكانوا يحكون غرائب مما يطرأ عليهم فيها من الأحوال الخارقة.

وكان كثير الحج، وكان أرباب الطريق من مشايخ عصره يكتبون إليه من البلاد صور فتاوى يسألونه عن شيء من أحوالهم، وسيأتي آخر الفصل إن شاء الله تعالى.

قال ابن نقطة: كان شيخ العراق في وقته صاحب مجاهدة وإيثار وطريقة حميدة ومروءة تامة، وأوراد على كبر سنه.

وقال ابن النجار: كان شيخ وقته في علم الحقيقة، وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين، ودعا الخلق إلى الله تعالى، قرأ الفقه والخلاف والعربية، وسمع الحديث، ثم انقطع، ولازم بيته، وداوم الصوم والذكر والعبادة إلى أن ظهر له قبول من الخاص والعام، وعلا شأنه، وتكلم على الناس، وعقد مجلس الوعظ في مدرسة عمه على دجلة، فحضر عنده خلق عظيم وظهر، واشتهر اسمه وقصد من الأقطار، وظهرت بركات أنفاسه في توبة العصاة، ورأى من الجاه والحرمة عند الملوك ما لم يره أحد.

وانظر في ترجمته: طبقات الشافعية الكبرى (٥/ ١٤٣)، طبقات المفسرين للداودي (٨٩)، وفيات الأعيان (١/ ٤٨٠)، اللباب (١/ ٥٨٠)، البداية والنهاية (١٣/ ١٣٨)، طبقات الأولياء (٥٣)، طبقات الشافعية للإسنوي (٢/ ١٢٢)، مرآة الجنان (٤/ ٧٩، ٨٢)، وروضة الحبور (ص١٧٦)، بتحقيقنا.

(١) انظر: بهجة الأسرار (٥١).

(٢) انظر: بهجة الأسرار (٥٢).

قال: وسمعته في مرض موته يقول لأولاده: بيني وبينكم وبين الخلق كلهم أبعد ما بين السماء والأرض.

قال: وقال لي ولداه عبد الوهاب وعبد الرزاق: وكان من الناس من إذا أقبل إليه ورآه من بعيدٍ يقول بحيث لا يسمع: مرحبًا بحبيب الله، ومنهم من إذا رآه من بعيدٍ يقول: لا مرحبًا بطريد الله، ويرى على كل واحدٍ منهم من العلامة ما يناسب ما أشار إليه في قوله: (مرحبًا) وفي قوله: (لا مرحبًا)[1].

جعلنا الله من عباده الصالحين.

الحكاية الحادية والسبعون بعد المائة

عن الحافظ أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد المقدسي، والحافظ أبي محمد عبد العزيز بن نصر البغدادي المعروف بابن الخضر قالا: سمعنا الشيخ أبا محمد عبد القادر ﷺ يقول: أنا من وراء أمور الخلق، أنا من وراء عقولكم، كل رجال الحق إذا وصلوا إلى القدرة أمسكوا إلا أنا، وصلت إليه ففُتح لي فيه زاوية، فولجت فيها ونازعت أقدار الحق بالحق للحق[2].

قلت: وهذا بعض كلامه المروي عنه بالقدر، ومعناه غامضٌ لا يوصل إليه بغوص عقل، بل يُوكل تأويله إلى من أطلعه الله على ذلك السر، اللهم إلا أن يكون من القدر.

قال الله فيه: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩]، فيكون قوله مجملاً على مراجعته فيه للحق سبحانه وتعالى بطريق الشفاعة، والأولى الوجاهة، وعلى هذا يكون قوله بعد ذلك في الرجل هو المنازع القدر، الموافق له محمول على ما ذكرت من مراجعة الحق تعالى في ظواهر الأمور، التي تحتمل مصالح العباد، كما راجع عمر ﷺ رسول الله ﷺ في قوله: «دعهم يعملون...» الحديث المشهور فوافقه ﷺ وقال: «دعهم يعملون»[3]، قلت: وأما قدر الله السابق في علمه ووقوعه فلا بدَّ من وقوعه.

* * *

---

(١) انظر: السابق (٥١).

(٢) انظر: السابق (٥٢).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ١٢٦).

الحكاية الثانية والسبعون بعد المائة

عن الشيخ القدوة أبي الحسن علي بن الهيتي قال: زُرت مع الشيخ عبد القادر قبر معروف الكرخي رضي الله عنهم أجمعين، فقال: السلام عليك يا شيخ معروف، عبرناك بدرجة، قال: ثم زاره مرة بعد مرةٍ وأنا معه فقال: السلام عليك يا شيخ معروف عبرناك بدرجتين، فقال له من القبر: وعليك السلام يا سيد أهل زمانه، قال: وكان قد قال لأصحابه: إنه سلمت إليَّ العراق، ثم قال بعد موته: قال لهم: كم عهدت إليكم أن قد سلمت إليَّ العراق، والآن قد سلمت إليَّ الأرض شرقها وغربها، وقفرها وعمرانها، وبرها وبحرها، وسهلها وجبلها؟.

قال: ولم يبقَ أحدٌ من الأولياء في ذلك الوقت إلا وأتاه وسلم عليه بالقطبية، رضوان الله على روحه الذَّكية والرَّضية[1].

الحكاية الثالثة والسبعون بعد المائة

عن الشيخ أبي محمد عبد اللطيف بن ظاهر البغدادي الصوفي قال: كان شيخنا محيي الدين عبد القادر ﷺ إذا تكلَّم بالكلام العظيم يقول عقبه: بالله عليكم قولوا: صدقت؛ إنما أتكلم بيقين لا شك فيه، أُنطق فأنطق، وأُعطى فأفرق، وأُؤمر فأفعل، والعهدة على من أمرني، والديَّة على القاتل، تكذيبكم لي سُم ساعة لأديانكم، وسبب لذهاب دنياكم وأخراكم، أنا سياف، أنا قتال، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٢٨]، لولا لجام الشريعة على لساني لأخبرتكم بما تأكلون، وما تدخرون في بيوتكم، أنتم بين يدي كالقوارير، أرى ما في بواطنكم وظواهركم، لولا لجام الحكم على لساني لنطق صاع يوسف بما فيه، لكن العلم متحيز بدليل، وقال: بدليل العالم كي لا يبدو مكنونه[2].

الحكاية الرابعة والسبعون بعد المائة

عن عمر الكيماني والشيخين الأصيلين السيدين الجليلين: عبد الرزاق، وعبد الوهاب، ابني شيخ الوجود، وتاج المفاخر محيي الدين أبي محمد عبد القادر ﷺ قالوا:

كان الشيخ يقول على الكرسي: رأيت النبي ﷺ قبل الظهر من يوم الثلاثاء السادس عشر من شوال، سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، فقال: يا بني لِمَ لا تتكلم؟ فقلت: يا أبتاه، أنا رجلٌ أعجميٌّ، كيف أتكلَّم على فصحاء بغداد؟ فقال: افتح فاك، ففتحته فتفل فيه سبعًا، وقال لي:

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (٥٣).

(٢) انظر: السابق (٥٥).

تكلَّم على الناس، وادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، فصليت الظهر وجلست، وحضرني خلقٌ كثيرٌ، فارتج عليَّ فرأيت علي بن أبي طالب ﷺ وكرَّم الله وجهه، قائمًا بإزائي في المجلس، فقال: يا بني تكلَّم، فقلت: يا أبتاه قد ارتج عليَّ، فقال: افتح فاك، قال: ففتحته فتفل فيه ستًّا، فقلت له: ألا تكملها سبعًا؟ فقال: أدبًا مع رسول الله ﷺ، ثم توارى عني، فقلت: غِواص الفكر يغوص في بحرٍ على درر المعارف؛ ليستخرجها إلى ساحل الصدر، فنادى عليها سمسار ترجمان اللسان فتسري بنفائس الإيمان، وحسن الطاعة في بيوت أذن الله أن تُرفع.

قالوا: فهذا أول كلام تكلَّم به على الناس على الكرسي، نفع الله به وأرضاه.

الحكاية الخامسة والسبعون بعد المائة

عن الشيخ الشريف أبي عبد الله محمد بن القاسم الأزهري بن أبي المفاخر الحسيني البغدادي ﷺ قال: حضرت مجلس شيخنا الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ في سنة خمسين وخمسمائة، وكان في المجلس يومئذٍ نحو من عشرة آلاف رجل، وكان الشيخ علي بن الهيتي جالسًا تجاه الشيخ جنب دكة المقرئ فأخذته سنة، فقال الشيخ للناس: اسكتوا، فسكتوا حتى يقول القائل: إنهم لا يُسمع منهم إلا أنفاسهم.

ثم نزل من على الكرسي ووقف بين يدي الشيخ عليّ متأدبًا، وجعل يحدق إليه، ثم استيقظ الشيخ علي فقال له: رأيت رسول الله ﷺ في المنام؟ قال: نعم، ومن أجله تأدَّبت، فبم أوصاك؟ قال: بملازمتك، قال: فسُئل الشيخ علي عن معنى قول الشيخ ﷺ:

من أجله تأدَّبت، قال: الذي رأيته في المنام رأيته في اليقظة[1].

قال الراوي: مات في ذلك اليوم بسبب ذلك سبعة رجال، منهم من مات مكانه في المجلس، ومنهم من حُمل إلى داره فغُشي عليه ثم مات مكانه من يومه ذلك.

الحكاية السادسة والسبعون بعد المائة

عن السَّادة الثلاثة أولاد الشيخ محيي الدين عبد القادر، عبد الوهاب، وعبد الرزاق، وإبراهيم، والشيخين: الحسن العمري الكيماني، والبزار قالوا:

جئنا عند الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ بمنـزله بمدرسته بباب الأزج سنة سبع

(١) انظر: بهجة الأسرار (٥٨).

وخمسين وخمسمائة، وهو يأكل لبنًا، فترك الأكل وسها سهوة طويلة، ثم قال: قد فُتح لقلبي الآن سبعون بابًا من العلم اللدني، سِعَة كل بابٍ كسِعة ما بين السماء والأرض، ثم تكلَّم في معارف أهل الخصوص كلامًا طويلاً أُدهش له الحاضرون، وقلنا: ما نظن أن أحدًا يتكلَّم بمثل هذا الكلام من بعد الشيخ ﷺ"(١).

الحكاية السابعة والسبعون بعد المائة

عن الشيخ العارف أبي عمر عثمان الصيرفيني، والشيخ الصالح أبي محمد عبد الحق الحزيمي قالا: سمعنا الشيخ عبد القادر ﷺ يقول على الكرسي: يا أهل الأرض شرقًا وغربًا، ويا أهل السماء، قال الله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]، وأنا مما لا تعلمون، يا أهل الأرض شرقًا وغربًا، تعالوا تعلموا مني، يا أهل العراق الأحوال عندي كثياب معلقة في بيتٍ، أيتها شِئت لبست، فعليكم بالسلامة، أو ليأتينكم بجنودٍ لا قِبل لكم بها، يا غلام سافر ألف عام لتسمع مني كلمة، يا غلام الولايات ها هنا، الدرجات ها هنا، في مجلسي تفرق الخلع، وما من نبيٍّ خلقه الله تعالى، ولا ولي إلا وقد حضر مجلسي هذا، الأحياء بأبدانهم والأموات بأرواحهم، يا غلام اسأل عني منكرًا ونكيرًا عند مجيئهما إلى قبرك يخبراك عني"(٢).

وعن غيره من الشيوخ بالسند المتصل أنه كان لا يشاء أحدٌ أن يرى من الشيخ عبد القادر كرامة في أي وقتٍ شاء إلا رآها، وكانت الخارقة تطرأ أحيانًا منه، العلية والمعارف السنية، والتصريف النافذ في الوجود، والقدم الراسخ في التمكين من غير جحودٍ، وغير ذلك من الفضائل التي يجل قدرها ويطول ذكرها.

قال ﷺ: إذا كُوشف العبد بوصف الجمال سكن القلب، وطربت الروح، وهام السر.

والحياة اسمٌ لثلاثة معان:

---

(١) انظر: السابق (٥٦).

(٢) انظر: السابق (٥٤).

الأول: حياة العلم.

والثاني: حياة الوجود يعني البقاء.

والثالث: حياة من موت الفناء.

والمواجيد ثمرات الأوراد، ونتائج المنازلات، وترك الأحوال قبل وجود الله ﷻ محال، وطلب الأحوال بعد وجوده محال

الحكاية الثامنة والسبعون بعد المائة

عن الشيخين الجليلين العارفين: الشيخ أبو السعود أحمد بن أبي بكر الحزيمي، والشيخ أبو عمرو عثمان الصيرفيني، قالا: والله ما أظهر الله تعالى ولا يظهر للوجود من الأولياء مثل الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ، كانت كراماته كالعقد المنضد بالجواهر، يتبع بعضها بعضًا، كان الرجل منا لو أراد أن يعد منها كل يوم شيئًا لفعل.

قال الراوي: عنهما وهما الشيخان أبو الحسن البغدادي المعروف بالحقاق، وأبو محمد عبد اللطيف البغدادي المعروف بالمطري، وكان مشايخ العراق يستعظمون قولهما كالإلهام، أو غيرهما من أهل العلم، ولا يظهر لأنهما لو لم يطلعا على المستقبل لم يخبرا عنه. انتهى

وقوله: لو لم يطلعا على المستقبل لم يخبرا عنه ليس وافيًا ولا كافيًا، فضلاً عن أن يكون شافيًا؛ لأنه إن سلم ذلك في المستقبل مثلاً فليس يسلم في الماضي، فإن جميع الأمة من أهل السُّنة مجتمعون على تفضيل علي كرَّم الله وجهه في الجنة على سائر الأولياء، والنقلة مجتمعون على تفضيل علي، وقد أطلق القول بتفضيل الصحابة على من بعدهم، اللهم إلا أن يريد بالأولياء غير الصحابة، فلا يريد ما ذكرته، ولكن إخراجهم على الأولياء في التسمية يوهم أنهم ليسوا من جملة الأولياء، وليس كذلك بل هم أكابر الأولياء، غير أنهم من حيث الاصطلاح خاصة خصوا باسم هو أخص من اسم الأولياء، بل اسم الصحابة، وهذا الوجه يمكن الاعتذار عن إخراجهم في التسمية على الأولياء؛ لاختصاصهم باسم هو أخص مما يدلك على هذا ما سيأتي ذكره إن شاء الله في الحكاية الثانية والثمانون، أعني إفرادهم الصحابة وإخراجهم على الأولياء في التسمية، والله أعلم.

الحكاية التاسعة والسبعون بعد المائة

عن الشيخ أبي السعود المتقدم ذكره، والشيخ أبي العباس أحمد بن علي الصرصري قال: جاء أبو المظفر الحسن بن تميم البغدادي التاجر إلى الشيخ حماد الدباس ﷺ في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، وقال له: يا سيدي، قد جهزت لي قافلة إلى الشام فيها بضاعة بسبعمائة دينار، فقال له: إن سافرت في هذه السنة قُتلت وأُخذ مالك، فخرج من عنده مغمومًا فوجد الشيخ عبد القادر ﷺ وهو شابٌّ يومئذٍ، فقال له ما قال الشيخ حماد، فقال له: سافر تذهب سالمًا وترجع غانمًا، والضمان في ذلك عليَّ.

فسافر إلى الشام وباع بضاعته بألف دينار، ودخل يومًا إلى سقايةٍ في جبلٍ لقضاء حاجة الإنسان ووضع الألف على رفٍّ في السقاية، وخرج وتركه ناسيًا، وأتى إلى منزل سكناه، فألقى عليه النعاس فنام، فرأى في منامه كأنه في قافلةٍ وقد خرجت عليه العرب وانتهبوا وقتلوا من فيها، وأتاه أحدهم فضربه بحربةٍ فقتله، فاستيقظ فزعًا ووجد أثر الدم في عنقه، وأحس بألم الضربة، وذكر ما له فقام مسرعًا، فوجده في مكانه، فأخذه وسافر راجعًا إلى بلده بغداد، فلما دخلها قال في نفسه: إن بدأت بالشيخ حماد فهو الأسن، وإن بدأت بالشيخ عبد القادر فهو الذي صحَّ كلامه، فلقيه الشيخ حماد في سوق السلطان فقال: يا أبا المظفر ابدأ بالشيخ عبد القادر؛ فإنه رجلٌ محبوبٌ، لقد سأل الله فيك سبع عشرة مرة حتى جعل ما قدَّره عليك من القتل يقظة في المنام، وما قدَّره من ذهاب مالك وفقدك منه نسيان، فجاء إلى الشيخ عبد القادر فقال له ابتداءً: قال لك الشيخ حماد أني سألت الله فيك سبع عشرة مرة، وعزة المعبود لقد سألت الله فيك سبع عشرة مرة وسبع عشرة مرة مثنى إلى تمام سبعين مرة، حتى جعل ما قدَّره عليك من القتل يقظة منامًا، وما قدَّره من ذهاب مالك نسيانًا"(١).

الحكاية الثمانون بعد المائة

عن الشيخ العارف بشير بن محفوظ قال: كنت أنا والشيخ أبو مسعود الحزيمي والشيخ محمد بن عابد، والشيخ أبو العلي عمر بن مسعود البزار، والشيخ أبو محمد الحسن القاريء، والشيخ جميل صاحب الخطوة والزعقة، والشيخ أبو حفص عمر الغزالي، والشيخ الجليل ابن

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (٦٤).

الشيخ الجليل أحمد الصرصري، والشيخ أبو البركات بن غنائم البطائحي الهمامي، والشيخ أبو الفتوح بحر بن أبي الفرج البغدادي، وأبو عبد الله محمد بن الوزير بن المظفر بن هبيرة، وأبو الفتوح بن عبد الله بن هبة الله، وأبو القاسم علي شهاب بن الصاحب، جاءوا عند شيخنا محيي الدين عبد القادر ﷺ بمدرسته، فقال: ليطلب كل واحدٍ منكم حاجته أعطيها له.

فقال الشيخ أبو السعود: أريد ترك الاختيار.

وقال الشيخ ابن قائد: أريد القوة على المجاهدة.

وقال الشيخ عمر البزار: أريد الخوف من الله تعالى.

وقال الشيخ القارئ: لي حالٌ مع الله وقد فقدته وأريد ردَّه عليَّ بزيادةٍ عليه.

وقال الشيخ جميل: أريد حفظ الوقت.

وقال الشيخ عمر الغزالي: أريد الازدياد من العلم.

وقال الشيخ الجليل الصرصري: أريد ألا أموت حتى أنال مقام القطبية.

وقال الشيخ أبو البركات الهمامي: أريد الاستغراق في محبة الله تعالى.

وقال الشيخ أبو الفتوح: أريد حفظ القرآن والحديث.

وقال الراوي وهو أبو الخير: وأنا أريد معرفة أفرق بها بين الواردات الربانية وغيرها.

وقال أبو عبد الله بن هبيرة: أريد نيابة الوزارة.

وقال أبو الفتوح بن هبة الله: أريد أن أكون أستاذ الدار.

وقال أبو القاسم بن الصاحب: أريد أن أكون حاجب الباب العزيز.

فقال الشيخ عبد القادر: ﴿كُلاً نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

قال أبو الخير: والله لقد نالوا كلهم ما طلبوا، ورأيت كل واحدٍ منهم في الحالة التي أرادها إلا الشيخ الجليل الصرصري؛ فإنه لم يأتِ الوقت الذي وعده فيه بالقطبية، نفع الله به آمين.

الحكاية الحادية والثمانون بعد المائة

عن الشيخ العالم الربَّاني شهاب الدين السهروردي قال: اشتغلت بعلم الكلام وأنا شابٌّ، وحفظت فيه كتبًا عديدةً، وصرت فيه فقيهًا، وكان عمي يزجرني عنه ولا أزدجر، فأتى وأنا معه إلى زيارة الشيخ عبد القادر ﷺ، وقال: يا عمر، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة:١٢].

وها نحن داخلون على رجلٍ يخبر قلبه عن ربه ﷻ، فانظر كيف نكون بين يديه لتنظر

بركات رؤيته، قال له عمي: يا سيدي، هذا ابن أخي عمر مشتغلٌ بعلم الكلام، وقد نهيته ولم ينتهِ، فقال: يا عمر أي كتاب حفظته؟ قال: الكتاب الفلاني، والكتاب الفلاني، فأمر يده على صدري فوالله ما رفعها وأنا أحفظ من تلك الكتب شيئًا، وأنساني الله جميع مسائلها، لكن وقر الله صدري للعلم اللدني في الوقت العاجل، وقمت من بين يديه وأنا أنطق بالحكم، وقال: يا عمر أنت آخر المشهورين بالعراق.

قال: وكان الشيخ عبد القادر سلطان الطريق المتصرف في الوجود على التحقيق.

الحكاية الثانية والثمانون بعد المائة

عن الشيخ نجم الدين صاحب الشيخ شهاب الدين السهروردي ﷺ قال: جلست في خلوةٍ عند شيخنا أربعين يومًا، فأشهدت في الواقعة في اليوم الأربعين الشيخ شهاب الدين على جبلٍ عالٍ، وعنده جواهر كثيرة، وتحت الجبل خلقٌ كثيرٌ، وبيده صاع يملأه من تلك الجواهر ويقدمها للناس، فيقصدون إليها، فكلما قلت: الجواهر نمت كأنها تنبع من عين.

وخرجت من الخلوة في آخر يومي ذلك وأتيته لأخبره بما شاهدت، فقال لي قبل أن أخبره: الذي رأيته حقٌّ، أو قال: الذي رأيت حق، وأمثاله معه وهو من مادة الشيخ عبد القادر ﷺ لي، ما عوضني به عن علم الكلام، فإنه كانت له اليد المنوطة من الله تعالى في التصرف النافذ، والفعل الخارق الدائم.

الحكاية الثالثة والثمانون بعد المائة

عن الشيخ العارف أبي محمد مفرج بن شهاب الشيباني نسبه في الأولى إلى شيبان، والثانية إلى بيسان، البلد المعروف بالسين المهملة قبل الألف، قال: كان الشيخ عطاء القوني يعبر في الشراع من بلده على بيسان كل جمعةٍ وأصحابه حوله، وكانوا أصحاب أحوال عالية، فمنهم من يركب الأسد، فحصل في نفسي من ذلك شيء، قال: فسافرت إلى بغداد واجتمعت بسيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ فذكرت له حال الشيخ عطاء، فأمسك عني أيامًا، فلما أخذت منه دستور السفر قال لي عند فراقي له: إذا وصلت عند الشراع قِف عند المخاضة وقل: عبد القادر يقول لك لا تترك الشيخ عطاء ولا أصحابه يعبرونك، قال: فلما رجعت وقفت عند المخاضة، وقلت كما قال لي الشيخ، فلما كان يوم الجمعة جاء الشيخ عطاء وأصحابه على عاداتهم وأرادوا الخوض، وكان بينهم وبين الماء عقبة عالية، فزاد الماء حتى انتهى إلى العقبة، ولم يقدروا على الخوض، وامتنعوا من العبور، فقال الشيخ عطاء لأصحابه: ارجعوا فهذا أمرٌ قد حدث، ثم قال لهم: اكشفوا رؤوسكم لنمضي كلنا إلى بغداد، ونستغفر عند الشيخ عبد القادر، فقال له ولده إبراهيم: فلتمضي إلى الشيخ مفرج وتستغفر له، فلما عزموا على ذلك هبط الماء إلى حدِّه الأول، وعبروا إلى بيسان، واستغفروا للشيخ مفرج،

وكانوا بحضرته متواضعين، وكان يوم استغفارهم يومًا عظيمًا(١).

الحكاية الرابعة والثمانون بعد المائة

عن الشيخ الجليل العارف أبي عبد الله محمد بن أحمد البلخي رحمه الله تعالى قال: هاجرت من بلخ إلى بغداد وأنا شابٌّ لأزور الشيخ عبد القادر ﷺ، فوافيته يصلِّي العصر بمدرسته، وما كنت رأيته ولا رآني قبل ذلك، فلما سلم وأهرع الناس إليه بالسلام عليه تقدمت إليه وصافحته، فأمسك بيدي ونظر إليَّ مبتسمًا وقال: مرحبًا بك يا بلخي يا محمد، قد أراني الله مكانك وعلم نيتك.

قال: فكان كلامه دواء الجريح، وشفاء العليل، فذرفت عيناي خشيةً، وارتعدت فرائصي هيبةً، وتقطعت أحشائي شوقًا في محبته، وأوحشت نفسي، ووجدت في قلبي أمرًا لا أحسن أن أعبر عنه، ثم زاد سموًّا وتقويِ وأنا أغالبه، فلما كان ذات ليلةٍ مظلمةٍ قمت إلى وردي فبرز لي من قلبي شخصان، وبيد أحدهما كأس وبيد الآخر خلعة، فقال لي صاحب الخلعة: أنا عليٌّ بن أبي طالب، وهذا أحد الملائكة المقرَّبين، وهذا كأسٌ من شراب المحبة، وهذه خلعة من حلل الرِّضا. ثم ألبسني تلك الخلعة، وناولني صاحبه الكأس فأضاء بنوره المشرق والمغرب، فلما شربته كُشف لي عن أسرار الغيوب، ومقامات أولياء الله تعالى، وغير ذلك من العجائب، فكان مما رأيت مقامًا تزل أقدام العقول في سره، وتضل أفهام الأفكار في جلاله، وتخضع رقاب الأولياء لهيبته، وتُذهل أسرار السرائر في بهائه، وتُدهش أبصار البصائر لأشعة أنواره ونسائمه طالعة من الملائكة المقرَّبين والكروبيين والروحانيين، لاحت ظهورها على هيئة الراكعين؛ تعظيمًا لقدر ذلك المقام، وسبَّحت الله تعالى بأنواع التقديس والتنـزيه، وسلمت على أهل ذلك المقام، ويقول القائل: إنه ليس فوقه إلا عرش الرحمن ﷻ، ويتحقق الناظر إليه أن كل مقامٍ لواصلٍ، أو حالٍ لمجذوبٍ، أو علمٍ لعارفٍ، أو تصريفٍ لوليٍّ، أو تمكينٍ لمقربٍ، فمبدؤه ومونله – أو قال: نائله – وجملته وتفصيله وكله وبعضه وأوله وآخره فيه استقر، ومنه نشأ، وعنه صدر، وبه كَمُلَ.

قال: فمكثت مدة لا أستطيع أن النظر إليه، ثم طوقت النظر إليه، ومكثت مدة لا أستطيع

(١) انظر: بهجة الأسرار (٧٤).

مسامتته، ثم طوقت مسامتته، ومكثت مدة لا أستطيع أن أعلم بمن فيه، ثم بعد مدة علمت بمن فيه، فإذا فيه رسول الله ﷺ، وعن يمينه آدم وإبراهيم وجبريل، وعن شماله نوح وموسى وعيسى، صلوات الله عليهم أجمعين، وبين يديه أكابر الصحابة والأولياء، رضوان الله عليهم، فقام على هيبته الخدم، وكأن على رؤوسهم الطير من هيبته ﷺ.

وكان من عرفت به من الصحابة: أبا بكر وعمر وعثمان وعلي والحمزة والعباس، رضي الله عنهم أجمعين.

وكان من عرفت به من الأولياء: معروفًا الكرخي، وسري السقطي، والجنيد، وسهل التستري، وتاج العارفين أبا الوفا، والشيخ عبد القادر، والشيخ عدي بن مسافر، والشيخ أحمد الرفاعي، رضي الله عنهم أجمعين.

وكان من أقرب الصحابة إلى المصطفى ﷺ أبو بكر الصديق ﷺ، وكان من أقرب الأولياء إليه الشيخ عبد القادر، فسمعت قائلاً يقول: إذا اشتاق الملائكة المقرَّبون والأنبياء المرسلون والأولياء المحبون إلى رؤية سيدنا محمد ﷺ نزل من مقامه الأعلى عند رؤية ربه تعالى إلى هذا المقام، فتتضاعف أنوارهم برؤيته، وتزكو أحوالهم بمشاهدته، ويعلو مكانهم ومقامهم ببركته، ثم يعود إلى مقامه الأعلى، فسمعت الكل يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

قال: ثم بدت لي بارقة من النور المقدس الأعظم فغيَّبتني عن كل مشهودٍ، واختطفتني عن كل موجودٍ، وأسقطت مني التمييز بين كل مختلفين، وأقمت على هذه الحالة ثلاث سنين فلم أشعر في نفسي إلا وأنا في سامراء، بكسر الميم وتشديد الراء، والشيخ عبد القادر ﷺ قابض على صدري وإحدى رجليه عندي والأخرى ببغداد، وقد عاد إليَّ تمييزي، وملكت أمري، فقال لي الشيخ: يا بلخي، قد أُمرت أن أردك إلى وجودك، وأملكك حالك، وأسلب منك ما قهرك، ثم أخبرني بجميع مشاهداتي وأحوالي من أول أمري إلى ذلك الوقت، إخبارًا يدل على اطِّلاعه على كل نفسٍ، وقال: لقد سألت رسول الله ﷺ سبع مرات حتى طوقت النظر إلى

ذلك المقام، وسبع مرات حتى طوقت مسامتته، وسبع مرات حتى اطلعت على من فيه، وسبع مرات حتى سمعت المنادي، ولقد سألت الله تعالى فيك سبع مرات وسبع مرات وسبع مرات حتى لاحت لك تلك البارقة، وكنت من قبل سألته فيك سبعين مرة حتى سقاك الله تعالى كأسًا من محبته، وألبسك خلعة رضوانه، يا بني اقضِ جميع ما فاتك من الفرائض، اللهم اسقنا كأسًا من محبتك يا كريم.

الحكاية الخامسة والثمانون بعد المائة

عن عبد الله محمد الكامل قال: سمعت الشيخ العارف أبا محمد شاور السبتي المحلي يقول: دخلت بغداد لزيارة شيخنا محيي الدين عبد القادر الجيلاني ﷺ، وأقمت عنده مدة، فلما عزمت على الرجوع إلى مصر على قدم التجريد من الخلق ومن المعلوم، فاستأذنته فأوصاني ألا أسأل أحدًا شيئًا، ووضع إصبعه في فمي وأمرني أن أمصها، ففعلت وقال لي: انصرف راشدًا مهديًا، فسرت من بعد ذلك إلى مصر وأنا لا آكل ولا أشرب، وقوتي في زيادةٍ.

الحكاية السادسة والثمانون بعد المائة

عن الشيخ الأصيل عبد الرزاق ابن الشيخ الجليل، ذي المجد الأسيل، قطب الأولياء والدليل محيي الدين عبد القادر الجيلي قال: خرج والدي يومًا إلى صلاة الجمعة وأنا وإخواني عبد الوهاب وعيسى معه، فمرَّ بنا في الطريق ثلاثة أحمال، خمر للسلطان قد فاحت رائحتها واشتدَّت، ومعها صاحب الشرطة وأعوان الديوان، فقال لهم الشيخ: قفوا، فلم يفعلوا، وأسرعوا في السَّوق، فقال الشيخ للدواب: قِفِي فوقفت مكانها كأنها جمادات، فضربوها ضربًا عنيفًا فلم تتحرك عن مواضعها، وأخذهم كلهم القولنج، وجعلوا يتقلبون على الأرض يمينًا وشمالاً من شدة الهم، فضجوا بالشيخ وأعلنوا بالتوبة والاستغفار، فزال عنهم الهم في الوقت، وانقلبت رائحة الخمر برائحة الخل، ففتحوا الأواني فإذا هي خلٌّ، ومشت الدواب، فعلت أصوات الناس بالضجيج، وذهب الشيخ إلى الجامع وأتى الخبر إلى السلطان، فبكى رعبًا، وارتدع عن كل فعلٍ من المحرمات، وأتى إلى زيارة الشيخ وكان يجلس بين يديه متواضعًا متصاغرًا.

الحكاية السابعة والثمانون بعد المائة

عن الشيخ العارف أبي عمرو الصيرفيني ﷺ قال: كانت بداية أمري أني كنت ليلة بصيرفين مستلقيًا على ظهري تحت السماء، فمرَّت في الفضاء خمس حمامات، فسمعت إحداهن تقول بلسانٍ فصيحٍ كنطق الآدميين: سبحان من عنده خزائن كل شيءٍ، وما ننـزّله إلا بقدرٍ معلومٍ، وسمعت الأخرى تقول: سبحان من أعطى كل شيءٍ خلقه ثم هدى، وسمعت الثالثة تقول: سبحان من بعث الأنبياء حجة على خلقه، وفضَّل عليهم محمدًا، وسمعت الرابعة تقول: كل ما كان في الدنيا باطل إلا ما كان لله ولرسوله، وسمعت الخامسة تقول: يا أهل الغفلة عن مولاكم قوموا إلى ربكم رب كريم، يعطي الجزيل، ويغفر الذنب العظيم، قال: فغُشي عليَّ، وأفقت وقد نُزع من قلبي حب الدنيا وما فيها، فلما أصبحت عاهدت الله تعالى أن أسلم نفسي لشيخ يدلني على الله ﷻ، وسرت لا أدري أين أجده، فاستقبلني شيخٌ وافر الهيبة، ظاهر الوضاءة، فقال لي: السلام عليك يا عثمان، فرددت عليه السلام وأقسمت عليه: من أنت؟ وكيف عرفت اسمي وما رأيتك؟ قال: الخضر، وكنت الساعة عند الشيخ عبد القادر، فقال لي: يا أبا العباس قد حدث البارحة لرجلٍ من أهل صيرفين اسمه عثمان حادثة، وقد أقبل عليه ونُودي من فوق سبع سماوات: مرحبًا بك يا عبدي، وقد عاهد الله تعالى أن يسلم نفسه لمن يدله على ربه ﷻ فاذهب إليه تجده في الطريق، فائتني به ثم قال لي: يا عثمان، الشيخ عبد القادر سيد العارفين في هذا الوقت، وقبلة الوافدين في هذا الوقت، فعليك بملازمة خدمته، وتعظيم حرمته، فما شعرت بنفسي إلا وأنا في بغداد في أسرع وقتٍ، وغاب عني الخضر ﷺ، فما رأيته بعد ذلك إلى سبع سنين، فدخلت على الشيخ عبد القادر فقال لي: مرحبًا بمن جذبه مولاه إليه بالخمسة الطيور، وجمع له كثيرًا من الخير، يا عثمان يهبك الله مريدًا اسمه عبد الغني، ويعلو على كثيرٍ من الأولياء، يباهي الله تعالى به الملائكة، ثم وضع على رأسي طاقيته، فلما لمست رأسي وجدت من فوقي بردًا اتصل بفؤادي، وأثلج قلبي، فكشف لي عن الملكوت، وسمعت العوالم وما فيها تسبّح الله تعالى باختلاف اللغات، وأنواع التقديس، فكاد عقلي يذهب، فرماني الشيخ بقطعةٍ كانت في يده فثبَّت الله عليَّ عقلي، وزادني تمكينًا، ثم أجلسني في خلوةٍ، فمكثت فيها شهرًا، فوالله ما وجدت أمرًا ظاهرًا ولا باطنًا إلا وأخبرني به قبل أن أُفوِّه به، ولا وصلت إلى مقامٍ ولا حالٍ ولا شاهدت مشهدًا ولا كوشفت بعالمٍ من الغيب إلا وأخبرني قبل أن أكلمه، فيفصِّل لي

أحكامه، ويحل لي مشكلاته، ويبيِّن لي أصله وفرعه، وما زال ينـزلني منـزلة بعد منـزلة إلى ما شاء الله من علمه، وأخبرني بأمورٍ وقعت لي، كما أخبرني بعد إخباره بثلاثين سنة ﷺ(١)، وأعاد علينا من بركاته.

الحكاية الثامنة والثمانون بعد المائة

عن الشيخ الجليل العارف بالله مكارم ﷺ قال: كنت يومًا بين يدي الشيخ عبد القادر ﷺ بمدرسته، فمرَّ بنا دراج طائر في الجو، فحصل في نفسي واشتهيته شهوة أكله بكشك، فنظر إليَّ الشيخ مبتسمًا ونظر إلى الجو، فسقط الطائر على أرض المدرسة وسعى حتى وقف على فخذي ساعة، فقال الشيخ يا مكارم دونك وما اشتهيته، أو لينـزعن الله منك شهوة الدراج الطائر بالكشك، قال: فبُغض إليَّ الدراج من وقتي ذلك إلى الآن، وإنه ليُوضع بين يدي مشويًّا ومطبوخًا فلا أستطيع شم رائحته كراهةً، وقد كنت قبل ذلك من أحب الناس فيه(٢).

قال: وحضرت مجلسه مرة وهو يتكلَّم في مقامات الواصلين، ومشاهدات العارفين، حتى اشتاق كل من كان حاضرًا إلى الله ﷻ، فوقع في خاطري: كيف الطريق إلى نيل المراد؟ فقطع كلامه والتفت إلى جهتي وقال: يا مكارم بينك وبين مرادك قدمان، تقطع بإحداهما الدنيا وبالأخرى نفسك، ثم ها أنت وربك(٣).

الحكاية التاسعة والثمانون بعد المائة

عن الشيخ الصالح أبي المظفر إسماعيل بن علي الحميري قال: كان سيدي الشيخ علي ابن الهيتي ﷺ إذا مرض ربما يأتي إلى مكانٍ لي يتمرَّض فيه أيامًا، فمرض مرة وأتى سيدي الشيخ عبد القادر ﷺ من بغداد عائدًا، واجتمعا في المكان المذكور، وكانا فيه نخلتان قد يبستا لهما أربع سنين لم تثمرا، وكنا قد عزمنا على قطعهما، فقام الشيخ عبد القادر فتوضأ تحت إحداهما وصلَّى ركعتين تحت الأخرى، فأينعتا وأورقتا وأثمرتا في أسبوعهما ذلك، وكان أوان حمل النخل، فأحضرت شيئًا من ثمر ذلك المكان فأكل منه، وقال لي: بارك الله لك في أرضك ودرهمك وصاعك وضرعك، قال: فغلت أرضي منذ تلك السنة أضعاف خراجها المعتاد،

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (ص١٨٣)، (٢٠٠).

(٢) انظر: بهجة الأسرار (٩٠).

(٣) انظر: السابق.

وصرت كلما وضعت منذ تلك السنة أضعاف خراجها درهمًا في جهةٍ يأتيني منها أضعافًا مضاعفةً، وإذا وزنت مائة كارة برًّا، فلو تصدقت منها بخمسين كارة وأكِلت الباقي لوجدته مائة كارة، وأنتجت ماشيتي حتى تاه مني عددها، فالحالة هذه إلى الآن ببركة دعوته ﷺ(١).

اللهم انفعنا ببركة الشيخ عبد القادر. آمين.

الحكاية التسعون بعد المائة

عن الشيخ أبي الحسن الجوسقي رحمه الله تعالى قال: ورد عليَّ واردٌ عظيمٌ في زمن شبيبتي أشكل عليَّ كثيرًا من أموره، فجئت إلى سيدي الشيخ علي بن الهيتي ﷺ؛ لأسأله عنه، فقال لي ابتداءً: يا أبا الحسن واردك من أفعال القدرة، ولا تُحل مشكلاته بالأقوال بل بالأفعال، اذهب إلى الشيخ عبد القادر فإنه ملك علماء العارفين، ومالك أزمة أفعال المتصرفين في وقته هذا، قال: فجئت إلى بغداد ودخلت على سيدي الشيخ عبد القادر رضوان الله عليه، فوافيته جالسًا في قبلة مدرسته وبين يديه جماعة، فلما جلست بين يديه نظر إليَّ، ففهمت منه أنه علم عني جميع ما في باطني وما جئت بسببه، وأخرج من تحت سجادته خيطًا ملويًا على خمس طاقات، فأعطاني طرفه وأمسك طرفه الآخر بيده، وحل منه لية فاتضح لي من واردي طرفًا عظيمًا، وشاهدت فيه أمرًا جليلاً، ثم حل منه لية أخرى فاتضح لي منه طرفًا، وشاهدت من واردي طرفًا لا حدَّ له عندي، وشاهدت في ضمنه أمرًا جليلاً لا يُدرك كنهه، حتى حل الليات الخمس، فانكشف لي جميع أحكام واردي، وتبيَّنت لي خفيات أموره من مكامن أسراره، ونهضت بصيرتي بقوى روحانية حتى خُرقت الحجب، فنظر إليَّ الشيخ وقال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥].

فقمت من بين يديه، فوالله ما كلمته بكلمةٍ ولا علم الحاضرون شيئًا من أمري، ورجعت إلى الموضع الذي جئت منه، فلما جلست بين يدي الشيخ علي بن الهيتي قال لي قبل أن أنطق: ألم أقل لك أن الشيخ عبد القادر ملك علماء العارفين، ومالك أزمة أفعال المتصرفين؟! يا أبا الحسن لم يكن من واردك مشاهدات لك، لكن لما مازج نظر الشيخ عبد القادر واردك أنتج لك هذه المشاهدات، وفي أدناهن تفنى الأعمار، ولولا قوله لك: (خذها بقوة) لانفكَّ عنك

---

(١) انظر: المصدر السابق (٩١).

عقلك، وحُشرت في زمرة الموهين، وقد أخبرك أنك ممن يعتد الناس بقوله، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها»[1].

نفع الله به، وأعاد علينا من بركاته.

الحكاية الحادية والتسعون بعد المائة

عن الشيخ القدوة أبي محمد علي بن أبي بكر اليعقوبي أخذ سيدي أبي الحسن علي بن الهيتي ﷺ بيدي وأتى بي إلى سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ وقال له: هذا غلامي، فخلع ثوبًا كان عليه وألبسني إياه وقال لي: يا علي ألبست قميص العافية؟ قال: ولي منذ لبسته خمس وستون سنة ما حدث لي فيها ألم أشكوه، قال: وأتى بي أيضًا إليه وقال لي: اطلب منه خلعة باطنة، فأطرق مليًا ورأيت بارقة من نورٍ صدرت عنه واتصلت بي، فرأيت في الوقت الحاضر أصحاب القبور وأحوالهم، والملائكة في مقاماتهم، وسمعت تسبيحهم باختلاف لغاتهم، وقرأت المكتوب على جبين كل إنسانٍ، وكُشف لي عن أمورٍ جليلةٍ كشفًا جليًا، فقال لي: خذها ولا تخف، وقال له الشيخ علي: أخاف عليه زوال العقل، فضرب بيده في صدري فوجدت في باطني شيئًا على هيئة السراب، فلم أرتع لشيءٍ مما رأيت وسمعت، وأنا إلى الآن استضيء بنور تلك البارقة في طُرق الملكوت، قال: ودخلت بغداد أول دخولي إليها وأنا لا أعرف فيها أحدًا ولا مكانًا، فالتجأت إلى مدرسة حسنة وهي مدرسة سيدي الشيخ عبد القادر ﷺ، ولم يكن فيها حينئذٍ غيري، فسمعت قائلاً يقول من داخل دار فيها: يا عبد الرزاق اخرج وانظر من ثمَّ، قال: فخرج ودخل وقال: ما ثمَّ إلا صبيٌّ سوادي، فقال: لهذا الصبيُّ شأنٌ عظيمٌ، ثم خرج الشيخ إليَّ ومعه خبزٌ وطعامٌ، وما كنت رأيته قبل، فقمت إجلالاً له، فقال: يا علي أنت هنا، ووضع الطعام قدامي وقال لي: نفع الله بك ثلاث مرات سيأتي زمانٌ يُفتقر فيه إليك، وتصير علمًا، قال: فأنا في دعوة الشيخ عبد القادر ﷺ.

الحكاية الثانية والتسعون بعد المائة

عن الشيخ أبي عبد الله محمد الجيلي القزويني أصلاً ودارًا، والشيخ أبي إسحاق إبراهيم ابن عبد الله الطبري، قالا:

لما اشتهر أمر الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ في البلاد، قُصد إلى زيارته ثلاثة من مشايخ

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (٩٣).

جيلان، فلما دخلوا بغداد وأتوا إلى مدرسته استأذنوا عليه، فوجدوه جالسًا وبيده كتابٌ، ورأوا إبريقه موجهًا إلى غير جهة القبلة، والخادم واقفٌ بين يديه، فنظر بعضهم إلى بعضٍ كالمنكرين على الشيخ بسبب الإبريق، وتفريط الخادم فيه، فوضع الكتاب من يده ونظر إليهم نظرة، ونظر إلى الخادم نظرة، فوقع ميتًا، ونظر إلى الإبريق نظرة فدار بنفسه إلى القبلة.

قالا: وحضر عنده بمدرسته الشيخ بقا بن بطو، والشيخ علي بن الهيتي، والشيخ أبو سعيد القيلوي، والشيخ ماجد الكردي، فأمر الشيخ خادمه أن يمد السماط، فلما هيئه وأخذوا في الأكل قال لخادمه: اقعد وكُلْ، قال: أنا صائمٌ، قال: كُلْ ولك أجر صومك، قال: أنا صائمٌ، قال: كُلْ ولك أجر صوم أسبوع، قال: أنا صائمٌ، قال: كُلْ ولك أجر صومك سنة، قال: أنا صائمٌ، قال: كُلْ ولك أجر صومك الدهر، قال: أنا صائمٌ، فنظر إليه مغضبًا فسقط إلى الأرض، وانتفخ جسده وتقطر قيحًا ودمًا، فشفع فيه المشايخ الحاضرون، وسكنوا غضبه عليه حتى رضي عنه، فعاد كما كان كأن لم يكن به شيءٌ[1]، نفع الله به آمين.

الحكاية الثالثة والتسعون بعد المائة

عن الشيخ أبي القاسم عمر بن مسعود البزار -رحمه الله تعالى- قال: قال الشيخ عبد القادر ﷺ لمؤذن مدرسته في نصف الليلة المسفرة عن صيام يوم الجمعة المباركة مستهل شهر رمضان المعظم، سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

اصعد إلى المنارة ونادِ الأولى، ففعل، ثم قال له في أول الثلث الأخير: اصعد ونادِ الثانية، ففعل، ثم قال له في أول السحر: اصعد ونادِ الثالثة، ففعل، ثم قال بعد ساعةٍ: اصعد ونادِ السحور، فلما كان من الغد سأله خواص أصحابه عن معنى ذلك فقال: إن العرش اهتزَّ عندما قلت له: (ناد الأولى) اهتزازة عظيمة، ونادى منادٍ من تحت العرش: ليقم الأولياء الأبرار، وعندما قلت له: نادِ الثانية، اهتزَّ اهتزازة دونها، ونادى منادٍ من تحت العرش: ليقم المستغفرون بالأسحار، فأشرت إلى ذوي المرتبة الأولى أن هذا الوقت وقتكم، وإلى أصحاب المرتبة الثانية أن هذا الوقت وقتكم، وإلى أصحاب المرتبة الثالثة أن هذا الوقت وقتكم[2].

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (١٠١).

(٢) انظر: السابق (١١٠).

الحكاية الرابعة والتسعون بعد المائة

عن الشيخين الجليلين السيدين الأصيلين عبد الوهاب وعبد الرزاق، ابني قطب الزمان وصفوة الرحمن، حامل راية الشرف والمفاخر، الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ قالا:

بكَّر الشيخ بقا ﷺ في يوم الجمعة الخامس من شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة إلى مدرسة والدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ قال: سألتموني عن سبب بكوري اليوم، إني رأيت البارحة نورًا أضاءت به الأفاق، وعمَّ أقطار الوجود، ورأيت أسرار ذوي الأسرار تهب إليه، فمنها ما اتصل به، ومنها ما يمنعه مانع من الاتصال، وما اتصل به سر منها إلا تضاعف نوره، فتطلب ينبوع ذلك النور فإذا هو صادرٌ عن الشيخ عبد القادر ﷺ فأردت الكشف عن حقيقته فإذا هو نور شهوده قابل نور قلبه، وتمازج هذان النوران فانعكس ضياؤهما على مرآة حاله، واتصلت أشعة المقامات من لحظ جمعه إلى وصف تفريقه، فأشرق بها الكون، ولم يبقَ ملكٌ نزل الليلة إلى الأرض إلا وصفحه، واسمه عندهم الشاهد المشهود، قالا: فأتيناه وقلنا له: أصليت الليلة صلاة الرغائب؟ فأنشد:

إذَا نَظَـرتْ عَيْنِـي وجُـوه حَبَـائِبي ... فَتِلْـكَ صَـلاَتِي فِي لَيَـالِي الرغَائِـبِ
وجُـوهٌ إِذَا مَـا أَسْـفَرَتْ عَـنْ جَمَالِهَـا ... أَضَـاءَتْ لهَـا الأَكْـوَانُ مِـنْ كُـلِّ جَانِـبِ
حرمـتُ الرِّضَـا إِنْ لَمْ أَكُـنْ بَـاذِلاً دَمِـي ... أَزَاحِـمُ شَـجعان الـوَغَى بالمَنَاكِـبِ
أَشُـقُّ صُـفُوفَ العَـازِمين بعزمـةٍ ... تُعـلي تَجَـدِي فَـوْقَ تِلْـكَ المراتِـبِ
وَمَـنْ لاَ يـوف الحُـب مَـا يَـسْتَحِقَـه ... فَـذَاكَ الَّـذِي لَمْ يَـأْتِ قَـط بِـوَاجِب"[1]

الحكاية الخامسة والتسعون بعد المائة

عن الشيخ القدوة أبي الحسن علي القرشي، والفقيه أبي القاسم محمد بن عباد الأنصاري قالا: قيل للشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ ونحن حاضران نسمع في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة: صف لنا شيئًا مما وجدت في كل من البداية والنهاية من هذا الأمر؛ لنقتدي بما وجدت في كل من البداية والنهاية، فأنشد:

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (١١٥).

وَمفـاوِضُ العـشَّاقِ فِي أَسْرَارِهِـم ... مِـنْ كُـلِّ مَعْنًـى لَمْ يَـسِعني كفـه

قَـدْ كَـانَ يـسكرنِي مِـزَاجُ شَرَابـه ... واليـوم يـصحبني لديـه صَرفـه

فأغيـبُ عَـنْ رشْـدِي بـأولِ نَظْـرةٍ ... وَاليَـوم اسـتحله وأرقـه

فقالوا لـه: إنا نصوم كما تصوم، ونصلِّي كما تصلِّي، ونجتهد كما تجتهد، وما نرى من أحوالك شيئًا، فقال: زاحمتمونا في الأعمال أفتزاحمونا في المواهب؟! والله ما أكلت حتى قيل لي: بحقِّي عليك كُلْ، ولا شربت حتى قيل لي: بحقِّي عليك اشرب، وما فعلت شيئًا حتى أُمرت بفعله، والله أعلم[1].

الحكاية السادسة والتسعون بعد المائة

عن الشيخ الصالح أبي العباس أحمد بن محمد القرشي قال: ركب الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ وأنا إلى جامع المنصور، ثم رجع إلى المدرسة وكشف عن وجهه المبارك، وألقى بيده من على جنبه عقربًا فمشت على الأرض، فقال لها: موتي فماتت مكانها، ثم قال: يا أحمد إن هذه ضربتني من الجامع إلى هنا ستين مرة[2].

قال: وشكوت إليه الفاقة والعيال في غلاءٍ نزل ببغداد، فأخرج إليَّ ويبة من برٍّ وقال لي: ضعه في غرارةٍ، وسد رأسها وافتح في جنبها فتحة، واخرجوا واطحنوا قال: فأكلنا منها خمس سنين، ثم فتحته زوجتي فوجدته على حاله أول مرة، ونفد في سبعة أيام فذكرت ذلك للشيخ فقال: لو تركتموه لأكلتم منه إلى أن تموتوا[3].

الحكاية السابعة والتسعون بعد المائة

عن الشيخين الجليلين الكبيرين أبي الحسن علي بن الهيتي، والشيخ ماجد الكردي قالا: كان تاج العارفين أبو الوفا ﷺ [4] يومًا يتكلَّم على الناس فوق الكرسي فدخل الشيخ

(١) انظر: بهجة الأسرار (١١٦).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٣٠).

(٣) انظر: المصدر السابق (١٣٠).

(٤) كان من أعيان مشايخ العراق في وقته، له الكرامات الخارقة، وقد انتهت إليه رئاسة هذا الشأن في زمانه، وتلمَّذ له خلقٌ لا يُحصون من العلماء والصلحاء، وكان له أربعون خادمًا من أرباب الأحوال، ولما أخذ عليه شيخه الشنبكي العهد، قال: وقع اليوم في شبكتي طائرٌ لم يقع مثله في شبكة شيخ.

وكان مشايخ البطائح يقولون: عجبنا لمن يذكر أبو الوفاء ولم يمس يده على وجهه، ويسمِّي الله تعالى، كيف لا يسقط لحم وجهه من هيبته؟

=

عبد القادر إلى مجلسه وهو يومئذٍ شابٌّ، أول ما دخل بغداد، فقطع تاج العارفين كلامه وأمر بإخراج الشيخ عبد القادر، فأُخرج، ثم تكلَّم تاج العارفين فدخل الشيخ عبد القادر المجلس فقطع تاج العارفين كلامه، وأمر بإخراج الشيخ عبد القادر فأُخرج، ثم تكلَّم تاج العارفين فدخل الشيخ عبد القادر ثالثًا، فنـزل تاج العارفين واعتنقه وقبَّل بين عينيه وقال: قوموا لولي الله يا أهل بغداد، ما أمرت بإخراجه إهانةً له بل لتعرفوه، وعزة المعبود إن على رأسه صناجق قد تجاوزت ذوائبها المشرق والمغرب، ثم قال له: يا عبد القادر الوقت الآن لنا ويصير لك، يا عبد القادر كل ديك يصيح ويسكت إلا ديكك، فإنه يصيح إلى يوم القيامة، وأعطاه سجادته وقميصه ومسبحته وقصعته وعكازته، فقيل لـه: خُذْ عليه العهد، فقال: على حبيبه المخرمي، قلت: هو ذلك الشيخ الذي يلبس الخرقة من يده، وهو الشيخ أبو سعيد بن علي المخرمي.

وقد ذكرت سند لبس الخرقة وشيوخها في كتاب نشر الريحان.

قال: فلما انقضى المجلس ونزل تاج العارفين من على الكرسي جلس على آخر المرقاة، وأمسك بيد الشيخ عبد القادر وقال لـه: يا عبد القادر لك وقتٌ فإذا جاء فاذكر هذه الشيبة، وقبض على كريمته، قال الشيخ عمر البزار: وكانت مسبحة تاج العارفين التي أعطاها للشيخ عبد القادر إذا وضعها الشيخ محيي الدين على الأرض تدور حبة حبة، فلما مات وجدت في دكة سراويله فأخذها بعده الشيخ علي بن الهيتي، وأخذها بعده الشيخ محمد بن قائد، وكانت القصعة التي أعطاها له لا يمسها أحدٌ بيده إلا وأرجفت.

الحكاية الثامنة والتسعون بعد المائة

عن الشيخ الكبير العارف بالله حماد الدباس، أنه ذكر عنده الشيخ عبد القادر ﷺ وهو يومئذٍ شابٌّ فقال: رأيت على رأسه علمين وقد أضاء له من البهموت الأسفل إلى الملكوت الأعلى، وسمعت الشاؤوس يصيح له في الأفق الأعلى بألقاب الصديقين.

وعن الشيخ الكبير يوسف بن أيوب الهمذاني أنه قال للشيخ محيي الدين وهو شابٌّ:

=

وكان الشيخ عبد القادر الكيلاني يقول: ليس على باب الحق كرديٌّ مثل أبي الوفاء.

وهو أول من سُمِّي بـ(تاج العارفين) بالعراق ﷺ. انظر في ترجمته: طبقات الشعراني (١/ ١١٦)، والانتصار للأولياء الأخيار للكردي (٤٤٩) بتحقيقنا.

تكلم على الناس، فقال: يا سيدي أنا رجلٌ أعجميٌّ، كيف أتكلَّم على فصحاء بغداد؟ فقال لي: أنت حفظت الفقه وأصول الفقه والخلاف والنحو واللغة وتفسير القرآن، كيف لا يصلح لك أن تتكلم على الناس؟! اصعد على الكرسي وتكلَّم؛ فإني أرى فيك عزمًا[1].

وعن الشيخ الكبير العارف بالله أبي النجيب السهروردي أنه قال في الشيخ عبد القادر: إنه صرف في وجود الملك وبوهي به في وجود الملك، وانفرد في عالم الملكوت في هذا الوقت، وصرف في قلوب الأولياء وأحوالهم.

الحكاية التاسعة والتسعون بعد المائة

عن الشيخ الكبير العارف بالله البهي سيدي الشيخ أحمد بن أبي الحسن الرفاعي أنه قال: الشيخ عبد القادر بحر الشريعة عن يمينه، وبحر الحقيقة عن يساره، من أيهما شاء اغترف.

وأنه قال: إذا دخلتم بغداد فلا تقدموا على زيارة الشيخ عبد القادر شيئًا حيًّا وميتًا؛ فقد أخذ له العهد أيما رجل من أصحاب الأحوال دخل بغداد فلم يزره إلا سُلب حاله ولو قبل الموت.

وعن الشيخ أبي عمرو عثمان الصيرفيني قال: كان الشيخ بقا، والشيخ علي بن الهيتي، والشيخ أبو سعيد القيلوي، رضي الله عنهم، يأتون إلى مدرسة الشيخ عبد القادر ﷺ ويقول لهم: اجلسوا، فيقولون: ولنا الأمان؟ فيقول: ولكم الأمان، فيجلسون متأدبين، وكل من حضر منهم رفع الغاشية بين يديه إذا ركب ومشى بها خطوات وهو ينهاهم عن ذلك، وهم يقولون: بل بهذا يُعرف الله تعالى.

قال: وكنت أرى كثيرًا من مشايخ العراق الذين عاصروا الشيخ عبد القادر ﷺ إذا وصلوا إلى باب مدرسته قبلوا العتبة. ومما سمعته من أعيان بغداد ينشدون في هذا المعنى:

تَزَاحَمَ تِيْجَانُ المُلُوكِ بِبَابِهِ ... ويكثُرُ فِي وَقْتِ السَّلَامِ ازْدِحَامِهَا

إِذَا عَايِنَتهُ مِنْ بعيدٍ ترجلتْ ... وَإِنْ هِيَ لَمْ تَفْعَلْ ترجلْ هَامهَا

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (٥٨).

الحكاية المتممة المائتين

عن الشيخ الكبير العارف بالله خليفة بن موسى العراقي ﷺ قال: خرجت مرة ببلاد السواد فرأيت شيخًا جالسًا في الهواء فسلمت عليه، فردَّ عليَّ السلام، فقلت له: لِمَ جلست في الهواء؟ فقال: يا خليفة خالفت الهوى وأسكنت في الهواء، ثم أتيت إلى زيارة الشيخ عبد القادر ﷺ برباطه فرأيته جالسًا في قبة في الهواء.

وذلك الرجل الذي رأيته في الهواء جالسًا بين يديه متواضعًا، فكلمه الرجل وسأله على أحكام في الحقائق، ثم تكلما في المعارف بكلامٍ ما فهمت منه شيئًا، ثم قام الشيخ وخلوت بالرجل، فقلت له: لِمَ أراك هنا؟ فقال: وهل ولي لله تعالى مصطفى أو حبيب مقرب إلا وله إلى هنا ترددٌ واستمدادٌ؟! فقلت له: ما فهمت من كلامكما شيئًا، فقال: إن لكل مقامٍ أحكامًا، ولكل حكمٍ معان، ولكل معنًى عبارة، يعبر بها عنه، ولا يفهم العبارة إلا من فهم معناها، ولا يدرك المعنى إلا من تحقق بحكمه، ولا يتحقق بالحكم إلا من وصل إلى المقام المُشار إليه، فجلست له كما رأيت، وكيف أصعد اليوم بين يدي من ولاني وصرفني، فقلت: وما ولاك؟ وفيمَ صرفك؟ فقال: ولاني المقدمة على مائة رجل من الغيبيين الساكنين في الهواء، الذين لا يراهم إلا من شاء الله، وصرفني في أحوالهم قبضًا وبسطًا.

ثم قال: الشيخ عبد القادر قد قلد الأمر في الأولياء والأبرار والأبدال، فمن دونه من أهل زمانه تقليدًا عمَّ أحوالهم وأسرارهم.

وعن الشيخ العارف بالله أبي عبد الله القرشي ﷺ قال: الشيخ عبد القادر سيد أهل زمانه، أما الأولياء فهو أعلاهم وأكملهم، وأما العلماء فهو أورعهم وأزهدهم، وأما العارفون فهو أعلمهم وأتمهم، وأما المشايخ فهو أمكنهم وأقربهم وأقواهم.

وعن الشيخ الكبير العارف بالله إبراهيم الأعزب ﷺ قال: الشيخ عبد القادر سيدنا وسيد المحققين، وإمام الصديقين، وحجة العارفين، وقدوة السالكين إلى ربِّ العالمين.

وعن الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبي يعزى المغربي، قال في الشيخ عبد القادر: إن المشرق ليُفضل به على المغرب، وإن علمه ونسبه قد ميزاه على الأولياء تمييزًا واضحًا كبيرًا.

وعن الشيخ العارف بالله الشهير أبي مدين المغربي ﷺ فيما رواه عنه تلميذه الشيخ أبو محمد صالح رحمه الله تعالى قال: لقيت الخضر ﷺ فسألته عن مشايخ المشرق والمغرب في

عصرنا هذا، ولم يبقَ بينه وبين الحق إلا نفس واحد، ومراتب الأولياء كلها من وراء ذلك النفس، وسألته عن الشيخ عبد القادر ﷺ، فقال: هو إمام الصديقين، وحجة على العارفين، وهو روح في المعرفة، وشأنه التفريد بين الأولياء، وأنا أصرف مراتب الأولياء من وراء إشارته.

الحكاية الحادية والمائتين

عن أبي الرِّضا محمد بن أحمد البغدادي المعروف بالعبد رحمه الله تعالى قال: كنت كثيرًا ما أتوقع من أسأله عن شيءٍ من صفات القطب، فدخلت أنا والشيخ أبي الخليل أحمد بن سعيد بن وهب المقري البغدادي إلى جامع الرصافة، فوجدنا فيه الشيخ أبي سعيد القيلوي، والشيخ علي بن الهيتي، رضي الله عنهما، فسألت الشيخ أبي سعيد عن ذلك، فقال: إلى القطب انتهت رئاسة هذا الأمر في وقته، وإليه يلقى أمر الكون وأهله في عصره، فقلت: ومن هو هذا؟ قال: هو الشيخ عبد القادر، فلم أتمالك أن وثبت ووثبوا كلهم؛ لنحضر مجلس الشيخ عبد القادر ﷺ، وما تقدَّم منا أحدٌ ولا تأخَّر، ولا تفرَّقنا، وما منا إلا من يشتهي أن يسمع منه شيئًا في هذا المعنى، فوافيناه يتكلَّم، فلما استقرَّ بنا المجلس قطع كلامه وقال: أنَّى للواصف أن يبلغ وصف القطب، ولا مسلك في الحقيقة إلا وله فيه مأخذٌ مكينٌ، ولا درجة في الولاية إلا وله فيها موطنٌ ثابتٌ، ولا مقام في النهاية إلا وله فيه قدمٌ راسخٌ، ولا منازلة في المشاهدة إلا وله فيها مشربٌ هنيٌّ، ولا معراج إلى مراقي الحضرة إلا وله فيه مسرى علي، ولا أمر في كوني الملك والملكوت إلا وله فيه كشفٌ خارقٌ، ولا أمر في عالم الغيب والشهادة إلا وله فيه مطالعةٌ، ولا مظهر لوجودٍ إلا وله فيه مشاركةٌ، ولا نور إلا وله قبسٌ، ولا معرفة إلا وله بها نفسٌ، ولا محراب لسابق إلا وهو آخذ بغايته، ولا هدى لواصل إلا وهو مالكٌ لنهايته، ولا مكرمة إلا وهو إليها مخطوبٌ، ولا مرتبة إلا وهو إليها مجذوبٌ، ولا نفس إلا وهو فيه محبوبٌ، وهو حامل لواء العز، ومنتهي سيف القدرة، وسلطان جيوش الحكم، وولي عهد التولية والعزل، لا يشقى به جليسه، ولا يغيب عنه مشهوده، ولا يتوارى عنه حاله، ولا مرقى للأولياء فوق مرقاته، ولا معنى فوق معناه، ولا وجود أتم من وجوده، ولا شهود أظهر من شهوده، ولا اقتفاء بالشرع أشد من اقتفائه، إلا أنه كائنٌ بائنٌ، متصلٌ منفصلٌ، أرضيٌّ سماويٌّ، قدسيٌّ غيبيٌّ، وسطية خالصة تسير، ما بقي لرجل منتهى إليه ووصف فيه وتكليف يجب عليه إلا أنه

تستر باتصاله عند جمعه في مواضع نظرات الأزل عن عين التفرقة بين الهيبة والأنس، وبادر باتصاله عند تفريقه في شعاب المشاهدات؛ ليباين الصفات بين أوصاف الجلال وانغماس الجمال، مع لزوم وصف المقام وزوال نعت الحال، فجاء انفراده بالأسرار نادى على غرة ظهوره بالآيات في خفى اقتران حكمه بالأمر، وإلا لما استطاع ظهوره بالبسط منقولاً في الأين من بطش القبض، ولولا أن عالم الملك والحكمة لا يظهر فيه شيءٌ من عالم الغيب والقدرة إلا في قشر الحجاب وإشارة الزمن، وفك الحصر؛ ليشاهد أهل الكون في هذا الأمر عجبًا، ولولا أن جملته وتفصيله وأوله وآخره في حواشي تمكين المصطفى ﷺ، وممزوج وصفه بنسيم نسمات رعايته، وبحضوره وتخليصه في قبضة أمره إقبالاً وإدبارًا، وجمعًا وتفرقةً لخرق سهم القدرة سياج الحكم، ولما تجلى بهذا الأمر الذي أشير إليه طاب لسمعهم ورؤيتهم عجبًا، ثم أنشد وهو يقول:

مَـا فِي الـصبابةِ منهـلٌ مُـستعذبٌ ... إلاَّ وَلِي فِيْـهِ الأَلَـذُّ الأطْيَـبُ

أَوْ فِي الوصَـالِ مكانـةٌ مخـصُوصَةٌ ... فحلست مَنَاهِلَهَـا وَطَـابَ المـشربُ

وغَـدوت مخطوبًـا لكُـلِّ كَرِيمـةٍ ... لاَ يَهْتَـدِي فِيْهَـا اللبيـبُ فيخطـبُ

أَنَـا مِـنْ رِجَـالٍ لاَ يَخَـافُ جَلِيـسهم ... ريـبَ الزَّمَـانِ وَلاَ يَـرَى مَـا يرهـبُ

قَـوْمٌ لهُـم فِي كُـلِّ مجـدٌ رتبـةٌ ... علويَّـةٌ وَبِكُـلِّ جَـيْشٍ مَوْكـبُ

أَنَـا بلبـلُ الأَفْـرَاح أمْـلأ دوحهَـا ... طَربًـا وَفِي العليَـاء بَـاز أشـهبُ

أضْحَتْ جيوش الحبِّ تحتَ مَشِيْئَتِي ... طَوْعًـا وَمَهْـمَا رمتـهُ لاَ يعـزبُ

أَصـبحت لا أَمَـلاً وَلاَ أُمنيـةً ... أَرْجُـو وَلاَ موعـودةً أترَقَّـبُ

مَـا زِلْـتُ أرتـع فِي مَيَـادِين الرِّضَـا ... حَتَّـى وهبـت مَكَانَـةً لا توهـبُ

أضْـحَى الزَّمَـان كحلـة مزهـوة ... تزهـو ونحـن لهَـا الطـرازُ المـذهبُ

أفِـلتْ شمـوسُ الأوليـن وشمـسُنَا ... أَبـدًا عَـلَى فَـلكِ العُـلاَ لاَ تغـربُ

ثم قال: كل الطيور تقول ولا تفعل، والباز يفعل ولا يقول[1].

فقام إليه الشيخ أبو المظفر منصور بن المبارك الواعظ المعروف بجرادة وأنشد:

يَـا مَـنْ بِفَيْضِهِ تَعْلُـو اليَوَاقِيـتُ ... بِـكَ الـشهُور تهنَـا والمَوَاقِيـت

البَازُ أَنْتَ فَإِنْ تَفْعَلِ تفخر وَلاَ عَجَب ... وَسَائِر النَّاس فِي عَيْنِـي فَواخيـتُ

لأَنَّـه قَـدَمٌ فِي نَعْلِـهِ الـصيتُ ... أشَـمُّ مِـنْ قَـدَمَيْكَ الـصِّدْق مجتَهِـدًا

قلت: لأنه أشار بهذا البيت إلى قول الشيخ عبد القادر ﷺ: (قدمي هذا على رقبة كل وليِّ لله)، وإنه صادقٌ في قوله ذلك، محقٌّ فيه، قاله عن وارد حق، ولهذا وضعت الشيوخ الأكابر رقابهم عند قوله ذلك بالمشرق والمغرب، سوى واحد في أصبهان فعُزل؛ لعدم انقياده.

وقد ذكر المشايخ الكبار أنه أمر أن يقول ذلك فأخبر بعضهم قبل أن يُولد بنحو مائة سنة أنه سيقول ذلك، وقال بعض مشايخ الحلة: رأيت الشيخ عبد القادر وكان كبير الدعوى بحق، وقد تكلمت في كتاب نشر المحاسن على بعض المقاصد في هذه الأبيات.

وأما قوله: (في العلياء باز أشهب) فقد روى بعض أهل العلم إلى الشيخ العالم العارف أبي سليمان داوود بن يوسف المنبجي قال: كنت يومًا عند الشيخ عقيل ﷺ فقيل له: قد اشتهر ببغداد أمر شاب شريف اسمه عبد القادر، فقال: وإن اسمه في السماء أشهر منه في الأرض ذكرًا، الفتى الرفيع، العلي المدعو في الملكوت بالباز الأشهب، وسينفرد في وقته، ويرد إليه الأمر ويصدر عنه في عصره... انتهى.

قلت: وقد أثنى عليه ثناءً عظيمًا، ووصفه وصفًا كريمًا خلائق من مشايخ زمانه وغيرهم، ممن هم مطالع الأنوار، وخزائن الأسرار، ومن جملتهم الذين ذكرت في مناقبهم عنهم المائة حكاية الأولى من المائتين المودعة في هذا الجزء، والمائة الأخيرة في مناقب الشيخ عبد القادر ﷺ، وذكرت ثناءهم عليه في غير هذا الكتاب، وهم قريبٌ من أربعين شيخًا وهم:

الشيخ أبو بكر البطائحي، والشيخ أبو محمد الشنبكي، والشيخ عزاز البطائحي، والشيخ منصور البطائحي، والشيخ أبو الوفا، رضي الله عنهم أجمعين.

والشيخ حماد بن مسلم الدباس، والشيخ أبو يعزى المغربي، والشيخ عدي بن مسافر

(١) انظر: الروض الزاهر (٩٨) بتحقيقنا.

الأموي، والشيخ علي بن وهب السنجاري، والشيخ موسى بن ماهين الزولي[١]، والشيخ أبو النجيب عبد القاهر السهروردي، والشيخ أبو الحسن الرفاعي، والشيخ علي بن الهيتي، والشيخ عبد الرحمن الطفسونجي، والشيخ بقا بن بطو، بفتح الباء الموحدة وضم الطاء المهملة المشددة[٢]، والشيخ أبو سعيد القيلوي، والشيخ مطر الباذراني، بالباء الموحدة والذال المعجمة والراء، والشيخ ماجد الكردي، والشيخ جاكير، بالجيم والياء المثناه من تحت بعد الكاف،

---

(١) هو أحد الأئمة، أبرز الله له المغيبات، وخرق له العادات، وأوقع له الهيبة في القلوب، وانعقد عليه إجماع المشايخ، وقُصد بحل المشكلات، وكشف خبيات الموارد.

وكان الشيخ عبد القادر الكيلاني يثني عليه ويعظّم شأنه، وقال مرّة: يا أهل بغداد ستطلع عليكم شمس ما طلعت عليكم بعد، فقيل له: ومن هو؟ قال: الشيخ موسى الزولي.

وكان ﷺ كثير المشاهدة لرسول الله ﷺ، وكانت أغلب أفعاله بتوفيقٍ منه ﷺ، وكان إذا مسَّ الحديد بيده لان حتى يصير كاللبان.

وكان يقول للصبيّ الذي عمره أربعة أشهر فأقل: اقرأ سورة كذا، فيقرؤها الصبي بلسانٍ فصيحٍ، ولا يزال يتكلّم من ذلك الوقت.

استوطن ﷺ ماردين وبها مات وقد كبر سنه، وقبره بها ظاهرٌ يُزار، ولما وضعوه في لحده نهض قائمًا يصلّي، واتسع له قبره، وأغمى على من كان قد نزل قبره. انظر في ترجمته: الانتصار للأولياء الأخيار للكردي (٤٤٧)، وطبقات الشعراني (١/ ١٢١).

(٢) هو من أعيان مشايخ العراق، وأكابر الصدِّيقين، صاحب الأحوال النفيسة، والمقامات الجليلة، والكرامات الباهرة. وكان الشيخ عبد القادر الكيلاني يثني عليه كثيرًا، ويقول: كل المشايخ أُعطوا بالكيل إلاَّ الشيخ بقاء بن بطوْ، فإنه أُعطى جزافًا، انتهى إليه علم الأحوال، وكشف موارد الصادرين بنهر الملك وما يليه.

وتلمّذ له خلائق من الصلحاء والعلماء، وقُصِدَ بالزيارات والنذور.

وكان يقول: من لم يستعن بالله على نفسه فقلبه خرابٌ.

وكان يقول: من لم يقم بآداب أهل البداية كيف يستقيم له مقام أهل النهاية!.

وزاره ثلاثة من الفقهاء فصلُّوا خلفه العشاء، فلم يقرأ القرآن كما يريد الفقهاء، فساء ظنهم به وباتوا في زاويته، فأجنبوا الثلاثة، وخرجوا على نهرٍ على باب الزاوية، فجاءوا يغتسلون فيه، فجاء أسد عظيم الخلقة، وبرك على ثيابهم، وكانت ليلة شديدة البرد، فأيقنوا بالهلاك، فخرج الشيخ من الزاوية، فجاء الأسد وتمرّغ على رجليه، فاستغفروا الله تعالى وتابوا.

سكن ﷺ باب يونس قرية من قرى نهر الملك، وبها تُوفي قريبًا من سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وقبره بها ظاهرٌ يُزار. انظر في ترجمته: طبقات الشعراني (١/ ١٢٦)، والنبهاني (١/ ٣٦٧).

والشيخ أبو محمد القيم البصري، والشيخ أبو عمرو عثمان بن مرزوق، والشيخ سويد السنجاري، والشيخ حياة بن قيس الحراني، بالحاء المهملة والراء والنون بين الألف والياء، والشيخ رسلان الدمشقي، والشيخ أبو مدين المغربي، والشيخ أبو محمد عبد الرحيم القناوي المغربي، والشيخ عثمان بن مُرُورة، والشيخ قضيب البان الموصلي، والشيخ مكارم النهر خالصي، بالنون قبل الهاء والراء بعدها ثم الخاء المعجمة والصاد المهملة بين الألف والياء[1]، والشيخ خليفة بن موسى النهر ملكي[2]، والشيخ أبو الحسن الجوسقي، والشيخ أبو عبد الله القرشي، والشيخ أبو البركات بن صخر الأموي، والشيخ إسحاق إبراهيم الأعزب، والشيخ الغوث، رضوان الله عليهم أجمعين، وهؤلاء سبعة وثلاثون شيخًا.

وذكرت في غير هذا الكتاب أنه حضره نيف وثلاثون شيخًا حتى قال: (قدمي هذا على رقبة كل وليٍّ لله).

وقد ذكرتُ شيئًا من كلام الشيوخ المذكورين عقب الحكايات[3].

---

(١) هو من أكابر مشايخ العراق المشهورين، وأجلاء العارفين المذكورين، ونبلاء الأولياء المقربين، له المراتب المصدرة في مواطن القدس، والمكانة الجليلة في مجالس القرب، والطور الأرفع في الحقائق.
والخالص: اسم ناحية ونهر بشرقي بغداد. وانظر: بهجة الأسرار (٣٧١).

(٢) هو الشيخ خليفة بن موسى النهرملكي ﷺ صاحب المعارف الزاهرة، والحقائق الباهرة، والأنفاس القدسية، والمعاني النورية، وهو أحد من أظهره الله تعالى للوجود، وصرفه في الكون، وأظهر على يديه الخارقات، وأنطقه بالمغيبات. قال ابن النجار: أخبرني أبو عبد الله محمد بن سعيد الشاهد، عن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر، قال: سمعت أبا الثناء بن أبي البركات النهر ملكي يقول: قال لي صديق لي: قد سمعت أن الشيخ عبد القادر لا يقع على ثيابه الذباب. فقلت: ما لي علم. وانظر: بهجة الأسرار (٣٧٦)، وتاريخ الإسلام (١/ ٣٩٣٩).

(٣) قال الكردي: وقد رُوي في كتاب «مناقبه» من طرقٍ كثيرةٍ برواياتٍ شهيرةٍ عن جماعةٍ من المشايخ الأكابر والعلماء الأفاضل والأخيار الثقاة واشتهر واستفاض حتى في الجهات البعيدة أنه قال في مجلسه وهو على الكرسي يتكلم على الناس: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، وكان في مجلسه حينئذٍ عامة مشايخ العراق، ورُوي أنهم كانوا نحوًا من خمسين شيخًا.
ورُوي نيفًا وخمسين شيخًا، منهم: الشيخ أبو النجيب السهروردي، والشيخ قضيب البان الموصلي، والشيخ أبو السُّعود أحمد بن أبي بكر العطاء، وغيرهم من المشايخ الأكابر المعدودين.
ورُوي من طرقٍ كثيرةٍ عن خلائق من الأولياء أنه لم يبق أحدٌ من الأولياء في ذلك الوقت من الحاضرين والغائبين في جميع آفاق الأرض إلا حَنى له رقبته إلا رجلا بأصبهان؛ فإنه لم يفعل، فسُلب حاله.
ورُوي أن الشيخ أبا النجيب السهروردي طأطأ رأسه حتى كاد يبلغ الأرض، وقال: على رأسي على رأسي على رأسي، قالها ثلاث مراتٍ، وكان من جملة من حَنى له رقبته من الغائبين الكبار المشهورين: الشيخ أبو مدين المغربي، والشيخ عبد الرحيم القناوي، والشيخ أحمد بن أبي الحسين الرفاعي رضي الله عنهم أجمعين.

=

=

فأما الشيخ أحمد الرفاعي: فرووا عنه أنه كان جالسًا يومًا برواقه بأم عبيدة، فمدَّ عنقه وقال: على رقبتي، وفي رواية أنه قال: وحميد منهم، فسُئِل عن ذلك، فقال: قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله.

وأما الشيخ أبو مدين المغربي: فرووا عنه أنه حَنى رأسه يومًا وهو بين أصحابه، وقال: وأنا منهم اللَّهُمَّ إني أشهدك وأشهد ملائكتك أني سمعت، وأطعت. فسأله أصحابه عن ذلك؟ فقال: قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، فأرَّخوا ذلك وهم في المغرب، ثم جاء المسافرون من العراق، وأخبروا أن الشيخ عبد القادر الكيلاني قال ذلك في الوقت الذي أرَّخوه.

وأما الشيخ عبد الرحيم القناوي: فرووا عنه أنه مدَّ عنقهُ يومًا بقنا، وقال: صدق الصَّادق المصدوق. فقيل له: ومن هو؟ فقال: الشيخ عبد القادر الكيلاني قد قال: قدمي هذا على رقبة كل وليٍّ لله، وتواضع له رجال الشرق والمغرب، فأرَّخوا ذلك الوقت، ثم جاء الخبر بذلك في ذلك الوقت.

ورُوي بأسانيد كثيرةٍ من طرقٍ متعددةٍ عن جماعةٍ من كبار المشايخ أنه لم يقل ذلك إلا بأمر.

منهم: الشيخ عدي بن مسافر الأموي قال: إنما وَضَعَتْ الأولياء كلهم رؤوسهم لمكان الأمر، ألا ترى الملائكة لم يسجدوا لآدم ﷺ إلا لورود الأمر عليهم.

ومنهم: والشيخ أبو سعيد القليوي قال: قالها بأمرٍ لا شكَّ فيه، وهي لِسَان القطبيَّة.

ومنهم: الشيخ على الهيتي: لمَّا قال الشيخ عبد القادر مقالته تلك صَعَدَ إليه فوق الكرسي، وأخذ قدمه، وجعلها على عنقهِ، ودخل تحت ذيله، فقال له أصحابه: فلِمَ فعلت ذلك؟ فقال: لأنه أمر أن يقولها، وأذن له في عزل من أنكرها عليه من الأولياء، فأردتُ أن أكون أول من سارع إلى الانقياد له.

ومنهم: الشيخ أحمد بن أبي الحسن الرفاعي قيل له: هل قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذا على رقبة كل وليٍّ لله بأمرٍ أو بلا أمرٍ؟ قال: بلى قالها بأمرٍ.

ومنهم: الشيخ أبو محمد القاسم قال: لما أُمر الشيخ عبد القادر بقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله رأيتُ الأولياء بالمشرق والمغرب واضعين رؤوسهم تواضعًا إلا رجلاً بأرض العجم فإنه لم يفعل، فتوارى عنه حاله.

ومنهم: الشيخ حياة بن قيس الحرَّاني قال: قد غشانا زمانٌ مديدٌ في ظلِّ حماية سيئات الشيخ عبد القادر الكيلاني وشَربنا كئوسا هنيئةً من مناهل عرفانه، ولقد كان النفس الصادق يصدر عنه، فيبسط من شعاع نوره في الآفاق استطارة النار، فيقتبس منه الأسرار أصحاب الأحوال على قدر مراتبهم، ولما أتاه الأمر بقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله زاد الله جميع الأولياء نورًا في قلوبهم، وبركةً في علومهم، وعلوًّا في أحوالهم بسبب وضعهم رؤوسهم.

ورُوي بأسانيد صحيحةٍ متعددةٍ كثيرةٍ عن جماعةٍ من الشيوخ الكبار أنهم أخبروا عنه أنه سيقول مقالته تلك قبل أن يقولها بسنين كثيرةٍ، بعضهم قال ذلك بنحو مائةٍ.

منهم: الشيخ عبد الله الجونيُّ روى عنه الشيخ الإمام أبو يعقوب يوسف بن أيوب الهمداني قال: سمعت شيخنا أبا أحمد عبد الله بن علي الجوني سنة أربع وستين وأربعمائةٍ يقول: أشهدت أنه سيولد بأرض العجم مولودٌ، له مظهرٌ عظيمٌ بالكرامات، وقبولٌ تامٌّ عند الكافة، ويقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، ويندرج الأولياء في وقته تحت قدمه ذلك الذي يشرق به زمانه، وينتفع به من رآه.

ومنهم: الشيخ تاج العارفين أبو الوفاء قال لمن حضره لما أتى الشيخ عبد القادر لزيارته وهو شابٌّ: قوموا لوليِّ الله، وربما يمشي إليه في وقتٍ خطواتٍ، وكان الشيخ عبد القادر يتكرَّر إليه، فلمَّا تكرَّر منه قوله: قوموا لوليِّ الله قال له أصحابه في ذلك، فقال لهذا الشاب وقت إذا جاء افتقر إليه فيه الخاص والعام، وكأنِّي أراه قائلاً ببغداد على رؤوس الأشهاد وهو محقٌّ: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، فتوضع له رقاب الأولياء في عصره؛ إذ هو قطبهم، فمن أدرك منكم ذلك الوقت فليلزم خدمته.

=

ومنهم: الشيخ عقيل المنيحي قُدِّس سرُّه سُئل عن القطب في وقته؟ فقال: هو في وقتنا هذا بمكة مُخفيٌّ لا يعرفه إلا الأولياء، وسيظهر هنا، وأشار إلى العراق، وهو شريفٌ يتكلّم على الناس ببغداد، يعرف كراماته الخاص والعام، وهو قطب وقته، يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، وتضع له الأولياء رقابهم، ولو كنتُ في زمانه لوضعت له رأسي، ذلك الذي ينفع الله به مَنْ صدَّق بكراماته من سائر الناس. ﷺ حا

ومنهم: الشيخ على بن وهب السنجاري قُدِّس سرُّه قال: إن الله تعالى قد نوَّر الوجود بظهور رجل اسمه عبد القادر، مظهره في العراق، يقول ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، ويقرُّ أولياء عصره بفضله.

ومنهم: الشيخ حمّاد الدبّاس قُدِّس سرُّه قال الشيخ أبو النجيب عبد القادر السهروردي: كنت عند الشيخ حمّاد بن مسلم الدبّاس ببغداد سنة ثلاثٍ وخمسمائةٍ، والشيخ عبد القادر يومئذٍ في صحبته، فجاء، فجلس بين يديه متأدّبًا، ثم قام، فسمعت الشيخ حمّاد يقول بعد قيام الشيخ عبد القادر لهذا العجمي: قدمٌ تعلو في وقتها على رقاب الأولياء في ذلك الوقت، وليُؤمرنَّ أن يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، وليقولنَّ، ولتوضعنَّ له رقاب الأولياء في زمانه.

وقد سَبَقَ قول الغوث في قصة ابن السقّا، ومما أخبر به جماعةٌ من المشايخ الكبار أهل الكشف والأنوار والمعارف والأسرار قدَّس الله تعالى أرواحهم عن هيئة الحال، لما قال الشيخ عبد القادر ذلك المقال.

منهم: الشيخ أبو سعيد العز بن أحمد القيلوي قال: لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله تجلَّى الحق سبحانه وتعالى على قلبه، وجاءته خُلعةٌ من رسول الله ﷺ على يد طائفةٍ من الملائكة المقرَّبين والبهاء بمحضرٍ من الأولياء من تقدَّم منهم ومن تأخر، الأحياء بأجسادهم، والأموات بأرواحهم، وكانت الملائكة ورجال الغيب حافِّين بمجلسه، واقفين في الهواء صفوفًا حتى انسدَّ الأفق بهم، ولم يبقَ وليٌّ لله تعالى في الأرض إلا حَنى عنقه.

ومنهم: الشيخ بقاء قُدِّس سرُّه قال: لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله قال الملائكة: صَدَقت يا عبدَ الله.

ومنهم: الشيخ عدي بن مسافر الأموي قُدِّس سرُّه، والشيخ أحمد الرفاعي قُدِّس سرُّه روى عن الشيخ عدي أنه لما ذكر بين يديه الشيخ عبد القادر قال: بخ بخ، ذلك قطب الأرض، وضع ثلاثمائة وليٍّ لله، وسبعمائة غيبي، ما بين جالسٍ في الأرض ومارٍّ في الهواء، ممتدة أعناقهم له في وقتٍ واحدٍ حين قال: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله.

قال الراوي: فعظم ذلك عندي، ثم بعد مدةٍ أتيت أم عبيدة؛ لأزور الشيخ أحمد بن الرفاعي، فذكرت له ما سمعت من الشيخ عدي، قال: صَدقَ الشيخ عدي.

ومنهم: الشيخ ماجد، والشيخ مطر قُدِّس سرُّهما روي عن الشيخ ماجد أنه قال: لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله لم يبقَ لله وليٌّ في الأرض في ذلك الوقت إلا حنى عنقه تواضعًا له، واعترافًا بمكانته، ولم يبقَ نادٍ من أندية صالحي الجن من جميع الأقطار في الآفاق في ذلك الوقت إلا وفيه ذكر ذلك، وقصدته وفود صالحي الجن من جميع الأقطار مسلِّمين عليه، وتائبين على يديه، وازدحموا في بابه.

قال الراوي: فأتينا إلى الشيخ مطر؛ لزيارته وفي أنفسنا أعظام ما سمعناه من الشيخ ماجد، فلمّا دخلنا عليه رحَّب بنا، وقال: صدق أخي الشيخ ماجد فيما أخبركم به عن الشيخ عبد القادر.

ومنهم: الشيخ مكارم قدَّس سرُّه قال: أشهدني الله ﷻ أنه لم يبقَ أحدٌ ممن عقد له الولاية في أقطار الأرض أدناها وأقصاها إلا شاهد علم القطبية محمولاً بين يدي الشيخ عبد القادر، وتاج الغوثية على رأسه، ورأى عليه خلعة التصريف النافذ في الوجود وأهله ولايةً وعزلاً معلمةً بطرازي الشريعة والحقيقة، وسَمِعْتهُ يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، ووضع رأسه، وذلل قلبه له في وقتٍ واحدٍ حتى الأبدال

الحكاية الثانية بعد المائتين

عن الشيخ أبي محمد عبد الخالق أبي البقاء رحمه الله تعالى قال: أكل الشيخ أبو عبد الله القرشي ﷺ والملك الكامل ونائب السلطنة يومئذٍ من إناءٍ فيه لبنٌ، فامتنع نائب السلطنة يومئذٍ من الاسترسال في الأكل؛ من أجل أن القرشي مبتلى، قال الشيخ: إن امتنعت أن تأكل معي بسبب هذه اليد، ورفع يده المبتلاه، فكُلْ معي بهذه اليد، وأخرج يده بيضاء مثل الفضة لا ألم بها.

=

العشرة:

قال الراوي: قلت: مَنْ هم؟ قال: الشيخ بقاء بن بطو، والنهر ملكي، والشيخ أبو سعيد القليوي، والشيخ علي بن الهيتي، والشيخ عدي بن مسافر الأموي، والشيخ موسى الزولي، والشيخ أحمد الرفاعي، والشيخ عبد الرحمن الطفسونجي، والشيخ محمد بن عبد البصري، والشيخ حيَّاة بن قيس الحرَّاني، والشيخ أبو مدين المغربي قدَّس الله تعالى أرواحهم أجمعين.

ومنهم: الشيخ خليفة قُدِّس سرُّه، وكان كثير الرؤيا للنبي ﷺ، روى عنه الشيخ أبو القاسم بن أبي بكر ابن أحمد بن أبي السعادات البنديجي أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله. قال: صدق الشيخ عبد القادر، كيف لا وهو القطب وأنا أرعاه!.

فهذه نُبذةٌ يسيرةٌ مما يتعلق بقول الشيخ عبد القادر قُدِّس سرُّه مقالاته المذكورة، وقد أضربت عن أشياء كثيرةٍ مما يتعلق بذلك ومما يدل على عظمة فضله وجلالة قدره، ضربت وحذفت الأسانيد للاختصار، ولا حاجة إليها أيضًا؛ لكثرة ما في ذلك من الأشهار، وقد ذكر بعض أهل العلم أن كراماته قربت من التواتر يعني: قرب حصول العلم بوجودها من العلم القطعي الحاصل بكثرة الرواة البالغين حدَّ التواتر المعروف؛ لكثرة المخبرين عنها، وقد ذكرت شيئًا منها في باب الكرامات الآتي قريبًا.

وبالجملة: فهذا الذي ذكرته مِنْ فضله، وإن عظم فهو قطرةٌ من بحر فضائله، أو غبارٌ من رمال ساحله.

وقد رُوي بالسند الصحيح عن الشيخ أبي الرضا محمد بن أحمد بن داود البغدادي المعروف بالمقيَّد قال: كنت كثيرًا ما أتوقع من أسئلةٍ عن شيءٍ من صفات القطب، فدخلت أنا والشيخ أبو الخليل أحمد بن أسعد بن وهب بن عليٍ المقري إلى جامع الرِّصافة، فوجدنا فيه الشيخ أبا سعيد القيلوي، والشيخ علي الهيتي، فسألت الشيخ أبا سعيد عن ذلك؟ فقال: إلى القطب انتهت رئاسة هذا الأمر في وقته، وعنده مُحط رحال جدالة هذا الشأن. قلت: فمن هو هذا؟ قال: هو الشيخ عبد القادر الكيلاني، فلم أتمالك أنا، وثبتُ، ووثبوا كلُّهم؛ لنحضر مجلس الشيخ عبد القادر، ولا تقدَّم منا أحدٌ ولا تأخَّر ولا تفرَّقنا وما منَّا إلا مَنْ يشتهي أن يسمع شيئًا في هذا المعنى، فوافيناه يتكلم، فلمَّا استقر بنا المجلس قطع كلامه، وقال: إني للواصف أن يبلغ وصف القطب ولا مسلك في الحقيقة إلا وله فيه مأخذٌ مكينٌ، ولا درجة في الولاية إلا وله فيها موطئٌ ثابتٌ، ولا مقام في النهاية إلا وله فيه قدمٌ راسخٌ، ولا منازلةٌ في المشاهدة إلا وله منها مشربٌ هنيءٌ لا يشقى جليسه، ولا يغيب شهوده، ولا يتوارى عن حاله بشرٌ تابعٌ له حدٌّ ينتهي إليه، ووصفٌ ينحصر فيه، وتكلُّفٌ يجب عليه. وانظر: الانتصار للأولياء (٧٠) بتحقيقنا.

من أقوال قطب الأقطاب سيدي عبد القادر الجيلاني

وها أنا أذكر شيئًا من كلام الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ من نفس مقاله الذى نسج غيره على منواله.

قال ﷺ في الذِّكر:

أعذب مورد وردته عطاش العقول مورد الذكر والتوحيد، وأطيب نسيم هبت على مشام القلوب نسيم الأُنس بالله ﷻ، التلذذ بحلاوة مناجاة الله كنوس راحات الأرواح.

وذكر الله تعالى جلاء ذنب الغيون للعقول، ودرر حمد الله لا يرصع به إلا تيجان معارف الأسرار، ومسك شكره لا يفتق إلا جيوب ثياب الأرواح، وورد الثناء عليه لا يطلع إلا على شجر ألسن عباده المؤمنين، إن ذكرت ربك بألسن حسن صنعه فتح أقفال قلبك، وإن ذكرته بألسن لطائف أسرار أمره فأنت ذاكرٌ على الحقيقة، وإن ذكرته بقلبك قرَّبك من موجبات الرحمة، وإن ذكرته بسرِّك أدْنَاك من مواطن القدس، وحملك بجناح لطفه إلى مقعد صدقٍ، وما عرف قدر جلاله من فتر لحظة عن ذِكره، ولا لاحظ أزلية وحدانيته من التفتَ بعين سره إلى غيره، الذِّكر روح جنات الرحمة، تهب نسمة على مسام أرواح الذاكرين، فتهتز من نشواته أعطاف الأرواح في أقفاص الأشباح، فتهفو العقول راقصة في ميادين الصور، فتخرج الأسرار هائمة في براري الوجد، فتنطق بلابل الشكر بها في خبايا الضمائر، فيحترق المحب بنيران التعلق، ويغيب المشتاق عن نظر ذاته لشدة الشوق، ويقول لسان الواجد طربًا بقرب الواجد: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٩٤]، فتبرز موائد القدم، فتجلو عرائس صفات المحبوب على أعين الألباب في قصور الأوكار تحت جنات الأسرار، ويجلل عليها الإجلال ستور العزة فيخيم برد العظمة، وترمد عيون البصائر في حر نفس العبق، وتسقط قوادم أقدام شوقها؛ لطول سفرها في هجير بيداء الهجر، ويرسل إليها سفير الكرم طيب القدر فيداوي رمدها بكحل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ولما طلعت طلائع هذا الاسم في جبروت الجلال وسعت سطوة العز تحت خفقان رايات جنود الكبرياء، فبهتت عيون العقول، ودهشت نواظر الأوهام، ووقعت أطيار الأوكار، وطُمست سطور كتابة الكلمات،

وقال لسان هيبة الأحدية: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه:١٠٨]، فتزلزلت جبال فهم الألباب، ودكَّت لها تجلي أرض يعقوب البشرية، وقصت أجناح الأرواح، فلا أوكار لها في فضاء علم التفريد، وتنبَّهت القلوب بأشواق عشقه، وهامت الأسرار بوله حبه، وتبلبلت الأفكار في براري بُعده وقربه، فحكمته مبثوثة في كل ذاتٍ، وآثار صنعته لائحة في كل مصنوعٍ، وعجائب قدرته ظاهرة في كل كائنٍ، وبراهين وحدانيته قائمة في كل موجودٍ، وأنوار هدايته ظاهرة لذي كل عقلٍ، وألسن حسن صنعته تخاطب أهل الوجود بإشارات شواهد الهيبة، قابل مرائي العقول بأشخاص أعيان عجائبه، وجلا على عيون قلوب عباده عرائس أسرار الغيب.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣][1].

وقال أيضًا ﷺ: الشريعة المطهرة الإيمان فيها طائر غيبي من أُفق: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥]، يسقط على شجرة ذل العبد يبشرهم أنهم في قفص صدرها، جاءته إلى مقعد صدق الشريعة المحمدية ثمرة شجرة الوجود، الملة الإسلامية شمس أضاءت بنورها ظلمة الكون، أنتج برقة تعطي سعادة الدارين.

احذر أن تخرج عن دائرة إمامك، وأن تفارق إجماع أهله في قلب صاحب الناموس الأكبر خزائن جواهر الغيب.

اجعل قبول أمره طريقك إلى الله ﷻ، عين كعبة عقلك، مهبط أملاك كلمات أحكامه من ماء غمائم أقواله، يشرب عطاش الأرواح في غيوب حياة ألفاظه، يحتمل حصر العقول نادى منادي الطلب للأرواح الكامنة في القوالب آثار ساكن عزمها إلى العُلا، طارت بأجنحة الغرام في فضاء المحبة، وقعت بعد التعب على أغصان الشوق، فناحت في شجر بلابلها بمطربات ألحان إلى جمال، وأشهدهم أريجها هبوب نسيم الغرام إلى إعادة لذاذة (ألست

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (٩٨).

بربكم) خرجت بعض تلك الطيور من أقفاص الصدور، تتلمح أثرًا من أوكارها القديم، تتنشق نسمة من مهب التكلم بتذكر عيشها في ظل أبد الوصل، فتشكو جواها بعد بعاد الأحباب، فسمعت داع الله بلسان إنسان عين الوجود انتقش دعاؤه ﷺ في صفحات ألواح الأرواح، صارت دعوته ريحًا تهز أغصان أشجار القلوب، أشرقت على النفس أنوار الغيب، هبطت الأسرار وارتفعت الحجب الظاهرة عن عيون بصائرها، لاحظت جمال صاحب الكون، شاهدته بصفاء مرأى الأسرار، بغية كل عارفٍ موضع نظرات الحق منه.

أقرب الطرق إلى الله تعالى لزوم قانون العبودية، والاستمساك بعروة الشريعة الإسلامية، والاستقامة على جادة التقوى.

أنسك بالله على قدر وحشتك من غيره، يقينك بالله على قدر معرفتك له.

الكدر في الأعمال نوعٌ من الحرمان، الانغماس في طلب الدنيا يسلي العقل عن طلب الله ﷻ.

الرياء في المطالب كشوف في شمس طلب المطالب.

النفاق في المقاصد خدش في وجوه قصد القاصد.

عدم المطلوب عذاب القلوب.

فرقة الأحباب عذاب العقول.

علائق زهرة الدنيا حجاب يمنع عن الوصول إلى ملكوت العلى.

إقبالك على الله توجه عنايته بك في سبب إقباله عليك بتوجه الرحمة.

لو بلغ طفل عقلك الأشد في حجر التأديب ما التفت إلى الدنيا لكن هو في مهد: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح: ١١].

الأرواح الطاهرة قناديل هياكل الأجساد، العقول الصافية ملوك قصور الصور.

يا غلام افتح عين قلبك لترى عرائس أسرار الأزل، تستنشق روحك هبوب نسيم لطائف القدر، إن الله عين وضع تماثل الوجود على ساحل بحر الدنيا؛ لامتحان عيون البصيرة، فسلم من الالتفات إلى زخرفها أطفال أرواح أقيمت في مقام الثبات، وربيت في

حجور العظمة، وأرخيت عليها أكناف آيات الأمر، وكوشفت بتطابق مخبآت القدر، وحليت عليها عرائس الغيب، وردت فقرها إلى كهف الكرم بليل أسرار العارفين، هيم أفكار الوالهين، وزلزل جبال همم العقول، اطلع على مخبآت الأسرار بأرواح المؤمنين، طار إليه بأجنحة صدق العشق، اطوِ في صدق قصدك إليه أذيال بساط البسط، فطار حول سمعه طلبته فراشًا تتهافت حول النور، تحوم حول جاهه بقوادم أقدام الوله، اطلب منه ما طلب آدم ؛:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]

انتهى كلامه في ذلك مختصرًا(١).

وقال أيضًا ﷺ: نسمات أصحاب الوصال إذا اجتازت على ربوع المطرودين حنوا لوصف ليالي الاتصال، إذا طرق مضاجع المهجورين أنو، وأوتار الشوق إذا ركبت على عيدان المشاهدة في مجلس الأنس على عشاق الأزل، ورضعت ثدي المحبة، اهتزَّ شجر العقول في بساتين القلوب، وتمايلت أغصان النفوس في در الهياكل، ورقصت جواهر الخواطر طربًا في قصور الصور، وتواجدت ألباب الأحباب سرورًا في معاني المباني، وقدح زند الكشف في إحراق الأكباد شرر نار العشق، واحترقت بصواعق الهيبة ذرات أجزاء الذوات، وماج الكون بأهله، وجرح رامي الغرام أسرار المحبين بنبله، وتزلزلت أركان قواعد السرائر، وهامت بسكر توق رمقها البصائر، وقامت الأرواح على أقدام إقدام سؤال: ما الخبر؟

فاشتغلت الأعين بسح سحب العبرات عن النظر، ووقف آدم الأحوال على قدم الاعتراف بالاقتراف، وقام إبراهيم الهمم على باب: ﴿أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ [الشعراء:٨٢]، وخرَّ موسى العزائم صعقًا على قمة طور سيناء، وأشار أيوب الوله بيد: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء:٨٣]، ومرَّ سليمان الهيمان على بساط انبساط صولة دولته محمولاً بريح: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات(٢)».

(١) انظر: بهجة الأسرار (١٠١)، فذكره الشطنوفي بأتم من ذلك هنا.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٩/ ٢٣٣).

وقالت نملةٌ: القلب لرعايا الخواطر عند انتشار عساكر سلطان الجلال واستيلاء جيوش ملك الكمال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ﴾ [النمل:١٨]، فبدت أضواء القرب، وانبسطت أشعة الدنو، ومد رواق اللقاء، وفُرش بساط الحضرة على أرائك بساط القدس، وعُقد مجلس الخلوة تحت لواء الملك في أرض المشاهدة، ونُصبت أسرة الخلوة بين سرادقات الجمال في حرم الأمن، وانتظم حال العشاق، واجتمع المحب مع المحبوب، ودارت كئوس شراب الشارب في أقداح الأفراح، وعطر الوقت، وسعد البخت، وارتفع المقت، وتجلَّت أسرار غيب القدم من بين أكناف مسالك أوصاف الأزل.

يا لها من مسالك دقت فضلَّ الوهم دهشًا عن معرفة كيفيتها، ومعانٍ راقت فضاعت هواجس الفكر في علم ماهيتها، وهي كالبروق اللامعة تخطف الخواطر من عين الأبد، وبالشموس طالعة في مدارات بروج الحال ربانية، قد تاهت البروق، وتجلَّت عن درها وميضًا وغموضًا، تجلَّت الشموس عند طيرها تلويحًا وتعريفًا حين أسفرت يد الإرادة لأبصار خطابها على جبين جمالها نقاب الحجاب، وبعثتها من شط الأزل على سرائر الاستجلاء على استهزاز عشاق الطلاب، وأظهرها اللوح النوري من أقاصي مكانها وأدانيها، فكشف الوصل الوجداني نعوت معاليها ومعانيها، وغامرت لحظات جمالها صبابات التواقين المشتاقين، وغازلت بنظرات سجايا حيرة الشاخصين العارفين، فلما قدموا النظر جلاها وحضرة المشاهدة بها اهتزَّ تاج جمالها في مجلس كمالها، فنثر على رؤوسهم جواهر القبول، ودرر الرضوان، ثم توارت بأستار العزة ورداء الكبرياء وإزار العظمة، فطفقت القلوب وجدًا واشتياقًا، وهامت الأرواح عطشًا واحتراقًا، وتمايلت أغصان الغرام تغازل نسيم الوجد، وتناثرت أوراق الصبر تشكو قلق الفراق، تاركًا نسيم الأرواح جد في طلب هذه المنازل، وبإجابة القبول الشرعي إلى سبيل هذه الدرجات، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]"[١].

(١) انظر: بهجة الأسرار (٨٩).

وقال أيضًا ﷺ: تفقَّه ثم اعتزل، مَنْ عبد الله بغير علمٍ كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، خُذْ معك مصباح سراج ربك: «من عمل بما يعلم أورثه الله علم ما لم يعلم»(١).

اقطع الأسباب عنك، والأقسام أعطها ظهر قلبك بزهدك.

كن مقاطعًا لما سِواه، منفصلاً عن الأغيار والأسباب، خائفًا على انطفاء مصباحك.

أخلص لربك أربعين صباحًا تنفجر ينابيع الحكم من قلبك على لسانك، بينما هو كذلك إذ رأى نار الحق ﷻ كما رأى موسى ﷺ نارًا من بحر قلبه، يقول لنفسه وهواه وشيطانه وطبعه وأسبابه ووجوده: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [طه:١٠]، نودي القلب من السر: أنا ربك أنا الله فاعبدني، لا تذل لغيري لا تتعلق بغيري(٢).

اعرفني واجهل غيري، اتصل بي وانقطع عن غيري، اطلبني وأعرض عن غيري إلى علمي إلى قربي إلى ملكي إلى سلطاني، حتى إذا تمَّ هذا لك وتمَّ اللقاء، وجرى ما جرى ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:١٠] زالت الحجب، وزالت الكدورة، وسكنت النفس، وجاءت الألطاف بالخطاب، ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ [النازعات:١٧]، يا قلب ارجع إلى النفس والهوى والشيطان عرفهم إليَّ، اهدهم إليَّ ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٣٨](٣).

فقال أيضًا ﷺ: طارت نحل الأرواح قبل وجود الأشباح من كون (كن)، فصاروا من التوحيد لترعى في زهر أشجار الأُنس، وتأكل من ثمار أغصان المعرفة، وتتخذ بيوتًا في مواطن القدس فوق قمم جبال الفرق، فتسلك سبيل الدنو إلى ربها، وحضرة العلوم في قربها، وتجني ثمار الحضور بأيدي الهمم العالية، فاصطادها صياد القدر بشباك مقام التكليف بيدي الأمر في أقفاص الأشباح، فألقتها من الهياكل بهجة حسن المعتقد، وألقت مسالك البشرية فتيممت موطنًا من القدس الأشرف، فأوحى ربك إلى نحل الأرواح: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٥).

(٢) انظر: قلائد الجواهر (ص٢٨١) بتحقيقنا.

(٣) انظر: بهجة الأسرار (١٠٦).

[النحل:٦٩] في مسالك الأشباح، وكلي من ثمرات الشريعة، وارعي من أزهار أنوار الحقيقة، فلما طار طائر صاحب الجب من حدائق المجاهدة وقع في شَرَك المحبَّة، ورأى من البلاء في ساحة الولاء، فقال: كيف الخلاص؟ روض أنيق لكن ثمره مرٌّ، ومنهل عذب لكن كم فيه من غرقٍ، فناداها حادي مطايا صدق الطلب بلسان النصح:

يا أرباب الوله في جب معشوق الأرواح، ويا أصحاب الخرق، رعايات أماني العارفين ما بينكم وبين مطلوبكم سوى ارتفاع أستار الصور، ولا يحجبنكم عنه إلا حجب الهياكل، فطيروا إليه بأجنحة الغرام، واطلبوا عنده الحياة الأبدية، وموتوا عن شهواتكم وإراداتكم؛ ليحيينكم به عنده في مقعد صدق.

الولاء والبلاء نجمان طلعا في فلك الشريعة.

المحبَّة والمحنة وردتان لمعتا في غصن الفرات.

البلاء الأعظم فَقْد المحبوب، والعناء الأكبر عدم المطلوب.

معاشر العارفين ما البراءة من الحول والقوة إلا به حقيقة التوحيد ومحو كل متلوحٍ لعين العقل محض التفريد، وإلقاء كل ما في الوجود من يد الطمع عين التجريد.

قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١]، لما نظرت الملائكة إلى تجلِّي الأرواح كامنة في مكامن أسرار الغيب، ساكنة في أثر الوصل، مستقرة في مهد اللطف، هبَّ نسيم القرب، وهتف في ناديها ريحان روح الأُنس، وتألَّق لها برق نور المعارف، وهزَّ أعطافها نشوات سكرات المشاهدة، ونادمها حديث مسامر المخاطبة، بأرج الملكوت الأعلى بعطر إعجابهم بحالهم.

وتهب عيون أشباح النور إلى سطوع أنوارهم في أطوارهم، فقال القدر: يا أصحاب صوامع النور الطائر إلى درجات هذا الشرف، انظروا إلى طائرٍ يطير من وكر شجرة الشرف الأعظم، يُقال له: أحمد، فطار حتى قاب قوسين بجناح شرفه طائرًا إلى أوكار هذا العز بنور هدايته، فنـزلوا على أغصان هذا الوصف باتِّباع شرعه، فأشرق لعيون عقولهم هذا النور ببركته، ووصلوا إلى هذا المقام، هو هدهدٌ يعود إلى بلاد بلقيس الغيب إلى سليمان العقول بنبأٍ يقين بكتاب: ﴿لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢]، يقول: إذا وردت عليه واردات محبوبه «لست كأحدكم» تميز على الأنبياء برتبة:

«أظل عند ربي»(١)، ترعى نحلة روحه ليلة إسراءه زهرة شجرة: ﴿فَأَوْحَى﴾ [النجم:١٠] نثر على تاج رأس مجده نثار دُر ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:١٨] في مجلس وادي من أجله نثر رداءها الزمان على مناكب بهجة المكان، لله در عبد لا تجعل بين أذن سره وبين سماع هذا الكلام حجابًا من عقل طبعه وعمل بقوله تعالى:

﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١](٢).

وقال أيضًا ﷺ: اسم الله تعالى الأعظم هو الله، وإنما يُستجاب لك إذا قلت: (يا الله) وليس في قلبك غيره.

(بسم الله) من العارفين كـ (كن) من الله ﷻ، هذه كلمة تزيل الهم، هذه كلمة تكشف الغم، هذه كلمة تبطل السم، هذه كلمة نورها يعم.

الله يغلب كل غالبٍ، الله مظهر العجائب، الله سلطانه رفيع، جنابه منيع، الله مطلع على العباد، الله رقيبٌ على القلوب والفؤاد، الله قاهر الجبابرة، الله قاصم الأكاسرة، الله عالم السر والعلانية، الله لا تخفى عليه خافية، من كان لله كان في حفظ الله، من أحبَّ الله لا يرى غير الله، من سلك طريق الله وصل إلى الله، عاش في كنف الله، من اشتاق إلى الله أنس بالله، من ترك الأغيار صفا وقته مع الله.

اقرع باب الله، الجأ إلى جناب الله، توكَّل على الله، يا معرضًا ارجع إلى الله، هذا سماع اسمي في دار الفناء كيف عند اللقاء، هذا في دار المحنة كيف في دار النعيم، هذا اسمي وأنت بالباب كيف إذا كُشف الحجاب، هذا إذا تأدَّبت كيف إذا تحلَّيت.

القوم لهم المشاهدة، وأبحر الفضل إليهم واردة، المحب كالطير لا ينام في الأسحار، يناجي حبيبه في خلوات الأسحار، يهب الريح القرب على قلوبهم فيسكنون إلى ربهم.

وقال ﷺ: سرير الأسرار لا يُنصب إلا في سرادق حق اليقين، وحق اليقين نقطة دائرة التوحيد، والتوحيد قاعدة بناء الوجود، والهداية الأحدية مغناطيس حديد قلوب العارفين، والروضة الأبدية مراتع أسرار المكاشفين، باسط الخواطر في حضرة السرمدية بمناشطه، وأشهدهم بقربٍ إلى الأسرار في جنات الأزل بمخاطبة (ألست)، سقاهم كأس حبه بأيدي

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٦٦١)، وأحمد (٣/ ٢٠٠) بنحوه.

(٢) انظر: بهجة الأسرار (٢٠).

سقاة قربه، خرجوا إلى الدنيا وفي رءوسهم نشوات ذلك الخمار، وفي عيون عقولهم بقايا رسوم ذلك الجمال، وفي أحداق قلوبهم برقات ذلك الحباب.

واحرقتاه عليكم كيف تموتوا وما عرفتم ربكم! الشجاعة صبر يا عُجم الفطنة، سافر إلى بلاد القرب، يا موتى الطبيعة سافروا إلى بلاد الهند للهداية.

يسقى بعض العارفين من هذا الشراب قطرة، وأفرغ ساقي القدر منه نعته، فقامت روحه ترقص طربًا بين يديه، واهتزَّ جبل موسى شوقًا عند لمع برق التجلِّي، فنظر سر المحبوب، فقال من عليه طفحات عبقه: أنا الحق، سكر نديمه الآخر، فقال: سبحاني! فأرق جماعة من طيور أرواح أقفاص الأشباح، وطارت بأجنحة الشوق في بهاء الغرام، وقامت من مجد الوجود نوادي منادي الأزل، وطمعت أن ترعى من طور القدم حب المشاهدة، فانقضَّت على حمائم طلبها برداء العظمة، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، لاحت لأسرار العالمين بهجة جلال الديمومية، وأشرقت لعيون العارفين كمال الأحدية من مشكاة نور القِدم، وسقطت قوادم أقدام الخلائق في مفاوز: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر:٦٧]، وانقطع العاصون في فتنة: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ [الحشر:١٩].

معاشر المريدين لقد أودعت صور الآدمي نشرًا من الغيب، ودُفن في ترابها كنز من العلا، فرامت التشبث إلى معرفته، والاطلاع على دفينه، فمنعها حاجز النفوس، فما وجدت سبيلاً لترد سلسبيلاً[1].

معاشر العارفين جدوا، ليس المحبوب غائبًا عنكم إلا بحجاب الأهوية، والله إن هوى هذه النفوس قيد أرجل العقول، وإن مواضع الشهوات مزالق أقدام الأفهام، سافروا بالهمم إلى المحبوب، اخرجوا من جيوش الصور إلى طلب نظر المصور، اطلبوا حياة الأبد تحت جبل قاف القرب. ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة:١٩٧][2].

وقال أيضًا ﷺ في الحلاج: طار واحد من العارفين إلى أفق الدعوى بأجنحة:

(أنا الحق)، طار بغير أجنحةٍ فتعرَّض لحتفه، فظهر عليه عتاب من الملك من مكمن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:٦].

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (١٣٩).

(٢) انظر: قلائد الجواهر (٢٨٠)، والبهجة (١٣٩).

أثبت في إصابة مخلب: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [العنكبوت:٥٧][1].

قال له: شرع سليمان الزمان، لِمَ تتكلَّم بغير لغتكم، ثم ترنمت بلحنٍ غير معهودٍ، أدخل الآن في قفص وجودك، ارجع من طريق عزة القدم إلى مضيق ذلة الحدث.

قل بلسان اعترافك يمنعك ادعاء الدعاوى، حب الواحد إفراد الواحد، مناط حفظ الطريق إقامة وظائف خدمة الشرع[2].

وقال ﷺ في الحلاج أيضًا: طار طائر بعض العارفين من وكر شجرة صورته، وعلا السماء خارقًا صفوف الملائكة، وكان بازيًّا من بزاة الملك، مخيط العينين بخيط: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨].

فقال: رأيت ربي فازداد حيرة في قول مطلوبه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة:١١٥]، وعاد هابطًا إلى حضرة الأرض، طلب ما هو أعز من وجوده في قعور البحار، تلفَّت بعين عقله فما شاهد سوى الآثار، فكر فلم يجد في الدارين مطلوبًا سوى حبيبه فطرب، فقال بلسان سكر قلبه: أنا الحق، ترنَّم بلحنٍ غير معهودٍ من البشر، صفَّر في روضة الوجود صفيرًا لا يليق لبني آدم، لحَّن بصوته لحنًا عرضه لحتفه، نُودي في سرِّه: يا حلاج أنت اعتقدت أن قوتك بك، قل الآن نيابةً عن جميع العارفين: حب الواحد إفراد الواحد، قل: يا محمد أنت سلطان الحقيقة، أنت إنسان عين الوجود، على عتبة باب قلبك تجمع أعناق العارفين، في حمى جلالتك تُوضع جباه الخلائق أجمعين[3].

وقال أيضًا ﷺ: الخواطر خطاب يرد على الضمائر، فإذا كان من قِبَل الملك فهو الإلهام، وإذا كان من قِبَل الشيطان فهو الوسواس، وإذا كان من قِبَل النفس فهو الهواجس، وإذا كان من قِبَل الله سبحانه وتعالى فهو خاطرٌ حقٌّ، فعلامة الإلهام أنه يرد بموافقة العلم، فكل إلهامٍ لا

(١) انظر: بهجة الأسرار (١٠٤).

(٢) انظر: السابق (١٤٢).

(٣) وقال الشيخ عبد القادر: عثر الحسين عثرة فلم يكن في زمانه من يأخذ بيده، ولو كنت في زمنه لأخذت بيده، وإنا لكل من عثر مركوبه من أصحابي ومريدي ومحبي إلى يوم القيامة آخذ بيده، يا هذا فرسي مسرج، ورمحي منصوب، وسيفي شاهر، وقوسي موتر لحفظك وأنت غافل.

رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ونفعنا ببركاتهم وأمدنا بإمداداتهم وأفاض علينا من نفحاتهم آمين.

وانظر: بهجة الأسرار (١٠٥).

يشهد له ظاهرٌ فهو باطلٌ، وعلامة الهواجس الإلحاح في طلب وصف من خصائص صفات النفس، ولا يزال يعاوده ولو بعد حين حتى يأتي الرجل ذلك الوصف.

وعلامة الوسواس أنه إذا دعا إلى زلةٍ وقع فيها، ووسوس بزلةٍ أخرى، فآلات المخالفات عنده سواء كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]، وعلامة الخاطر الحق أنه لا يدعو إلى خيرٍ، ولا يحدث إلى سوءٍ، بل يرد بزيادة علم وبيان يعرف بغيته عند وجدانه، فإذا ورد على القلب خاطر حق يغير خاطر حق.

فقال الجنيد: الأول أقوى؛ لأنه إذا بقي رجع صاحبه إلى الأمثل، وهذا مكان العلم.

وقال ابن عطاء: الثاني أقوى؛ لأنه يزداد بالأول قوة.

وقال ابن خفيف: هما سواء؛ لأن كلاهما من الحق، ولا مزية لأحدهما إلا بمرجحٍ في وصفٍ خاصٍّ.

وإذا اختلفت الخواطر على القلب فقل: سبحان الملك الخلاَّق، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٦، ١٧]، وأجمعوا على أنه من كان أكله الحرام لم يستطع أن يفرق بين الخواطر.

وقال أيضًا ﷺ: أول ما يطلع في قلب المؤمن نجم الحكم، ثم قمر العلم، ثم شمس المعرفة، فبضوء نجم الحكم تنظروا إلى الدنيا، وبضوء قمر العلم تنظروا إلى الآخرة، وبضوء شمس المعرفة تنظروا إلى المولى.

النفس المطمئنة نجمٌ، والقلب السليم قمرٌ، والسر الصافي شمسٌ، مقام النفس في الباب، ومقام القلب في الحضرة، ومقام السر في المخدع، قائم بين يدي الحق سبحانه، يلقن القلب، والقلب يلقن النفس المطمئنة، والنفس تملي على اللسان، واللسان يملي على الخلق.

وجود النفس مظنة التهمة، ووجود القلب مقام الشبهة، وعند صفاء السر تأتي العجائب، ما دمت تأخذ بالنفس فأنت تأكل الحرام، وما دمت تأخذ بقلبٍ متقلبٍ فأنت تأكل بالشبهة، فإذا صفا سرك أكلت الحلال المطلق.

الرِّضا بالقضاء سبب يقرب القلب في دخوله دار الفضل، وأكله من طعام الفتح، وشرابه من شراب الأنس، أسرار القوم رواسي الأرض، وأوتاد الوجود ينادمهم منادم الأُنس، بأحاديث أخلاق النفوس من المنى، يقول لهم: بعد هذا الضيق سعة، وبعد هذا التشتت جمع،

وبعد هذه المرارة حلاوة، وبعد هذا الذل عز، وبعد هذا الفناء وجود، حينئذٍ يستقبل وجه القرب صاحب هذا المقام، ويجعل بينه وبين الخلق حاجزًا، ويجمع في قلبه بين الحكم والعلم والقرب.

فقلوب القوم تنظر بنور الله إلى ما سواه، فيدخلهم جنة النظر إليه، فإذا نظروا إلى الأكوان صاحوا: يا دليل المتحيرين دلّنا إلى أقرب الطرق إليك، فيهيمون فيها، ولا يلتفتون إلى عوالمها، فتأتيهم يد الرأفة والمحبَّة فتأخذ بأيدي قلوبهم، وتضعها في حجر اللطف وكنف الأُنس ولذة القرب، وتنـزع عنها ثياب السفر، وتنـزلها منازلها، وتمكّنها من حضرته، وتجعل لقلبه أبوابًا يرى من كلها ملكه وسلطانه وجلاله وجماله، فقلوبهم مجاري إرادته، وخزائن علمه، ومستقر سره، وكلما دارت أسرارهم في مناكب دار القدر ألفت العلوم والأسرار، فصاروا جلساء ذلك البيت، ورأوا ما ثَمَّ من الخزائن والمرافق، وجاءهم البسط من كل جانب، وقوى جناحهم فطاروا إلى سرادقات ذلك الحجاب، وصارت بروحهم إن سقطوا سقطوا في صحن داره، منقلبين بين يدي رب الملك، دُعاة مجابين محبوبين مجذوبين، فالقلب مع الرب، والسر مع السر، إذا انفتح القلب رأى بعين السر جمال الرب، وقطع الحجاب.

يا هذا صدور الصديقين قبور أسرار رب العالمين؛ ففيها نجوم العلم وشموس المعارف.

وقال أيضًا ﷺ: عروش الروح جلا جمالها القدر على عبادة الملائكة في حلل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] في مجلس: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾.

العقل فيه إشارة إلى كونه من عالم الشهادة، وحملت أصداف الهياكل درر الأرواح في بحر الوجود على سفن العلم؛ ليكمل بها ضياء نور اليقين، فسارت بريح الروح إلى خزائن المجاهدة، ووقف سلطان العقل فيه بإزاء سلطان الهوى، وتقابلا وتعاملا في سِعة فضاء صدره، فكانت النفس هذه أحقر جنود سلطان الهوى، وكانت الروح من أشرف جنود سلطان العقل، فأذن مؤذن الحكم بينهم:

يا خيل الله اركبي، ويا كتائب الحق ابرزي، ويا جنود الهوى تقدمي، فكل يريد نصرة

حزبه، وكل يحاول قهر خصمه.

فقال التوفيق لهما بلسان سابق الغيب من نصرته: كانت العناية معقودة بزمامه، ومن أعنته كان السعيد في الدنيا والآخرة، ومن كنت معه لم أفارقه حتى أوصله إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

التوفيق هو حسن نظر الحق سبحانه لوليه بعين رعايته.

يا غلام اتبع العقل وقد وقف بك على محجة طريق السعادة الكبرى، فارق نفسك وهواك، وقد رأيت العجب الروح سماوية غيبية، والنفس ترابية أرضية، طار طائر اللطف في وكر الكشف بجناح العناية إلى شجرة العُلا، وتوكَّر في غصن القرب، وغرَّد بلحن لسان الشوق، ناداه نديم الأُنس فالتقط جواهر الحقائق من بين أكناف المعارف، وبقي الكشف محصورًا في قفص ظلمة وجوده، إذا فنيت القوالب بقيت أسرار القلوب، وإذا نظر إلى قلبك نظرة أقامه مقام عرشه، وأودعه حقائق العلوم، وجعله خزانة أسرار المعرفة، فحينئذٍ يتراءى لعين عقلك جمال الأزل، ويعرض عن كل شيءٍ متصفًا بصفات الحدث، ويقابل بصيرة سرك أشخاص عوالم الملكوت في مرآة القرب، وتجلى على عين سريرتك عرائس الفتح في مجلس الكشف عن حقائق الآيات، فإذا آثار مثلوجات الأكوان ممحوة من لوح همتك.

يا هذا، العقول المنورة سرج الفحول، والأفكار الصافية أدلَّة أرباب المعارف، والعناية السابقة تكشف عن وجه وجود اليقين بباب الشك إذا تزاحمت الظنون والإرادات اللاحقة، تقطع الباطل بيد الحق إذا تنافرت الأدلَّة.

وقال أيضًا ﷺ: انفرادك في طريق طلبه أمارة صحة المحبَّة.

لفت عين قلبك إلى ما سِواه أمارة البُعد.

نطقك بغير ذِكره رين على صفاء وجه مرآة قلبك.

ما ذاق حلاوة وصله من اشتغل بغيره.

ما قرب من جناب رحمته من مال إلى سواه طرفة عين.

الطريق ثلاثة أركان: الحق، والصدق، والعدل.

العدل على الجوارح، والحق على العقول، والصدق على القلوب.

من طلب ربه بحقيقة صدق قلبه صار صدقه في قلبه مرآة يرى بها عجائب الدنيا والآخرة.

حفظ قوانين الحياة السرمدية خير من حفظ قوانين الحياة الفانية.

الوحدة باب الفكرة.

كثرة التفكر علامة حضور القلب، وحضور القلب مع الله علامة التوفيق، وحضور التوفيق دليل على حضرة القدس.

أكل الشبهة كدر صفاء منبع الطاعة.

إعراضك عن إقامة وظائف الخدمة سبب إعراضه عنك.

يا غلام لا تكن كبلبل يهوى صوته وقت الربيع، يبقى مع ترجيع أصحابه، يمضي وقته بالتذاذ صوته، ولا يحصل إلا على مجرد بكائه الجوى، لكن كن كبازي لا يلتفت إلى حقارة أصوات البلابل في رياضها، ولا يطرب على لذة أنغام الهواتف.

طلب موسى عليه السلام عين الحياة الحقيقية في أرض أدنى، قيل: إنها من وراء جبل، ويحتاج إسكندر طالبها أن يقطع إليها يأجوج الوجود، ويخرق ردم يأجوج وجوده بصحة التوحيد الذي محق كل ملوحٍ لعين الفعل في الأكوان، ويخرج بحضرة عقله إلى حيز الآخرة مكن دائرة الدنيا، فإنه يجدها تحت ظل شجرة: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ۞إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣]، تلك الشجرة نبت رياحين في جناب القدس، ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥]، لا شرقية فتطلع مشرق أفق الدنى من مشارق سموات الأسرار، ولا غربية فتلوح من مغرب حق الكون في مغارب معالي القلوب.

طلب عيسى عليه السلام عين الحياة الحقيقية في الأرض، قيل له: لا تجدها إلا بعد تعب:

﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران:٥٥].

تحت ميل رأيك مقام: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

والمحبوب المكنى أحمد ﷺ وجد عين الحياة الحقيقية في معارج معراج ليلة أُسري به في مجلس: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ [النجم:١٧]، قيل له: اغتسل منها بماء: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ [النجم:١١]، وجد في درعها عقد ينظمه لك ناظم الشرف في سلك:

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:١٨][1].

وقال ﷺ: يا غلام عليك بالصدق والصفاء؛ فلولاهما لم يتقرَّب بشيء إلى الله ﷻ، يا غلام لو ضرب حجر قلبك بعصا موسى الإخلاص لتفجَّرت منه ينابيع الحكم بجناح الإخلاص، يطير العارف من ظلمة قفص الكون إلى فسحة نور القدس، وينـزل بعد الطيران في ظل روض مقعد صدق.

يا غلام ما أشرق نور اليقين في قلب عبد إلا ظهر على أسرار بروج صاحبه ضياء نور ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ [البينة:٨].

وتهيب الملائكة باسمه في الملكوت الأعلى، وجاء يوم القيامة في زمرة الصادقين.

يا غلام الإعراض عن شبهات النفوس تجريد بل توحيد، هو صفاء بوارق سَوق عشقه بخواطر العارفين، حتى لا يتلذَّذ بواصلٍ بغيره، هو هيم قلوب الوالهين حتى وقعت في أودية جنة الطريق إلى الله ﷻ، لا يسافر فيها بغير زاد الصدق، والحضور معه لا يحصل بغير تجريد القوالب، والإفطار في الآخرة على شراب النظر لا يوصل إليه إلا بعد الصيام عن الدنيا وما فيها، ما نظرة منه إليك غاليه بترك الوجود، وما لحظة منه لك كثيرة بالخروج عن الأكوان، إذا صفت النفس من الأكدار البشرية امتثلت الأوامر، وإذا قوى نظر العارف تنطق على سرِّه أنوار بارئه.

الأولياء هم خواص حظوة السلطان، والعارفون ندماء مجلس الملك، ودون حلاوة شهد الولاء تحمل مرارة صبر البلاء.

يا غلام عيون عقول الفحول لم تلتفت إلى الدنيا، ولم يخدعهم مطلب برقها اللامع، بل فهموا قول المحبوب عنها، ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد:٣٦].

يا غلام من اللذات يدخل الشيطان إلى القلب، ومن منافذ الشهوات يعبر إلى الصدور، وتجرُّع حب الدنيا يزرع في النفوس بغض الآخرة، فطوبى لمن تنبَّه من رقدة غفلته، وصفا مورد حاله بطلب قرب مولاه، وبادر بالخروج إلى ما لا بُدَّ له من الخروج منه، وحاسب نفسه قبل محاسبة أسرع الحاسبين، وشمر للسباق إلى الآخرة، فإن الدنيا ميدان السابقين، والأعمال

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (١٤٤).

حلبات صدق الفائزين، وعلى جسر الهمة الممر: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر:٤٦](١).

وقال أيضًا ﷺ: يكشف الأولياء والأبدال من أفعال الله ﷻ ما يبهر العقول، ويخرق العادات والرسوم، والكشف على قسمين: جلالي، وجمالي، فكشف الجلال والعظمة يورث الخوف المقلق، والوجل المزعج، وأمرًا عظيمًا يحدث في القلب، ويظهر على الجوارح، كما رُوي عن النبي ﷺ أنه كان يسمع من صدره أزيز كأزيز المرجل في الصلاة من شدة الخوف، لما يرى من جلال الله تعالى، ويكشف له من عظمته، ونقل مثل ذلك عن إبراهيم الخليل ﷺ. وعن أمير المؤمنين عمر الفاروق ﷺ.

وأما مشاهدة الجمال، وهي التجلِّي للقلوب بالأنوار، والسرور والألطاف، والكلام اللذيذ، والحديث الأنفس، والبشارة بالمواهب الجسام، والمنازل العالية، والقرب منه ﷻ مما منه رحمة، وتثبيتًا منه لهم في الدنيا إلى بلوغ الآجال للوقت المقدر؛ لئلا تفرط بهم المحبة من شدة الشوق إليه ﷻ، وتتفطر سرائرهم فيهلكون أو يصعقون.

القيام بالعبودية حتى يأتيهم اليقين الذي هو الموت، فيفعل ذلك لطفًا ورحمةً ومداواةً وتنـزيهًا لقلوبهم، ومداراة لها، فإنه حكيمٌ عليمٌ، لطيفٌ بهم، رحيمٌ.

ولهذا رُوي عن النبي ﷺ أنه كان يقول لبلال المؤذن: «**أرحنا بها يا بلال**(٢)»، يعني بالإقامة ليدخل في الصلاة؛ لمشاهدة ما ذكرنا من الجمال، ولهذا قال ﷺ: «**وجُعلت قرَّة عيني في الصَّلاة**(٣)».

وقال ﷺ: يا هذا كن مع الله تعالى كأن لا خلق، ومع الخلق كأن لا نفس، فإذا كنت مع الله تعالى كأن لا خلق وجدت، وعن الكل فنيت، وإذا كنت مع الخلق كأن لا نفس عدلت واتقيت.

اترك الكل على باب خلوتك، وادخل وحدك، ترى مؤنسك في خلوتك بغير سؤالٍ، وتشاهد ما وراء العيان، وتزول النفس، ويأتي مكانها أمر الله وقربه، فإن جهلك علمٌ، وبُعدك قربٌ، وصمتك ذِكرٌ، ووحشتك أُنسٌ.

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (١٤٨) بتحقيقنا.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٧٧)، والخطيب البغدادي في تاريخه (١٠/ ٤٤٢).

(٣) رواه النسائي (٥/ ٢٨٠)، وأحمد (٣/ ٢٨٥).

يا هذا ما ثمَّ إلا خلق وخالق، فإن اخترت الخالق فقل: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٧]، ثم قال: مَنْ ذاقه فقد عرفه.

يا هذا المؤمن إذا عمل صالحًا انقلبت نفسه قلبًا، ثم انقلب قلبه سرًّا، ثم انقلب السر فصار فناءً، ثم انقلب الفناء فصار وجودًا، ثم قال: ليس كل الأحباب يسعهم كل باب، يا هذا الفناء إعدام الخلائق، وانقلاب طبعك إلى طبع الملائكة، ثم الفناء عن طبع الملائكة، ولحوقك بالمنهاج الأول، فحينئذٍ يسقيك ربك ما يسقيك، ويزرع فيك ما يزرع، إن أردت هذا فعليك بالإسلام، ثم الاستسلام، ثم العلم بالله، ثم المعرفة به، ثم الوجود به، فإذا كان وجودك به كان كلك له.

الزُّهد عمل ساعة، والورع عمل ساعتين، والمعرفة عمل الأبد.

قال ﷺ: ينبغي للفقير أن يتزر بالفقه والقناعة حتى يصل إلى الحق سبحانه وتعالى، ويسعى بقدم الصدق طالبًا لباب القرب، مهرولاً عن الدنيا والآخرة والخلق والوجود، يحتاج أن يموت ألف مرة، ويفنى ألف مرة، تستقبله - أو قال: حتى تستقبله - عناية الحق ورأفته ورحمته، وشوقه إليه، ووحدانيته، ونظراته، ومباهاته، ومواكب أرواح النبيين والمرسلين والصدِّيقين، والملائكة تصحبه وتزفُّه إلى الله ﷻ، فتقرب مبايعته فيقف على كل سطرٍ وكل كلمةٍ وكل حرفٍ، يقف على أوقاته وأزمانه وساعاته ولحظاته، ويتيسَّر له أمره وما يؤول إليه، كلما جذب الخوف إليه جذبه القرب منه، ثم لا يزال ينقل من شيءٍ إلى شيءٍ حتى يمثل حاجبًا بين يديه، منفردًا عنده، مطلعًا على أسراره، يعطى خلعةً وطبقًا ومنطقة وتاجًا، ويشهد الملك له على نفسه ألا يغير عليه.

يا موتى القلوب طلبكم الجنة، قيدكم عن الحق سبحانه وتعالى[١].

قال ﷺ: اعلم والاك الله بجميل حمايته، وصانك بلطف رعايته، أن قدم الصدق إذا طلبت وجدت، وعروس الوصل إذا نبتت نبتت، وأصول القرب إذا رسخت بزغت، ورياض القدس إذا ظهرت ظهرت، ورياض الأُنس إذا شهدت دهشت، وقلوب الأحباب إذا رمقت عتقت، وأسماع الأرواح إذا قرت سمعت، وأبصار الأسرار إذا خطرت نظرت،

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (١٠٨).

وألسن القوم إذا أمرت نطقت، فلله در عباد ناداهم مولاهم في سابق القدم بلسان الكرم إليَّ، ودعاهم بمبادئ الفضل إلى مناد الوصل، قيد لهم من معان الحب مناد، وحدا بهم في جنات القرب حادي، وشاهدوا محل الجمال عن مطالع الأزل، وعاينوا أعين الجمال في طوالع الحلل، وسمت بصائرهم إلى مطالعة عوالم الغيب ومعالم التوحيد، وشراب سرائرهم في مشاهدة قدس معارج التفريد، وشخصت أبصارهم إلى رقوم الفتح من ذيول الكشف عن محيا ذاك الجناب، واتكأت أفئدتهم على أرائك الأنس في مقاصير القدس بين تلك القباب، وحلت أبصارهم على بساط البسط، وارتاحت أرواحهم برياحين الخطاب، فإن صمت صامتهم فلشهود حق اليقين، وإن نطق ناطقهم فلورود أمر اليقين، وإن خامر نفس مريدهم خوف: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ [الأعراف:٩٩].

أو باشر قلبه زجر: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:٢٨]، ناجاه مخاطب الإيحاء: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ [طه:٤٦].

ونطقت شواهد السعادة قائلة: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ [الحديد:١٢].

وقال سفير الجودي: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١].

وإن أخرج لمرادهم مرسوم: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف:٥٤] من ديوان: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥]، حديثه بدءًا: ﴿اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢] إلى حضرة: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]، وقدم إلى مجلس: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الإنسان:٢١].

واستقبله وجه: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ [الأعراف:١٤٤].

فمد باع وصل: ﴿اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه:٢٥].

ونطق به مجيب: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ [العنكبوت:٥٦].

فأخبر لسان صدقه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة:١١٧].

وإن ثبتت مطاياهم على طريق: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء:٨٠]،

واستقام على سبيل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ﴾ [الحشر:٧].

واستمسك بعروة: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ﴾ [آل عمران:٣١].

يصل بسبب: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم:٣٦].

وسقى حرقة حاله صاحب: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم:٩].

وأمده بفيض من بحر: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم:٣].

وإن قرأت مكتوب سعدهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤].

وإن نظرت منشور مجدهم فـ ﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩].

وإن سألت عن مقامهم فـ ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥].

وإن حددت وصفهم فـ ﴿أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ [الحديد:١٠].

وإن كبر ما ظهر منهم، ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران:١١٨].

وإن ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤]، الغاية: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم﴾ [السجدة:١٧]، وكيف وقد ورد أن الله تعالى أوحى إلى نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل أن لي عبادًا يحبوني وأحبهم، ويشتاقون إليَّ وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم، وينظرون إليَّ وأنظر إليهم، قال: يا رب ما علامتهم؟ قال: يحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطيور إلى أوكارها، فإذا جن الليل، واختلط الظلام، وفُرشت الفرش، ونُصبت الأسرة، وخلا كل حبيبٍ بحبيبه، نصبوا إليَّ أقدامهم، وافترشوا إليَّ، وناجوني بكلامٍ، فبين صارخ وباكٍ، وبين منادٍ وشاكٍ، وبين قائمٍ وقاعدٍ، وبين راكعٍ وساجدٍ، فبعيني ما يتحملوني من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبي، أو ما أعطيهم أن أقذف في قلوبهم من نوري، فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثاني إن لو كانت السماوات السبع والأرضون في ميزان أحدهم لاستقللتها له، والثالث أن أقبل بوجهي الكريم عليهم، أفترى من أقبلت بوجهي الكريم عليه، هل يعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟.

فعليك يا أخي باتِّباعهم؛ لعلك أن تكون من أتباعهم، وسلم لهم ما ترى وما تسمع تنل من السعادة منـزلاً أرفع، فالله نسأل أن تكتحل أبصارنا بنور هدايته، ويشدد قواعد عقائدنا بحسن رعايته"[١].

وقال ﷺ: فلما قضى موسى الأجل خرج بأهله وقد استبان وضع الحمل والليل كسواد حدق حور الجنة، والريح تنثر عبرات عيون السحب، وسيوف البرق تسل من غمد الغمائم،

---

(١) انظر: بهجة الأسرار للشطنوفي (٤٦) بتحقيقنا.

وأسود الرعود تزمجر في غابات الديم، فتطلب مطرًا تأوي إليه من القطر؛ ليقدح لروحه من زند الظلام شررًا، ويطلب من أكناف الوادي المقدس نار هدى، والغرام غريم سره، والوجد نديم روحه، والشوق سمير رقاده، والتوق جليس فؤاده، والهوى حشو صدره، فلاح له النور في معرض النار، نصب لاصطياد طائر روحه شباك، إني أنا الله رأى سطرًا من سطور لوح القدرة، تجلَّت على روحه سمعته الطيور، وقعت رجل عقله في شَرك أني آنس أفرغ في كأس سمعه إلى صرف شراب: لا إله إلا أنا، أسكره بإدامة شرب مُدامي وكلمه، دبَّت فيه نشوات الشوق، وطمحت به طوامح أمواج بحار الوله، غلب على قلبه هيمان العشق، حرقت لذة التكليم ما قد سمعه، حتى وصلت إلى بصره، فطلب البصر بعينه من النظر، ووافقه توق القلب، وقال: رب أرني أنظر إليك، قيل: يا موسى، انظر أولاً إلى مرآة الجبل، وحك الذهب بسابك على محك، فإن استقر اعتبر سكونك عن حركة الصخور لهيبة تجلي، فمادت به أجزاء الطور عند إشراق لمعان ذلك النور، وتعطَّرت أشجار الوادي المقدس بنسيم القرب، وأرجت رياض البقعة المباركة ببهجة وقت الوصل، وصارت هضبات الطور حدائق لأجل التجلِّي، وامتلأت جنباته بالملائكة استعظامًا لقوله: ﴿أَرِنِي﴾ [البقرة:٢٦٠]، وقامت أرواح الأنبياء ترصَّد ما يكون.

سمع كلامًا ككلام البشر خاطبه من ليس من جنس المحدثات، نُودي من جميع آفاق الوجود، صارت جملته سمعًا وبصرًا، فتلفَّت بعين سره إلى الطور، وقع شعاع نور عين عقله على أجزاء الجبل، انعكست أشعة المتقادحات، برق بصر الحس، ذهلت عين الفكر، خرس لسان الطبع، انقطعت أسباب الحواس.

قرأ لسان حال موسى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه:١٠٨].

قال: المخبر عن صدق طلبه: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣].

قال: يا موسى صعقت طبيعتك ضعيفة عن تناول شراب التجلِّي، شق عينيك ضيق عن مقابلة أنوار سبحات، ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، عين الحدث لا تنفتح في شعاع شمس القدم، ورد النظر لا يطلع شجر كانون هذا الكون:

«إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا[(١)]».

خلعة النظر في الدنيا مدخرة في خزائن الغيب لصاحب: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم:٩]، هذا الشرف لا يناله من الخلق سوى سيد ولد آدم، ويتيمة عقد البشر، ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

قلت: فهذا ما أحضرته من نقش جواهر نظام المودعات في خزائن لطائف معارف كلامه بلونٍ غريبٍ.

---

(١) رواه النسائي (٤/ ٤١٩)، وأحمد (٥/ ٣٢٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٦٠).

ذكر نسب الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ

هو الشيخ محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست، ابن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض نسبًا بالمحلى، بضم الميم وتشديد اللام من الإحلال، ابن الحسن المثنى بن الحسن ابن علي بن أبي طالب ﷺ، سبط ابن عبد الله الصومعي الزاهد، وبه يُعرف حين كان بجيلان.

وأما مولده ﷺ(١):

فسُئل قَدَّس الله روحه عنه قال: لا أعلمه حقيقة، لكن قدمت بغداد السنة التي مات فيها التميمي وعمري إذ ذاك ثماني عشرة سنة.

قال بعض أهل العلم: والتميمي هو أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب، تُوفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، فيكون مولده على هذا سنة سبعين وأربعمائة.

وقال أبو الفضل أحمد بن صالح بن شافع الجيلي: إن مولد الشيخ محيي الدين عبد القادر سنة إحدى وسبعين وأربعمائة وله ثمانية عشر سنة.

وقال بعضهم: منسوب إلى جيلان، بكسر الجيم وسكون الياء المثناة من تحت، وهي وراء طبرستان، ويُقال لها أيضًا: جيلان، وكيلان، وكيل.

وقيل: جيلاني منسوب إلى جده جيلان، والله أعلم.

وأمه: أم الخير ابنة أبي عبد الله الصومعي، وكان لها حظٌّ وافرٌ من الخير والصلاح، والصومعي من جلة مشايخ جيلان ورؤسائهم، وزهادهم له الأحوال السنية والكرامات الجلية، والشيخ أبو محمد أحمد عبد الله كان صالحًا في العلم والخير، ومات شابًا، وعمته المرأة

---

(١) قال برهان الدين القادري: قال الحافظ محب الدين محمد بن النجار في تاريخه:
ذكر أبو الفضل أحمد بن صالح بن شافع الجيلي أن مولد الشيخ عبد القادر الجيلي في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة.
وكذا قال الحافظ أبو عبد الله محمد الذهبي: وُلد بجيلان سنة إحدى وسبعين وأربعمائة.
وقال أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي في تاريخه: وُلد سنة سبعين وأربعمائة.
وكذا قال سبطه أبو المظفر في تاريخه مرآة الزمان، وابن كثير، وابن الأثير في تاريخهما، رضي الله عنهم أجمعين انتهى. وانظر: الروض الزاهر (١٢)، والسيف الرباني (٤٠٦) بتحقيقنا.

الصالحة أم محمد عائشة بنت عبد الله، ذات الكرامات الظاهرة.

رُوي أن بلاد جيلان أجدبت مرة، واستسقى أهلها فلم يسقوا، فأتى الشيخ إلى دار الشيخة عائشة المذكورة وسألوها الاستسقاء لهم، فقامت إلى رحبة بيتها وكنست الأرض وقالت: يا رب، أنا كنست فرش أنت، فلم يلبثوا أن أمطرت السماء كأفواه القرب، فرجعوا إلى بيوتهم يخوضون في الماء، عمرت وماتت بجيلان رضي الله عنها.

والجون -بضم الجيم-: لقبٌ وهو من أسماء الأضداد، يُطلق على الأبيض والأسود، وهو الأكثر في استعماله، وهو المراد هنا، والمحض هو المخلص من كل شيءٍ لُقب به عبد الله؛ لأن أباه الحسن بن الحسن بن علي، وأمه فاطمة بنت الحسين بن علي، رضى الله عنهم أجمعين، وهى نسبة خالصة من الموالي، قلت: وهكذا قيل، وكان ينبغي أن يُقال: خالصة في الشرف.

فاطمة المذكورة هي التي خلّف عليها الحسن عبد الله المطرف بن عمر بن عثمان بن عفان ﷺ، وولد له محمد الديباج، لُقّب به لحسنه، ولُقّب أبوه بالمطرف لجماله، ولما نشأ عبد الله بن عمر قال الناس: هذا شيخٌ حسنٌ، مطرف بعد عبد الله بن الزبير، وكان عبد الله بن الزبير فائق الجمال، وأم مطرف يرجع نسبها إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ.

والمطرف - بضم الميم وفتح الراء-: اسم مفعول من أطرفه بكذا، والمثنى المتقدم ذكره هو نعتٌ للحسن؛ لأن الحسن بن الحسين، وهو بضم الميم وفتح النون وتشديدها، اسم مفعول من ثنيت الشيء إذا قربت له ثانيًا.

قلت: هكذا قيل في تفسيره، ولو قيل: لأنه ثنّى اسم الحسن، فذكر مرتين في تسمية أبيه كان أوضح.

صفة الشيخ عبد القادر قطب الأقطاب
قدس الله سره العزيز

وأما صفة الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ فقال الشيخ الإمام العلاَّمة أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة:

كان شيخ الإسلام محيي الدين عبد القادر الجيلي ﷺ نحيف البدن، ربع القامة، عريض الصدر، عريض اللحية، أسمر، مقرون الحاجبين، ذا صوتٍ جهوريٍّ، وسمتٍ بهيٍّ، وقدرٍ عليٍّ، وعلمٍ وفيٍّ، ﷺ.

ومن دعائه قدَّس الله روحه:

اللهم أصلح الإمام والأمة، والراعي والرعية، وألف قلوبهم في الخيرات، وادفع بعضهم عن بعضٍ، اللهم أنت العالم بسرائرنا فأصلحنا، وأنت العالم بذنوبنا فاغفرها، لا ترانا حيث نهيتنا، ولا تفقدنا من حيث أمرتنا، أعزنا بالطاعة ولا تذلنا بالمعصية، اشغلنا بك عمن سواك، واقطع عنا كل قاطعٍ يقطعنا عنك، ألهمنا ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

لا إله إلا الله، ما شاء الله كان، لا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا تأخذنا على غفلةٍ، ولا تأخذنا على غرةٍ.

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦].

هكذا روى عنه في مناقبه: أبو الخير عبد الله بن أبي غالب الأرضي قال: أخبرنا الشيخ الجليل أبو الفرج عبد الجبار ابن شيخ الإسلام محيي الدين عبد القادر ﷺ قال: سمعت والدي غير مرة يقول.. وذكر الدعاء وغيره.

قلت: فاسمع أيها الواقف على هذا الكتاب من كل بادٍ وحاضرٍ دعاء قطب الأولياء، وأستاذ الشيوخ الأكابر الذى خضعت لقدمه رقاب الأولياء محيي الدين عبد القادر، وقوله فيه: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلى آخر الآية.

واستمع إلى قول العراقي: إن كنت وقفت عليه وما ذهب من ادعاء وأشباهه، أنت بعد ذلك مخيّرٌ بين أن تأخذ بقول تاج العارفين ركن الشريعة، وبحر الحقيقة محيي الدين عبد القادر

الذى شهد له جميع الأولياء بالتقدم، والمقام الأرفع، وكل منهم لشرف مرتبته العلياء خضع، وأنطقته العناية بالمعارف والأسرار والحكم بعدما تفل في فمه سبع مرات جده رسول الله ﷺ، وبين أن تأخذ بقول فقيه من علماء الظاهر الحاقدين مع كونه مخالفًا في ذلك لأقوال الأئمة من العلماء المشهورين، فلم يزالوا باستحباب الدعاء المذكور معتقدين وبه داعين.

وقد نصَّ من الأئمة جملةً غير واحدٍ على أن فضل الدعاء ما ورد في الكتاب العزيز كلام الرب الماجد، وكذلك أفرد الشيخ المذكور قول الدَّاعي: اللهم افعل ما أنت أهله. وعلل بتحريم ذلك لكونه تعالى كما أنه أهل للإنعام والثواب بالفضل فهو أهل للانتقام والعقاب بالعدل، بعبارة غير هذه العبارة.

فواعجبًا منه كيف لم يحط إلى ما تبادر إليه اعتقاد الداعي من اتصاف البارى بنهاية الجود والكرم في حال دعائه أنه لا يطلب منه إلا ما يتعلَّق بجانب الفضل من إحسانه وعطائه، دون ما يتعلق بجانب العدل من عقابه وقضائه.

وأيضًا فإن الشيخ الكبير العارف في العرف والاصطلاح إذا وصف بأوصاف الملاح، واقتصر على بعض الأوصاف، وصف ما يتعلق بالندى والسماح.

ومن ذلك قول سيد السادات ومالك الدنيا والآخرة:

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦].

ومن دعائه أيضًا ﷺ في افتتاح المواعظ: اللهم إنا نسألك إيمانًا يصلح للعرض عليك، وإيقانًا نقف به في القيامة بين يديك، وعصمةً تنقذنا بها من ورطات الذنوب، ورحمةً تطهرنا بها من دنس العيوب، وعلمًا نفقه به أوامرك ونواهيك، وفهمًا نعلم به كيف نناجيك، واجعلنا في الدنيا والآخرة من أوليائك، واملأ قلوبنا بنور معرفتك، وكحِّل عيون عقولنا بإثمد هدايتك، واحرس أقدام أفكارنا من مزالق مواطئ الشُّبهات، وامنع طيور نفوسنا من الوقوع في شباك موبقات الشُّبهات، وأعِنَّا في إقامة الصلوات، وامحُ سطور سيئاتنا عن جرائد أعمالنا بأيدي الحسنات، كن لنا حيث ينقطع الرجاء منا، إذا أعرض أهل الوجوه بوجوههم عنا حين نحل في ظلم اللحود رهائن أفعالنا إلى اليوم المشهود، أجر عبدك الضعيف على ما ألف من

العصمة من الزلل، ووفقه والحاضرين لصالح القول والعمل، وأجر على لسانه ما ينفع السامع، وتذرف له المدامع، ويلين له القلب الخاشع، واغفر له وللحاضرين ولجميع المسلمين"[1].

ومن كلامه ﷺ، وذِكر شيء من علمه، وتسمية بعض شيوخه رضي الله عنهم مختصرًا:

لما علم أن طلب العلم فريضة، وشفاء الأنفس المريضة، إذ هو أوضح منهاج التقوى سبيلاً، وأبلغها حجةً، وأظهرها دليلاً، وأرفع معارج اليقين، وأعلى مدارج اليقين، وأعظم مناصب الدين، وأفخر مراتب المهتدين، وهو المرقاة إلى مقامات القرب، والمعرفة والوسيلة إلى التولي في الحضرة المشرفة شمر عن ساق الاجتهاد في تحصيله، وصارع في طلب فروعه وأصوله، وقصد الأشياخ الأئمة أعلام الهدى علماء الأمة، فاشتغل بالقرآن حتى أتقنه، وعم بدراسته سره وعلنه"[2].

---

(١) انظر: بهجة الأسرار (١٧٩).

(٢) **فائدة نافعة في ذكر رحلته في طلب العلم وشدة مجاهدته ﷺ:**

قال الحافظ محب الدين ابن النجار في تاريخه: كتب إِلَيَّ عبد الله بن أبي الحسن الجبائي ونقلته من خطه، قال: حكى لنا الشيخ عبد القادر قال: قالت لي أمي: امشِ إلى بغداد واطلب العلم، قال: فخرجت من بلدٍ إلى بلدٍ، وأنا ابن ست عشرة، أو قال: ثماني عشرة سنة، واشتغلت بالعلم، وكانت أمي تشتاق إِلَيَّ، فتكتب إِلَيَّ الكتب فتذكر شوقها إِلَيَّ، وتقطع شعرها فتجعله في الكتاب وتنفذه، فأكتب إليها: إن شئت تركت العلم وجئت إليك، فتنفذ إِلَيَّ: لا تجئ واشتغل بالعلم، فكنت أشتغل في الفقه على المشايخ، وأخرج إلى الصحراء فلا آوى في بغداد، وأجلس في الخراب بالليل والنهار، وكنت ألبس جبة صوف، وعلى رأسي خريقة، وأمشي وأنا حافٍ في الشوك، وما هالني شيءٌ إلا سلكته.

قال: وقال لي: طالبتني نفسي يومًا بشهوة من شهوات الشوق، فكنت أضاجرها وأدخل في دربٍ وأخرج إلى دربٍ أطلب الصحراء، فبينما أنا ذات يومٍ أمشي إذ رأيت رقعه ملقاة في الطريق فأخذتها فقرأتها، فإذا فيها مكتوبٌ: ما للأقوياء والشهوات، إنما خُلقت الشهوات للضعفاء من عبادي ليتقووا بها على طاعتي، فلما قرأتها خرجت تلك الشهوة من قلبي.

قال: وقال لي: كنت أقتات بخرنوب الشوك، وقمامة البقل، وورق الخس من جانب النهر والشط.

وقال ابن النجار: قرأت في كتاب أبي بكر التيمي، قال: سمعت الشيخ عبد القادر الجيلي يقول: بلغت بي الضائقة في غلاء نزل ببغداد، إلى أن بقيت أيامًا لا آكل فيها طعامًا، بل كنت أتتبع المنبوذات، فخرجت يومًا من شدة الجوع إلى الشط لعلي أجد ورق الخس والبقل وغير ذلك أتقوته، فما ذهبت إلى موضعٍ إلا وجدتُ غيري سبقني إليه، وإن أدركت شيئًا وجدت عنده جماعة من الفقراء، فلا أرى

=

مزاحمتهم عليه، فرجعت أمشي وسط البلد، فلا أدرك موضعًا قد كان فيه شيء منبوذ إلا وقد سُبقت إليه، حتى وصلت إلى مسجد يانس بسوق الريحانيين، وقد أجهدني الضعف وعجزت عن التماسك، فدخلت إليه وقعدت في جانبٍ منه وقد كدت أصافح الموت، فدخل شابٌّ أعجميٌّ ومعه خبزٌ رضافي وشواء فجلس يأكل، فكنت إذا رفع اللقمة أكاد أن أفتح فمي من شدة الجوع، حتى أنكرت ذلك على نفسي، وقلت: ما هذا؟ ما هاهنا إلا الله، أو ما قضاه من الموت، إذ التفت العجمي فرآني فقال: باسم الله يا أخي، قال: فأبيت، فأقسم عليَّ فبادرت نفسي إلى جانبه، فأبيت مخالفًا لهواها، فأقسم عليَّ، فبدرت نفسي إلى إجابته، فأكلتُ مُقصرًا، فأخذ يَسْألني: ما شغلك؟ ومن أين أنت؟ وبمن تعرف؟ فقلت له: أما شغلي فمتفقه، وأما من أين أنا فمن جيلان، فقال لي: وأنا أيضًا من جيلان، فهل تعرف لي شابًّا جيلانيًّا يُسمَّى عبد القادر، يُعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد، فقلتُ له: هو أنا، فاضطرب لذلك وتغيَّر وجهه وقال: والله يا أخي، لقد وصلتُ إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي، فسألت عنك فلم يرشدني أحدٌ إليك، فنفدت نفقتي، وبقيت ثلاثة أيام بعدها لا أجد شيئًا أشتري منه قوتي إلا من الذي لك معي، فلما كان هذا اليوم وهو الرابع قلتُ: لي ثلاث أيام بلياليها لم آكل فيها طعامًا، وقد أحلَّ لي الشرع أكل الميتة فأخذت من وديعتك ثمن هذا الخبز والشوي، فكُلْ طيبًا، فإنما هو لك وأنا الآن ضيفك، بعد أن كان في الظاهر لي وأنت ضيفي، فقلتُ له: وما ذاك؟ فقال: اعلم يا أخي أن أمك وجهت لك معي ثمانية دنانير، ووالله ما خنتك فيها إلى اليوم، لكن نفقتي نفدت، وبحيث بقيت ثلاثة أيام لم أصب طعامًا فاشتريتُ هذا الطعام من نفقتك، وأنا معتذرٌ إليك من جنايتي عليك، مع فسحة الشرع في بعض ذلك، قال: فسكنته وطيبت نفسه، وفضل من طعامنا ما دفعته إليه مع شيءٍ من الذهب، وقلت له: هذا يكون برسم نفقتك، فقبله مني وانصرف.

وقال: كتب إليَّ عبد الله الجبائي ونقلته من خطه قال: قال لي الشيخ عبد القادر الجيلي:

كنتُ يومًا جالسًا على مكانٍ بالصحراء أكرر الفقه، وأنا في مشقةٍ من الفقر، فقال لي قائلٌ لم أرَ شخصه: اقترض ما تستعين به على الفقه، أو قال: على طلب العلم، فقلتُ: كيف أقترض وأنا فقيرٌ وليس لي شيء أقضيه؟ فقال: اقترض وعلينا الوفاء، فجئت إلى رجلٍ يبيع البقل فقلت له: تعاملني بشرط إذا سهل الله لي شيئًا أعطيك، وإن مت تجعلني في حلٍّ، تعطيني كل يوم رغيفًا وبنصف رغيف رشاد، قال: فبكى وقال: يا سيدي، أنا بحكمك، أي شيءٍ أردت فخذ مني، فكنتُ آخذ منه كل يومٍ رغيفًا وبنصف رغيف رشادًا، فأقمت على ذلك مدة فضاق صدري يومًا، كيف لا أقدر على شيءٍ أعطيه؟ فأظن أنه قال: فقيل لي: امضِ إلى الموضع الفلاني فأيش رأيت على الدكة فخذه وادفعه إلى البقال، أو قال: فاقضِ به دينك، فلما جئت إلى ذلك الموضع رأيت على دكة قطعة ذهب كبيرة، فأخذتها وأعطيتها للبقلي.

قال: وقال لي الشيخ: كان جماعة من أهل بغداد يشتغلون بالفقه، فإذا كان أيام الغلة يخرجون إلى الرستاق يطلبون شيئًا من الغلة، فقالوا لي يومًا: اخرج معنا إلى بعقوبا نحصل منها شيئًا، وكنت صبيًّا، فخرجت معهم، وكان في بعقوبا رجل صالح يُقال له: الشريف البعقوبي، فمضيت إليه لأزوره، فقال لي: مريدو

=

=

الحق أو الصالحون لا يسألون الناس شيئًا، ونهاني أن أسأل الناس، فلما رجعت خرجت إلى موضع، قال: وكنت اشتغل بالعلم وأزور الصالحين، وآخذ نفسي بالمجاهدة، حتى طرقني من الله الحال، فكان يطرقني بالليل والنهار وأنا في الصحراء، فأصرخ وأهيج على وجهي، فلما كان ذات ليلةٍ طرقني الحال وصرخت صرخة عظيمة، فسمع العيارون صرختي ففزعوا من المالحة، فجاءوا حتى وقفوا عليَّ وأنا مطروحٌ على الأرض، فعرفوني فقالوا: هذا عبد القادر المجنون، أزعجتنا، لا ذكرك الله بخيرٍ، وكانوا يدورون حول بغداد بالليل لعلهم يرون أحدًا يأخذون منه شيئًا.

قال: وقال لي: لحقني الجنون وحُملت إلى المارستان، وطرقتني الأحوال حتى مت، وجيء بالكفن والغاسل وجعلوني على المغتسل ثم سرِّي عني وقمت.

قال: وقال لي: ترد عليَّ الأثقال الكثيرة لو وُضعت على الجبال تفسخت، فإذا كثرت عليَّ الأثقال وضعت جنبي على الأرض وقلت: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥]، ثم أرفع رأسي وقد انفرجت عني تلك الأثقال.

قال: وقال لي: وقع في نفسي أن أخرج من بغداد؛ لكثرة الفتن التي بها، فأخذت مُصحَفي وعلقته على كتفي ومشيت إلى باب الحلبة؛ لأخرج منه إلى الصحراء، فقال لي قائلٌ: إلى أين تمشي؟ ودفعني دفعة خررت منها- أظنه قال: على ظهري- وقال: ارجع؛ فإن للناس فيك منفعة، قال: فقلتُ: أيش عليَّ من الخلق؟ أنا أريد سلامة ديني، قال: ارجع ولك سلامة دينك، ولم أرَ شخص القائل، ثم بعد ذلك طرقتني أحوال أشكلت عليَّ، فكنت أتمنى على الله أن يسهل لي من يكشفها، فلما كان من الغد اجتزت بالظفرية ففتح رجلٌ باب داره وقال لي: يا عبد القادر تعالَ، فجئت فوقفت عليه، فقال لي: أيش طلبت البارحة؟ أو قال: أيش سألت الله البارحة؟ ونسيت الذي سألت الله بالليل، قال: فسكتُّ ولا أدري ما أقول له، فاغتاظ مني، ودفع الباب في وجهي دفعة عظيمة، حتى طار الغبار من جوانب الباب إلى وجهي، فلما مشيت قليلاً ذكرت الذي سألت الله تعالى، ووقع في نفسي أنه من الصالحين- أو قال: من الأولياء- فرجعت أطلب الباب فلم أعرفه، فضاق صدري، وكان ذلك الرجل الشيخ حماد الدباس، ثم عرفت بعد ذلك، وصحبته وكشف لي جميع ما كان يشكل عليَّ، وكنت إذا غبتُ عنه لطلب العلم ورجعت إليه يقول لي: أيش جابك إلينا؟ أنت فقه، مُر إلى الفقهاء، وأنا أسكت، فلما كان يوم الجمعة خرج من بغداد ومعه جماعة من أصحابه؛ ليصلي الجمعة في جامع الرصافة، وأنا معه، وكان في شدة البرد في الكوانين، فلما وصلنا إلى قنطرة النهر دفعني حتى رماني في الماء، فقلت: باسم الله، غسل الجمعة، وكان عليَّ جبة صوف وفي كمي أجزاء، فرفعت كمي حتى لا تهتلك، وخلوني ومشوا، فخرجت من الماء وعصرت الجبة وتبعتهم، وتأذيت من البرد أذية كبيرة.

قال: وكان الشيخ حماد يؤذيني أذية كثيرة ويضربني، وإذا غبت عنه لطلب الفقه ورجعت إليه يقول: قد جاءنا اليوم الخير الكثير والفالوذج، وأكلنا وما خبأنا لك شيئًا، فطمع فيَّ أصحابه؛ لكثرة ما يرونه يؤذيني، وجعلوا يقولون: أنت فقه، أيش تعمل معنا؟ أو أيش جابك إلينا؟ فلما رآهم الشيخ يؤذونني

وتفقّه بأبي الوفا علي بن عقيل، وأبي الخطاب محفوظ بن أحمد(١)، وأبي الحسن محمد ابن القاضي أبي يعلى، وأبي سعيد المبارك بن علي المخرمي(٢)، رضي الله عنهم مذهبًا وخلافًا وفروعًا وأصولاً.

وسمع الحديث من جماعةٍ منهم:

-أبو غالب محمد بن الباقلاني.

- وأبو سعيد محمد بن عبد الكريم.

- وأبو الغنائم محمد بن علي بن ميمون.

- وأبو بكر أحمد بن مظفر.

- وأبو محمد جعفر بن القاري.

- وأبو القاسم علي بن أحمد الكركي.

- وأبو عثمان إسماعيل بن محمد الأصبهاني.

- وأبو طالب عبد القادر بن محمد.

- وابن عمه أبو طاهر عبد الرحمن بن أحمد.

=

غار لي، وقال لهم: يا كلاب، لِمَ تؤذونه؟ والله ما فيكم مثله أحد، أنا إنما أؤذيه لأمتحنه فأره جبلاً لا يتحرك، قال: وبعد مدة قدم إلى بغداد رجلٌ من همدان يُقال له: يوسف الهمداني، وكان يُقال: إنه القطب، ونزل في رباط، فلما سمعت به مشيت إلى الرباط فلم أرَه، فسألت عنه فقيل لي: هو في السرداب، فنـزلت إليه، فلما رآني قام وأجلسني، ففرّسني وذكر لي جميع أحوالي، وحل لي جميع ما كان يشكل عليَّ، ثم قال لي: يا عبد القادر، تكلم على الناس، فقلت له: يا سيدي، أنا رجلٌ قح أخرس، أيش أتكلم على فصحاء بغداد؟! فقال لي: أنت حفظت الفقه وأصول الفقه والخلاف والنحو واللغة وتفسير القرآن، ولا يصلح لك إلا أن تتكلم على الناس، اصعد على الكرسي وتكلم على الناس، فإني أرى فيك عرقًا سيصير نخلة، فأيّده العيارون- جمع عيار، وهو لغةً: الكثير المجيء والذهاب، وهنا والله أعلم هم: المتلصصة، والمسالحة- هو بفتح الميم والسين والحاء المهملتين: الحرس؛ لأنهم يكونون دون سلاحٍ- والله أعلم، وانظر: الروض الزاهر للبرهان القادري (٧٠) بتحقيقنا.

(١) هو الكلوذاني، نسبة إلى كلواذان، بفتح الكاف وسكون اللام وفتح الواو، وبين الألفين ذال معجمة، قرية من قرى بغداد.

(٢) هو بضم الميم وفتح الخاء المعجمة، وكسر الراء المهملة وتشديدها، ثم ميم وبعدها ياء النسب، نسبة إلى محلة المخرم ببغداد، نزلها بعض ولد يزيد بن المخرم فسُمِّيت به.

- وأبو البركات هبة الله، وأبو العز محمد بن المختار.
- وأبو النضر، وأبو غالب، وأبو عبد الله يحيى أبناء الإمام أبي علي البنا.
- وأبو الحسن المبارك بن عبد الجبار.
- وأبو منصور عبد الرحمن بن أبي غالب.
- وأبو البركات طلحة بن أحمد العاقولي.

وغيرهم رحمهم الله أجمعين.

وقرأ الأدب على أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي، رحمه الله تعالى.

وصحب الشيخ العارف قدوة المحققين، وإمام المحققين، السالك، وحجة العارفين أبا الخير حماد بن مسلم الدباس، وأخذ عنه الطريقة، وتأدَّب به[1].

وأخذ الخرقة الشريفة من يد الإمام رفيع المقام القاضي ابن أبي سعيد المبارك المخرمي، ولقي جماعة من أعيان شيوخ الزمان، وأكابر مشايخ أولي العرفان، أكرم بهم مجدًا وسؤددًا وشرفًا وفخرًا مؤيدًا، فهم حماة الملة وذوادها، وأنصار الشريعة وأعضاؤها، وأعلام الإسلام وأركانه، وسيوف الحق وسنانه، فقام ﷺ في أخذ العلوم الشرعية عنهم دائبًا، وفي تلقي الفنون الدينية منهم، والعلم والهيبة، والجلالة الوافرة، والمناقب الفاخرة، وأظهر الله الحِكم في قلبه وعلى لسانه، وظهرت علامات قربه من الله، ودلالة ولايته مع قدم راسخ في المجاهدة والعبادة، وتجرد خالص من دواعي الهوى، وشوائب الركون إلى العادة، ومقاطعة دائمة لجميع الخلائق، وصبر جميل في طلب مولاه لقطع العلائق، وتجرع الغصص، ومُرِّ الشدائد والبلوى، ورفض جميع الأشغال اشتغالاً بالمولى، ثم لما أراد الله تعالى به نفع الخلائق بعد ما تضلع من العلوم الظاهرة وأسرار الحقائق، أضيف إلى مدرسة أستاذه أبي سعيد المخرمي ما

---

(١) قلت: ومنهم: أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده الأصبهاني الحافظ، وأبي سعد محمد بن عبد الكريم بن خُشيش، وأبي العز بن محمد بن مختار الهاشمي، وأبي البركات محمد بن محمد بن أحمد بن يوسف الخرزي، والأستاذ أبي الحسن محب بن عبد الله الحبشي المعروف بالدوامي، وأبي عثمان إسماعيل بن محمد بن أحمد بن ملة الأصبهاني، وأبي البركات هبة الله ابن المبارك السقطي، وأبي الحسين عبد الحق بن عبد الخالق بن يوسف.

حولها من المنازل والأمكنة ما يزيد على مثلها، وبذل الأغنياء في عمارتها أموالهم، وعمل الفقراء فيها بأنفسهم، فتكملت المدرسة المنسوبة إليه الآن، وكان الفراغ منها في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة.

وتصدَّر للتدريس فيها والفتوى والمواعظ، وقُصدت بالزيارات والنذور، واجتمع بها عنده من العلماء والصلحاء جماعة كثيرة، انتفعوا بكلامه وصحبته ومجالسته وخدمته، وقصد إليه طلبة العلم من الآفاق، فحملوا عنه، وسمعوا منه، وانتهت إليه تربية المريدين بالعراق، وأتى مقاليد الحقائق، وسلمت إليه أزمة المعارف، وصرف في الوجود المغارب منه والمشارق، وأصبح قطب الوقت مرجوعًا إليه حكمًا وعلمًا، وقام بالنظر والفتيا بعضًا وكلاً، وبرهن على العلوم فرعًا وأصلاً، وبيَّن الحكم نقلاً وعقلاً، وانتصر للحق قولاً وفعلاً، وصنَّف كتبًا مفيدة، وأملى فوائد فريدة، فتحدَّث بذكره الرفاق، وصارت بفضله الركاب، وانتشرت أخباره في الآفاق، وأعملت المطى إليه، ومدت الأعناق، وتنـزهت في حدائق محاسنه الأعين، ونطقت ببدائع صفاته الألسن، ولُقِّب بإمام الفريقين، وموضع الطريقين، وكريم الجدين، ومعلم الطرفين، مشتملاً برد المفاخر والفضائل صادقًا فيه قول القائل:

انهلَّ السَّحَابُ وأعشبَ العراقُ ... وَزَالَ الفِيء واتَّضَح الرشد

أضحى الزمان مشرفة به مناكبه، والدين مشرفة به مناصبه، والعلم عالية به ألويته، والشرع منصورة به كتائبه، وانتمى إليه جمعٌ عظيمٌ من العلماء، وتتلمذ له خلقٌ كثيرٌ من الفقراء، حذفت ذكرهم اختصارًا لكثرة عددهم[1].

وقد ذكرت فيما مضى أن جمهورهم شيوخ اليمن يرجعون إليه في لبس الخرقة، بعضهم لبسها من يده راحلين إليه لما قدمت أعلام فضائله عليهم، وفي لبس الخرقة وانتساب شيوخ اليمن، قلت في بعض القصيدة العشرة الأولين من هذه الأبيات:

وَفِي مَنهجِ الأَشْيَاخِ لِلناسِ خرقةٌ ... لهم سيدُ أصلٍ رَوَى ذَاكَ عَنْ أَصْلِ

(١) وانظر: بهجة الأسرار (٢٠٤).

وَلـــبسَ الثَّمَانـــين تَرجـــعُ غَالِبًـــا إِلَى سـيِّد سِـنام فَحَـازَتْ عَـلَى الكُـلِّ

إِمَـامُ الـوَرَى قطـبُ المَـلاَ قَائِـلٌ عَـلَى رِقَـابِ جميـعِ الأوليَـاءِ قَـدَمِي عَـلا

فَطَأْطَـأ لَـهُ كُـل مـشْرِقٍ وَمَغْـرِب رِقَابًـا سِـوَى فَـرْدٌ فَعُوقِـبَ بِـالعَزْلِ

مَلِيـكٌ لَـهُ التَّصْرِيف فِي الكَـونِ نَافِـذٌ لشَرقٍ وغَرْبِ الأَرْضِ والوعرِ والـسَّهلِ

سِرَاجُ الهُـدَى شَـمْسٌ عَـلَى فلـكِ العُـلا بجـيلان مبـداها طلوعًـا بِـلاَ أفـلِ

طـرازُ جَمَـال مَـذهب فـوق حلـة عَـلَى الكـونِ فِيْهَـا الـدَّهْر بجـمَالِ

يتيمـــةُ درَّات عقـــدِ وَلاَبتـــي نهـج عَـلَى جيـدِ الوجـودِ بِـهِ محـلِ

فقَـا هَـا هُنَـا فِي نَهْـرِ عيـونهم مَلأهَـا وَمِـنْ بَحْـرِ النبـوةِ مُـشْتَمل

بجـدكَ يَـا بحـر النَّـدَى عَبْـد قَـادِر آتـي يَـافِعي ذو افْتقَـارٍ وَذُو محـلٍ

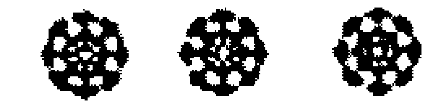
وَسُبْحَـانَـكَ اللـــهُمَّ رَبًّـا مقدسًـا وأوسـع قطـرًا لِلْـوَرى فـضله مَـوْلَى

* * *

خاتمة النسخة والكتاب

تمَّ الكتاب بحمد الله ومنّه، وحسن توفيقه وعونه، فله الحمد على ذلك حمدًا يملأ السماوات السبع والأراضين، وذلك يوم الأربعاء المبارك ليلة رابع وعشرين من شهر ذي الحجة سنة ثمانين وألف، ختم الله بالصالحات [بحرم] مكة المشرَّفة حرسها الله.

بخطِّ مالكه عبد الله الفقير إليه[1]



(١) قلت: وقد نجز تحقيق هذا الكتاب أبو الحسن: أحمد فريد المزيدي القادري المصطفوي في الثالث عشر من ربيع الأول سنة ١٤٢٧ هـ بدار: الحقيقة المحمدية لتحقيق تراث السادة الصوفية، بالقاهرة، جوال: (٠١٠١٤٦٣٠٢٧).

التعريف بالمحقق

هو الشيخ أحمد ابن الشيخ فريد ابن الشيخ أحمد ابن الشيخ مزيد السوهاجي الحسني، الشافعي القادري الأكبري الأحمدي الأزهري، أبو الحسن والحسين، المزيدي.

من مواليد حي- الشعراني- بالقاهرة.

نشأ في أسرة سلفية، كان والده من كبار مشايخ السلفية، وله رسائل حسنة.

من علماء الأزهر الشريف، وفقهائه ومحدثيه.

بدأ الشيخ المحقق حياته في المدارس السلفية وأخذ عن أكبر مشايخها في مصر ولازمهم، وصنَّف وحقق كتبًا كثيرة في منهجهم الوهابي، حتى هداه الله للعلم الشريف، والسبيل الحق السوي الصحيح، فأقبل على التصوف ودأب على خدمته، والسعي على نشر علم السادة الصالحين والعلماء العارفين، أدام الله خيره ... آمين.

أخذ العلم عن أكثر من خمسين عالم من بلاد مختلفة، أولاهم عنده شيخ القوم والطريق المربي سيدي: مصطفى بن عبد السلام-قدس الله سره-.

حصل على إجازات متعددة في الحديث وعلوم الشريعة، وعمل عميدًا لمكتبة المصطفى (العامة)-بشبرا مصر- وخبيرًا وباحثًا للمخطوطات بمعهد المخطوطات-بالجامعة العربية-القاهرة.

كان أحد الثلاثة الذين رشحوا لنيل جائزة مؤسسة التقدم العلمي بالكويت-سنة ٢٠٠٥ هـ، وذلك باعتباره من أهم الشخصيات البارزة في مجال التراث العربي.

أنشأ دار الحقيقة المحمدية للبحث العلمي وتحقيق تراث السادة الصوفية.

بعض أعمال الشيخ المحقق والمؤلف

في التصوف

- لوامع الأنوار وروض الأزهار، لعبد الحافظ المالكي.
- المعاني الدقيقة الوفية فيما يلزم نقباء السادة الصوفية للأبشيهي.
- المواهب المحمدية بشرح الشمائل الترمذية.
- المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي للسخاوي.
- المنهاج السوي في ترجمة النووي-مع تحرير التنبيه ورسائل للنووي.
- جلاء القلوب من الأصداء الغيبية ببيان إحاطته بالعلوم الكونية للشيخ الكتاني.
- الحزب الأعظم والورد الأفخم للقاري.
- سر الأسرار للشيخ عبد القادر الجيلاني.
- فتوح الغيب للشيخ الجيلاني.
- قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر للتاذفي.
- السيف الرباني في عنق المعترض على القطب الجيلاني لابن عزوز.
- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي.
- خلاصة المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر لليافعي.
- كتاب الزهد لهناد السري.
- كتاب الزهد لأبي حاتم الرازي.
- كتاب الزهد لوكيع.

- كتاب الزهد لأبي داود.
- الفوائد في الزهد لأبي جعفر الخلدي.
- الزهد لأسد بن موسى.
- شرح تائية ابن الفارض للقيصري.
- شرح التائية للقاشاني.
- أشرف الوسائل إلى فهم كلام الشمائل لابن حجر الهيتمي.
- تحفة الزوار لقبر النبي المختار لابن حجر الهيتمي.
- الشمائل المحمدية للترمذي.
- الأحاديث النبوية في الترغيب والترهيب لليافعي.
- الشفا في حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض.
- الدرر واللمع في بيان الصدق في الزهد والورع للشعراني.
- إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين للشعراني.
- مختصر فرائد القلائد للشعراني.
- الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق للشعراني.
- العرائس القدسية في معرفة الدسائس النفسية لمصطفى البكري.
- السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد لمصطفى البكري.
- الروضات العرشية شرح الصلاة المشيشية لمصطفى البكري.
- كروم عريش التهاني شرح صلاة ابن مشيش الداني لمصطفى البكري.

- الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر للديري.
- كتاب الأربعين في إرشاد السائلين
- روضة الحبور ومعدن السرور لابن الأطعاني.
- الأرواح للعلواني.
- الحقيقة الباهرة في أسرار الشريعة الطاهرة، لأبي الهدى الصيادي.
- الحكم المهدوية للرواس.
- النفحات الشاذلية شرح البردة البوصيرية لحسن العدوي.
- النطق المفهوم من أهل الصمت المعلوم لطغرو.
- إحياء القلوب شرح حكم سيدي محمود الكردي.
- شرح الحكم الصوفية (الكردية) للشرقاوي.
- شرح الحكم الأكبرية للبابي الكردي.
- شرح الحكم الغوثية لابن علان الصديقي.
- حكم سيدي مصطفى البكري.
- شرح الحكم الأكبرية للداموني.
- البيان والمزيد-شرح حكم أبي مدين- لباعشن.
- قلائد الزبرجد شرح حكم مولانا أحمد لأبي الهدى الصيادي.
- الشرف المؤبد لآل محمد للنبهاني.

- تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس لابن عطاء.
- تاريخ بغداد للخطيب.
- أصول الهداية لابن باديس.
- الورع للإبياري.
- بهجة المسافر في مناقب الشيخ عدي بن مسافر.
- بوارق الحقائق للرواس.
- راحة الأرواح للصيادي.
- شمس المعارف الصغرى للبوني.
- جامع الأصول في الأولياء للكمشخانوي.
- شرح مشاهد الأسرار القدسية للست عجم بنت النفيس.
- رسائل الشيخ ابن سبعين.
- الانتصار للأولياء الأخيار للموصلي.
- الكواكب الدرية في طبقات الصوفية للمناوي.
- محاسن الأخبار في الصلاة على النبي المختار ﷺ للأبشيهي.
- الإمام الجنيد سيد الطائفتين.
- الدلالة على الله للصقلي.
- الأنوار في علوم الأسرار للصقلي.
- نسمات الأسحار في كرامات الأولياء الأخيار لبن علوان الحموي.

- جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال (١٠-رسائل) المزيدي.
- شعاع النور في أحكام القبور، للمزيدي.
- كشف النور عن أصحاب القبور للنابلسي.
- ثبوت القدمين في سؤال الملكين للنابلسي.
- لسان القدر في نسيم السحر للجيلي.
- قاب قوسين وملتقى الناموسين للجيلي.
- شرح الصلاة الأكبرية لابن عبد الجليل القادري.
- أنوار النبي أسرارها وأنواعها لابن سبعين-شرح المزيدي.
- حكم الفصوص وحكم الفتوحات للشريف ابن ناصر الكيلاني.
- شرح الأنفاس الروحانية لأئمة السلف الصوفية للديلمي.
- شعائر العرفان لسيدي محمد وفا.
- نفائس العرفان لسيدي محمد وفا.
- المعاريج لسيدي محمد وفا.
- أعمال متعددة للسادة الوفائية.
- أعمال متنوعة للسادة الرفاعية.
- أعمال متنوعة للسادة الشاذلية.
- أعمال متعددة وخاصة للسادة القادرية.

وغير ذلك كثير طبع وتحت قيد الطبع.

اهم المصادر والمراجع

بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب القطب الجيلاني للشطنوفي (طبع دار الكتب العلمية -بيروت- بتحقيقنا).
قلائد الجواهر في ترجمة الشيخ عبد القادر للتاذفي (طبع دار الكتب العلمية- بيروت- بتحقيقنا).
الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر للبرهان إبراهيم بن علي الديري (تحت قيد الطبع-بيروت- بتحقيقنا).
تفريج الخاطر ترجمة الشيخ عبد القادر لمحيي الدين الإربلي (تحت قيد الطبع) بتحقيقنا.
السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني لابن عزوز المكي (طبع ببيروت بتحقيقنا).
الشيخ عبد القادر الجيلاني وأعلام القادرية لمحمد درنيقة.
الطراز المذهب شرح قصيدة مدح الباز الأشهب للآلوسي المفسر (تحت قيد التحقيق).
الأنساب للسمعاني.
المنتظم لابن الجوزي.
الكامل في التاريخ لابن الأثير.
مرآة الزمان للشيخ اليافعي.
العبر للذهبي.
دول الإسلام للذهبي.
سير أعلام النبلاء للذهبي.
فوات الوفيات لابن شاكر.
الوافي بالوفيات للصفدي.
البداية والنهاية لابن كثير.
ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب.
الطبقات الكبرى للشيخ الشعراني.
شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي.
كنوز الأولياء ورموز الأصفياء لأبي الليث الزيلي.
الأعلام للزركلي.
معجم المؤلفين لعمر كحالة.

فهرس